



منشورات
جامعة مؤتة
عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

زياد بن أبيه ودوره في الحياة العامة في صدر الإسلام

تأليف
صالح محمد الرواضية

جامعة مؤتة

١٤١٤ هـ — ١٩٩٤ م

زياد بن أبيه ودوره في الحياة العامة في صدر الإسلام

**تأليف
صالح محمد الرواضية**

الطبعة الأولى

١٩٩٤

الاهداء

إلى والديّ

إلى أختي

إلى زوجتي

مع محبتي وتقديري

الفهرس

الموضوع	الصفحة
- المقدمة	٩
- تحليل المصادر	١٢
- الفصل الأول : زياد حياته ونشأته في العصر الراشدي	٢٧
* ولادته	٢٩
* نسبه	٣١
* وفاته	٤٠
* نشأته وأهم أعماله في العصر الراشدي	٤٤
- زياد في عهد الخليفة علي بن أبي طالب	٦٢
- ولايته على فارس	٦٨
- الفصل الثاني : تحوّل زياد الى الصف الأموي وولايته للعراق	٧٣
* الصلح مع معاوية	٧٥
* إلحاق نسب زياد بأبي سفيان	٨٢
* موقف الناس من الإستلحاق	٨٨
* تعيين زياد على العراق	٩٥
- الفصل الثالث : أعمال زياد الادارية والاجتماعية	١٠٧
* اجراءاته الأولية (في البصرة والكوفة)	١٠٩
* سياسته تجاه الرعية	١١٦
* تنظيم زياد للقبائل في العراق	١٢٥
* سياسته تجاه القبائل	١٣٨
* سياسة التهجير	١٤٢
* سياسة زيادة تجاه عماله وموظفيه	١٤٦
* المقاتلة	١٥١
* الشرطة والحرس	١٥٥
* الدواوين	١٥٩

الصفحة

الموضوع

١٦٣	- الفصل الرابع : التنظيمات المالية والاقتصادية والعمرانية .
١٦٥	* التنظيمات المالية
١٦٥	- العطاء والرزق
١٧١	- موارد بيت المال
١٧٦	* التنظيمات الاقتصادية .
١٧٦	- سياسة زياد تجاه الأراضي
١٨٦	- التجارة والأسواق
١٨٩	* التنظيمات العمرانية .
١٩٠	- المساجد
١٩٥	- دور الامارة
٢٠١	- الفصل الخامس : سياسة زياد تجاه قوى المعارضة في العراق .
٢٠٣	* الحوار
٢١١	* الشيعة
٢١٢	- حركة حجر بن عدي
٢٢٥	* موقف زياد من بيعة يزيد
٢٢٨	- خلاصة البحث
٢٣٣	- المصادر والمراجع
٢٦١	- ملحق البحث :
٢٦٣	* الملحق رقم (١) خطبة زياد البتراء
٢٦٦	* الملحق رقم (٢) عمال زياد على المقاطعات التابعة للعراق

شكر وتقدير

لا يسعني وقد أعانني الله عز وجل على إخراج هذا البحث الى حيّز الوجود، إلا أن أتقدم
بجزيل الشكر وعظيم الامتنان الى أستاذي الفاضل الدكتور محمد خريسات، الذي كان
لرعايته وتوجيهاته وإرشاداته أكبر الأثر في كشف معالم الطريق أمامي، إذ تعهد هذا
البحث بالعناية والإشراف والمتابعة، فكان له الفضل في اظهار هذه الرسالة في ثوبها الحالي.
كما أتقدم بخالص شكري الى الأستاذ عبد العزيز الدوري على الملاحظات القيّمة التي
قدمها لي.

المختصرات والرموز :

١ - لقد أشير للمصادر والمراجع في الهامش على النحو الآتي :
* عندما يرد المصدر أو المرجع لأول مرة أذكر المعلومات كاملة عن المؤلف وعن الكتاب ثم يحال بعد ذلك :

مثال : الطبري، محمد جرير (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، دار سويدان، بيروت، ١٩٦٧ م، ج ٣، ص ٤٨٩، وسيشار إليه عند وروده هكذا : الطبري، تاريخ .

٢ - استعملت الرموز والمصطلحات التالية :

ص : صفحة

ج : جزء

م : مجلد

ق : قسم

ع : عدد

ط : طبعة

ت : توفي

خط : مخطوط

(د.ت) : دون تاريخ (أي أن تاريخ النشر غير مذكور) .

مقدمة

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستعديه ونسأله التوفيق والسداد في صغير الأمور وكبيرها وبعد :

مما لا شك فيه أن دراسة الشخصيات على قدر كبير من الأهمية ، فالأحداث في أي عصر غالباً ما يصنعها رجال قلائل ، يكونون أقرب من غيرهم الى الحدث ودوافعه وخفاياه ، لأنهم يعيشون معه منذ أن كان جنينا في بطن التاريخ ، وبذلك تمتزج أسرارهم وخفاياهم بسيرتهم وحياتهم .

واذا استثنينا بناء الدولة الاسلامية الأولى الى نهاية العصر الراشدي ، فاننا نجد زياد بن أبيه واحداً من الأعلام البارزة في التاريخ الاسلامي . لقد عاصر زياد عهدين مختلفين مرت بهما الأمة الاسلامية ، وهما الانتقال من عهد الراشدين الى عهد الأمويين ، وقد كان تفاعله مع أحداث كلا العهدين في أقصى درجاته ، فكانت شخصيته ترجمة للواقع بكل ملامحه وأبعاده ، فمن خلال دراستها نلمس صعوبة المرحلة التي مرت بها الأمة الاسلامية ، وهي مرحلة حافلة بالمشاكل العسيرة والأحداث الجسيمة والتطورات البعيدة المدى ، وحافلة كذلك بعطاء الرجال الذين أسهموا بالنصيب الأوفر في بناء صرح دولة الاسلام ، فقد عاصر زياد عدداً من الشخصيات الاسلامية المتميزة بفكرها وشجاعته ومكانتها الاجتماعية ، فشق طريقه بين هذه الشخصيات الضخمة ، وشف على كثير منهم في ميادين السياسة والادارة ، وهذا وحده يعطينا فكرة عن وفور عقله وملكاته .

يضاف الى ذلك أن أهمية الرجل وتأثيره المباشر في أحداث عصره المختلفة جعلها معظم مصادر التراث العربي التاريخية والأدبية والدينية بل والجغرافية ، تتناول الرجل وتحدث عنه ، حتى لا يكاد يخلو مصدر منها من إشارة إليه أو خبر عنه ، ولعل ذلك هو الذي يجعل محاولة الكتابة عن زياد أمراً عسيراً وسبيلاً محفوفاً بالمزالق لأعتبارات عديدة أهمها :

أولاً : إن الباحث مهما قرأ عن زياد وعصره ، فإنه يشعر بأن هناك الكثير من المصادر العربية المتوفرة التي لم يطالعها بعد .

ثانياً : ان المصادر المتوفرة أوردت كل غث وسمين ومغرض من أخبار زياد بشكل غدت معه هذه الشخصية وكأنها رمز للقسوة والشر .

ثالثاً : صعوبة الأحاطة بالظروف والأوضاع والعوامل المختلفة ، والتيارات التي كانت تسيّر الأحداث في مطلع العصر الأموي ، وأهمية ذلك كله في دراسة زياد .

وهذا الوضع الخاص لزياد يجعل غلبة الأخبار والروايات من الأمور التي تحتاج الى صبر طويل ونظرة متأنية ، حتى تأتي صورة زياد أقرب ما تكون الى الحقيقة والواقع .

وأود أن أشير الى أنني قد حرصت في تحليل سياسة زياد ومواقفه المختلفة على الالتزام بالموضوعية قدر جهدي وطاقتي ، اعتقاداً مني أن دور الباحث ليس الدفاع عنه أو اتهامه بمقدار ما هو ابراز للحقيقة كما هي وتعريف الناس بها . على أن زياداً كرجل سياسة وادارة وحرب تولى الحكم لدولة كان معظم الناس في ذلك الوقت ينكرون شرعيتها ، فكان لابد أن يتعرض للكثير من النقد خاصة وقد أخلص لتلك الدولة إخلاصاً يثير الدهشة والعجب ، وضرب بذلك مثلاً لرجل الدولة وخادمها

الذي لا ينظر إلا لصالحها دون أن يحفل كثيراً برأي الناس فيه .

ومهما يكن من أمر ، فزياد شخصية تاريخية تدرس كما هي بخيرها وشرها ، وتعرض جوانب هذه الشخصية كما تصورها المصادر الموثوق بها دون تأثر بما يقوله المؤيدون أو الخصوم .

أما الدوافع التي حملتني على اختيار موضوع هذا البحث ، فهي الأدوار المهمة التي لعبها زياد في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الدولة الإسلامية ، إضافة الى أن أحداً من الباحثين لم ينتبه الى دراسة تلك الشخصية دراسة شاملة ، لهذا أقدمت على اختيار هذا الموضوع ليكون رسالة أقدم بها لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي .

هذا وقد قسمت البحث الى خمسة فصول رئيسة مع مقدمة وتحليل للمصادر وخلاصة للبحث إضافة الى ملحقين أحدهما يتضمن خطبة زياد البتراء في البصرة ، والآخر يبين عماله وولائه على الأقاليم والمقاطعات التابعة لمصرى العراق .

الفصل الأول " زياد حياته ونشأته في العصر الراشدي " . ويبحث في ولادته ونسبه ووفاته وشخصيته ومساهمته في الفتوحات الإسلامية ، حيث خرج الى العراق بصحبة عتبة بن غزوان ، وتولى مهمة الحساب وقسمة الغنائم للمقاتلة في منطقة البصرة ، ثم عمل كاتباً في خدمة ولاة البصرة الأولين أمثال المغيرة بن شعبة ، وأبي موسى الأشعري ، وعبد الله بن عامر . وبعد وقعة الجمل اتصل به الخليفة علي بن أبي طالب ، وقرر الانتفاع بمواهبه ، فولاه ديوان الخراج وبيت المال ، ثم جعله عاملاً له على فارس وكرمان .

الفصل الثاني " تحول زياد الى الصف الأموي " . وتناول أحداث الخلاف بين معاوية وزياد ، والمحاولات المتكررة التي قام بها معاوية لكسب زياد الى جانبه ، خاصة بعد أن استتب له الأمر بوفاة علي بن أبي طالب ، وانتهاء ذلك بالصلح بين الطرفين ، وتناول هذا الفصل أيضاً قضية الحاق معاوية بنسب زياد بأبيه أبي سفيان ، وموقف الأمويين خاصة والناس عامة من هذه القضية ثم تعيين زياد على البصرة سنة (٤٥ هـ / ٦٦٥ م) ، وإضافة الكوفة الى عمله بعد وفاة المغيرة بن شعبة سنة (٥٠ هـ / ٦٧٠ م) .

الفصل الثالث " أعمال زياد الادارية والاجتماعية " . وتناول اجراءاته الأولية في كل من البصرة والكوفة ، وخطبته الأولى في البصرة ، والتي كانت بمثابة دستور عمل لادارته ، ومنهج مرحلي للحكومة منظمة وطيدة الأركان . وأوضح الفصل سياسته تجاه الرعية وتنظيمه للقبائل العربية في مصرى العراق ، وسياسته تجاه هذه القبائل ، واعتماده لأول مرة سياسة التهجير ، بهدف توسيع نطاق الفتوحات الإسلامية في الأقاليم الشرقية ، والحد من التكتلات القبلية في البصرة والكوفة وتخفيف حدة التوتر السياسي في هذين المصرين . وتناول هذا الفصل أيضاً سياسته تجاه عماله وكبار موظفيه ، والأساليب الجديدة التي أدخلها الى المقاتلة والشرطة والحرس والدواوين ، والتي كونت بمجملها خطوات تطويرية على طريق التقدم الحضارى .

الفصل الرابع " التنظيمات المالية والاقتصادية والعمرانية " . وتناول دور زياد في إعادة تنظيم

العطاء والرزق وموارد بيت المال المختلفة كالخراج والغنائم ، ثم سياسته تجاه الأراضي وطريقته في منح القطاعات وحفر الأنهار، والتي كان لها التأثير العميق في حياة البصرة وتطويرها من الناحيتين العمرانية والاقتصادية . كما تناول هذا الفصل دور زياد في تنشيط الحركة التجارية وتتبع أعماله العمرانية من بناء المساجد ودور الامارة والقصور والأسواق والحمامات .

الفصل الخامس " سياسة زياد تجاه قوى المعارضة في العراق " . ويتناول موقف زياد من نشاط وتحركات الخوارج والشيعة ، وقد اتسم هذا الموقف بالشدة والحزم في معظم الأحيان ، يبين ذلك من خلال عدد من الاجراءات التي اتخذها زياد ضد هذه القوى المعارضة للحد من نشاطها وتحركاتها . وفي هذا الفصل تفصيلات واسعة عن حركة حجر بن عدي الكندي في الكوفة ، والأسلوب الذي اتبعه زياد في حصرها وبالتالي القضاء عليها .

هذه هي الجوانب التي انصبت دراستي عليها . ولست أزعم أنني أحطت في هذه الرسالة بجميع المصادر والمراجع التي تتحدث عن حياة زياد ودوره في التاريخ ، ولا أدعي أنني تجاوزت كل مزالق الخطر في طريقة تصويره ، ولكنني سعت الى ذلك ما وسعني الجهد ، وحرصت ما استطعت على أن يأتي هذا البحث محاولة جادة في ذلك الاتجاه ، فان وفقت أو اقتربت من التوفيق فذلك القصد والهدف ، وان سجانيني التوفيق فحسبي من صدق المحاولة حسن النية والأعمال بالنيات .

المؤلف

تحليل المصادر :

استندت الدراسة الى مصادر ومراجع متعددة الأنواع والأساليب ، كان أكثرها إفادة لموضوع البحث المؤلفات التاريخية (كتب التاريخ والأنساب والطبقات والتراجم) ، ثم المؤلفات الأدبية والجغرافية ، وكتب الفقه ، وخاصة كتب الخراج ، وقد ساهمت هذه المصادر في رسم صورة واضحة لشخصية زياد ودورها في صدر الاسلام . وتفاوتت هذه المصادر في معلوماتها ، فكانت كل فئة منها تتناول بالتركيز جانباً أو أكثر من جوانب البحث في المعلومات ، لذا فقد أفاد البحث من مختلف المصادر وإن اختلف مقدار الافادة بين مصدر وآخر .

وفيما يلي عرض لأهم المصادر التي أفادت منها الدراسة :

يأتي في مقدمة المصادر التاريخية التي أفادت البحث ، كتاب " الطبقات الكبرى " لمحمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٤م) . يزودنا هذا المصدر بمعلومات مهمة عن زياد ، خاصة فيما يتعلق بحياته ونسبه ، ويبدو ابن سعد معتدلاً في كلامه عن زياد ، حيث يذكر : زياد بن أبي سفيان بن حرب وأمه سمية جارية للحارث بن كلدة ، ويذكر أن بعضهم يسميه زياد بن سمية ، وبعضهم يقول زياد الأمير ، دون أي تمييز أو طعن في شخص زياد^(١) . ويقدم ابن سعد معلومات هامة عن بعض الرجال الذين اشتركوا الى جانب زياد في ادارة العراق^(٢) ، ومن رواته في هذا الموضوع محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ / ٨٢٣م) ، والفضل بن دكين (ت ٢١٩هـ / ٨٣٤م) . وأورد ابن سعد رواية مختصرة وغير مسندة عن حركة حجر بن عدي^(٣) ، ولكنه اهتم في جُل المعلومات التي أفادت البحث بالأسناد ، مما ساعد في التثبت من دقة المعلومات وصحتها .

ويعتبر كتاب " التاريخ " لخليفة بن خياط العصفري البصري (ت ٢٤٠هـ / ٨٥٤م) من أقدم الحوليات في التاريخ الاسلامي ، ومما يميز هذا الكتاب أن الروايات التي ترد فيه تمتاز بالإنقفاء والاختصار ، وقد اهتم خليفة بالأسناد بشكل كبير ، ولعل ذلك يعود الى كونه من رجال الحديث^(٤) ، ولكنه أورد بعض الروايات غير المسندة .

أورد خليفة عدداً من الروايات المختصرة وغير المسندة عن نشأة زياد في العهد الراشدي^(٥) ، أفادت في معرفة دوره في هذه الفترة . واهتم خليفة بذكر ولاية الخلفاء والقضاة في الأمصار المختلفة مما

(١) ابن سعد ، محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٤م) ، الطبقات الكبرى ، ٨ ج ، بيروت ، دار صادر ، (د.ت) ، ج٤ ، ص ٢٩١ (الواقدي وغيره) ، ج٧ ، ص ٩٩ ، ١٠٠ . وسيشار اليه عند وروده هكذا : ابن سعد ، الطبقات .

(٢) انظر المصدر نفسه ، ج٦ ، ص ٢٣ ، ٣٤ ، ٩٧ ، ١٣٨ ، ج٧ ، ص ٢٨-٢٩ ، ٥٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ج٦ ، ص ٢١٨-٢٢٠ .

(٤) الذهبي ، محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م) ، تذكرة الحفاظ ، ٥ ج ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د.ت) ، ج٢ ، ص ٤٣٦ ، وسيشار اليه عند وروده هكذا : الذهبي ، تذكرة .

(٥) خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ / ٨٥٤م) ، تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، ٢ ج ، ط ١ ، مطبعة النجف الأشرف ، ١٩٦٧م ، ج١ ، ص ١٢٨ ، ١٤٢ ، ١٥٦ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، وسيشار اليه عند وروده هكذا : خليفة بن خياط ، تاريخ .

أفاد في معرفة أسماء وأخبار بعض الرجال الذين ساهموا في الإدارة زمن زياد^(١)، ورواته في هذا الموضوع أبو اليقظان سحيم بن حفص (ت ١٩٠ هـ / ٨٠٥ م)، والوليد بن هشام القحذمي، وهما من أبرز الرواة الذين اعتمد عليهم خليفة عند تناوله للمعلومات التي تتصل بالأدارة، كذكر أسماء من كان على الشرطة بالبصرة والكوفة، وكذلك من كان على الخراج أو الرسائل أو الجباية^(٢). وانفرد خليفة برواية نقلها عن القحذمي قال: " جهد زياد في سلطانه أن يخلص الصلح من العنوة فما قدر"^(٣).

وأفاد خليفة في معرفة أخبار الخوارج أيام زياد، وخاصة فيما يتعلق بخروج قريب وزحاف^(٤)، ورواته في هذا الموضوع وهب بن جرير بن حازم البصري (ت ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م)، وأبو عبيدة معمر ابن المثنى (ت ٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م)، وهما من أولى أخبار الخوارج عناية كبيرة، ذكر ابن النديم أن أبا عبيدة ألف كتابا عنهم، فاتهمه ثعلب بأنه يرى رأى الخوارج^(٥)، وقد نقل عنها خليفة معظم رواياته عن حركات الخوارج في البصرة، وتتضمن معلومات هامة عن بعض خطط البصرة حيث دار القتال.

وأورد خليفة بعض الأخبار التي أفادت في معرفة تاريخ وقادة الفتوحات التي كانت تتصل بمهمات زياد^(٦)، وأشار الى قدرته الادارية والسياسية، حيث ذكر أن عليا ولي سهل بن حنيف فارس، فأخرجه أهلها، فوجه اليهم زياداً فأرضوه وصالحوه وأدوا الخراج^(٧). أما كتاب " المعارف " لأبن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م)، فيعتبر من أقدم الموسوعات العربية التي تناولت تراجم الاعلام، وقد تطرق فيه ابن قتيبة الى نسب زياد، فذكر رواية عن أبي اليقظان تبين أن أم زياد هي أسماء بنت الأعور من بني عبد شمس بن سعد^(٨)، وأورد رواية تفيد أن أم زياد هي سمية من أهل " زندورد " كان كسرى قد وهبها لأحد ملوك اليمن فوهبها هذا الى الحارث بن كلدة الثقفي^(٩)، وابن قتيبة بعد ذلك يعد زيادا واحداً من أولاد أبي سفيان^(١٠). وأورد ابن قتيبة أخبار زياد في العهد الراشدي مختصرة، فذكر تدرجه في الكتابة لولاة البصرة ثم

(١) انظر المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٣، ١٩٥، ١٩٧، ٢٠٦، ٢١٧.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٩٧.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٧.

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٧-٢١٠.

(٥) ابن النديم، محمد بن أبي يعقوب (ت ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م)، الفهرست، تحقيق رضا - تجدد، مطبعة دانشگاه، طهران، ١٩٧١ م، ص ٥٩، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن النديم، الفهرست.

(٦) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٩٥، ١٩٧.

(٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٧٤.

(٨) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م)، المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، مطبعة دار الكتب، ١٩٦٠ م، ص ٣٤٦، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن قتيبة، المعارف.

(٩) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٨٨.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٤٤.

تولية علي بن أبي طالب له على فارس^(١)، وأشار باختصار إلى أحداث الخلاف بين زياد ومعاوية وانفرد بذكر الرسالة التي بعثها زياد إلى معاوية^(٢). وأفاد ابن قتيبة في معرفة بعض الأعمال العمرانية التي قام بها زياد مثل بناء مسجد البصرة، وحفر الأنهار ومنها نهر معقل^(٣)، والجدير ذكره أن ابن قتيبة لم يهتم كثيراً بالأسناد فيما أورده من معلومات عن زياد.

أما كتاب "أنساب الأشراف" لأحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م)، فهو من المصادر الأساسية التي لا يستغني عنها الباحث في دراسة تاريخ الدولة الأموية، ويتضمن معلومات واسعة وهامة عن حياة زياد وأعماله في نواحي الحياة المختلفة، أفيد منها في جميع فصول الرسالة، وقد أفرد البلاذري للحديث عن زياد جزء كبير من القسم الرابع، الجزء الأول حيث بلغ عدد الصفحات المطبوعة (٩٦) صفحة. ومن المهم أن نذكر أن البلاذري ترجم لزياد ضمن أولاد أبي سفيان، مما يشعر أنه اعترف بنسب زياد إلى أبي سفيان، ويقدم لنا البلاذري معلومات قيمة عن مولد زياد ونسبه وموته، معتمداً فيما أورده على رواية عراقين أمثال: عوانة بن الحكم الكلبي الكوفي (ت ١٤٧هـ / ٧٦٤م)، وعلي بن محمد المدائني البصري (ت ٢٣٥هـ / ٨٥٠م)، كما أورد أحياناً بعض الروايات غير المسندة، واستخدم أيضاً صيغة الإسناد الجمعي (قالوا)^(٤)، وهذا يعني أنه جمع روايات عدد من الرواة مع بعضها البعض.

وأفاد البلاذري في معرفة نشأة زياد في العهد الراشدي، حيث ذكر مجيئه إلى البصرة مع عتبة بن غزوان وتوليته قسمة الغنائم وهو حدث، ثم استخلاف أبو موسى له على البصرة، وملاحظة عمر ابن الخطاب ذلك، واستدعائه لزياد واختباره لبلاغته. ثم ذكر قلق معاوية عندما استتب له الأمر في الشام، وزياد لم يزل أميراً على فارس وكرمان، ويلاحظ أن البلاذري أكثر من استخدام صيغة الاسناد الجمعي (قالوا)^(٥) في هذا الموضوع، كما نقل عدداً من رواياته عن عوانة والمدائني.

وأورد البلاذري معلومات وافية عن مسألة استلحاق زياد كما قدم من الروايات التي توضح موقف الأمويين خاصة والناس عامة من هذه المسألة، وأبدى عناية خاصة بأخذ المعلومات المتعلقة بسياسة زياد تجاه الرعية، معتمداً في ذلك على المدائني^(٦)، الذي لا تخلو أخباره أحياناً من النبوة العلوية.

(١) المصدر السابق، ص ٢٤٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٤٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٩٧، ٥٦٣.

(٤) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م)، أنساب الأشراف، ق ٤، ج ١، تحقيق احسان عباس، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٨٧، ٢٠٨، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨٢، وسيشار إليه عند وروده هكذا: البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١.

(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٨٨، ٤٩٠، ج ١ (محمد حميد الله)، ص ٤٩٢، ج ٢ (محمد باقر المحمود)، ص ٢٧١.

(٦) المصدر نفسه، (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠٣، ٢١٧، ٢٣١، ٢٤٠، ٢٧٥.

وتحدث البلاذري عن تعيين زياد على البصرة، وخطبته الأولى التي بين فيها مسؤولياته تجاه الرعية، وحقوق الرعية التي يضمنها لها، وواجباتها تجاه هذه الحقوق. ثم يقدم لنا البلاذري روايات كثيرة عن تنظيمات زياد الادارية والاجتماعية، واصلاحاته المالية والاقتصادية والعمرانية، معتمدا في جُلِّ ما أورده على رواية كوفيين أو بصريين عرفوا بسعة اطلاعهم في هذه المواضيع أمثال: عامر بن شراحيل الشعبي الكوفي (ت ١٠٣ هـ / ٧٢١ م)، وعوانة بن الحكم الكلبي الكوفي، وأبي مخنف لوط ابن يحيى الأزدي الكوفي (ت ١٥٧ هـ / ٧٧٤ م)، ووهب بن جرير بن حازم البصري (ت ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م)، والهيثم بن عدي الطائي الكوفي (ت ٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م)، وأبي عبيدة معمر بن مثنى (ت ٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م)، وأبي الحسن المدائني البصري، وعمر بن شبة النمري البصري (ت ٢٦٢ هـ / ٨٧٥ م).

وأورد البلاذري أخبار الخوارج والشيعية في ولاية زياد، فعرض لحركة حजर بن عدي عرضا مفصلا ودقيقا، معتمداً في ذلك على عدد من الرواة أبرزهم: أبو مخنف، وعوانة، والهيثم بن عدي، ومحمد بن سيرين البصري (ت ١١٠ هـ / ٧٢٩ م).

ويمتاز البلاذري بالتدقيق بحيث يتضح جهده في جمع مادته، وقد تدخل في اختيار الروايات فاستبعد مثلاً رواية أبي اليقظان التي زعم فيها أن أم زياد هي أسماء بنت الأعور من بني تميم، فقال: "وذلك باطل" (١)، واعتمد رواية عوانة ووثقها (٢). ولم يقتصر البلاذري على نقل الروايات فقط، بل تدخل في أحيان كثيرة في تدقيق وتصحيح أسماء الأشخاص أو الأمكنة المغلوطة عند الرواة (٣).

وانفرد البلاذري بمعلومات كثيرة وهامة لم ترد في المصادر الأخرى، فيذكر على سبيل المثال لا الحصر أن زيادا أسلم بالطائف وهو ابن خمس سنين (٤)، وفيما يتعلق بالعتاء ذكر أن زيادا كان يخرج أعطية المقاتلة في شعبان، ويخرج أعطية الذرية في ذي الحجة (٥).

وأورد لنا احصائية عن واردات البصرة والكوفة أيام زياد (٦)، أفادت في معرفة حجم النفقات ووجوه صرفها.

وللبلاذري كتاب آخر هو "فتوح البلدان"، وفيه معلومات مهمة عن نشأة زياد في العهد الراشدي، حيث يذكر مجيئه إلى البصرة مع عتبة وتوليته قسمة الغنائم بعد فتح المسلمين لمدينة الفرات، ثم قيامه على كتابة البصرة أيام ولاية المغيرة بن شعبة وأبي موسى الأشعري وعبد الله بن عامر،

(١) المصدر السابق (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٣.

(٢) المصدر نفسه (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٨٩.

(٣) انظر مثلاً البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٥٦ (ابن الكلبي).

(٤) المصدر نفسه، (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٣ (المدائني).

(٥) المصدر نفسه، (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٩ (الحسن البصري).

(٦) المصدر نفسه، ص ٢١٨-٢١٩ (المدائني).

ورواة البلاذري في هذا الموضوع عوانة وأبو مخنف والواقدي^(١).
ويزودنا البلاذري بمعلومات قيمة عن ولاية زياد على الأقاليم والمقاطعات التابعة للعراق^(٢)،
وأورد رواية بصيغة الاسناد الجماعي (قالوا) تفيد أن زياداً ولّى الربيع بن زياد الحارثي سنة (٥١ هـ /
٦٧١ م) خراسان وحول معه من أهل الكوفة والبصرة زهاء خمسين ألفاً بعيالاتهم^(٣)، ولكنه لم يعين
نسبة ما جاء من كل مصر.

ويزودنا البلاذري أيضاً بعدة روايات عن سياسة زياد تجاه الأراضي، فيورد قائمة طويلة بالأهوار
التي تم حفرها في ولاية زياد^(٤)، كما يورد قائمة بالقطائع التي منحها زياد^(٥)، وقد تعددت مصادر
معلوماته في هذا الموضوع، فأخذ عن المدائني، والوليد بن هشام القحزمي، وعباس بن هشام
الكلبي، كما استخدم في عدد من رواياته صيغة الاسناد الجماعي (قالوا)^(٦).

ويورد البلاذري معلومات مهمة عن اصلاحات زياد العمرانية في البصرة والكوفة عند عرضه
للتطورات العمرانية التي لحقت بالمساجد ودور الامارة والأسواق والحمامات، ورواته في هذا الموضوع
أبو عبيدة والمدائني والوليد بن هشام القحزمي. ويزودنا البلاذري بمعلومات مهمة عن الناحية
الادارية في ولاية زياد، وينفرد بمعلومات كثيرة في هذا الصدد، من ذلك ما نقله عن المدائني من أن
زياداً كان أول من اتخذ من العرب ديوان زمام وخاتم امثالاً لما كانت الفرس تفعله^(٧). وروى عن
القحزمي أن مقاتلة العراق أيام زياد بلغوا ثمانين ألفاً في البصرة، وستين ألفاً في الكوفة^(٨).

ويقول الدوري عن أسلوب البلاذري في كتابه فتوح البلدان، أنه ينتقي المادة بعد الغزيلة
والنقد، ويحاول "أن يعطي صورة متزنة للحوادث، مع تجنب ايراد روايات متعددة حول الحوادث،
وهو يعتمد كثيراً على روايات المدينة التي تتصف بالدقة أكثر من غيرها"^(٩).

وفي كتاب "الأخبار الطوال" لأبي حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) معلومات مختصرة
وهامة عن نسب زياد واستلحاقه وأخباره في العهد الراشدي، وقد ركز الدينوري على أحداث
الخلاف بين زياد ومعاوية، وما أعقب ذلك من مباحثات بين الطرفين^(١٠)، واهتم برواية أخبار

(١) البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، وعمر أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت، ١٩٥٧ م، ص
٤٧٩، ٥٣١، وسيشار اليه عند وروده هكذا: البلاذري، فتوح.

(٢) انظر المصدر نفسه، ص ٥٣٤، ٥٥٨-٥٥٩، ٥٧٦-٥٧٧ (قالوا)، ص ٦٠٩ (الواقدي).

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٧٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٩٨-٥٠٤.

(٥) المصدر نفسه، ص ٥١٣-٥٠٤.

(٦) انظر المصدر نفسه، ص ٥٠٠-٥٠٤، ٥٠٨.

(٧) المصدر نفسه، ص ٦٤٩-٦٥٠.

(٨) المصدر نفسه، ص ٤٨٨.

(٩) عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٣ م، ص ٤٩، وسيشار اليه عند
وروده هكذا: الدوري، بحث.

(١٠) الدينوري، أحمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م)، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشبال،
ط ١، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٠ م، ص ٢١٩، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الدينوري، الأخبار.

حركة حجر بن عدي، وانفرد ببعض المعلومات في هذا الصدد، فذكر على سبيل المثال أن المغيرة حاول استرضاء حجر، فمنحه خمسة آلاف درهم^(١).

ومما يلاحظ أن الدينوري إعتنى بالناحية السياسية، ولم يهتم كثيراً بالنواحي الأخرى، وهو يبدي شيئاً من الميل للعباسيين في أخباره، ولا يبدي اهتماماً بالاسناد^(٢)، وعلى الرغم من ذلك فهو يقدم فائدة كبيرة في البحث، وإن كان اهتمامه بأخبار الأمويين محدوداً.

وتضمن كتاب "التاريخ" لليعقوبي (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م)، معلومات هامة عن دور زياد في نواحي الحياة المختلفة. وعلى الرغم من ميل اليعقوبي الواضح للعلويين وعدائه للأمويين، فإننا نلمس في كثير من رواياته عن زياد تقييماً قريباً من الواقع الموضوعية، مما يشعر بأهمية أعمال زياد لدى المؤلف، حتى أنه لم يخف تلك الروايات التي تذكر أعمال زياد القيمة، واليعقوبي لا يعترف بصحة نسب زياد إلى أبي سفيان بل ينسبه إلى عبيد^(٣)، وينفرد دون غيره حين يذكر أن زياداً توفي سنة (٥٤هـ / ٦٧٤م)^(٤).

ويزودنا اليعقوبي بمعلومات وافية عن الخلاف بين زياد ومعاوية والرسائل المتبادلة بينهما، كما أشار إلى نشاط الخوارج والشيعة في ولاية زياد مركزاً على حركة حجر بن عدي.

ويقدم اليعقوبي معلومات مهمة عن سياسة زياد الإدارية، وينفرد بمعلومات كثيرة في هذا الصدد، فيذكر على سبيل المثال: أن زياداً كان أول من بسط الأرزاق على عماله ألف درهم ألف درهم، وأنه ' أول من دَوّن الدواوين ووضع النسخ للكتب وأفرد كتاب الرسائل من العرب والموالي المتفصحين »^(٥).

ويظهر أن اليعقوبي قد اتبع أسلوب الانتقاء من الروايات بعد تدقيقها، مهتماً بالتسلسل الزمني للأحداث ودون العناية بالأسناد.

وفي كتاب "تاريخ الرسل والملوك" لمحمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م)، معلومات واسعة عن حياة زياد ودوره في صدر الإسلام، أفيد منها في جميع فصول الرسالة، فقد تناول مولد زياد ونشأته في العهد الراشدي، وذكر معلومات فريدة ومهمة عن دوره في معركة القادسية ووقعه جلولا، حيث تولى الكتابة والحساب لسعد بن أبي وقاص^(٦)، ورواة الطبري في هذا الموضوع سيف

(١) المصدر السابق، ص ٢٢٣ (قالوا).

(٢) الدوري، بحث، ص ٥٥.

(٣) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م)، تاريخ، م٢، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٠م، م ٢، ص ٢١٨، وسيسار إليه عند وروده هكذا: اليعقوبي، تاريخ.

(٤) المصدر نفسه، م ٢، ص ٢٣٥.

(٥) اليعقوبي، تاريخ، م ٢، ص ٢٣٤.

(٦) الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفصل إبراهيم، ط ٢، دار سرحدات، بيروت، ١٩٦٧م، ج ٣، ص ٤٨٩ (سيف)، ج ٤، ص ٤٩ (سيف)، وسيسار إليه عند وروده هكذا: الطبري، تاريخ.

ابن عمر التميمي الكوفي (ت ١٨٠هـ / ٧٩٦م)، والمدائني، وعمر بن شبة. ويلاحظ اعتماد الطبري بشكل واسع على عمر بن شبة في المعلومات التي أوردها عن زياد زمن الراشدين^(١)، ويبدو أن عمر أورد أخبار زياد في كتابه الذي سماه "كتاب أخبار أهل البصرة" ومنه أخذ الطبري معلوماته^(٢)، وقد نقل عمر جُلَّ رواياته عن المدائني.

لم يهتم الطبري كثيراً بقضية استلحاق معاوية نسب زياد، واكتفى بالقول: "وفي هذه السنة (٤٤هـ / ٦٦٤م) استلحق معاوية نسب زياد بن سمية بأبيه أبي سفيان فيما قيل"^(٣)، ثم يورد عدة روايات توضح موقف الأمويين خاصة والناس عامة من هذه القضية، وحين يتحدث عن أحداث سنة (١٦٠هـ - ٧٧٦م) يورد بالتفصيل ما قام به الخليفة العباسي المهدي من رد آل زياد إلى نسبهم في ثقيف^(٤)، وعندما يذكر خبر وفاة زياد يضعه تحت عنوان "سبب مهلك زياد بن سمية"^(٥)، مما يعطي انطباعاً بأن الطبري لا يعترف بنسب زياد إلى أبي سفيان.

ويهتم الطبري بصورة خاصة بالحوادث التي وقعت في العراق والأقاليم الشرقية، حيث كانت مركز المعارضة للحكم الأموي، ويقع تاريخ زياد ضمن أحداث هذه الدائرة زماناً ومكاناً، فقد ذكر تعيينه على البصرة، وخطبته الأولى فيها، وأجراءاته الأولية التي اتخذها، ثم روى روايات عديدة ومتفرقة عن خلافة معاوية أفاد بعضها في معرفة الإصلاحات الإدارية والاقتصادية والعمرانية التي قام بها زياد من توطيد الأمن وتأمين الرزق وتحسين أحوال المعيشة إلى تنظيم القبائل في مصر وإعطاء مكانة خاصة لرؤساء العشائر وجعلهم مسؤولين عن الأمن والنظام في إطار عشائريهم. كما روى لنا الطبري خبر اعتماد زياد على الصحابة وذوي الكفاءة، وتعيينهم في مراكز الدولة المهمة كقيادة الجيوش والقضاء، واعتمد الطبري في هذا كله على عدد من الرواة والأخباريين البصريين أو الكوفيين أمثال: المدائني^(٦)، وعمر بن شبة^(٧)، وأبي مخنف^(٨).

وتناول الطبري موقف زياد من نشاط الخوارج والشيعة، وأورد تفاصيل دقيقة عن حركة حजर ابن عدى، ويلاحظ اعتماده على المدائني وعمر بن شبة في المعلومات التي أوردها عن ثورات الخوارج زمن زياد^(٩)، في حين اعتمد بشكل واضح على أبي مخنف وعوانه بن الحكم في معلوماته عن حركة حजर^(١٠).

(١) انظر المصدر السابق، ج ٥، ص ١١٠، ١٢٢، ١٣٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٧.

(٢) انظر الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٩٧.

(٣) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢١٤.

(٤) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٢٩-١٣٢ (علي بن سليمان).

(٥) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٨٨.

(٦) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢١٣، ٢١٧، ٢٢١، ٢٢٤، ٢٣٤، ٢٨٥، ٢٩١.

(٧) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢١٤، ٢٢١، ٢٥٠.

(٨) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٥٧، ٢٦٨.

(٩) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٢٨، ٢٣٧.

(١٠) انظر المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٥٤ وما بعدها.

وتتميز الطبري في تاريخه بعدة أمور تعطي معلوماته أهمية خاصة، فقد أورد معلومات واسعة وقيمة عن القبائل والخلافات القبلية منذ بداية العصر الأموي، وأستغلال الأمويين لهذه الخلافات في تحقيق أهدافهم السياسية، فأشار إلى إرسال معاوية ابن الحضرمي إلى البصرة، واستجارية زياد - خليفة ابن عباس فيها - بالأرد وما ترتب على ذلك من خلاف بين قبائل البصرة، ومصدره عمر بن شبه، الذي روى عن المدائني^(١). كما أشار الطبري إلى معاملة زياد للقبائل الكوفية أثناء حركة حجر، حيث ندب القبائل اليمنية لتأتيه بحجر، ومصدره في ذلك أبو مخنف^(٢).

وقد اهتم الطبري بشكل واضح بتسلسل الإسناد، ولعل ذلك يعود إلى كونه فقيهاً، إلا أنه لم يعتمد على الفقهاء فيما ذكره عن زياد، بل اعتمد على عدد من الإخباريين المعروفين بسعة اطلاعهم قال ابن النديم: قرأت بخط أحمد بن الحارث الخراز "العلماء: أبو مخنف بأمر العراق وأخبارها وفتوحها يزيد على غيره، والمدائني بأمر خراسان والهند وفارس، والواقدي بالحجاز والسيرة"^(٣).

ومن مصادر هذه الدراسة كتاب "الفتوح" لابن أعمش الكوفي (ت ٣١٤هـ / ٩٢٦م). وهو مصدر مبكر مؤلف شيعي، ويعتبر ابن أعمش من أصحاب الحديث، لكنه ضعيف ليس بثقة^(٤). لقد أورد ابن أعمش معلومات هامة عن دور زياد في عهد الخليفة علي بن أبي طالب، كما أشار إلى أحداث الخلاف بين معاوية وزياد مركزاً على دور علي في هذا الخلاف^(٥)، وقدّم ملاحظة مهمة حين ذكر أن زياداً كان يجبي من البصرة وكورتها ستون ألف درهم، ثم يوزع زياد لمقادير الصرف والانتفاق والادخار^(٦).

اهتم ابن أعمش بالتسلسل الزمني للأحداث لكنه لم يعن بالإسناد، وهو يقدم عادة رواية أبي مخنف في أخبار الشيعة، وهذا لا يقلل من قيمة ما يورده، على أن يقارن برواية أبي مخنف، وعلى أن يؤخذ حدة الاتجاه الشيعي بعين الاعتبار.

وتناول الجهشياري (ت ٣٣١هـ / ٩٤٢م) في كتابه "الوزراء والكتاب" تاريخ وأدب جمهرة كبيرة من الكتاب والوزراء في العهد الإسلامي منذ البعثة حتى أوائل خلافة المأمون، وصنّف الجهشياري كتابه حسب عهود الخلفاء، فذكر من كتب لهم، وقد تطرق إلى زياد حيث كان كاتباً لأبي موسى الأشعري في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وذكر استخلاف أبو موسى له على البصرة، ثم

(١) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١١٠.

(٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٦٠-٢٦١.

(٣) ابن النديم، الفهرست، ص ١٠٦.

(٤) ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م)، معجم الأديباء، ٢٠ ج، الطبعة الأخيرة، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د. ت. ج ٢، ص ٢٣٠-٢٣١، وسيسار إليه عند ورود هكذا: ياقوت، معجم الأديباء.

(٥) ابن أعمش، أحمد بن محمد (ت ٣١٤هـ / ٩٢٦م)، الفتوح، ٤ ط، ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م، م ٢، ص ٣٠٠-٣٠١، وسيسار إليه عند ورود هكذا: ابن أعمش، الفتوح.

(٦) المصدر نفسه، م ٢، ص ٣٠٨.

استحضار الخليفة عمر له واختبار أسلوبه وسلوكه، وأعجاب عمر بذكائه وردوده المنطقية^(١)، ثم ينتقل الجهشيارى الى أيام علي بن أبي طالب، فيذكر استعمال الخليفة زيادا على الخراج والديوان في البصرة^(٢).

وأورد الجهشيارى معلومات هامة وفريدة لم ترد في المصادر الأخرى، فذكر على سبيل المثال كتاب زياد على الخراج والرسائل^(٣)، وأشار الى أن زيادا كان مقدراً لمسؤولياته فكان يارس عمله يومياً إلا يوم الجمعة^(٤).

وأورد علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) في كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر" معلومات هامة عن استلحاق زياد والشهود الذين أدلوا بشهادتهم في هذه القضية^(٥)، وذكر أن معاوية استلحقه بسبب توليه فارس من قبل علي بن أبي طالب، فعندما قتل علي واستتب الأمر لمعاوية في الشام والعراق أقلقه أمر زياد، فعرض عليه معاوية أن يستلحقه بنسبه، فقبل زياد العرض، ومصدر المسعودي في هذا الموضوع أبو عبيدة معمر بن المثنى^(٦).

وأورد المسعودي معلومات مختصرة عن أخبار الشيعة أيام زياد، فذكر قضية مقتل حجر بن عدي مبينا أنه كان من المجاهدين المؤمنين الصادقين^(٧). وقدم المسعودي معلومة فريدة عندما ذكر اعتقال زياد لعبد الله بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وحمله من البصرة مقيداً الى دمشق بأمر معاوية^(٨)، وتبدو الميول العلوية واضحة لدى المسعودي في أخباره عن زياد، مما يستوجب مقارنة ما يورده مع المصادر المحايدة والمعتدلة.

أما كتاب "تاريخ مدينة دمشق" لابن عساكر (ت ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م)، فيعتبر من أبرز المصادر التي أفيد منها في جميع فصول الرسالة، فقد أورد عدة روايات عن حياة زياد، وقدم رواية فريدة تفيد أن سمية أم زياد كانت لأحد دهاقى الفرس، فمرض هذا الدهقان، فعالجه الحارث بن كلدة الثقفي حتى بريء، فوهب له سمية^(٩). وقدم ابن عساكر معلومات هامة عن دور زياد في

(١) الجهشيارى، محمد بن عبدوس (ت ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م)، الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعدد الحفيظ شلبي، ط ١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨، ص ١٧، ١٩، ويشير اليه عند وروده هكذا الجهشيارى، الوزراء.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٥.

(٥) المسعودي، علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط ٥، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٣ م، ص ٣، ١٥٠-١٤، ويشير اليه عند وروده هكذا: المسعودي، مروج.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٥-١٦.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٢-١٣.

(٨) المصدر نفسه، ص ٣، ١٧.

(٩) ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م)، تاريخ مدينة دمشق مخطوط مصنف عن نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق، وكمل نقصها من النسخ الأخرى بالقاهرة ومراكش وأستانبول، ١٩ م، دار البشير، عمان (د ت)، ص ٦٨٨، ٤٨٨ (عوانه)، ويشير اليه عند وروده هكذا: ابن عساكر، تاريخ / خط.

العهد الراشدي ، فذكر كتابته للمغيرة بن شعبة وأبي موسى الأشعري ، وعبد الله بن عامر ، وعبد الله ابن عباس ، وأشار إلى دوره في فتنة ابن الحضرمي في البصرة ، كما أشار إلى تعيينه على فارس من قبل علي بن أبي طالب ، ثم تتبع أحداث الخلاف بينه وبين معاوية حتى انتهى إلى الصلح بينهما^(١).

وقدّم ابن عساكر معلومات مختصرة عن استلحاق نسب زياد ، أما معلوماته عن موقف الناس من هذه القضية فهي واسعة وقائمة ، وتزداد أهميتها لكون بعضها معلومات فريدة لم ترد في مصادر أخرى ، منها على سبيل المثال أن عمر بن عبد العزيز كان لا ينسب زياد إلى أحد ، وإذا ذكره قال : " زياد صاحب البصرة " ^(٢).

وأورد ابن عساكر معلومات واسعة ومهمة عن إجراءات زياد الأولية في مصرى العراق ، وعن سياسته في تعيين القضاة والعمال على المقاطعات والأقاليم^(٣) ، كما أورد معلومات واسعة وهامة توضح سياسة زياد تجاه الرعية^(٤) . وتناول ابن عساكر موقف زياد من نشاط الشيعة ، فعرض لحركة حجر بن عدي عرضاً دقيقاً ، معتمداً في ذلك على أبي مخنف^(٥) . كما قدّم تراجعاً وافياً لأصحاب حجر^(٦) ، لا نجد بعضها عند من سبقه .

واعتمد ابن عساكر فيما ذكره عن زياد على مصادر كوفية أو بصرية كالشعبي وسيف بن عمر وأبي مخنف ، وعوانه بن الحكم ، والهيثم بن عدي ، والمدايني ، وعمر بن شبة ، وقد نقل ابن عساكر الكثير من رواياته عن محمد بن سعد^(٧) ، وخليفة بن خياط^(٨) ، وقد أفدت من ذلك في ضبط بعض النصوص التي وردت غير واضحة في كتابي الطبقات لابن سعد ، وتاريخ خليفة بن خياط ، إذ وردت هذه النصوص بشكل واضح في تاريخ دمشق .

وهناك مجموعة كبيرة من المصادر التاريخية أفاد منها البحث بشكل ثانوي حيث وردت بها معلومات قليلة نسبياً ، ومن هذه المصادر : كتاب ابن الطقطقي (ت ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م) " الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية " ، الذي أفاد الفصل الثاني من البحث بمعلومات قيمة عن مسألة الاستلحاق ، وهو يسرد نسب زياد سرداً موضوعياً ، فيذكر أن سمية أم زياد كانت بغياً ولها زوج اسمه عبيد ، وأن أبا سفيان اتصل بها ، ويذكر أن بعضهم أجاز لمعاوية استلحاق زياد بنسبة بناء على العرف الذي كان سائداً في الجاهلية^(٩) . وتظهر موضوعية ابن الطقطقي من خلال

(١) المصدر السابق ، م ٦ ، ص ٤٨٧ (عوانه) .

(٢) ابن عساكر ، تاريخ / خط ، م ٦ ، ص ٤٩١ (علي بن حرب) .

(٣) انظر المصدر نفسه ، م ٦ ، ص ٤٩٥-٤٩٦ (أبو عبيدة) ، م ١٧ ، ص ٦٣٩ (أبو عثمان النهدي) .

(٤) انظر المصدر نفسه ، م ٦ ، ص ٤٩٤-٤٩٧ .

(٥) المصدر نفسه ، م ٢ ، ص ٦٦٨ .

(٦) انظر المصدر نفسه ، م ٧ ، ص ٣٥٩ ، م ٨ ، ص ٣٩٧ ، م ٩ ، ص ٩١٦ ، م ١٤ ، ص ٣٩٨ .

(٧) المصدر نفسه ، م ٦ ، ص ٤٨٦ ، م ٧ ، ص ٣٦٠ ، م ١٤ ، ص ٣٩٨ .

(٨) المصدر نفسه ، م ٦ ، ص ٤٨٦ ، ٤٩٤ ، ٥٠٧ ، م ٨ ، ص ٤٥ ، م ٩ ، ص ٤٦٦ .

(٩) ابن الطقطقي ، محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م) ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار

صادر ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ١٠٩-١١٠ ، ويشير إليه عند وروده هكذا : ابن الطقطقي ، الفخري .

سرده للحوادث دون تحيز، فيذكر معاوية وبعده كلمة "رضي الله عنه" ويلقب علياً بأمر المؤمنين. واستفاد البحث من كتاب "البداية والنهاية" لابن كثير (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م)، والذي تضمن معلومات قيمة ومختصرة أفادت معظم الفصول، حيث تناول حياة زياد ودوره في العهد الراشدي، وأشار إلى صلحه مع معاوية ثم استلحاقه، وقدم بعد ذلك معلومات هامة عن عمال وولاية زياد على الأقاليم المختلفة، كما اهتم بذكر أخبار الشيعة زمن زياد، فأورد بالتفصيل حركة حجر بن عدي^(١).

واستفاد البحث بمعلومات لا بأس بها من كتاب "تاريخ الخلفاء" المؤلف مجهول من القرن الحادي عشر، حيث وردت فيه إشارات متفرقة عن زياد شملت: مولده ونسبه ودوره أيام الخلفاء الراشدين، ثم استلحاقه وتعيينه على البصرة والاجراءات الأولية التي اتخذها لإعادة الأمن والاستقرار إلى ولايته، هذا فضلاً عما أورده المؤلف من إشارات هامة ومتفرقة عن الحرس والأسواق زمن زياد^(٢). وهذا الكتاب نقل حرفي لروايات أبي مخنف في أخبار زياد، ويذكر مؤلفه أنه رجع إلى الطبري وأبي الفرج الأصفهاني وأبي عبيدة معمر بن المثنى^(٣)، وهو لا يجيء بجديد، لكن العودة إليه ضرورية للمقارنة والتدقيق.

أما المصادر الأدبية فكثيرة ومتنوعة، وقد استفدت منها كثيراً وكان أهمها: كتاب "البيان والتبيين" لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م). وهو كتاب أدبي في المختارات من نتاج العرب، حيث يبحث في البيان والبلاغة والشعر والخطابة وجاء بنوادر وأخبار كثيرة لمختلف الجماعات والفئات الاجتماعية في ذلك العصر، وخلال بحثه في القضايا الأدبية تناول خطبة زياد الأولى في البصرة^(٤)، ويعتبر هذا الكتاب أقدم المصادر الأدبية والتاريخية المتوفرة التي أوردت نص الخطبة كاملاً.

وأشار الجاحظ إلى بعض أعمال زياد الإدارية، فذكر طائفة من عماله وشرطته^(٥)، وقدم ملاحظة فريدة ومهمة عن عدد المقاتلة والذرية في البصرة أيام زياد^(٦)، كما أورد روايات كثيرة تحدثت عن أخلاق زياد وحصافته أفادت في معرفة جوانب شخصيته.

وفي كتاب "عيون الأخبار" لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م) معلومات قيمة عن شخصية

(١) ابن كثير، اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م)، البداية والنهاية، تحقيق أحمد أبو ملحم وأخرون، ١٤ ج، ط ٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م، ج ٨، ص ٥١ وما بعدها، وسيشار إليه عند وروده هكذا: ابن كثير، البداية.

(٢) مؤلف مجهول (من القرن الحادي عشر)، تاريخ الخلفاء، نشره بطرس غرياز نيويج، دار النشر "العلم"، موسكو، ١٩٦٧م، ص ١٤٧-١٤٨، وسيشار إليه عند وروده هكذا: مجهول، تاريخ الخلفاء.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٦.

(٤) الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م)، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ٤ ج، ط ٥، الناشر مكتبة الخانجي، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٥م، ج ٢، ص ٦٢، وسيشار إليه عند وروده هكذا: الجاحظ، البيان.

(٥) انظر المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٥٦، ٢٦٠ (قالوا)، ص ٢٩٦ (الحسن البصري).

(٦) الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ١٣٠.

زياد، أفيد منها في جوانب متعددة من البحث وخاصة في معرفة سياسته تجاه الرعية. وأورد ابن قتيبة رواية لم ترد عند من سبقه عن توجيه زياد لعماله والزامهم بالأمانة والمقدرة والاختلاص^(١). ثم ذكر ظروف مرضه ووفاته. وقد اعتنى ابن قتيبة بذكر مصادره، فكان جُلَّ اعتماده فيما أورده من معلومات عن زياد على رواية عراقيين بالدرجة الأولى أمثال: الشعبي والهيثم بن عدي والمدايني^(٢). ومن المصادر الأدبية التي تعتبر ذات دلالة تاريخية كتاب "الكامل في اللغة والأدب" لمحمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٦هـ / ٨٩٩م)، وهو من أهم المصادر التي بحثت في أخبار الخوارج منذ ظهورهم، وفيه معلومات واسعة ومفصلة عن مقاومة زياد لهم، وبعض هذه المعلومات انفرد بها المبرد ولم يذكرها غيره، فذكر على سبيل المثال أن زياداً ولَّى أبا الخير - أحد الخوارج - جندي سابور وما يليها ورزقه أربعة آلاف درهم في كل شهر^(٣)، وذكر أن زياداً كان يحاول تأليف الخوارج والتقرب إليهم، فكان يقول للجماعة منهم: "ما أحسب الذي يمنعكم من اتياننا إلا الرجل"، فيقولون: "أجل"^(٤).

والمبرد لا يهتم بالاسناد كثيراً، كما أنه لا يعنى بتدوين السنوات التي وقعت فيها الأحداث التي يتحدث عنها، ولا يتقيد بالتسلسل التاريخي للأحداث، مما يجعل معلوماته التاريخية بحاجة إلى مزيد من التدقيق والمقارنة.

ولكتاب "العقد الفريد" لابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٧هـ / ٩٣٨م) أهمية واضحة، حيث قدّم معلومات واسعة عن حياة زياد، فأفرد باباً خاصاً به، تناول فيه نسب أمه وظروفها في الجاهلية، والسبب الذي دعا معاوية إلى إلحاق زياد بنسبه^(٥).

أورد ابن عبد ربه معلومات قيمة عن أخلاق زياد وسياسته تجاه رعيته، كما أشار إلى سياسته في اختيار عماله وكبار موظفيه^(٦). وقدّم رواية بين فيها عدد المقاتلة في كل من البصرة والكوفة أيام زياد^(٧)، وهو يشير أحياناً إلى بداية إجراءات إدارية لم يسبقه إليها مصدر آخر مثل قوله: "إن أول من وضع شرف العطاء ألفين معاوية"^(٨). واعتمد ابن عبد ربه فيما أورده عن العطاء وعدد المقاتلة

(١) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م)، عيون الأخبار، ٤ م، ط ١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٨-١٩٣٠ م، ١ ص ٥٥ (عبد الله بن عبيد)، وسيشار إليه عند وروده هكذا: ابن قتيبة، عيون.

(٢) المصدر نفسه، ١ م، ص ٨، ٢ م، ص ١١٤.

(٣) المبرد، محمد بن يزيد (ت ٢٨٦هـ / ٨٩٩م)، الكامل في اللغة والأدب، ٤ ج، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٦م، ج ٣، ص ٢٦١-٢٦٢، وسيشار إليه عند وروده هكذا: المبرد، الكامل.

(٤) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٦١.

(٥) ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت ٣٢٧هـ / ٩٣٨م)، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وأحمد الرين وإبراهيم الأبياري، ٦ ج، ط ٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٩-١٩٤٠م، ج ٥، ص ٤-٥، وسيشار إليه عند وروده هكذا: ابن عبد ربه، العقد.

(٦) ابن عبد ربه، العقد، ج ٥، ص ٨.

(٧) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٨ (العتبي).

(٨) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٦٤ (ميمون بن مهران).

في العراق زمن زياد على العتيبي، وهو من آل أبي سفيان (ت ٢٢٨ هـ / ٨٤٢ م)^(١)، هذا بالإضافة إلى أفادته من رواية وإخباريين عرفوا بسعة اطلاعهم على أخبار المناطق التي ينتمون إليها مثل الشعبي^(٢)، الذي عرف بسعة معرفته بأخبار الكوفة، والمدائني^(٣) المعروف بأحاطته بأخبار العراق وخراسان.

ومن المصادر الهامة الموسعة التي أفادت معظم فصول الرسالة كتاب "الأغاني" لأبي فرج الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م)، وفيه تناول مؤلفه نسب زياد وذكر الروايات التي طعنت في نسبه^(٤)، وقدم عرضاً مفصلاً لحركة حجر بن عدي، معتمداً في ذلك على رواية أبي ثخنف^(٥). كما أورد تراجم عامة لبعض الشعراء الذين اتصلوا بزياد مثل حارثة بن بدر الغداني^(٦)، ومسكين الدارمي^(٧)، ويزيد بن ربيعة بن مفرغ^(٨). وينفرد الأصفهاني بمعلومات عديدة لا ترد في المصادر الأخرى، فيذكر على سبيل المثال أن القبائل البصرية احتجت حين حاول زياد إرسال الأموال إلى بيت المال المركزي بدمشق قبل دفع العطاء وسد نفقات مصر^(٩).

ويزيد من أهمية المعلومات التي يقدمها الأصفهاني عنايته بالاسناد، ومن المصادر التي أخذ عنها معلوماته القحذمي^(١٠)، وأبو عبيدة^(١١)، والمدائني^(١٢)، والعتبي^(١٣)، وابن الأعرابي (ت ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م)^(١٤)، ويبدو أنه استفاد بشكل واضح من كتب من سبقه من المؤرخين والنسابين والأدباء، يظهر ذلك من خلال تصريحه بأخذه عن البلاذري^(١٥) والزبير بن بكار^(١٦).

أما كتب الجغرافية، ككتاب "البلدان" لليعقوبي (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) و"مختصر كتاب البلدان" لابن الفقيه (ت ٢٩٠ هـ / ٩٠٢ م)، و"صورة الأرض" لابن حوقل (توفي حوالي ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م)، و"معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع" للبكري (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م).

(١) ابن عدي ربه، العقد، ج ٥، ص ٧-٨.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٢، ٥٨.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١١٠، ٣٦٨.

(٤) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م)، الأغاني، تحقيق عبدالله الملايلي وآخرون، ٢٣ م، ط ٢، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٥-١٩٦١ م، ١٨ ص، ٢٠٨، ٢٠٩، وسيشار إليه عند وروده هكذا: الأصفهاني: الأغاني.

(٥) المصدر نفسه، م ١٧، ص ٧٩.

(٦) المصدر نفسه، م ٢٣، ص ٤٤٤.

(٧) المصدر نفسه، م ٢٠، ص ١٦٧.

(٨) المصدر نفسه، م ١٨، ص ١٨١.

(٩) المصدر نفسه، م ٢٢، ص ٣٧٢ (العتبي).

(١٠) المصدر نفسه، م ١٢، ص ٣٣٧، م ٢١، ص ٣٦١، م ٢٣، ص ٤٨٢.

(١١) المصدر نفسه، م ١٨، ص ٢٠٨، م ٢٠، ص ١٦٨، ١٧٠.

(١٢) المصدر نفسه، م ١٨، ص ١٩٧، م ٢٣، ص ٤٤٦، ٤٦٨.

(١٣) المصدر نفسه، م ٥، ص ٧، م ٢٢، ص ٣٧٢.

(١٤) المصدر نفسه، م ٢٣، ص ٤٨٩.

(١٥) المصدر نفسه، م ٢٣، ص ٤٤٧.

(١٦) المصدر نفسه، م ٥، ص ٧٢.

و "معجم البلدان" لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، و "الروض المعطار في خبر الأقطار" للحميري (ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٥م)، فتعطي معلومات أساسية عن النواحي الجغرافية كالأنهار وطبيعة الأرض والمناخ، هذا إضافة إلى الزراعة، وتقدم معلومات واسعة عن القبائل ومواطنها وعن التمسير، كما أنها تتضمن معلومات هامة عن بعض الإصلاحات العمرانية التي قام بها زياد.

وثم كتاب "مختصر كتاب البلدان" لابن الفقيه (ت ٢٩٠هـ / ٩٠٢م) باحثاته على معلومات واسعة عن تمسير البصرة وأعمال زياد العمرانية فيها، كحفر الأنهار وبناء المساجد والدور والقصور، وقد انفرد المؤلف بمعلومات عديدة في هذا الصدد، فذكر على سبيل المثال أن زياداً بنى في البصرة سبعة مساجد فلم يصف إليه شيء منها "وكل مسجد بالبصرة كانت رحبته مستديرة فانه من بناء زياد، وكلما بنى فيها أو صنع، فانه نُسب إلى غيره" (١).

ومن المصادر الجغرافية ذات الأهمية الخاصة كتاب "معجم البلدان" لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، حيث يتفرد بتناوله الواسع لمختلف النواحي السياسية والاقتصادية والإدارية والاجتماعية إضافة إلى النواحي الجغرافية. وفيما يتعلق بزياد فان ياقوت يذكر أعماله عند الحديث عن مواضع هذه الأعمال، فيذكر حين يتحدث عن نهر الأجانة - على سبيل المثال - أن زياداً حفر نهر الأبله حتى أوصله بالأجانة عند البصرة (٢)، وعندما يذكر نهر مرة يشير إلى أن زياداً حفر النهر وأقطعته إلى مرة بن أبي عثمان بعد أن كتبت إليه أم المؤمنين عائشة (رض) توصيه به (٣).

وقد أورد ياقوت معلومات هامة عن أعمال زياد العمرانية في مصرى العراق "البصرة والكوفة"، فبين دوره في بناء المساجد ودور الإمارة والحمامات، وفي حفر الأنهار واقطاع القطائع. ويبدو أن ياقوت قد استفاد بشكل واسع من المصادر التاريخية المتقدمة، مثل كتاب "فتوح البلدان" للبلاذرى، وجاءت بعض معلوماته نقلا عن مصادر لم تصل إلينا، يظهر ذلك من خلال تصريحه أنه أخذ عن كتاب البصرة لأبي يحيى الساجي (ت ٢٨٢هـ / ٨٩٥م) (٤). ويزودنا ياقوت بمعلومات فريدة لا ترد في المصادر الأخرى، من ذلك أن زياداً زاد في مسجد الكوفة حتى صار يتسع لستين ألف إنسان بعد أن كان يتسع لأربعين ألف إنسان (٥).

أما المصادر الفقهية وأخص بالذكر كتب الخراج، ككتاب "الخراج" لأبي يوسف (ت ١٨٢هـ / ٧٩٨م)، و "الخراج" ليحيى بن آدم (ت ٢٠٣هـ / ٨١٨م)، و "الأموال" لأبي عبيد (ت ٢٢٤هـ / ٧٩٨م)،

(١) ابن الفقيه، أحمد بن محمد (ت ٢٩٠هـ / ٩٠٢م)، مختصر كتاب البلدان، تحقيق دي غويه، مطبعة بريل، ليدن، ١٣٠٢هـ، أوفست مكتبة المثنى، بغداد، ص ١٩١، ويشير إليه عند وروده هكذا: ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان.

(٢) ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، معجم البلدان، ٥ ج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩م، ج ٥، ص ٣١٦، ويشير إليه عند وروده هكذا: ياقوت، معجم البلدان.

(٣) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٢٣.

(٤) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣١٧.

(٥) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٩١.

/ ٨٣٨م)، و "الخراج وصناعة الكتابة" لقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ / ٩٤٨م)، فقد تناولت الإدارة العربية للبلاد المفتوحة (أرضاً وسكاناً)، وركزت على تدابير الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين، كما تناولت فترة عمر بن عبد العزيز، وندراً ما ذكرت هذه الكتب زيادا، على الرغم من المعلومات التاريخية الغنية التي تتضمنها، فأبو يوسف مثلاً لم يذكر زيادا في كتابه "الخراج" إلا مرة واحدة، حيث أشار إلى أن مسجد البصرة وقصرها من بناء زياد^(١).

وينفرد كتاب "الأحكام السلطانية والولايات الدينية" للماوردي (ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م)، من بين كتب الخراج بتقديم معلومات هامة عن زياد لا نجد بعضها في المصادر الأخرى، فيذكر على سبيل المثال أن الذراع الهاشمية الكبرى سميت زيادية "لأن زيادا مسح بها أرض السواد"^(٢). وإذا كانت كتب الخراج قد أفادت البحث بمعلومات قليلة نسبياً عن اجراءات زياد في العراق فقد أوردت معلومات هامة وغزيرة عما استقر عليه الأمر أيام الراشدين من تنظيم في البلاد المفتوحة كما أوردت معلومات قيّمة عن النظام المالي لإنشاء الديوان، وفرض العطاء ومقاديره، وتناولت أيضاً وجوه تكوين الملكيات سواء بالإقطاع من الصوافي أو الموات أو الإحياء، وتبدو أهمية هذه المصادر في الفصلين الثالث والرابع.

هذا وقد تعرضت بعض المراجع والدراسات الحديثة لجوانب من موضوع دراستنا، ويأتي في مقدمة المؤلفات العربية الحديثة التي تناولت دور زياد في صدر الاسلام، مؤلفات الدكتور صالح أحمد العلي في كتبه "التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري" و "خطط البصرة ومنطقتها"، ومن المؤلفات العربية الأخرى كتاب "الفتنة الكبرى" لطفه حسين، و "الدولة الأموية" ليوسف العش، و "خلافة بني أمية" لنبيه عاقل، و "إدارة العراق في صدر الاسلام" لرمزية عبد الوهاب خيرو، و "تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي" لعلي حسني الخربوطلي. واهتم بعض المستشرقين بدراسة دور زياد في صدر الاسلام أمثال يوليوس فلهاوزن في كتابه "تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية"، وشارل بلا في كتابه "الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء".

وفضلاً عن ذلك، فقد رجعت الى عدد من البحوث والمقالات التي لها علاقة بموضوع البحث وكان أكثرها افادة للبحث مقالة المستشرق الفرنسي لامنس (H. Lammens) "Ziad Ibn Abihi". ويعتبر هذا المقال من أفضل ما كتب عن زياد على الرغم من أن دراسته جاءت مختصرة، واقتصرت على إظهار الخطوط الرئيسية لشخصية زياد. وقد أفدت من هذه الدراسات بما فيها من آراء ومصادر في التعرف على بعض جوانب الموضوع، هذا وقد استندت الدراسة في الأساس إلى المصادر الأولية.

(١) أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢هـ / ٧٩٨م)، الخراج، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٩٢هـ، ص ٦٥، وسننار اليه عند ورود هكذا : أبو يوسف، الخراج.

(٢) الماوردي، علي بن محمد (ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط ١، مكتبة مصطفى الساهي الحلبي، مصر، ١٩٦٠م، ص ١٥٣، وسننار اليه عند ورود هكذا : الماوردي، الأحكام.

الفصل الأول

زياد

حياته ونشأته في العصر الراشدي

* ولادته .

* نسبه .

* وفاته .

* نشأته وأهم أعماله في العصر الراشدي .

- زياد في عهد الخليفة علي بن أبي طالب .

- ولايته على فارس .

ولادته

لم تتفق المصادر المتوفرة في تحديد تاريخ ولادة زيادة، فقد ذكر ابن سعد، أنه ولد عام الفتح^(١)، أي سنة ثمان للهجرة. وذكر خليفة بن خياط أن زياداً توفي سنة (٥٣هـ / ٦٧٢م)، "وهو ابن ثلاث وخمسين سنة"^(٢)، وهذا دليل على أنه ولد عام الهجرة. وعند البلاذري نجد إشارة تفيد أنه ولد قبل الهجرة بنحو اثنتي عشرة سنة، حيث ذكر "وكان موت زياد في شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين، وهو ابن خمس وستين"^(٣). أما الطبري، فيؤكد أن مولده كان في عام الهجرة، فهو يقول "وقيل أن المختار بن عبيد الثقفي، وزياد بن سمية فيها ولدا"^(٤)، أي في السنة الأولى للهجرة. وذكر ابن عبد البر اختلاف القول في تاريخ ولادة زياد فقال: "واختلف في وقت مولده، فقيل ولد عام الهجرة، وقيل: قبل الهجرة" ثم أضاف: "وقيل: بل يوم بدر"^(٥) أي في السنة الثانية للهجرة.

وإذا أمعنا النظر في اختلاف الروايات التي تناولت مولد زياد، نجد أن ما ذكره كل من ابن سعد، والبلاذري، وابن عبد البر في إشارته إلى أن زياداً ولد يوم بدر، أمور يتعذر قبولها، وذلك لعدم إتفاقها مع ما ورد في المصادر المتوفرة من معلومات عن حياة زياد. والأرجح أنه ولد عام الهجرة، يؤيد ذلك ما ذكره كل من عوانه والمدائني. أما عوانه فقد ذكر أن المسلمين حينما فتحوا مدينة الفرات سنة (١٤هـ / ٦٣٥م) أصابوا غنائم كثيرة، ولم يكن بينهم من يجيد الكتابة والحساب إلا زياد "فولي قسم ذلك المغنم، وجعل له كل يوم درهمان، وهو غلام في رأسه ذوابة"^(٦)، هذا النص الواضح،

-
- (١) ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ١٠٠. ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٤٦. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٣. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٧.
- (٢) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٩٧. البخاري، محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ / ٨٦٩م)، التاريخ الصغير، ٢ ج، ط ١، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٦م، م ١، ص ١٤١، ويشير إليه عند وروده هكذا: البخاري، التاريخ الصغير.
- (٣) البلاذري، أنساب (إحساس عبّاس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٧٨ (قالوا). وقريب مما ذكره البلاذري قول زياد بن عثمان: "أنه كان له (أي لزياد) في الهجرة عشر سنين". (ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م)، الإصابة في تمييز الصحابة، ٤ ج، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٣٢٨هـ، مكتبة المثنى، بغداد، ج ١، ص ٥٨٠، ويشير إليه عند وروده هكذا: ابن حجر العسقلاني، الإصابة).
- (٤) الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ٤٠٢ (قيل). ابن الأثير، علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) الكامل في التاريخ، ١٣م، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م، م ٢، ص ١١١، ويشير إليه عند وروده هكذا: ابن الأثير، الكامل. الذهبي، محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي البجاوي، ٤م، دار المعرفة، بيروت، م ٢، ص ٨٦، ويشير إليه عند وروده هكذا: الذهبي، ميزان.
- (٥) ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق محمد البجاوي، ٤ ق، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ق ٢، ص ٥٢٣، ويشير إليه عند وروده هكذا: ابن عبد البر، الاستيعاب. ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٥م، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٧هـ، م ٢، ص ٢١٥، ويشير إليه عند وروده هكذا: ابن الأثير، أسد الغابة. النووي، محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف (ت ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م)، تهذيب الأسماء واللغات، ٢ ج، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، ج ١، ص ١٩٩، ويشير إليه عند وروده هكذا: النووي، تهذيب الأسماء واللغات. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون، ٢٧ ج، نسخة مصورة عن دار الكتب، القاهرة، ج ٢٠، ص ٣٤٢، ويشير إليه عند وروده هكذا: النويري، نهاية الأرب.
- (٦) البلاذري، فتوح، ص ٤٧٩.

يُشعر أن زيادا لم يكن في سنة (١٤هـ / ٦٣٥م) طفلا في السادسة من عمره وفقا لما ذكره ابن سعد كما أنه لم يكن رجلا جاوز الخامسة والعشرين من عمره تبعا لما ورد في رواية البلاذري، وإنها كان غلاما، والغلام اسم يطلق على الولد حينما ينبت شعر شاربه^(١)، ويكون في العادة بين سن الرابعة عشرة والسادسة عشرة من عمره، ولعل زيادا كان في مثل هذا العمر. يؤيد ذلك ما أورده المدائني من أن زيادا كان بين الذين شخصوا سنة (١٤هـ / ٦٣٥م) مع عتبة بن غزوان الى العراق، وأن المسلمين عندما فتحوا الأبله لم يجدوا 'قاسما يقسم بينهم، فكان زياد قاسمهم وهو ابن أربع عشرة سنة'^(٢). ويعزز هذا الرأي أيضا تقديرات بعض المؤرخين لعمر زياد عند وفاته، حيث ذكروا أنه توفي سنة (٥٣هـ / ٦٧٢م)، وهو ابن ثلاث وخمسين سنة^(٣)، أي أنه كان من مواليد عام الهجرة.

كما أن ما ذكر عن خروج زياد الى العراق بمعية صهره عتبة بن غزوان، وزوجته أزدته بنت الحارث ابن كلفة، بحكم صلة القرابة التي تربط بينه وبين نفيق ونافع - أخوته لأمه واللذين رافقا عتبة أيضا - وليس بصفته مقاتلا في جيش عتبة، أمر يشعرا أن زيادا لم يبلغ السن التي كانت تؤهل صاحبها للانضمام الى صفوف المقاتلة وهي الخامسة عشرة^(٤)، بل كان صبيا دون مرحلة البلوغ، والصبيان لا يجوز إثباتهم في الديوان بل يعتبرون "من جملة الذراري والأيتام"^(٥). أما عن المبلغ الذي كان يتقاضاه زياد حينما تولى قسمة الغنائم في جيش عتبة^(٦)، فقد كان أجرة له لقاء عمله، ولم يكن يتقاضاه كعطاء باعتباره أحد المقاتلة، يوضح ذلك المدائني في قوله "فأجروا عليه كل يوم درهمين"^(٧).

ولعل تحزب بعض المؤرخين الذين كانوا يضمرون الكره لزياد، قد دفعهم الى تعيين تاريخ ولادته الى ما بعد الهجرة بسنوات عديدة، وذلك لينكروا إدعاء من يحاول جعله في عداد الصحابة^(٨).

(١) انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ / ١٣١١م)، لسان العرب، ١٥م، دار صادر، بيروت، م ١٢، ص ٤٤٠ (ابن سيده)، وميشار اليه عند ورود هكلا: ابن منظور، لسان العرب. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م)، القاموس المحيط، ٤ ج، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٢م، ج ٤، ص ١٥٨، وميشار اليه عند ورود هكلا: الفيروز آبادي، القاموس المحيط.

(٢) الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٥٩٧.

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٩٧ (الوليد بن هشام). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٣٠ (المدائني).

(٤) ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٤٨٤.

(٥) الماوري، الأحكام السلطانية، ص ٢٠٣.

(٦) البلاذري، فتوح، ص ٤٧٩ (عوانه). الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٥٩٧ (المدائني). مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٧.

(٧) الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٥٩٧.

(٨) لأمنس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة "زياد بن أبيه" تأليف منسلك وآخرون، اعداد وتحرير ابراهيم زكي شورشيد وآخرون، ط ٢، ١٦ مجلد، دار الشعب، ١٩٦٩م، ١٠، ص ٤٦٩، وميشار اليه عند ورود هكلا: لأمنس، رباد بن أبيه (دائرة المعارف الإسلامية).

أما المكان الذي ولد فيه زياد، فتتفق المصادر المتوفرة على أنه ولد في مدينة الطائف^(١). تلك المدينة الصغيرة المتحضرة الواقعة على جبل غزوان، والتي كانت تتألف من محلتين كبيرتين يفصل بينهما واد، تسكن إحداها ثقيف والأخرى هوازن^(٢).

نسبه

يعتبر نسب زياد، المكنى بأبي المغيرة^(٣)، من أكثر القضايا غموضاً في حياته، فقد كانت أمه أمة إسمها سمية^(٤)، ولم يتفق المؤرخون من هو أبوه، وبالتالي فهم يختلفون في ذكر نسبه فقد ذكر اسمه في المصادر، تارة زياد بن سمية^(٥)، وتارة زياد بن عبيد^(٦)، ومرة زياد الأمير^(٧)، وأخرى زياد بن أبي

(١) ابن سعد، الطبقات، جـ ٧، ص ١٠٠. ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٤٦. ابن الوردي، زين الدين أبو حفص عمر بن مظفر (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م)، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، جمعية المعارف، القاهرة، ١٨٦٨، ج ١، ص ١٦٨، وسيشار إليه عند وروده هكذا: ابن الوردي، تاريخ. والطائف تبعد عن مكة أحد عشر ميلاً. (انظر ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٢). وقدر جواد علي المسافة بين المدينتين بنحو خمسة وسبعين ميلاً، حيث تقع الطائف إلى الجنوب الشرقي من مكة. (جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٠، ج ٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٦م، ج ٤، ص ١٤٢، وسيشار إليه عند وروده هكذا: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب).

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٩.

(٣) ابن معين، يحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ / ٨٤٧م)، التاريخ، تحقيق أحمد محمد نور سيف، ج ٤، ط ١، مطابع الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٩م، ج ٢، ص ١٧٩، وسيشار إليه عند وروده هكذا: ابن معين، التاريخ. خليفة بن خياط (ت ٢٤١هـ / ٨٥٤م)، الطبقات، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط ١، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٧م، ص ١٩١، وسيشار إليه عند وروده هكذا: خليفة بن خياط، الطبقات. ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٤٦. الدولابي، محمد بن أحمد (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م)، الكنى والأسماء، ج ٢، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م، ج ٢، ص ١٢٦، وسيشار إليه عند وروده هكذا: الدولابي، الكنى والأسماء.

(٤) زعم أبو اليقظان أن أسماء بنت الأعور من بني عبد شمس بن سعد، هي أم زياد. (انظر ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٤٦). ورد البلاذري على قول أبي اليقظان بأنه زعم باطل. (انظر أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٣).

(٥) انظر ابن معين، التاريخ، ج ٢، ص ١٧٩. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٤. الدولابي، الكنى والأسماء، ج ٢، ص ١٢٦. ابن عساکر، تاريخ / خط، ج ٦، ص ٤٨٢. ابن الأثير، أسد الغابة، ج ٢، ص ٢١٥. ابن حجر، الأصبغة، ج ١، ص ٥٨٠. البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣هـ / ١٦٨٢م)، خزائن الأدب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج ١٣، ط ٢، مكتبة الخانجي بمصر، ١٩٨١م، ج ٤، ص ٣٢٣. أيضاً ج ٦، ص ٤٩، وسيشار إليه عند وروده هكذا: البغدادي، خزائن الأدب. وانظر يوليوس فلهاوزن، تاريخ الدولة العربية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ١١٣.

(٦) انظر الدينوري، الأخبار، ص ١١٨، ٢١٩. ابن عبد ربه، العقد، ج ٦، ص ١٣٢. ابن العربي، محمد بن عبد الله (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م)، العواصم من القواصم، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٧٥هـ، ص ٢٣٥، وسيشار إليه عند وروده هكذا: ابن العربي، العواصم. ابن أبي الحديد، هبة الله بن محمد (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ١٧، ط ١، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٩-١٩٦٣م، ج ١٦، ص ٤٨٣، وسيشار إليه عند وروده هكذا: ابن أبي الحديد، نهج البلاغة.

(٧) انظر ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٩٩. ابن عساکر، تاريخ / خط، ج ٦، ص ٤٨٣.

سفيان^(١)، وفي أغلب الأحيان عُرف بابن أبيه^(٢)، "وذلك لما وقع في أبيه من الشك"^(٣). إنَّ اختلاف المصادر في ذكرها لنسب زياد، مسألة أوجدها - قبل كل شيء - الغموض الذي يكتنف نسبه من جهة، ثم خلط أعداء بني أمية وأنصارهم لنسب هذا الرجل، وذلك لأسباب مختلفة تبعاً لموقف كل منهم من زياد الذي عاش حياة سياسية مزدوجة، حيث كان ابتداءً من أنصار الخليفة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، واستمر في ذلك إلى أن توفي، وتنازل ابنه الحسن لمعاوية عن الخلافة، فتحول زياد بعد ذلك إلى الصف الأموي، وقد اتبع أثناء ولايته على العراق سياسة حازمة مع أهلها عامة ومع الشيعة والخوارج خاصة، فأدى ذلك إلى خلق الكره والحقد في نفوس بعض العناصر تجاه شخص زياد، مما حدا بتلك العناصر إلى التلاعب والخلط في نسب هذا الرجل ما شاء لهم الخلط.

ولا شك أن إستلحاق زياد الذي تم زمن معاوية بن أبي سفيان كان له أثر كبير في تشويش نسبه، حيث اختلف الناس في حكم الاستلحاق اختلافاً كبيراً، وبالتالي فقد اختلف قوهم في نسب زياد كل حسب ميوله واعتقاداته وقد تُرجم هذا التباين في المصادر ولدى المؤرخين. ويزداد نسب زياد غموضاً عند دراسة الروايات المتباينة، التي ذكرت أصل سميّة "أم زياد" وتفاصيل حياتها، وزواجها من عبيد، ثم نسب أبنائها. فابن قتيبة^(٤) يذكر أن سميّة جارية من أهل

(١) انظر خليفة بن خياط، الطبقات، ص ١٩١. البخاري، محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ / ٨٦٩م) التاريخ الكبير، ٨م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م، ٣م، ص ٣٥٧، وسيشار إليه عند وروده هكذا: البخاري، التاريخ الكبير، وانظر ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٤٤، ٣٤٦. البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، تحقيق محمد باقر المحمدي، ط ١، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٧٤م، ص ٤٣٠، وسيشار إليه عند وروده هكذا: البلاذري، أنساب (محمد باقر المحمدي)، ج ٢. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب من واضح (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م)، البلدان، ط ٣، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٥٧م، ص ٥٧، وسيشار إليه عند وروده هكذا: اليعقوبي، البلدان. ابن النديم، الفهرست، ص ١٣٩. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٣.

(٢) انظر المقدسي، مطهر بن طاهر (ت ق ٤هـ / ق ١٠م)، البدء والتاريخ، ج ٦، مؤسسة الخانجي بمصر، ومكتبة المني ببغداد، ١٨٩٩-١٩١٦م، ج ٦، ص ٢، وسيشار إليه عند وروده هكذا: المقدسي، البدء والتاريخ. ابن أبي الدم، شهاب الدين إبراهيم (ت ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م)، التاريخ الاسلامي المعروف باسم التاريخ المظفري، تحقيق حامد زياد غانم، دار التوفيق النموذجية، القاهرة، ١٩٨٥م، ج ١، ص ١٩٧، وسيشار إليه عند وروده هكذا: ابن أبي الدم، التاريخ الاسلامي. ابن الطقطقي، الفخري، ص ١١١. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م)، الوافي بالوفيات، ط ٢، باعنتشاء نخبة من المستشرقين والمؤرخين العرب، فرانز شتايز بفيستادن، ١٩٦٢-١٩٧٩م، ج ١٥، ص ١٢. وانظر خير الدين الزركلي، الأعلام، ج ٨، ط ٦، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م، ج ٣، ص ٥٣. H. Lammens, Ziad ibn Abihi, Vice-roi de l Iraq Lieutenant de Moawia, Rivista degli studi Orientali, Roma, Presso La Regia University, 1912, Lammens, Ziad Ibn Abihi. وسيشار إليه هكذا، P1.

(٣) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٥، ص ١٢. الكتبي، محمد بن شاعر (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م)، فوات الوفيات، تحقيق احسان عباس، ج ٥، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤م، ج ٢، ص ٣٢، وسيشار إليه عند وروده هكذا: الكتبي، فوات الوفيات.

(٤) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٨٨. ابن دريد، الاشتقاق، ص ٣٠٦. ابن عبيد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ٤. ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١/١٢٨٢)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق احسان عباس، ج ٧، دار صادر ودار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨م، ج ٦، ص ٣٥٦، وسيشار إليه عند وروده هكذا: ابن خلكان، وفيات الأعيان. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٦.

"زندورد" (١)، وهبها كسرى الى ملك من ملوك اليمن، يقال له "أبي الخير" (٢)، كان قد وفد عليه، فلما عاد الى اليمن وأثناء سيره في الطريق مرض بالطائف، فدأواه الحارث بن كلدة الثقفي (٣) حتى برىء فوهب أبو الخير سميّة له.

أما البلاذرى، فذكر أن سميّة امرأة من أهل زندورد، كانت أمة لرجل من بني يشكر نزل بناحية كسكر (٤)، وأن الإشكري مرض مرضاً أعيا من حوله من الأطباء، فبلغه خبر الحارث بن كلدة وطبه بالطائف، فوفد عليه، فعالجه الحارث حتى برىء، فوهب له سميّة. ثم أن الحارث وقع عليها، فولدت له نافعاً ونفيعاً - ونفيع هو أبو بكرة - وكان أسود اللون، فأكرهه الحارث، ونسبه الى غلامه مسروح، وكان أشبه الناس به (٥).

وذكر ابن عساكر أن سميّة كانت لدهقان من دهاقي الفرس، فاشتكى هذا الدهقان ذات مرة من وجع البطن، وخشي أن يكون قد أصيب بداء الاستسقاء، فدعا الحارث الذي كان وافداً على

(١) زندورد: مدينة بالقرب من واسط، مماليق البصرة، خربت بعد تمصير الحجاج لواسط. (انظر ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ١٥٤).

(٢) "أبو الخير": وقيل هو أبو الجبر، يزيد بن شرحبيل الكندي أحد ملوك اليمن، تغلب عليه قومه فمخرج الى فارس يطلب العون عليهم من كسرى، فبعث معه كسرى جيشاً من الأساورة، ويُذكر أن وحشة بلاد العرب جعلتهم يملكون صحبة أبي الخير فسمّوه في بعض طعامه، واستأذنوه - وهو في أشد وجعه - بالعودة الى بلادهم فأذن لهم، ثم أن أبا الجبر خف ما به فلجأ الى طبيب العرب الحارث بن كلدة في الطائف فدأواه وأبرأه، فأعطاه سميّة، وكان كسرى قد أعطها أبا الجبر في جملة ما أعطاه، ثم رحل الى اليمن فمات في الطريق. (انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٥٥-٣٥٦).

(٣) الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج الثقفي: من أهل الطائف، دُكر أنه رحل الى أرض فارس وأخذ الطب عن أهل يسابور وغيرها، في الجاهلية وقبل الاسلام، وطب بأرض فارس وعالج وتمرن هناك حتى جاد في هذه الصناعة وعرف الداء والدواء، وحصل له بذلك مال كثير، وكان الحارث صاحب حس مرهف يضرب بالعود، تعلم ذلك بفارس واليمن. وذكر البعض أنه عاش الى أيام معاوية بن أبي سفيان. (انظر: ابن جليل، أبي داود سليمان بن حسان (ألف كتابه هذا سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م)، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة المعهد الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ٥٤، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن جليل، طبقات الأطباء والحكماء. صاعد بن أحمد (ت ٤٦٢هـ / ١٦٠٩م)، طبقات الأمم، نشره وذيله الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٢م، ص ٤٧، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن صاعد، طبقات الأمم. ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م، ص ١٦١، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء. وانظر أيضاً صالح مهدي الغزاوي "الحارث بن كلدة الثقفي" مجلة المورد، العدد (٤)، م ٦، ص ٢١٧-٢٢١).

(٤) كسكر: كورة واسعة بين الكوفة والبصرة، قصبتها واسط، وكانت قصبتها قبل تمصير واسط خسر وسابور. (انظر ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٦١).

(٥) البلاذرى، أنساب الاشراف، ج ١، تحقيق محمد حميد الله، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، ودار المعارف بمصر، ١٩٥٩، ص ٤٨٩ (قالوا)، وسيشار اليه عند وروده هكذا: البلاذرى، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، وانظر أيضاً أنساب الاشراف، (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٨٧.

كسرى، فعالجه حتى برىء، فوهب له سميّة^(١). ويكاد يتفق ما ذكره ابن عساکر مع ما ورد عند ابن الأثير، الذي ذكر أن سميّة كانت لدهقان زندورد بكسکر، فمرض الدهقان، وعالجه الحارث الثقفي ولما شفي على يده وهب له سميّة، فولدت له نفيغ ونافع، فأنكرهما ولم يقر بهما^(٢). أما القفطي، فذكر أن الحارث رحل إلى بلاد فارس وأخذ الطب عن بعض أهلها، حتى برع فيه، وأثناء إقامته في فارس عالج أحد أجلائها، فبرأ على يده، فأعطاه الفارسي مالا وجارية سماها سميّة، رافقته عندما عاد إلى بلده الطائف^(٣).

ومن خلال إستعراض هذه الروايات يتضح لنا أن سميّة كانت جارية، وأنها وهبت للحارث بن كلدة - طبيب العرب المشهور في وقته - من قبل شخص كان الحارث قد داواه، فبرىء من مرضه. على أن تلك الروايات لم تتفق في ذكر الشخص الذي داواه الحارث، كما أنها اختلفت في بيان أصل سميّة، وفي تفاصيل حياتها في الطائف. فابن قتيبة يذكر أن سميّة ولدت على فراش الحارث ولدين هما: نافع ونفيغ، ولكنه لم يعترف بهما^(٤)، إلى أن كان حصار الطائف سنة (٨هـ / ٦٢٩م)، حيث قال الرسول ﷺ: "أيّما عبد نزل إلينا فهو حرّ"، فنزل نفيغ فيمن نزل من عبيد أهل الطائف وأسلم، فأعتقه الرسول ﷺ، فصار من مواليه^(٥). وسمي بأبي بكر، لأنه تدلى إلى رسول الله ﷺ وأصحابه في بكرة، فكانوا أبا بكر^(٦) وهو مشهور بكنيته هذه.

وذكر أن الحارث قال لنافع عندما أراد اللحاق بأبي بكر: "أنت ابني فأقم"، فأقام معه، ونسبه إليه^(٧)، فعرف منذئذ بنافع بن الحارث بن كلدة. ويبدو أن الحارث لم يعترف بأولاده من سميّة، لأنه رأى أن لون أبا بكر أسود، ولم يكن بين آبائه من هو أسود اللون، فنفى أبا بكر ونفى نافعا بسببه، ويذكر أنه نسب أبا بكر إلى غلامه مسروح، حيث كان أشبه الناس به^(٨)، وهذا يفسّر

(١) ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٨ (عوانه).

(٢) ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٣. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣١٢.

(٣) القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١١١-١١٢.

(٤) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٨٨. وانظر البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٨٩ (قالوا). أيضا ق ٤، ج ١ (إحسان عباس) ص ١٨٧ (قالوا). ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ٤. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٨ (عوانه). ابن الأثير، الكامل م ٣، ص ٤٤٣.

(٥) ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ١٥. ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٨٨. البلاذري، أنساب الأشراف، (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٨٩ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ١٧٢. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ٤. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ١٧، ص ٦٣٣. ابن الأثير، أسد الغابة، م ٥، ص ٨.

(٦) ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ١٥. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٤، ص ١٥٣٠. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ١٧، ص ٦٣٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٥٩.

(٧) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٨٨. البلاذري، أنساب الأشراف، (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٩٠ (قالوا). ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ٤. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٨. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٣. ابن خلکان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٦٣.

(٨) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٨٩ (قالوا). أيضا، ق ٤، ج ١ (إحسان عباس) ص ١٨٧ (قالوا) مؤلف مجهول. تاريخ الخلفاء، ص ١٣٦.

لنا سرّ إعراف الحارث بنسب نافع فيما بعد، حينما أسلم أبو بكر وأعتقه الرسول ﷺ (١).
ويظهر أن الحارث قد تناهى إلى مسمعه أن جاريته سمّية " ذات ربية، لا تدفع كُف
لامس" (٢)، الأمر الذي جعله ينتفي من أولادها، ويزوجها من غلام رومي له يُدعى عبيدا، وكان
عبدا لزوجه صفية بنت عبيد بن أسيد بن علاج الثقفي، فولدت له زياداً على فراشه (٣).
وزواج سمّية (الأمة) من عبيد (العبد)، أمر يدعو إلى الافتراض بعبودية أولادهم وهذا ما ذهب
إليه طه حسين، حيث يقول: " فقد ولد زياد عبداً للحارث بن كعدة الذي كان يملك أمه سمّية،
وكان أبوه عبداً لصفية زوج الحارث، ونحن لا نرى زياداً في التاريخ الذي حُفظ لنا إلا حراً، فمتى
عُتق؟ أو من أعتقه" (٤)، وللإجابة على مثل هذه التساؤلات، نقول إنه من المستبعد أن يكون ربيب
زياد أو أباه "عبيد" قد أعتق قبل إسلام زياد، ويستدل على ذلك من قول زياد حين أعطاه عمر بن
الخطّاب رضي الله عنه ألف درهم، ثم سأله عما صنع بها، فقال له: " ابتعت بها عبيداً أبي من
صفية بنت عبيد بن أسيد بن علاج" (٥)، هذا ما جاء في رواية البلاذري. أما سيف فيذكر أن عطاء
زياد كان ألفين، فسأله عمر عن عطائه الأول فقال: " اشترت والدتي فأعتقتها، واشترت في
الثاني (أي الألف الثاني) ربيبي عبيداً فأعتقته" (٦). ويفيد ما ذكره كل من سيف والبلاذري، أن
زياداً كان في أيام عمر بن الخطّاب رضي الله عنه حراً، وأن عبيداً - ربيبه أو والده - لم يئل الحرية إلا
بآخره، ويشعر ما ذكره سيف أن سمّية صارت حرة مع زوجها عبيد، وعلى يد ابنها زياد. إلا أن
الدينوري يورد خلافاً لهذا، فهو يذكر أن عبيداً تزوج من سمّية " وكانت أمة للحارث بن كعدة،
فأعتقها، فولدت له زياد، فصار حراً" (٧).

وذكر البلاذري في رواية أخرى، أن الحارث بن كعدة لما تزوج من صفية، قدّم لها في مهرها

-
- (١) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٨٨. البلاذري، أنساب الأشراف، (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٩٠ (قالوا). ابن عبد ربه،
العقد الفريد، ج ٥، ص ٤. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٨.
- (٢) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٨٩ (قالوا). أيضاً ق ٤، ج ١ (إحسان عباس) ص ١٨٧ (قالوا). ابن
عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ٤. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٦.
- (٣) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٨٩ (قالوا)، أيضاً ق ٤، ج ١ (إحسان عباس)، ص ١٨٧ (قالوا).
ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ٤. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٨. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص
٤٤٣. ابن خلّكان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٥٦.
- (٤) طه حسين، الفتنة الكبرى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٣م، ص ٢٢٨، ويشير إليه عند وروده هكذا: طه حسين،
الفتنة الكبرى.
- (٥) البلاذري، أنساب (إحسان عباس) ق ٤، ج ١، ص ١٨٨ (قالوا). وانظر الجهشباري، الوزراء، ص ١٩. العسكري،
أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م)، الأوائل، تحقيق محمد السيد الوكيل، نشر أسعد طرابزوني، المدينة
المنورة، ١٩٦٦م، ص ١٩٧، ويشير إليه عند وروده هكذا: العسكري، الأوائل، ابن العربي، المعاصم من القواصم،
ص ٢٣٥ (قالوا). ابن خلّكان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٥٧.
- (٦) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ١٨٥. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٥.
- (٧) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢١٩.

سميّة، فزوجتها صفية من عبد رومي لها " يقال له عبيد، فولدت منه زياداً، فأعتقته صفية " (١).
إن ما ذكره الدينوري يفيد أن زياداً صار حراً نتيجة لحرية أمه من قبله، وفي هذا الاعتبار خطأ
بين، فكيف يولد زياد حراً وهو ابن عبد لم تثبت حرية؟! إذ يفترض أن يكون هو الآخر مملوكاً،
ويبدو أن صفية - زوج الحارث - أعتقته بعد مولده، كما هو واضح في رواية البلاذري، ويؤيد هذا
الرأي ما ذكر عن موقف أسرة سعيد بن عبيد - أخو صفية بنت عبيد - من قضية استلحاق زياد، إذ
أن ما فعله معاوية من استلحاق نسب زياد بأبي سفيان أثار حفيظة يونس بن سعيد بن عبيد ولم
يرضه، فقال عن زياد في حضرة معاوية " إنه لعبيدي ومولاي، أعتقته عمتي " (٢)، وفي هذا النص
إشارة واضحة إلى أن زياداً وُلد عبداً، ولكنه أعتق بعد مولده، ومن قبل صفية زوج الحارث، حتى
أنه استطاع بحريته وماله - زمن عمر بن الخطاب - أن يشتري والديه المملوكين (٣)، من صفية التي
أعتقته من قبل.

ولاستكمال الحديث عن نسب زياد، لا بد من دراسة ما ورد عن حياة أمه سمية عندما كانت
زوجة لعبيد الرومي، حيث وُصفت بأنها كانت امرأة بغية يتداولها الرجال (٤)، ويُذكر أن أبا سفيان
خرج يوماً إلى الطائف، فأصابها بنوع من أنكحه الجاهلية، فولدت له زياداً على فراش عبيد (٥).
ولمحاولة فهم هذه المسألة جيداً، لا بد من إلقاء الضوء على عادات وتقاليده المجتمع الجاهلي،
وخاصة تلك التي تتعلق بالزواج والنكاح، وكذلك معاملة السادة لعبيدهم، لعل هذا يفيد في
تفسير العادات والظروف التي جمعت بين أبي سفيان وسمية قبل الإسلام.
ذكر البخاري، أن من أشكال النكاح السائدة في الجاهلية نكاح الاستبضاع، وهو أن يأمر الزوج

(١) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٨٩ (قالوا). وذكر صاحب كتاب "تاريخ الخلفاء" نحو ما ذكره
البلاذري، غير أنه يسمي زوجة الحارث "أزده". (انظر مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٦). ولعله خلط بين اسم
زوجته "صفية" واسم ابنته "أزده" التي كانت زوجة لعتبة بن غزوان. (انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٨٨. البلاذري،
أنساب، (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٨٧ (قالوا).

(٢) البلاذري، أنساب، (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٣ (قالوا).

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ١٨٥ (سيف).

(٤) الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م)، المحاسن والأضداد، قدّم له وراجعته عاصم عيتاني، ط ١، دار إحياء
العلوم، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٩٥، وسيشار إليه عند وروده هكذا: الجاحظ، المحاسن والأضداد. البلاذري، أنساب
(إحسان عباس) ص ٤، ج ١، ص ١٩٢ (قالوا). ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ٥. المسعودي، مروج، م ٣،
ص ١٦. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٨ (عوانه). ابن الطقطقي، الفخري، ص ١٠٩. ابن حجر
العسقلاني، الإصابة، ج ١، ص ٥٨٠.

(٥) البلاذري: أنساب، (إحسان عباس) ق ٤، ج ١، ص ١٩٢ (قالوا). ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ٥،
المسعودي، مروج الذهب، م ٣، ص ١٦. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٨ (عوانه). ابن حجر العسقلاني،
الإصابة، ج ١، ص ٥٨٠.

زوجته - بعد أن تتطهر من حيضها - بأن تقدّم نفسها إلى أحد سادات القوم، لتستبضع منه ولدا، يحمل صفات جيدة موروثه عن والده الحقيقي^(١).

ومن أنكحة الجاهلية أيضا نكاح المقسمة^(٢)، وفيه تجتمع الجماعة ما دون العشرة، ويدخلون على المرأة، فيصيبونها جميعا، فإذا حملت وولدت اجتمعت بهم وألحقت الولد بمن شاءت منهم، والقول في ذلك قولها^(٣).

ومن العادات التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي، أن البغايا كان هن رايات على أبوابهن، وأطلق على بعضهن اسم " المظلمات " وذلك لتسلل الرجال إليهن في الظلام، وكان بعض الناس يضطرون جوارهم على البغاء، وهذا ما نهى الله تعالى بقوله (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، ومن يكرهن، فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم)^(٤) يريد في الاسلام^(٥).

إن سميّة لم تكن سوى عبدة كغيرها من العبيد الذين كانوا ملكا لساداتهم، ولهم الحق في التصرف بعبيدهم كيفما شاؤوا، وليس من المستبعد أن يكون الحارث بن كلدة قد أرغم أمته سميّة على البغاء لتحصيل ضريبة العبودية إلى سيدها، وأنها مارست عملها لدى (أبو مريم السلولي)، الذي قدمها إلى أبي سفيان^(٦)، وقد شهد بذلك عندما استلحق معاوية نسب زياد.

ومن المستبعد أن يكون عبيد قد طمح إلى تبني ولد من صلب أبي سفيان سيّد قريش وقتذاك^(٧)، وذلك لأن قضية اتصال أبي سفيان بسميّة لم يكن يعلمها - كما توضح الروايات - إلاّ أبا سفيان والشهود الذين أدلوا بشهاداتهم عندما استلحق زياد، وهذا يشعرنا بأن اتصال أبي سفيان بسميّة كان

- (١) البخاري، محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ / ٨٦٩م)، صحيح البخاري، تقديم أحمد محمد شاكر، ٩ ج، دار الجليل، بيروت ج ٧، ص ٢٠، وسيشار إليه عند وروده هكذا: البخاري، صحيح. الدارقطني، علي بن عمر (ت ٣٨٥هـ / ٩٩٥م)، سنن الدارقطني، تحقيق السيد عبد الله هاشم يماني المدني، ٤ ج، دار المحاسن للطباعة، القاهرة، ١٩٦٦م، ج ٣، ص ٣١٦-٣١٧، وسيشار إليه عند وروده هكذا: الدارقطني، سنن. الحلبي، نور الدين أبو الفرج علي بن برهان (ت ١٠٤٤هـ / ١٦٣٤م)، أنسان العيون في سيرة الأمين المأمون المعروفة بالسيرة الحلبية، ٣ ج، ط ١، المطبعة الأزهرية، ١٩٣٢-١٩٣٥، ج ١، ص ٥٠، وسيشار إليه عند وروده هكذا: الحلبي، السيرة الحلبية.
- (٢) الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٤م)، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد الكيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٩٦١، ج ٢، ص ٢٤٦، وسيشار إليه عند وروده هكذا: الشهرستاني، الملل والنحل.
- (٣) البخاري، صحيح، ج ٧، ص ٢٠. الدارقطني، سنن، ج ٣، ص ٣١٧. ابن الطقطقي، الفخري، ص ١١٠. الحلبي، السيرة الحلبية، ج ١، ص ٥٠.
- (٤) سورة النور، آية ٣٣.

- (٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ٤-٥. وانظر الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٢٤٦.
- (٦) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٢ (قالوا). المسعودي، مروج الذهب، م ٣، ص ١٦. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٨ (عوانه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٣. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٨٧ (المدائني). ابن الطقطقي، الفخري، ص ١٠٩.
- (٧) انظر رمزية عبد الوهاب الخيرو، إدارة العراق في صدر الاسلام، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٨م، ص ٦٦.

على سبيل أنها كانت واحدة من البغايا في الطائف، ولم يكن ذلك لغرض الاستبضاع. ولعدم وجود المعلومات أو الروايات التي تصرّح أو تلمح بامتلاك أبي سفيان لسميّة، أو زواجه منها قبل الاسلام، فإنه من المحتمل أن تكون سميّة قد حملت بزياد من أبي سفيان سفاحاً، والله أعلم، وهي في ذلك خاضعة - كغيرها من نساء عصرها - لواقع مجتمعهما وأعرافه ولم يكن ذلك المجتمع لينظر الى هذه الأمور نظرتة إليها بعد الاسلام، وإنما كان يعتبرها كسائر العادات والتقاليد التي تؤلف في مجموعها العلاقات الاجتماعية لذلك المجتمع، ولا شك أننا بمقاييس العصر الحديث لا نرى أن يؤاخذ زياد بما اقترفته أمه التي لم تحترف البغاء إلاّ كمكرهة بسبب العبودية، فحجى عليها ما كان يجري على كل الإماء المغلوبات على أمرهن اللواتي لا يملكن شيئاً من مصيرهن، وإنجاب هذه ومثيلاتهن للنواياح من البنين ليس مما يخالف المألوف من سنن النسب والوراثة.

مما تقدم، تتضح الأسباب التي لأجلها اختلفت المصادر والروايات في ذكرها لنسب زياد، فقد عُرف بابن سمية نسبة الى أمه سميّة جارية الحارث بن كلفة، وعُرف بابن عبيد نسبة الى عبيد، زوج أمه عندما ولدت، ونسب الى أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية، لأنه أصاب أمه بنوع من أنكحة الجاهلية. وسنلقي مزيداً من الضوء حول نسبه هذا في الفصل الثاني، وذلك عند الحديث عن مسألة استلحاق زياد أيام معاوية بن أبي سفيان.

وعن تسمية زياد بالأمر، فإننا لا نجد في المصادر ما يشير الى سبب هذه التسمية، ومن المحتمل أن يكون قد عُرف بها بعد توليه إمرة العراق زمن معاوية، وربما أطلقها عليه البعض تخافة الوقوع في الخطأ عند ذكر نسبه، أو خشية من سلطانه وسلطان أولاده من بعده، وذلك للحساسية التي كان يشعر بها آل زياد تجاه النسب، مما جعلهم يثرون لأقل تلميح، مهما كان تافهاً أو غير مقصود، اذا ما مس مسألة النسب أو أشار الى ماضي الأم والأب^(١).

أما عن كنية زياد بإبن أبيه، فقد عُرف بها نتيجة للشكوك التي أحاطت بأبيه الحقيقي فهي حل لمشكلة نسبه الغامض، وعلى الرغم من انطواء هذا الحل على شيء من اليأس والقنوط، إلاّ أنه يعتبر أسلم الحلول، وأقربها من حيث الحقيقة التاريخية، وليس أدل على ذلك من قول الشعبي: "إن شرك أن لا تكذب، فقل زياد بن أبيه"^(٢)، ونحوه قول ابن الطقطقي: "ومن يتحرى الصدق يقول: زياد بن أبيه"^(٣)، ويبدو أن كنية زياد هذه عُرف بها بعد انقضاء الدولة الأموية^(٤)، وربما عقب

(١) انظر: ابن عبدربه، العقد، ج ١، ص ٥٤ (الأصمعي). الأصفهاني، الأغاني، م ٦، ص ٨٨.

(٢) المقدسي، البدء والتاريخ، ج ٦، ص ٢.

(٣) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ١١١.

(٤) انظر: ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج ١، ص ٥٨٠.

إخراج الخليفة العباسي المهدي سنة (١٦٠هـ / ٧٧٦م)، لآل زياد من قريش وديوانها^(١). وعلى الرغم من كل الغموض الذي نلمسه في نسب زياد، إلا أن تفاصيل حياته فيما بعد هجرته للعراق، تشعرنا بأنه ينتمي الى عائلة أبي بكر، وهي من أوائل العائلات استقراراً في البصرة^(٢). هذه العائلة - كما يشهد بذلك تاريخ زياد - عاملت والي العراق لاحقاً كأخ أو على الأقل كقريب ذا صلة وثيقة بها، فقد كانت هذه العائلة تدير حسابات زياد وأملاكه، وهي التي حفظت له ثروته عندما كان والياً لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) على فارس^(٣). وحينما قبض عامل معاوية - بسر ابن أرطاة - على أبناء زياد، كأداة للضغط على أبيهم المتحصن بقلاع فارس، فإن أبا بكر هو الذي توسط عند الخليفة لإطلاق سراح أولاد أخيه^(٤).

ولقد استمرت هذه الصلات الطيبة المتبادلة بين أسرة زياد وآل أبي بكر، الى حين استلحاق معاوية لنسب زياد، على أن البرود بدأ بين الأسرتين منذ محاكمة المغيرة بن شعبة، وذلك عندما اتخذ زياد موقفاً مغايراً لموقف أبي بكر ومن معه في الشهادة على المغيرة بالزنا، مما أثار حفيظة أبي بكر

(١) انظر: الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ١٢٩-١٣٢. الأزدي، يزيد بن محمد (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٥م)، تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبه، لجنة إحياء التراث الاسلامي، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٢٤٠، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الأزدي، تاريخ الموصل. ابن الأثير، الكامل، م ٦، ص ٤٧-٤٨. أبو الفدا، عماد الدين اسماعيل (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)، المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ط ١، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، ج ٢، ص ٨، وسيشار اليه عند وروده هكذا: أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر. الفلقشندي، أحمد بن عبد الله (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ج ٣، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٦٤م، ج ١، ص ١٨٥، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الفلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة.

(٢) ذكرت بعض المصادر أن عبد الرحمن بن أبي بكر كان أول من ولد بالبصرة، وهذا يشير الى الإقامة المبكرة لعائلة أبي بكره في البصرة، (انظر: خليفة بن خياط، الطبقات، ص ٩٨. البلاذري، فتوح، ص ٤٨٤ (الأصمعي). ابن رسته، أحمد بن عمر (ت ٢٩٠هـ / ٩٠٢م)، العلاقات النفيسة، تحقيق دي غويه، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٩١م، أوفست مكتبة المثنى، بغداد ص ١٩٤، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن رسته، العلاقات النفيسة. ابن حبان (ت ٣٥٤هـ / ٩٦٥م)، مشاهير علماء الأمصار، صححه م. فلا يشهم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ٩٨، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن حبان، مشاهير علماء الأمصار. العسكري، الأوائل، ص ١٨١). ابن الغملاس، ولادة البصرة ومتسلموها ١٤هـ - ٣٣٣هـ، دار منشورات البصري، بغداد ١٩٦٢، ص ٥، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن الغملاس، ولادة البصرة.

(٣) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٩٣ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٧٦ (عمر بن شبة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢٢. التويري، نهاية الأرب، ج ٢، ص ٢٩٤-٢٩٥. ابن خلدون، محمد بن عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)، العبر وديوان التبدأ والخبر، م ٧، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٥٦-١٩٦٧م، م ٣، ص ١٠، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن خلدون، العبر.

(٤) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٥٠٥ (عوانه بن الحكم). أيضاً، ق ٤، ج ١ (احسان عباس)، ص ١٨٩ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٦٧ (مسلمة بن محارب). ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٧ (عوانه بن الحكم). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٥.

وغضبه، فأقسم أن لا يكلم زياداً ما عاش^(١). وزادت القطيعة بين زياد وأبي بكر عندما سمح الأول لمعاوية باستلحاقه بنسب أبي سفيان، ومع ذلك فإن أولاد أبي بكر كانوا من المقربين لزياد، فإليهم أوكل أبرز الوظائف وأهم المناصب، حتى كانوا من أشرف البصرة بكثرة المال والعلم والولايات^(٢).

وفاته

تكاد تتفق المصادر على أن وفاة زياد، كانت في سنة (٥٣هـ / ٦٧٢م)^(٣)، ويذهب بعضها إلى تحديد وفاته بشهر رمضان من تلك السنة^(٤). إلا أن اليعقوبي ذكر أن زياداً توفي في سنة (٥٤هـ / ٦٧٣م)^(٥)، ويتعذر قبول روايته، ليس لإجماع جُلّ المصادر في ذكرها لسنة وفاة زياد، ولكن لاختفاء أخبار زياد وغياها عن صفحات المصادر فيما بعد سنة (٥٣هـ / ٦٧٢م) مما يدعو إلى افتراض وفاته في تلك السنة، أي سنة (٥٣هـ / ٦٧٢م)، ولعل وفاته كانت في يوم الثلاثاء رابع يوم من أيام شهر رمضان، وذلك وفقاً لما جاء في قصيدة رثاء له، قال فيها الشاعر :

(١) ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ١٦. البلاذري، أنساب، (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٩٢ (قالوا). البلاذري، فتوح، ص ٤٨٢ (قالوا). اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م)، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، م. دار صادر، ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٠م، ج ٢، ص ٢٣٠ (روى بعضهم)، وسيشار إليه عند وروده هكذا : اليعقوبي، تاريخ. ابن عبدويه، المقد الفريد، ج ٥، ص ٦. الأصفهاني، الأغاني، م ١٦، ص ٥٨، الأبي، منصور بن الحسين (ت ٤٢١هـ / ١٠٣٠م)، نثر الدر، تحقيق محمد علي قرنه، ٥ ج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣م، ج ٤، ص ١٤٦-١٤٧، وسيشار إليه عند وروده هكذا : الأبي، نثر الدر. ابن خلكان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٦٦ (عمر بن شبة).

(٢) ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ١٦. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٤، ص ١٦١٥ (سعيد ابن المسيب)، ابن الأثير، أسد الغابة، م ٥، ص ١٥١. وانظر : الفصل الثالث من هذه الدراسة، ص ١٤٧.

(٣) ابن سعد، الطبقات ج ٤، ص ٢٩١ (الواقدي). خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ٢١٨، ٢٠٦. البشاري، التاريخ الصغير، م ١، ص ١٤١. ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٤٦. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٧٨ (قالوا). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٢ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٨٨ (المدائني). ابن عبد ربه، المقد الفريد، ج ٤، ص ٣٦٨ (المدائني). الجهشاري، الوزراء والكتاب، ص ٢٦. ابن حبان، محمد بن حبان (ت ٣٥٤هـ / ٩٦٥م)، المجروحون، صححه عزيز بيك القادري والنقشبندى، ج ١، ط ١، المطبعة العريزية، حيدر آباد، ١٩٧٠م، ج ١، ص ٣٠٣، وسيشار إليه عند وروده هكذا : ابن حبان، المجروحون، ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٣٠ (المدائني).

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٧٨ (قالوا)، الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٨٨ (المدائني). الجهشاري، الوزراء والكتاب، ص ٣٦. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٣٠. ابن عساکر، تاريخ / شخط، م ٦، ص ٤٨٢. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٩٣.

(٥) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٥. ابن أبي الدم، التاريخ الاسلامي، ج ١، ص ١٩٨.

لأربع مضيّن من شهر الصوم يوم الثلاثا الذي كان مضي
يوم قضى فيه المليك ما قضى وفاة برّجد جلد القوى^(١).

وكان سبب وفاته إصابته بحمى شديدة، وظهرت في أصبعه عرفة (أي قرحة)^(٢)، فلما اشتد عليه الألم، استدعى شريح بن الحارث الكندي، واستشاره في قطع أصبعه - وكان شريح قاضياً وليس طبيباً - فأشار عليه أن يسأل أهل الطب في ذلك^(٣)، فأحضر زياد عدداً من الأطباء، وسألهم في قطع أصبعه، فقال بعضهم له: "أتجد الوجع في الإصبع، أم تجد في قلبك والإصبع؟ قال في قلبي وفي الإصبع، قال: عش سليماً ومت سليماً"^(٤). وقيل أن شريحاً هو الذي أشار عليه بعدم قطع أصبعه، إذ قال له: "إن كان الأجل قد حضر لك لقيت الله وقد قطعت يدك فراراً من لقاءه، وإن كان الأجل متأخراً عشت أجدم، فعير بذلك ولدك"^(٥).

ويبدو أن زياداً عمل بنصيحة مستشارية من الأطباء وغيرهم ولم يقطع أصبعه، فمكث أياماً، ثم مات بالكوفة^(٦)، وكان قد أوصى قبل موته أن يدفن إلى جوار أبي موسى الأشعري^(٧)، فدفن في الثوية، وهو الموضع نفسه الذي دفن فيه أبو موسى^(٨) وصلى عليه خالد بن عبد الله بن خالد بن

(١) البيهقي، يوسف بن محمد (ت ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م)، الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام، تحقيق شفيق جاسر أحمد،

ج ٢، ط ١، عمان، ١٩٨٧م، ج ١، ص ٣١٦ (المدائني)، وسبشار اليه عند وروده هكذا: البيهقي، الإعلام بالحروب.

(٢) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٩٦ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٨٩ (عمر بن شبة). ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ١، ص ٨٢. أيضاً ج ٥، ص ١٢. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٥٠٥ (ابن شوذب). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٩٣.

(٣) البلاذري، أنساب، (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٧٦ (قالوا).

(٤) ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٢، ص ١١٤ (المدائني). البلاذري، أنساب (إحسان عباس) ق ٤، ج ١، ص ٢٧٦-٢٧٧ (قالوا). اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٦.

(٥) البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٧٧ (قالوا). وانظر: الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٨٩ (عمر ابن شبة). المسعودي، مروج الذهب، م ٣، ص ٣٦. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٩٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٦٤.

(٦) ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٢، ص ١١٤ (المدائني). البلاذري، أنساب (إحسان عباس) ق ٤، ج ١، ص ٢٧٦ (قالوا). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٥٠٥ (ابن شوذب).

(٧) البلاذري، أنساب، (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٨٠.

(٨) الثوية: موضع قريب من الكوفة، وقيل بالكوفة، وقيل موضع من وراء الحيرة، قريب من الكوفة، ويذكر البعض أنها كانت سجناً للعثمان بن المنذر، وفيها دفن المغيرة بن شعبة، وأبي موسى الأشعري، وزياد بن أبيه، قال حارثة بن بدر الغداني، يرثي زياداً:

صلى الأله على قبر وطهره عند الثوية يسفي فوقه المور.

انظر: البكري، عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق

أسيد^(١)، وكان زياد قبيل وفاته قد أدلى بوصيته الى الناس، وأمرهم بحفظها، وتدبر معانيها، ومما جاء فيها: "ان الله عز وجل جعل لعباده عقولا عاقبهم بها على معصيته، وأثابهم بها على طاعته، فالناس بين محسن بنعمة الله عليه ومسيء بخذلان الله إياه، والله النعمة على المحسن والحجة على المسيء..."^(٢). كما كتب زياد الى معاوية - وهو في ساعات احتضاره - كتاباً ينم عن إخلاصه في عمله، وأمانته في تنفيذ واجباته الموكلة إليه، فقد كتب "أما بعد، فاني كتبت اليك، وأنا في آخر يوم من الدنيا، وأول يوم من الآخرة، وقد وليت الكوفة عبد الله بن خالد بن أسيد، ووليت البصرة سمرة ابن جندب الفزاري، والسلام"^(٣).

ولما بلغ معاوية موت زياد استرجع وقال - معبراً عن الوحدة التي ألمت به بوفاة زياد -:
وأفردتُ سهمي في الكنانة واحداً
سيرئني به أو يكسر السهم كاسره^(٤)
ولم يكن معاوية وحده الذي افتقد شخص زياد وإدارته المتميزة، بل أن السواد الأعظم من الرعية أيضاً أعظموا موته وحزنت صدورهم له، فكثرت "بكاء الناس رجالهم ونسائهم عليه"^(٥)، وفي ذلك

= مصطفى السقا، ج ٢، عالم الكتب، بيروت، ج ١، ص ٣٥٠، وسيشار إليه عند وروده هكذا: البكري، معجم ما استعجم. وانظر ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٨٧. ابن عبد الحق، عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م)، مراصد الاطلاع على أساء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمد البجاوي، ج ٣، ط ١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٤، ج ١، ص ٣٠٢، وسيشار إليه عند وروده هكذا: ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع).
(١) الزيري، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله (ت ٢٣٦هـ / ٨٥٠م)، كتاب نسب قریش، عني بنشره وتحقيقه إ. ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٣م، ص ١٨٨، وسيشار إليه عند وروده هكذا: الزيري، نسب قریش.
البلاذري، أنساب، (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٩٦. أيضاً (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٧٨. اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٦. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٥٠٨ (أبو عبيد).
(٢) الجاحظ، البيان، ج ١، ص ٣٨٧-٣٨٨ (عمر بن عبيد). البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٧٩ (العتبي). ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٥٠٧ (الشافعي).
(٣) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٢٥ (قالوا). وانظر اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٦. الصابي، أبي الحسن محمد بن هلال (ت ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م)، المفوات النادرة، تحقيق صالح الاشر، ط ١، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٦٧م، ص ٨٣-٨٤ (عوانه بن الحكم)، وسيشار إليه عند وروده هكذا: الصابي، المفوات النادرة.
(٤) البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٤٧ (مسلمة بن محارب)، وأيضاً ص ٢٧٩. المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٦هـ / ٨٩٩م)، التعازي والمراثي، تحقيق محمد الديباجي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، ١٩٧٦م، ص ٥٢ (مسلمة بن محارب)، أيضاً ص ١٤٨، وسيشار إليه عند وروده هكذا: المبرد، التعازي والمراثي.
(٥) البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٧٨. وانظر القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٠م، ص ٢٥٥، وسيشار إليه عند وروده هكذا: القزويني، آثار البلاد.

يقول حارثة بن بدر الغداني^(١)، راثيا زياد :

عمت فواضله فعمّ مُصابه
فالناس فيه كلهم مأجور
ردّت صنائعهُ إليه حياته
فكأنه من نشرها منشور^(٢).

ومن المراثي المستحسنة ، قول حارثة بن بدر أيضا يرثي زياداً :

أبا المغيرة والدنيا مغيرة
وإن من غرت الدنيا مغرور
قد كان عندك للمعروف معرفة
وكان عندك للنكراء تنكير^(٣)
لو خلّد الخير والاسلام ذا قدم
إذا خلّدك الاسلام والخير^(٤).

وقال مسكين الدارمي^(٥) حين بلغه موت زياد :

رأيت زيادة الاسلام ولّت
جهارا حين ودعنا زياد^(٦).

وكان زياد في حياته ميسور الحال ، لم يتكلّف كثيراً في عيشه ، حتى قيل أنه أول من لبس الكتان

(١) حارثة بن بدر الغداني : من سادات بني تميم ووجهها ، ربما أدرك النبي ﷺ وهو في صباه وحدائمه " وليس بمعدود في فحول الشعراء ، ولكنه كان يعارض نظراءه الشعر " وكانت له مكانة خاصة عند زياد ، فقد قرّبه إليه - رغم تناوله الشراب - لرأيه وعلمه ، حتى أنه حول ديوانه في قریش ، وعندما وُلّي عبيد الله بن زياد ، أّخر حارثة بعض التأخير لمعاقرته الشراب ، (انظر : الأصفهاني ، الأغاني ، جـ ٢٣ ، ص ٤٤٤-٤٤٧).

(٢) الشريف المرتضى ، علي بن الحسين (ت ٤٣٦هـ / ١٠٤٤م) ، غرر الفوائد ودرر القلائد (أو أمالي المرتضى) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج ٢ ، ط ١ ، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي ، ١٩٥٤م ، ق ١ ، ص ٣٨٧ ، وسيشار إليه عند وروده هكذا : الشريف المرتضى ، أمالي المرتضى .

(٣) الجاحظ ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م) ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ج ٧ ، ط ٣ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٦٩م ، ج ٧ ، ص ١٥٩ ، وسيشار إليه عند وروده هكذا : الجاحظ ، الحيوان . البلاذري ، أنساب (إحسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٨١ (المدايني) . المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٦هـ / ٨٩٩م) ، الكامل في اللغة والأدب ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٦م ، ج ١ ، ص ٣١٧ ، وسيشار إليه عند وروده هكذا : المبرد ، الكامل . ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٢٤١ . (المهشم بن عدي) .

(٤) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٢٤١ (المهشم بن عدي) ، أيضاً ج ٣ ، ص ٢٩٧ .

(٥) مسكين ، لقب غلب على اسم الشاعر ربعة بن عامر بن أنيف بن شريح الدارمي التميمي " وهو شاعر شريف من سادات قومه ، هاجى الفرزدق ثم كافه ، فكان الفرزدق يعد ذلك في الشدائد التي أفلت منها " ، (انظر : الأصفهاني ، الأغاني ، م ٢٠ ، ص ١٦٧-١٦٨) .

(٦) أبو عبيدة ، معمر بن المثنى (ت ٢٠٩هـ / ٨٢٤م) ، النقائص ، باعثناء المستشرق الانكليزي بيفان ، ج ٣ ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٠٥ ، ج ٢ ، ص ٦٢١ ، وسيشار إليه عند وروده هكذا : أبو عبيدة ، النقائص . ابن سلام الجعفي ، محمد بن سلام (ت ٢٣١هـ / ٨٤٥م) ، طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر ، ج ٢ ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٧٤م ، ج ١ ، ص ٣٠٩ ، وسيشار إليه عند وروده هكذا : ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء . البلاذري ، أنساب (إحسان عباس) ، ق ٤ ، ص ٢٨٢ . الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٩٠ (عمر بن شبه) . العسكري ، أبو هلال حسن بن عبدالله (ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م) ، جبهة الأمثال ، بهامش كتاب مجمع الأمثال للميداني ، ج ٢ ، المطبعة الخيرية ، ١٣١٠هـ ، ج ١ ، ص ١٤٩ ، وسيشار إليه عند وروده هكذا : العسكري ، جبهة الأمثال .

والخفاف الساذجة من أمراء البصرة^(١). وذكر البلاذري أن زياداً عندما مات كان لا يملك من الدنيا إلا أقلها، فلم يخلف من المال أكثر من عشرة آلاف درهم " ولم يترك من الكسوة غير قميصين وإزارين وسروالين "^(٢)، وكان - بحكم منصبه - قادراً على احتواء الكثير من الأموال والأموال إلا أنه يلجأ إلى ذلك، وإذا كان قد أقطع بعض الضياع والأنهار لعدد من أبنائه وبناته، كما أقطع غيرهم^(٣)، فهذا دليل على اهتمامه بالأرض، وتشجيع الناس على زراعتها واستصلاحها، ولا يدل هذا على سعي زياد لجمع الأموال واقتناء الأملاك كما يزعم اليعقوبي، الذي ذكر أنه كان لزياد نحو ستة آلاف ألف دينار، سوى الضياع التي كان يمتلكها في سائر العراق^(٤)، وكان زياد يقول " ما دام سلطاننا فالدنيا كلها لنا، فإذا زال عنا، فالذي يجزيينا من الدنيا أقلها "^(٥).

نشأته وأهم أعماله في العصر الراشدي

قبل الشروع في الحديث عن أهم الأعمال التي تولاهها زياد في العصر الراشدي، لابد من إعطاء صورة عن صفات زياد وأخلاقه، هذه الأخلاق التي كان لها أكبر الأثر في بروز شخصيته وفي توليه لوظائف ومناصب هامة في العصر الراشدي. كان زياد طويلاً جميلاً، فيه حمرة أبيض اللحية مخروطها^(٦)، يكسر إحدى عينيه، وفي ذلك يقول الفرزدق للحجاج :

وقبلك ما أعيت كاسر عينه زيادا فلم تقدر عليّ حبائله^(٧).

وإلى جانب هذه الملامح الجسدية، نجد أن شخصية زياد تنطوي على العديد من الخصال التي

(١) ابن قتيبة، المعارف، ص ٥٥٤. ابن رسته، الأعلام النفيسة، ص ١٩٢. العسكري، الأوائل ص ٢٣٨.

(٢) البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٨٢ (قالوا).

(٣) انظر البلاذري، فتوح، ص ٥٠٥-٥٠٧.

(٤) انظر اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م)، مشاكلة الناس لزمانهم، تحقيق وليم ملورد، ط ٢، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٨٠م، ص ١٧، وسيشار إليه عند وروده هكذا: اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم. ابن الزبير، أحمد بن الرشيد (ت ٥٥٠هـ / ق ١١١م)، اللخائر والتحف، تحقيق محمد حميد الله، مراجعة صلاح الدين المنجد، ج ١، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٥٩م، ج ١، ص ٢٠٧، وسيشار إليه عند وروده هكذا: ابن الزبير، اللخائر والتحف.

(٥) البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٨٢ (قالوا).

(٦) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٩٠ (عبد الله بن أحمد). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٤. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٩٤. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٤٤.

(٧) أبو عبيدة، النقائص، ج ٢، ص ٦٠٧. الجاحظ، البيان، ج ١، ص ١٩٦، ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٢، ص ١٧١ (قال بعضهم). البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠٥ (أبو اليقظان). وكيع، محمد بن خلف (ت ٣٠٦هـ / ٩١٨م)، أخبار القضاة، تحقيق عبد العزيز المراغي، ج ٣، ط ١، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٧م، ج ٣، ص ٤ (محمد بن أبي علي)، وسيشار إليه عند وروده هكذا: وكيع، أخبار القضاة.

امتازت بها قبيلة ثقيف في الاسلام، ومن أبرز هذه الخصال : الدهاء . فقد كان زياد ممن عُرف من العرب بالدهاء، وسعة الحيلة وفي ذلك يقول الشعبي : " دهاة العرب أربعة : معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد " قال : " وأما زياد فللصغيرة والكبيرة " (١). وكان زياد رجلاً عاقلاً في دنياه، يضرب به المثل في حسن السياسية، ووفور العقل وحسن الضبط لما يتولاه، حتى قيل "أسوس من زياد" (٢)، وقال معاوية يصف سياسة زياد، وأسلوبه في معالجة الأمور : " إن زياداً لا يدع الأمر يتفرق عليه " (٣)، وهو يرى أن الانسان العاقل هو الذي يحتال للأمور أن لا يقع فيها، وليس العاقل الذي يحتال للأمر اذا وقع فيه (٤).

ومن الصفات التي تتميز بها شخصية زياد أيضاً البلاغة والخطابة، فهو يُعد أحد الخطباء اللامعين المشهورين في العرب بالفصاحة والنجاة وبراعة المنطق ومثانة الشخصية، مما جعله موضع ثقة عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وحسبُه عظمة أن ينال ثقة هذين الرجلين الجليلين . سمعه بعض الصحابة خطيباً، فأدهشهم بفصاحته وجرأته، حتى وصفه عمر رضي الله عنه بـ " الخطيب المصقع " (٥) - أي الفصيح -، وقال عنه عمرو بن العاص، " الله هذا الغلام لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه " (٦). وأثنى الشعبي على فصاحة زياد بقوله : " ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً أن يسيء إلا زياداً، فإنه كان كلما أكثر كان أجود كلاماً " (٧).

(١) ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٤، ص ١٤٤٦. الطرطوشي، محمد بن محمد بن الوليد (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦م)، سراج الملوك، ط ١، المكتبة العربية ومطبعها، القاهرة، ١٩٣٥م، ص ١٢٧، وسيشار اليه عند وروده هكذا : الطرطوشي، سراج الملوك. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٣. ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (٨٧٤هـ / ١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٢ ج، ط ١، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٩-١٩٥٦م، ج ١، ص ٧٢، وسيشار اليه عند وروده هكذا : ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد عبي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٢م، ص ٢٠٣، وسيشار اليه عند وروده هكذا : السيوطي، تاريخ الخلفاء.

(٢) الراغب الأصبهاني، حسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ / ١١٠٨م)، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ٤ ج، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ج ١، ص ١٦٨، وسيشار اليه عند وروده هكذا : الراغب الأصبهاني، محاضرات الأدباء. وانظر ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ١١١.

(٣) الأبي، نثر الدر، ج ٣، ص ٢٣.

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ١، ص ٢٤١. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٨ (سفيان بن عيينه).

(٥) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٣٠ (سيف). ابن مسكويه، أحمد بن محمد (ت ٤٢١هـ / ١٠٣٠م)، تجارب الأمم، لوزاك، لندن، ١٩٠٩م، ج ١، ص ٤١٠، وسيشار اليه عند وروده هكذا : ابن مسكويه، تجارب الأمم. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٤ (سيف). ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ٧٢ (الشعبي).

(٦) ابن العربي، العواصم من القواصم، ص ٢٣٧. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٩ (أبو المهاجر القاضي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٣. ابن خلكان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٥٧. ابن الوردي، تاريخ، ج ١، ص ١٦٨.

(٧) الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ٦٥-٦٦. ابن بكار، الأخبار الموفيات، ص ٣١٠. ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٢، ص ١٧١.

ولم يكن زياد فصيحاً بليغاً في خطبة فحسب، بل أن هذه الصفة لازمتها في مجالسه، وأثناء حديثه مع الآخرين، وكان يسخر من لا يجيد اللغة، ولا يجذب مجالسته^(١)، ولعل زياداً أدرك في زمنه تغير لغة الناس، ودخول الألفاظ الغريبة في كلام بعضهم نتيجة مخالطة العرب للعجم، فأمر أبا الأسود الدؤلي - بعد أن كان قد منعه من قبل - أن يضع للناس شيئاً يهتدون به، إلى معرفة كلام العرب، فوضع لهم النحو^(٢).

ويُعد زياد من الأكفاء في دولة بني أمية، وذلك لأنه جمع بين البلاغة والسياسة وتدبير الحرب^(٣)، الأمر الذي مكّنه من تدبير أمور رعيته ومملكته بحكمة المدرب العالم. وكان زياد منذ صباه وفتوته، ذكياً، فطناً، متوقداً للذهن، حازماً الرأي، صارماً العزيمة، إذا اقتنع بالرأي فرضه، فهو القائل: "... ولا حدثت نفسي بأمر قط، فحدثت به غيري، حتى أصير إليه"^(٤) وهو إلى جانب هذا، سريع البديهة، حاضر الجواب، فما من كلام الآ وله عنده جواب^(٥). وازداده إلى كل مقومات رجل الدولة التي عُرف بها زياد، فإننا نجد رجلاً نبيلاً، وسطاً في كرمه وجوده، يعطي الجزيل والخطير ما كان عطاؤه حزماً، ويمنع اليسير والقليل ما كان عطاؤه تضييعاً. وقد قيل عنه أنه "يُعطي حتى يقال جواد، ويمنع حتى يقال بخيل"^(٦)، وفي مدح جوده وسماحته قال أحدهم:

(١) الأصفهاني، الأغاني، م ١٢، ص ٣٠٣ (أحمد بن العباس العسكري). السرياني، الحسن بن عبد الله (ت ٣٦٨هـ / ٩٧٨م)، أخبار النحويين البصريين، تحقيق محمد إبراهيم البنا، ط ١، دار الاعتصام، ١٩٨٥م، ص ٣٥-٣٦ (يحيى بن آدم)، وسيشار إليه عند ورود هكذا: السرياني، أخبار النحويين البصريين. الزبيدي، محمد بن الحسن، (ت ٣٧٩هـ / ٩٨٩م)، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، مكتبة الخانجي، ١٩٥٤م، ص ١٩، وسيشار إليه عند ورود هكذا: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين. القفطي، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (ت ٤٦٦هـ / ١٢٤٨م)، إنباء الرواه على أنباء النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٣، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠-١٩٥٥م، ص ١٥-١٦، وسيشار إليه عند ورود هكذا: القفطي، إنباء الرواه. وانظر الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط ٢٣، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م، ج ٤، ص ٨٤ (عمر بن شبة)، وسيشار إليه عند ورود هكذا: الذهبي، سير أعلام النبلاء.

(٢) الثعالبي، عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م)، كتاب تحفة الوزراء، المنسوب للثعالبي تحقيق حبيب على الرواي، وإيتسام مرهون الصغار، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٧م، ص ٢٠، وسيشار إليه عند ورود هكذا: الثعالبي، تحفة الوزراء.

(٣) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٨٧ (قالوا).

(٤) ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٨ (شعبة بن الحجاج).

(٥) المصدر نفسه، م ٦، ص ٥٠٠ (العتبي).

(٦) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٩٠ (المداثني). ابن الأزرقي، محمد بن علي (ت ٨٩٦هـ / ١٤٩٠م)، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق علي سامي النشار، ط ٢، منشورات وزارة الاعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٧٧م، ج ١، ص ٢١٧. وسيشار إليه عند ورود هكذا: ابن الأزرقي، بدائع السلك.

إذا كنت مرتاد السباحة والندى فبادر زياداً أو أخا لزياد
يجبك امرؤ يعطي على الحمد ماله إذا ضنّ بالمعروف كل جواد^(١)

ولقد كان زياد بهذه الخصال المحمودة امرءاً متواضعاً بسيطاً في أسلوبه، وفي تصريف أمور حياته، فهو أول من رقع ثيابه، ولبس الكتان والخفاف الساذجة - التي لا نقش عليها - بالبصرة من الأمراء^(٢). وقد وصفه قبيصة بن جابر الأسدي أجمل وصف حين قال: "وصحبت زياداً، فما رأيت رجلاً أنحصب رفيقاً، ولا أكرم جلسياً، ولا أشبه سريرة بعلانية منه"^(٣). هذه هي أبرز الصفات التي ميّزت شخصية زياد، وهي صفات إذا ما تمتع بها المرء، فانه يزهو ويظهر على أقرانه، وإذا ما زجتها وقوتها إرادة ومعرفة وعلم زادت اشرافاً وروعة، وقد جسّد حارثة بن بدر الغداني - أحد أشرف بني تميم - هذه الخصال في قصيدة مدح فيها زياداً، ووصفه بأنه وزير نعم الوزير لأخيه الخليفة معاوية^(٤). تلك كانت صورة زياد بين صور رجالات عصره، وإذا كان أعداؤه من أنصار بني أمية ومناهضيهم قد حاولوا وصفه بما ليس فيه، مدفوعين إلى ذلك ببواعث مختلفة، فإن هذا لا ينال من قدره ومن صفاته التي تشهد عليها أعماله.

إن الذي بين أيدينا من أخبار التاريخ ليس كافياً لرسم سلسلة متصلة لحياة زياد، فالمصادر العربية لا تذكر عن صباه ونشأته الأولى في الطائف شيئاً، على أن توليه الحساب والكتابة لأمرأه

(١) التنوخي، المحسن بن علي (ت ٣٨٤هـ / ٩٩٤م)، المستجاد من فعلات الأجداد، تحقيق محمد كرد علي، مطبعة التراثي، دمشق، ١٩٧٠م، ص ٢٣٥ (الشيباني)، وسيشار اليه عند وروده هكذا: التنوخي، المستجاد. العسكري، الأوائل، ص ٢٤٣ (مسلمة بن محارب). أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد، (ت ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م)، الامتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، ٣ ج، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ج ٣، ص ٨٢ (ابن الأعرابي) وسيشار اليه عند وروده هكذا: أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة.

(٢) ابن قتيبة، المعارف، ص ٥٥٤. ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص ١٩٢. المرزباني، محمد بن عمدة (ت ٣٨٤هـ / ٩٩٤م)، نور القبس المختصر من المقتبس، اختصار أبي المحاسن يوسف بن أحمد اليعموري (ت ٧٦٣هـ / ١٢٧٤م)، تحقيق رودلف زلمايم، دار النشر فرانس شتاينر بفيسبادن، ١٩٦٤م، ص ١٨٤، ٢٦٦، وسيشار اليه عند وروده هكذا: المرزباني، نور القبس. العسكري، الأوائل، ص ٢٣٨. الفلقشندي، أحمد بن عبدالله (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الانشا، تحقيق محمد حسين شمس الدين، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ج ١، ص ٤٨٧، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الفلقشندي، صبح الأعشى.

(٣) البسوي، يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧هـ / ٨٩٠م)، المعرفة والتاريخ، رواية عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي، تحقيق أكرم ضياء العمري، ٣، ط ٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م، ص ٤٥٨، وسيشار اليه عند وروده هكذا: البسوي، المعرفة والتاريخ. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١١٩، ٢٧٩. أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، ج ٣، ص ٤٥. الطرطوشي، سراج الملوك، ص ١٢٧. ابن عساكر، تاريخ / شط، م ٦، ص ٤٩٣.

(٤) انظر الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٣-٢٢٤. ابن أعثم، الفتوح، م ٢، ص ٣٠٤. العسكري، الأوائل، ص ٢٤١-٢٤٢.

البصرة - منذ تأسيسها - وإجاده لها في هذه السن المبكرة، أمر يدعو إلى الاعتقاد أن زياداً قد تعلم القراءة والحساب في كتاب من كتاتيب الطائف في أيام صباه.

وأول ذكر لزياد في المصادر يرد في أمر إسلامه، حيث يذكر البلاذري نقلاً عن المدائني، أن زياداً أسلم في الطائف، وهو ابن خمس سنين^(١)، ورواية المدائني هذه يتعذر قبولها، لأن إسلام أهل الطائف كان في سنة (٩ هـ / ٦٣٠ م)^(٢)، ثم إن أبا بكره أخا زياد لأمه أسلم حينما حاصر المسلمون الطائف في شوال سنة (٨ هـ / ٦٢٩ م)، حيث نزل إلى الرسول (ﷺ) فيمن نزل من عبيد أهل الطائف^(٣)، ولم يُذكر أن زياداً قد أسلم معه، وتشعر رواية المدائني أن زياد أسلم بمفرده ودون أهله، وهذا أمر لا يعقل، إذ لا يمكن أن يكون قد اعتنق الإسلام، وهو طفل في الخامسة من عمره، بينما لا يزال أهله على الشرك، والأرجح أنه أسلم مع أهله من ثيف سنة (٩ هـ / ٦٣٠ م)، وذلك عندما أسلمت الطائف برمتها، وهو يُذكر بين الذين أدركوا النبوة وليست لهم صحبة أو رواية^(٤).

وإذا استثنينا ما ذكره المؤرخون عن مولد زياد وإسلامه، فإننا لا نجد له ذكر في الفترة التي سبقت خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأخباره ترد ويتوالى ذكرها بعد خروجه مع عتبة بن غزوان إلى البصرة، فبعد أن فتح الله عز وجل على المسلمين مدينة الحيرة^(٥) وما حولها، وقتل عظيمها مهران، وجه عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة (١٤ هـ / ٦٣٥ م)، عتبة بن غزوان المزني - من الصحابة الأولين - إلى ناحية البصرة، ليقود الحركات الإسلامية في تلك المنطقة ولينمى أمداد أهل فارس لقومهم في المدائن ونواحيها^(٦)، وقد قدم في صحبة عتبة - الذي كان متزوجاً من أزدية بنت الحارث ابن كلفة - عدد من أصحابه، وهم نافع ونفيع "أبو بكر"، وأخيها لأمهما زياد، وكان عمره حينئذ نحو أربع عشرة سنة^(٧).

-
- (١) البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٣.
- (٢) البلاذري، فتوح، ص ٧٥ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٩٧.
- (٣) ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ١٥. ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٨٨. البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٨٩ (قالوا). البلاذري أيضاً، فتوح، ص ٧٤-٧٥. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ١٧٢.
- (٤) ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٢. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٤٩٤. الصنفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٥، ص ١٢. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م)، لسان الميزان، ج ٧، ط ٢، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٧١ م، ج ٢، ص ٤٩٣، ويشير إليه عند وروده هكذا: ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان.
- (٥) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع النجف، وهي مسكن ملوك العرب قبل الإسلام، من زمن نصر ثم من لحم النعمان وأئانته. (انظر ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٢٨).
- (٦) البلاذري، فتوح، ص ٤٧٦ (قالوا). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٦. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٥٩٠-٥٩١ (الشعب). المسعودي، مروج الذهب، م ٢، ص ٣٢٨ (المدائني). محمد رزوق الشيعلي، تاريخ البصرة القديم وضواحيها، البصرة، ١٩٧٢ م، ص ١٢، ويشير إليه عند وروده هكذا: الشيعلي، تاريخ البصرة القديم.
- (٧) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٨٨. البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٨٧ (قالوا). والبلاذري أيضاً، فتوح، ص ٤٧٩ (عوانه). ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٢. بينما ذكر المدائني أن أزدية بنت الحارث كانت زوجة لشبل بن معبد البجلي، وأن أختها صفية، هي زوجة عتبة بن غزوان. (انظر الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٥٩٧).

وتختلف المصادر في عدد أفراد القوة التي صحبت عتبة، فالشعبي يذكر أنها بلغت الثلاثمائة رجل^(١)، ويؤكد ابن اسحاق والواقدي، أن عتبة خرج في ثمانمائة رجل^(٢)، ويبدو أن قوات عتبة بدأت بثلاثمائة مقاتل، ثم تزايد عددها بما انضم إليها في الطريق^(٣). حتى بلغت عند وصولها للبصرة ثمانمائة رجل، وهو عدد متواضع نسبياً.

ولما بلغ عتبة منطقة البصرة، أراد ابتداء أن يتخذ قاعدة لتحركاته، فنزل الخريبة^(٤)، وأقام بها معسكراً لجنده، ثم قام بعدة غارات على البلاد المجاورة، استطاع من خلالها أن يفتح العديد من المدن والبلدان، على الرغم من قلة المقاتلة معه، وكانت الأبله أول المدن التي افتتحها عتبة، وهي يومئذ المرفأ الرئيس للتجارة مع الهند والصين، وكان عليها خمسمائة من الأساورة لحمايتها^(٥)، فقاتلهم عتبة بمن معه حتى هزمهم، فدخل المدينة عنوة^(٦). أعقب ذلك فتح مدينة الفرات الواقعة على شط العرب، وكان على مقدمة الجيش الذي افتتحها مجاشع بن مسعود السلمي، أحد قادة عتبة^(٧). استمر عتبة في غاراته فاحتل المذار^(٨)، ودست ميسان^(٩)، وأبرقباد^(١٠)، دون أن يلقي مقاومة

-
- (١) الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٥٩١. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص ٤٨٧.
- (٢) ابن سعد، الطبقات، جـ ٧، ص ٦. (الواقدي). البلاذري، فتوح، ص ٤٧٨ (ابن اسحاق) بينما يذكر ابن الفقيه أن عتبة فتح البصرة في أربعين رجلاً. (انظر مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٧. وانظر ياقوت، معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٣١).
- (٣) ذكر الشعبي، أن عتبة خرج من المدينة في ثلاثمائة رجل، وانضم إليه قدر مائتين من الأعراب وأهل البوادي، أثناء توجهه إلى منطقة البصرة. (انظر الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٥٩١. العسكري، الأوائل، ص ٢٢٤. ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٤٨٧). وذكر ابن سعد، أن عمر كان يمد عتبة وهو في البصرة بالمائة والخمسين رجل ونحو ذلك. (انظر الطبقات، جـ ٧، ص ٧).
- (٤) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ ١، ص ٩٧ (أبو البقطان). البلاذري، فتوح، ص ٤٧٦ (قالوا). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٧. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٥٤ (الشعبي). المسعودي، مروج، م ٢، ص ٣٢٩ (المداثني). ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٤٨٦. والخريبة : موضع بالبصرة، سميت بذلك لأن المزيان كان قد ابنت فيها قصرًا له، وخرب بعده، فلما نزل المسلمون البصرة سموها الخريبة. (انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ ٢، ص ٣٦٣).
- (٥) البلاذري، فتوح، ص ٤٧٨ (محمد بن اسحاق). الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٥٩٤ (الشعبي). ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٤٨٧.
- (٦) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ ١، ص ٩٦ (المداثني). البلاذري، فتوح، ص ٤٧٧ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٥٩٤ (الشعبي). ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٤٨٧.
- (٧) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ ١، ص ٩٦. البلاذري، فتوح، ص ٤٧٨ (ابن اسحاق). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٧. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٥٩٥ (علي بن زيد).
- (٨) المذار : هي قصبه ميسان، تقع بين واسط والبصرة على ضفة دجلة، بينها وبين البصرة مسافة أربعة أيام (انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ ٥، ص ٨٨. وانظر الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المبطر في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط ٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٥٣٠-٥٣١، وسيشار إليه عند ورود هكلا : الحميري، الروض المبطر).
- (٩) دست ميسان : كورة تقع بين واسط والبصرة والأهواز، وهي إلى الأهواز أقرب، وقيل دست ميسان كورة قصبتها الأبله. (انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ ٢، ص ٤٥٥. وانظر ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، جـ ٢، ص ٥٢٦).
- (١٠) أبرقباد : من طساسيج المذار بين البصرة وواسط. (انظر ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، جـ ١، ص ١٥).

شديدة^(١)، ثم انصرف الى موضعه من البصرة، وكتب الى الخليفة عمر يعلمه بها فتح الله عليه من البلاد^(٢)، وكان المسلمون قد أصابوا غنائم كثيرة في تلك الفتوحات^(٣) التي تيسرت نتيجة لضعف وتحاذل الساسانيين في هذه الناحية.

وذكر كل من عوانة والمدائني أن المسلمين بعد أن فرغوا من فتح الأبله والفرات، وظفروا بغنائم كثيرة لم يجدوا بينهم من يجيد القراءة والحساب إلا زياداً " فوُلِّيَ قسم ذلك المغنم وجعل له كل يوم درهمان وهو غلام في رأسه ذؤابة "^(٤)، ويضيف المدائني أن زياداً كان " ابن أربع عشرة سنة " ^(٥)، ويفيد ما ذكره عوانة والمدائني أن زياداً قد رافق جيش عتبة في كل تحركاته، وذلك ليتولى بنفسه قسمة أي مغنم قد يجزئه المسلمون، هذا في الوقت الذي لم يكن بينهم من يتقن هذه الصناعة سواه^(٦). والواقع أن مهمة زياد لم تكن سهلة كما تبدو، فالغنائم التي ظفر بها المسلمون بعد فتح هذه المقاطعات استخدمت لسد مصروفات الحملة التي أخذ عددها يتزايد تدريجياً بها ينضم الى لوائها من العرب^(٧)، فلا بد والحال هذه أن يكون المشرف على قسمة تلك الغنائم عارفاً بأمور الكتابة والحساب، وتنظيم السجلات تنظيمًا جيداً، وقد كان هذا أول عمل قام به زياد، وهو إن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على قابلياته المبكرة لتولي الأعمال الادارية وقدرته على تحمل مسؤولياتها، والقيام عليها قيام المتدرب الجاد على الرغم من حداثة سنه.

ويظهر أن زياداً قد أتقن مهمته التي افتتح بها حياته الادارية، وأبدع فيما تولاه من الكتابة، وقسمة الغنائم وأن عمر (رضي الله عنه) قد بلغه ما قام به زياد، وهو الذي كتب إليه كتاباً بالفتح^(٨)، فأعجب بقدرته وكفاءته.

(١) انظر البلاذري، فتوح، ص ٤٧٨ (ابن اسحاق). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٨. البعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٤٣. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٥٩٥ (علي بن زيد). ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٨٨. بينما ذكر خليفة بن خياط، أن المغيرة بن شعبه هو الذي فتح ميسان ودست ميسان وأبرقباذ وشطي دجلة، وذلك في ولاية عتبة. (انظر تاريخ خليفة بن خياط، ج ١، ص ٩٦). ومن المحتمل أن يكون عتبة قد قسم جيشه الى قسمين : أحدهما بقيادته وعلى مقدمته مجاشع السلمي، والآخر بقيادة المغيرة، والذي تمكن من فتح ميسان ودست ميسان وأبرقباذ.

(٢) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٨.

(٣) البلاذري، فتوح، ص ٤٧٩ (عوانة). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٨. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٥٩٤ (الشعبي). ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٤٨٧.

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٧٩ (عوانة). الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٥٩٧ (المدائني). وذكر صاحب كتاب "تاريخ الخلفاء" أن زياداً تولى أيضاً قسمة الغنائم بين المسلمين بعد فتحهم لدست ميسان، لقاء أجر مقداره درهمين في كل يوم. (مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٧).

(٥) الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٥٩٧.

(٦) انظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٨٧ (قالوا).

(٧) ابن الفقيه، البلدان، ص ١٨٨. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٥٩٥ (أبو الميخ الهذلي). وانظر صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول، ط ٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٩م، ص ٣٩، ويشير الى عند وروده هكذا : صالح العلي، التنظيمات.

(٨) انظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٨٧ (قالوا).

وعندما كانت وقعة القادسية، بعث عمر إلى سعد بن أبي وقاص مجموعة من خيرة الرجال، ليكونوا عوناً له في تسيير الأمور الادارية والمالية للمقاتلة، فجعل على قضاء الناس عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي، وإليه جعل أيضاً قسمة الفتي وعين سلمان الفارسي رائداً ودليلاً للناس، وهلال الهجري ترجمانا، وزيايد كاتباً^(١)، هذا ما ذكره الطبري نقلاً عن سيف، وهو يشعر أن عمر أرسل هؤلاء الرجال من طرفه - أي من المدينة - إلا أن زياداً في تلك الآونة - وكما تشير الأحداث - كان في صحبة عتبة بن أبي الصرة، ويحتمل أن يكون قد وفد إلى المدينة، وأن عمر عينه كاتباً لسعد وأحقه به، ولكن الأرجح أن زياداً وفد - بعد أن صدر أمر الخليفة بتعيينه كاتباً - مع المدد الذي بعث به عتبة إلى سعد بقيادة المغيرة بن شعبة^(٢).

ومهما يكن من أمر، فإن تعيينه كاتباً من قبل الخليفة الفاروق، أمر يشير إلى حقائق هامة في حياة زياد، ليس أقلها أهمية من ثقة الخليفة به وبقدرته فيما ولاه إياه.

بعد أن استقرت أمور المسلمين بالبصرة، واستتب الأمن والنظام في المنطقة، استأذن عتبة بن غزوان الخليفة عمر في القدوم عليه والحج، فأذن له، فاستخلف عتبة مجاشع بن مسعود السلمي - وكان غائباً عن البصرة -، وأمر المغيرة بن شعبة بالصلاة في الناس إلى حين قدوم مجاشع^(٣)، ويبدو أن أهل ميسان قد استغلوا فرصة غياب عتبة، فجمعوا جموعهم لمقاتلة المسلمين، ولكن المغيرة عاجلهم بالقتال، فهزمهم قبل قدوم مجاشع - وكان بالفرات -، وبعث بالفتح إلى عمر^(٤).

أما عتبة، فقد توفي وهو عائد في طريقه إلى البصرة، بعد أن أدى فريضة الحج^(٥)، فلما علم عمر بوفاة عتبة كتب إلى المغيرة بن شعبة بعهده على البصرة^(٦)، وظل المغيرة أميراً على البصرة نحو عامين، كان

(١) الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٤٨٩. ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٤٥٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ٣٧.
(٢) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٠٢ (ابن اسحق). البلاذري، فتوح، ص ٣٥٨. البعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٤٦. وذكر الدينوري أن عمر رضي الله عنه كتب إلى أبي موسى الأشعري يأمره بامداد سعد، فوجه إليه أبو موسى المغيرة بن شعبة في ألف فارس. (انظر الأخبار الطوال، ص ١٢٠).

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ٩٨. البلاذري، فتوح، ص ٤٧٧ (المدايني)، أيضاً ص ٤٧٨ (قالوا). أيضاً ص ٤٧٩ (عوانه). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٨. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٥٩٦ (عبد الرحمن بن حوشن). ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٤٨٨.

(٤) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ٩٨. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٨. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٥٩٦.
(عبد الرحمن بن حوشن). وينفرد البلاذري بذكر رواية مفادها، أن دهقان ميسان كفر ورجع عن الاسلام، فلقبه المغيرة وقتله. انظر البلاذري، فتوح، ص ٤٧٩ (عوانه). لكننا لم نجد إشارة في المصادر الأخرى إلى اسلامه حين الفتح أو بعده ولعله كان ناكثاً للعهد، ولم يكن مرتداً.

(٥) ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٨. خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ٩٨. ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٧٥.
البلاذري، فتوح، ص ٤٧٨ (قالوا). البعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٤٦. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٥٩٥-٥٩٦ (علي بن زيد). العسكري، الأوائل، ص ٢٢٥ (قالوا). ابن خلدون، العبر، م ٢، ص ٩٤٣.

(٦) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ٩٨. ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٩٥. البلاذري، انساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٨٧ (قالوا). البلاذري أيضاً، فتوح، ص ٤٧٩-٤٨٠ (عوانه). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٨. البعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٤٦. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٥٩٧. العسكري، الأوائل، ص ٢٢٥ (قالوا). المقدسي، البدء والتاريخ، ج ٥، ص ١٧٥.

زياد خلالها يمارس مهمة الكتابة له^(١). وذكر سيف حوالي سنة (١٦هـ / ٦٣٧م)، - قبل جلولا
أن زيادا هو "الذي كان يكتب للناس، ويدونهم"^(٢)، وأورد ابن قتيبة أن المغيرة "أول من وضع
ديوان البصرة"^(٣)، هذا في الوقت الذي كان فيه زياد كاتباً له، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أن زياداً هو
الذي قام بعمل سجل المقاتلين في البصرة أثناء ولاية المغيرة، لا سيما وأنه صاحب خبرة ودراية في
بحال عمله، الذي تولاه منذ أيام عتبة بن غزوان.

والكتابة ليست بالمهمة السهلة، فالكاتب هو العقل المعبر عن رأي الأمير وفكره، وهو النائب
عنه في أموره، واليه تصل كتب ورسائل العمال والولاة، وعنه تصدر الأجوبة^(٤)، والكتابة صناعة
جليلة ذات منزلة رفيعة، وقد قيل في علو مرتبتها أنها "أشرف مراتب الدنيا بعد الخلافة"^(٥)، وإذا
كانت الكتابة من بين سائر الصناعات بهذه المرتبة الشريفة، فإن الكتاب كانوا كذلك بين سائر
الناس، إذ ينبغي أن يكون الكاتب: أديباً، فصيحاً، جريئاً، حاد الذهن قوي النفس، حاضر
الحس، كريم الأخلاق، حسن الخط، بهي الملبس، الى غير ذلك من الصفات الحميدة
والكريمة^(٦).

لقد جسد زياد في شخصه كل أنواع الذكاء والمرونة والحزم المنسوبة للثقيفين، ومعرفته للكتابة
والحساب توضح ذلك بجلاء، هذه المعرفة جعلته في مصاف الموظفين الكبار، كاتب وأمين على
الأموال لدى العديد من الولاة كالمغيرة، وأبي موسى الأشعري، وعبد الله بن عامر، وعبد الله بن
عباس^(٧).

(١) ابن حبيب، محمد بن حبيب (ت ٢٤٥هـ / ٨٥٩م)، المحبر، "رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري"، إعتنى
بتصحيحه إيلزه ليختن شتير، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد، ١٩٤٢م، ص ٣٧٨، وسيشار اليه عند وروده
هكذا: ابن حبيب، المحبر. ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٤٦. البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١. ص
١٨٧ (قالوا). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢١٩. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤، ص ١٦٧. الثعالبي، عبد
الملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م)، لطائف المعارف، تحقيق إبراهيم الأبياري، وحسن الصيرفي، دار احياء الكتب
العربية، مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٠م، ص ٦٠، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الثعالبي، لطائف المعارف، ابن
عساكر، تاريخ / خط م ٦، ص ٤٨٥ (أبو نعيم).

(٢) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٢٩. ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج ١، ص ٣٩٩. ابن عساكر، علي بن الحسن (ت
٥٧١هـ / ١١٧٥م)، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، هدية الشيخ عبد القادر بدران، ج ٧، ط ٢، دار السيرة، بيروت،
١٩٧٩م، ج ٥، ص ٤٠٩ (عمد بن عمرو)، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن عساكر، تهذيب.

(٣) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٩٥. الأصفهاني، الأغاني، م ١٦، ص ٤٣. ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج ٣، ص
٤٥٣-٤٥٢. فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١٠٩.

(٤) انظر ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤، ص ١٧٩ (المؤيد). ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٧، ص ٧٩.

(٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤، ص ١٧٩ (المؤيد). القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٦٥ (المؤيد).

(٦) انظر ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤، ص ١٧١-١٧٢ (ابراهيم بن محمد الشيباني) القلقشندي، صبح الأعشى، ج
١، ص ٩٩-١٠١.

(٧) ابن حبيب، المحبر، ص ٣٧٨. ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٤٦. الثعالبي، لطائف المعارف، ص ٦٠. ابن عساكر، تاريخ
/ خط م ٦، ص ٤٨٥ (أبو نعيم).

وفي سنة (١٧هـ / ٦٣٨م) عزل الخليفة عمر المغيرة بن شعبة عن البصرة^(١)، وكان سبب عزله أنه اتهم بترده على امرأة من بني هلال، ودخوله عليها زانيا، وقد كان زياد أحد الشهود الأربعة الذين استدعوا للشهادة على المغيرة وهم: أبو بكر، ونافع بن الحارث، وشبل بن معبد البجلي، وقد شهد هؤلاء الثلاثة في مجلس القضاء وبين يدي الخليفة عمر، أنهم رأوا المغيرة يرتكب جريمته في وضوح النهار، أما زياد فلم يشهد بمثل شهادتهم، وذكر أنه لم ير الفعل بوضوح كما وصفه الشهود الثلاثة من قبله، فكانت شهادته مغايرة لشهاداتهم، الأمر الذي أبرأ ساحة المغيرة، وحال دون إقامة الحد عليه، بينما جُلد الشهود الثلاثة حد القذف لعدم اكتمال الشهادة بوجود الشاهد الرابع^(٢)، وذلك عملاً بقوله تعالى ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فأجلدوهم ثمانين جلدة﴾^(٣).

وقد جاء في بعض الروايات التي ذكرت هذه الحادثة، أنه عندما تقدم زياد للشهادة، قال له عمر: "والله أي لأرى وجها خليقاً أن لا يخزي عليه اليوم رجل من أصحاب محمد" ^(٤) مما حدا ببعضهم إلى القول: إن عمر عطل حد الله في المغيرة لما شهد عليه بالزنا^(٥)، والواقع أن عمر كان متشككاً كثيراً في محاكمة المغيرة، حتى أنه عزله عن ولاية البصرة عزلاً تاماً حين علم بخبره وعن مكانه أبا موسى الأشعري^(٦)، ونلمس تشدد عمر وعدم تهاونه في هذه القضية أيضاً من خلال استجوابه

(١) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٠٦. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٦٩ (الزهري). ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٤١ (الواقدي). أبو الفدا، المختصر، ج ١، ص ١٦٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ٨٣ (الواقدي).

(٢) البلاذري، أنساب، (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٩٠-٤٩٢ (قالوا). البلاذري أيضاً، فتوح، ص ٤٨٠-٤٨٢ (قالوا). يعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٤٦. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٧٠-٧٢ (سيف). ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ٦. الأصفهاني، الأغاني ج ١٦، ص ٥٤-٥٧ (عمر بن شبة). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٤، ص ١٦١٤-١٦١٥. ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٤٢-٥٤٠. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٢، ص ٢٣٢-٢٣٣ (سيف). ابن خلكان، وفیات الأعيان، م ٦، ص ٣٦٤-٣٦٦ (قال الراوي). ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ٨٣-٨٤ (الواقدي وسيف).

(٣) سورة النور، آية ٤.

(٤) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٩١ (قالوا). يعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٤٦. الأصفهاني، الأغاني، م ١٦، ص ٥٧ (عمر بن شبة). ابن العربي، العواصم من القواصم، ص ٢٣٩. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٢، ص ٢٣٦ (عمر بن شبة). ابن خلكان، وفیات الأعيان، م ٦، ص ٣٦٥ (قال الراوي). أبو الفدا، المختصر، ج ١، ص ١٦٢.

(٥) انظر ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٢، ص ٢٢٧.

(٦) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٠٦. البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٩١ (قالوا). البلاذري، فتوح، ص ٤٨١ (قالوا). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٨. يعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٤٦. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٦٩ (الزهري). ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٤٠ (الواقدي). ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٢، ص ٢٣٢-٢٣٣ (سيف). أبو الفدا، المختصر، ج ١، ص ١٦٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ٨٣ (الواقدي).

للشهود حيث كان حريصاً على سماع شهاداتهم وأجوبتهم من غير تلميح أو إشارة^(١)، والرواية التي ذكرت مقولة عمر آنفة الذكر، تصور لنا أن زياداً لم يكن بين الشهود ابتداء وأنه لحق بهم، وهذا ما لا يتفق وواقع القصة، فعمر لم يستحضر المغيرة والشهود إلا بعد أن عرف أن عدد الشهود أربعة، وهو العدد الذي تكتمل به الشهادة، لإقامة حد الزنا، وبالتالي فلا بد أن يكون زياد قد قدم إلى المدينة في صحبة المغيرة والشهود، ولم يلحق بهم، وهذا ما يفهم من رواية سيف، والتي تشير إلى أن الشهود الأربعة كانوا معاً في حضرة عمر، ومن معه من صحابة رسول الله ﷺ، وأنهم أدلوا بشهاداتهم دون أن يلوح عمر لأحدهم بمخالفة غيره، لا بل أنه قال للمغيرة بعدما فرغ زياد من شهادته "أما والله لو تمت الشهادة لرحمتك بأحجارك"، ولهذا فأنا نستبعد ما ذكرته بعض الروايات في حق الخليفة عمر رضي الله عنه الذي لم يعطل الحد إلا من حيث لم تكتمل الشهادة، وبارادة الشاهد الرابع.

ويبدو أن شهادة زياد وموقفه من هذه القضية، كان أمراً مرضياً عنه لدى الصحابة وعلى رأسهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولو أنه رأى فيه فسقا لطعن في شهادته، ولما ولّاه بعد ذلك فارس، واثمنه على أموال الناس ودمائهم^(٣).

عين عمر على ولاية البصرة - بعد عزله للمغيرة على أثر تلك الحادثة - أبا موسى الأشعري^(٤)، وفي أمارته ظل زياد كاتباً له،^(٥) فصار معروفاً في الناس، وقد أظهر تفوقاً في عمله، ومقدرة فائقة في تسيير الأمور، فنال بذلك إعجاب الأمير وتقديره، مما جعل أبا موسى يستخلفه على البصرة أثناء غيابه عنها^(٦)، وحين انشغاله بالفتوحات، حيث تمكنت الجيوش الإسلامية المعسكرة في البصرة -

-
- (١) انظر البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٩١-٤٩٢ (قالوا). البلاذري أيضاً فتوح، ص ٤٨١-٤٨٢ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٧١-٧٢ (سيف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٦، ص ٥٦ (عمر بن شبة). ابن خلكان، وفیات الأعيان، م ٦، ص ٣٦٥ (قال الراوي). ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ٨٤ (الواقدي وسيف).
- (٢) انظر الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٧٠-٧٢. ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٤١-٥٤٢. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٢، ص ٢٣٣-٢٣٤ (سيف). ابن كثير، البداية والنهاية ج ٧، ص ٨٤ (الواقدي وسيف).
- (٣) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٧٤. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٨٨ (قالوا). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢١٩. وكيع، أخبار القضاة، ج ١، ص ٢٨٩ (المدايني). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٢٢ (عمر بن شبة). الأصفهاني، الأغاني، م ١٢، ص ٣١٦ (أبو بكر الهذلي). ابن العربي، العواصم من القواصم، ص ٢٣٧. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٦ (قالوا). ابن الأثير، الكامل م ٣، ص ٣٦٧.
- (٤) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، م ٦، ص ١٠٦. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٦٩. ابن الأثير، الكامل م ٢، ص ٥٤٠ (الواقدي). أبو الفدا، المختصر، ج ١، ص ١٦٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ٨٣ (الواقدي).
- (٥) ابن حبيب، المحبر، ص ٣٧٨. ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٤٦. البلاذري، فتوح، ص ٥٣١ (أبو مخنف والواقدي). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٨. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤، ص ١٦٧، ١٦٩. ابن مسكويه، تحارب الأمم، ج ١، ص ٤٥٥. الثعالبي، لطائف المعارف، ص ٦٠. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٢. ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج ١، ص ٥٨٠ (أبو عمر).
- (٦) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٥٦. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٨٧ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ١٨٤ (سيف). الجهشيار، الوزراء، ص ١٨. ابن مسكويه، تحارب الأمم، ج ١، ص ٤٥٥. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٤. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٩.

إبان إمارته - من توطيد سيطرتها على كور دجلة سنة (١٧هـ / ٦٣٨م)، وفتح تستر والسوس ورامهرمز^(١)، كما اشترك مقاتلة البصرة مع أهل البحرين في فتوح بعض نواحي فارس^(٢).
لأن استمرار زياد في ممارسة مهمة الكتابة زمن المغيرة، ثم في أيام أبي موسى، واستخلاف كل منهما له على البصرة أثناء خروجهما منها، أمور أكسبت زياداً خبرات واسعة ليس في مجال عمله ككاتب فحسب، وإنما في كافة المهام الكبيرة التي من شأن الأمير القيام بها أو الإشراف عليها.
ويبدو أن النجاح الكبير الذي حققه زياد في أعمال الكتابة والحساب، جعل سعد بن أبي وقاص يطلبه سنة (١٦هـ / ٦٣٧م)، ليقوم بقسمة الغنائم في وقعة جلولاء. ذكر سيف أن سعداً "بعث الأخماس مع قضاعي وأبي مفزر، والحساب مع زياد... وكان الذي يكتب للناس ويدونهم"^(٣) فلما قدم زياد إلى عمر كلمه فيما جاء فيه، ووصف له ما كان فيه المسلمون أحسن وصف، فأعجب عمر بوصفه وحفظه وأحب أن يسمع المسلمون ذلك منه فقال له: "هل تستطيع أن تقوم في الناس، بمثل الذي كلمتني به؟ فقال: والله ما على الأرض شخص أهيب في صدري منك، فكيف لا أقوى على هذا من غيرك"^(٤)، فقام زياد يخطب في الناس، ويعلمهم بما صنع المسلمون وأصابوا فأزاد إعجاب عمر ببلاغته وسلاسة تعبيره، ووصفه بقوله "هذا الخطيب المصقع"، فرد عليه زياد معللاً له سبب فصاحة لسانه وحسن بيانه في هذه الخطبة: "إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا"^(٥)، وكان من إعجاب عمر رضي الله عنه بزياد، أنه إذا وفد إليه رجل من البصرة "أحب أن يكون زياداً ليشفيه من الخبر"^(٦)، وهذا أن دلّ على شيء فإنما يدل على قدرات زياد الإدارية والفكرية العظيمة، التي جعلته في مصاف الساسة الكبار.

-
- (١) تستر والسوس ورامهرمز: مدن مشهورة بنواحي خوزستان. (انظر ياقوت، معجم البلدان حسب الترتيب، "ج ٢، ص ٢٩"، "ج ٣، ص ٢٨٠"، "ج ٣، ص ١٧". وانظر الحميري، والروض المعطار، ص ٢٢٥).
- (٢) لمزيد من المعلومات عن فتوحات أبي موسى، انظر: خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١١١-١١٢، ١١٩-١٢٠. البلاذري، فتوح، ص ٥٣١-٥٣٨. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٣٠-١٣٣. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٩٣-٩٧. ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٠-٣١. ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٤٢-٥٥٣.
- (٣) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٢٩. ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج ١، ص ٣٩٩. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٤. ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٢٢. النويري، نهاية الأرب، ج ١٩، ص ٢٣٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ٧١ (الشعبي).
- (٤) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٢٩ (سيف). ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٦، ص ١٣٢. ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج ١، ص ٣٩٩-٤٠٠. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٤. ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٢٢. النويري، نهاية الأرب، ج ١٩، ص ٢٣٢، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ٧٢ (الشعبي).
- (٥) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٣٠ (سيف). ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج ١، ص ٤٠٠. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٤ (سيف). ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٢٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ٧٢ (الشعبي).
- (٦) ابن خلکان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٥٧. وذكر ابن حمدون أن عمر كتب إلى أبي موسى "إذا جاءك هذا - أي كتابي - فأعط الناس أعطيتهم، وأهل إليّ ما بقي مع زياد، ففعل، فلما كان عثمان، كتب إلى أبي موسى بمثل ذلك ففعل". (انظر ابن حمدون محمد بن الحسن (ت ١١٦٦هـ / ١١٦٦م)، التذكرة الحمدونية، تحقيق احسان عباس، م ١، ط ١ معهد الانماء العربي، بيروت، ١٩٨٣م، ص ١٤١، ويشير إليه عند وروده هكذا: ابن حمدون، التذكرة الحمدونية).

والحقيقة أن زياداً واجه في مطلع شبابه عقبات عديدة : كحادثة سنه ، وعدم سبقه في الاسلام ، وحسد البعض له عند توليه للوظائف الهامة ، وربما غموض نسبه أيضاً ، كل هذه الأمور كادت أن تقضي على طموحه المتميز وهو لم يبلغ بعد العشرين من عمره ، إلا أن إرادته ورغبته المتزايدة في ممارسة العمل الإداري والسياسي ، جعلته أحد الموظفين الكبار في الدولة ، وبعد خلافة معاوية غدا زياد من الساسة المشهورين .

لقد أدى إسناد بعض المهام لزياد إلى إثارة الشكوى ضده من قبل البعض ، ذكر سيف أن أبا موسى - بعد أن فرغ من فتح إصبهان ، وجمع السبي والأموال - بعث بالفتح إلى عمر ، وأوفد إليه وفداً ، وقد أراد ضبة بن محصن العنزي أن يكون بين الوفد ، ولكن أبا موسى سير من هو أحق منه ، فانطلق العنزي إلى عمر وأخبره أن أبا موسى " تنقّى ستين غلاماً من أبناء الدهاقين لنفسه ... وفوض أمره إلى زياد ... - وكان زياد يلي أمور البصرة - " (١) ، فبعث عمر إلى أبي موسى يستقدمه ، فقدم إليه وقد استخلف زياداً على البصرة ، فسأله عمر عن التهم التي وجهها إليه ضبة العنزي فأجابه عليها ، وعن تولي زياد لأمر الناس ، قال عمر لأبي موسى : " بلغني أنك استخلفت على البصرة غلاماً حديث السن ليس له قدم ولا هجرة ولا تجربة " (٢) ، فرد عليه أبو موسى بقوله " وجدت له نبلاً ورأياً ، فأسندت إليه عملي " (٣) .

ويبدو أن عمر رضي الله عنه رغم معرفته لزياد الذي مثّل أمامه أثناء محاكمة المغيرة بن شعبة ، إلا أنه لم يقتنع بقدرة غلام مثله على إدارة البصرة ، والتي تُعد من أهم الأمصار الإسلامية وقتذاك ، فاستدعاه الخليفة إلى المدينة ، ولما قدم زياد كان عليه ثياب كتان بيضاء ، فسأله عمر عن أثائها ، فأخبره ، ثم سأله عن عطائه ، فأجاب زياد " ألفان " ، فقال عمر " ما صنعت في أول عطاء خرج لك ؟ قال : اشتريت والدتي فأعتقتها ، واشتريت في الثاني (أي الألف الثاني) ربيبي عبيداً فأعتقته ، فقال : وفقت " (٤) .

لقد تعرّف الخليفة عمر من خلال حديثه هذا مع زياد ، على جوانب شخصيته المختلفة ، فيما ذكره عن ملبسه ، وسلوكه الشخصي في أهله ، وتصرفه في أمور معاشه إنها يعبر عن سلوك سليم ، وسيرة حسنة ، وعقلية ناضجة بعيدة عن الهوى .

وبعد ذلك أراد عمر أن يختبر مقدرة زياد الإدارية الشابة ، والتي نالت إعجاب وتقدير أبي موسى ومن سبقه من أمراء البصرة ، فأمره عمر أن يكتب في بعض الأمور كتاباً ، فكتبه ودفعه إلى عمر ، فنظر فيه ، وقال : " غيره " فكتب في ذات المعنى كتاباً آخر ، فقال : " غيره " ، فكتب الثالث ، فعجب

(١) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ١٨٤ . ابن عساکر ، تاريخ / خط ، م ٦ ، ص ٤٨٤ . ابن الأثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٧ .
(٢) البلاذري ، أنساب (إحسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٨٧-١٨٨ (قالوا) . الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ١٨٥ (سيف) . الجهشيار ، الوزراء ، ص ١٨ . ابن عساکر ، تاريخ / خط ، م ٦ ، ص ٤٨٥ (سيف) .
(٣) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ١٨٥ (سيف) . ابن الأثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٧ .
(٤) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ١٨٥ (سيف) . ابن عساکر ، تاريخ / خط ، م ٦ ، ص ٤٨٥ (سيف) .

عمر من بلاغته، وسعة معرفته^(١)، وقال : "لقد بلغ ما أردت في الأول، ولكنني ظننت أنه قد روى فيه، ثم بلغ في الثاني ما أردت، فكرهت أن أعلمه ذلك، وأردت أن أضع منه لثلا يدخله العجب فيهلك"^(٢)، ثم سأله عمر عن الفرائض والسنن والقرآن، "فوجده فقيها، فرده وأمر أمراء البصرة أن يشربوا برأيه"^(٣).

يتضح مما تقدم، أن أبا موسى كان يعرف زياد معرفة جيدة، وهذه المعرفة لم تنأ إلا بالاختبارات المتكررة التي أثبت فيها زياد قوة الشخصية، ودقة الملاحظة، والقدرة على تسيير الأمور، فكان أبو موسى يعتمد عليه عند خروجه من البصرة ويطمئن إلى تصرفه في شؤون المصر فهو كما وصفه للخليفة "ضابط لما وُلح خليف بخل خير"^(٤).

وعلى الرغم من قابلية زياد ومقدرته الادارية الكبيرة إلا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ارتأى عزله عن عمله في البصرة^(٥)، ويبدو أن الخليفة لم يعزله إلا لحدائثه سنه، ولأنه ليست له سابقة في الاسلام، فهناك من أصحاب السبق من هو أحق من زياد في تولي كتابة البصرة، وربما خشي عمر تكرار الشكوى ضده من قبل أهل البصرة، فأراد أن يختصر الأمر بعزله فعزله، وقد سأل زياد الخليفة عن سبب عزله قائلاً "أعني عجز أم عن خيانة"، فقال عمر "لا عن واحدة منهما، ولكني أكره أن أحمل على العامة فضل عقلك"^(٦)، وأي عقل كان لزياد يزيد به على صحابة رسول الله ﷺ، وعلى سائر الناس أيام عمر؟، ثم أن من كُمل عقله أكثر فهو أولى بالاختلاط مع الناس لا أن يعتزلهم، ولعل عبارة عمر رهذه كانت ترضية منه لزياد، الشاب الطموح وصاحب المواهب الفاتحة.

بقي أبو موسى الأشعري والياً للبصرة إلى ما بعد وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه - سنة (٢٣هـ / ٦٤٣م) - بنحو ست سنوات في خلافة عثمان الذي عزله سنة (٢٩هـ / ٦٤٩م)، وولى

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٨٨ (قالوا). الجهشيارى، الوزراء، ص ١٨. ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج ١، ص ٤٥٥.

(٢) الجهشيارى، الوزراء، ص ١٨. ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج ١، ص ٤٥٤-٤٥٥.

(٣) الطبرى، تاريخ، ج ٤، ص ١٨٥ (سيف). ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٥ (سيف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٥، ص ١٢. الكتبي، فوات الوفيات، ج ٢، ص ٣٢.

(٤) الجهشيارى، الوزراء، ص ١٨.

(٥) الجاحظ، البيان، ج ١، ص ٢٦٠. ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ٣٢٩. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ١١. الجهشيارى، الوزراء، ص ١٩-٢٠. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٣. الطرطوشي، سراج الملوك، ص ١٢٨. ابن الأثير، أسد الغابة، م ٢، ص ٢١٥.

(٦) الجاحظ، البيان، ج ١، ص ٢٦٠. ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ٣٢٩. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ١١. الجهشيارى، الوزراء، ص ٢٠. الآبي، نشر الدر، ج ٢، ص ١٩١. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٣ (عن بعض أهل الأخبار). الطرطوشي، سراج الملوك، ص ١٢٨. الزغشري، ربيع الأبرار، ج ٤، ص ٢٤٧. ابن الأثير، أسد الغابة، م ٢، ص ٢١٥.

مكانه عبد الله بن عامر بن كريز، وكان شاباً لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره^(١). وفي ولاية ابن عامر، عاد زياد مرة أخرى إلى ممارسة مهمة الكتابة^(٢)، التي عُزل عنها من قبل، وكان زياد إلى جانب مهمته تلك ينوب عن الأمير عندما يترك البصرة، ففي سنة (٢٩-٣٠هـ / ٦٤٩-٦٥٠م)، استخلف عبد الله بن عامر زياداً على البصرة وخارج غازيا، فافتتح أصبهان وحلوان وكرمان وعامة خراسان^(٣). ولقد أدى اهتمام ابن عامر بالفتوح إلى انشغاله بها طويلاً، مما جعله يقضي جلّ أوقاته بعيداً عن مركز ولايته، التي اعتمد في تصريف شؤونها على كاتبه زياد، ولم تكن مهمة الأخير سهلة وبسيطة، فقد كان يجمع بين الكتابة وبين المهام الواجب تنفيذها من قبل الأمير، هذا في الوقت الذي لم تعد فيه البصرة ذلك المعسكر الصغير للجيوش الإسلامية، ففي إمارة ابن عامر (٢٩-٣٦هـ / ٦٤٩-٦٥٦م)، اتسعت جبهة القتال التي تولى أمرها البصريون، حيث أصبحت قواتهم مسؤولة عن فتوح كافة المناطق الواقعة إلى الشرق من الخليج العربي وحماية تلك المناطق، والتي كانت مسؤوليتها من قبل تقع على عاتق الجيوش الإسلامية التي اتخذت من البحرين قاعدة لها^(٤)، ولا شك أن هذا التغير زاد من أهمية البصرة كمركز إداري حيث أصبحت مسؤولة عن إدارة البحرين، والمقاطعات التي قام بفتحها البصريون، كما كان ديوانها مسؤولاً عن دفع العطاء للعرب في تلك المناطق وقد ساهم هذا في توثيق الصلة بين البصرة والبحرين، الأمر الذي شجع عشائر عبد القيس على النزوح والهجرة إلى البصرة، ولعل قبيلة الأزد استوطنت البصرة وقتذاك^(٥).

(٧) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٣٦ (أبو البقطان). البلاذري، فتوح، ص ٥٦٧ (يقال). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٣٩. اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٦٦. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٢٦٤. ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٩٩. عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، ولد في عهد الرسول ﷺ، وذلك في السنة الرابعة للهجرة، لم يتول منصباً إدارياً أو عسكرياً، إلى أن أصبح والياً على البصرة سنة (٢٩هـ / ٦٤٩م). وهو ابن خال الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، كان له أثر حيد في الفتوحات الإسلامية، ومات بمكة سنة تسع وخمسين، فدفن بعرفات. (انظر ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٤٤-٤٨. ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٢٠-٣٢١. المقدسي، البدء والتاريخ، ج ٥، ص ١١٠-١٠٩. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٩، ص ٤٥٧-٤٥٨. ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج ٣، ص ٦٠-٦١. الزركلي، الأعلام، م ٤، ص ٩٤).

(٢) ابن حبيب، المحبر، ص ٣٧٨. ابن بكار، الأخبار الموقفات، ص ٢٠٣. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤، ص ١٦٧، ١٦٩. المقدسي، البدء والتاريخ، ج ٦، ص ٢. الثعالبي، لطائف المعارف، ص ٦٠. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٥ (أبو نعيم).

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٥٨. البلاذري، فتوح، ص ٥٦٧ (يقال). الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٢٠١ (المداشي). قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ / ٩٤٨م)، الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الحرية، بغداد، ١٩٨١م، ص ٤٠٠، وسيشار إليه عند وروده هكذا: قدامة بن جعفر، الخراج. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٦ (الوليد بن هشام). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ١٢٤. ابن خلدون، العبر، م ٢، ص ١٠١١.

(٤) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٨٠-٧٩ (سيف). الديار بكري، حسين بن محمد (ت ٩٦٦هـ / ١٥٥٨م)، تاريخ الخميس في أحوال أنفُس النفيس، ج ٢، مطبعة عثمان بن عبد الرزاق، القاهرة، ١٨٨٤م، ج ٢، ص ٢٨٥-٢٨٦، وسيشار إليه عند وروده هكذا: الديار بكري، تاريخ الخميس.

(٥) صالح العلي، التنظيمات، ص ٤٢. احسان النص، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، ط ٢، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٣، ص ٢٢٩، وسيشار إليه عند وروده هكذا: النص، العصبية القبلية. جمال محمد جوده، العرب والأرض في العراق في صدر الإسلام، طبع الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٧٩م، ص ١٦٢، وسيشار إليه عند وروده هكذا: جمال جوده، العرب والأرض.

ولما كانت واردات كل مصر تعتمد على ما يرد من المناطق التي فتحها مقاتلو ذلك المصّر، فلا بد أن الفتوحات الواسعة التي قام بها البصريون ابتداء من ولاية عتبة بن غزوان وحتى أيام عبد الله بن عامر، قد أدت إلى زيادة كبيرة في دخل البصرة، هذا بالإضافة إلى موقعها الهام على الطرف الشمالي من الخليج العربي، مما جعلها مركزاً لحركة اقتصادية نشطة، وعمراً تجارياً هاماً^(١). وهكذا تطورت البصرة في زمن عبد الله بن عامر، فبعد أن كانت معسكراً صغيراً لمقاتلة المسلمين، أصبحت مركزاً إدارياً تتبعه مقاطعات كثيرة وغنية، تدرّ عليها الخيرات، مما أدى إلى انتشار الرخاء الاقتصادي، فشحج ذلك التجار ورجال الأعمال على الوفود إليها فنمت الحياة المدنية فيها نمواً سريعاً.

ولقد تميزت أرض البصرة بخصوبتها وسهولة إروائها، حيث كانت تسقى بالماء والجزر^(٢) إلا أن ماءها غلبت عليه الملوحة^(٣)، فإذا صلح لإرواء وسقي المزروعات فإنه غير صالح للاستهلاك البشري، وهكذا أدى تزويد المدينة بالماء العذب إلى خلق مشكلة نجد صدها في المصادر التي ورد فيها ذكر البصرة، وهذه المشكلة تعود إلى زمن تأسيس البصرة، ففي عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه نجد الأحنف بن قيس يشكو للخليفة قائلاً: "إن إخواننا من أهل الأمصار نزلوا منازل الأمم الخالية بين المياه العذبة، والجنان الملتقى، وإننا نزلنا أرضاً نشاشة لا يجفّ ندها، ولا ينبت مرعاها"^(٤)، وقد تكون هذه المقولة موضوعة إلا أنها تتفق مع الحقيقة، ولكي يُرضي عمر أهالي البصرة كتب إلى أبي موسى الأشعري يأمره أن يحفر لهم نهراً^(٥)، وكان لدجلة العوراء - وهي دجلة البصرة - خور (أي طريق للماء) طوله فرسخاً^(٦)، وكان لحده مما يلي البصرة غورة واسعة تسمى قبل الاسلام "الأجانه"، فلما أمر الخليفة عمر أبا موسى أن يحفر نهراً لأهل البصرة، ابتداءً من الحفر من الأجانه وساقه ثلاثة فراسخ حتى بلغ به البصرة، فأصبح بذلك طول نهر الأبلّة أربعة فراسخ^(٧)، مما

(١) لمزيد من المعلومات عن أهمية البصرة التجارية وأثرها في الحركة الاقتصادية، انظر صالح العلي، التنظيمات، ص ٢٥٤-٢٦٢.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢١٣. الأدرسي، نزهة المشتاق، ج ٤، ص ٣٨٤.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢١٣. الأدرسي، نزهة المشتاق، ج ٤، ص ٣٨٤.

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٦-٤٩٧ (عوانه). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٩. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٧٥ (قالوا). المرزباني، نور القبس، ص ١٧٢. ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣١٦ (عوانه). ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٤٤.

(٥) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٧ (عوانه). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٩. ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٣١٦ (عوانه).

(٦) الفرسخ، يساوي ثلاثة أميال، ويعادل نحو ٦ كم). (انظر فالتز هنتس، المكايل والأوزان الإسلامية، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠م، ص ٩٤، ويشير إليه عند وروده هكذا: هنتس، المكايل والأوزان).

(٧) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٧ (جماعة من أهل العلم). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٩-١٩٠ (جماعة من أهل البصرة). ياقوت، معجم البلدان، ص ٣١٦ (جماعة من أهل العلم).

زاد من أهمية مدينة البصرة التجارية، وسهل في عملية الري وسقى المزروعات، وهذا أدى بالتالي إلى دفع عجلة التقدم في مجال التجارة والزراعة على حد سواء، ويبدو أن هذا النهر بالرغم من أهميته بالنسبة لأهالي البصرة، إلا أنه لم يجد العناية الكافية، من حيث تطهيره وتنظيفه من الترسبات المتراكمة مع الزمن، مما أدى إلى إنطام ما مقداره فرسخ من ناحية البصرة^(١).

وعندما تولى عبد الله بن عامر ولاية البصرة وكان زياد كاتبه، أشار الأخير على أميره أن يقوم بحفر نهر الأبله من حيث أنطم حتى يبلغ به البصرة، ويظهر أن ابن عامر قد أثر في بداية إمارته الفتوحات العسكرية على مثل هذه الاصلاحات، فكان يأمر زياداً بتأجيل ما أشار به^(٢)، حتى شخص ابن عامر إلى خراسان مستخفاً زياداً مكانه على البصرة، فاستغل زياد فرصة غياب الأمير وقام بحفر نهر الأبله من حيث أنطم حتى وصله بالأجانة عند البصرة، وقد ولى مسؤولية الاشراف على هذا العمل إلى ابن أخيه عبد الرحمن ابن أبي بكر^(٣)، ولما عاد ابن عامر من خراسان، ورأى ما صنعه زياد غضب عليه، وقال: "لما أردت أن تذهب بذكر النهر دوني"^(٤)، وبعدما انتهى زياد من اصلاح نهر الأبله، قام بحفر نهر الفيض^(٥).

وتجاوز زياد لرأي أميره في هذا الموقف، لم يكن من قبيل التحدي أو العصيان، كما أنه لم ينشد بعمله هذا تخليد اسمه بخلود النهر، فالنهر كان وبقي يعرف باسم "نهر الأبله" وما قام به زياد إنما يدل على بُعد نظره وإدراكه لأهمية حفر ذلك النهر، الذي يساهم في تطوير الحياة الاقتصادية في المدينة، ويعود بالمنفعة العامة، وفي سبيل ذلك تحمّل زياد غضب الأمير عليه.

ويبدو أن اهتمام زياد بحفر الأنهار والاشراف على تنفيذها، دفع ابن عامر إلى القيام بالعديد من الأعمال الاصلاحية في ميدان الري، حتى أصبح من المهتمين بهذه المسألة اهتماماً كبيراً في البصرة، فقد حفر نهر الأساورة^(٦)، ونهر أم عبدالله المنسوب إلى أمه دجاجة بنت أسماء بنت الصلت

(١) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٧-٤٩٨ (جماعة من أهل العلم). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٩٠ (جماعة من أهل البصرة). ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣١٦ (جماعة من أهل العلم).

(٢) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٨ (جماعة من أهل العلم). ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣١٦ (جماعة من أهل العلم). (٣) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٤٢. البلاذري، فتوح، ص ٤٩٨ (جماعة من أهل العلم). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٤. ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣١٦ (جماعة من أهل العلم). وانظر شارل بلا، الجاحظ في البصرة وسامراء، ترجمة ابراهيم الكيلاني، ط ١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥ م، ص ٤٨، وسيشار إليه عند وروده هكذا: بلا، الجاحظ في البصرة.

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٨ (جماعة من أهل العلم). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٩٠ (جماعة من أهل البصرة). ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣١٦ (جماعة من أهل العلم).

(٥) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٨.

(٦) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٤٣. البلاذري، فتوح، ص ٥١٠ (قالوا). ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣١٧.

السلمية^(١) وقد تولى حفره غيلان بن خرشة الضبي، وهو النهر الذي قال عنه حارثة بن بدر الغداني لعبد الله بن عامر وقد سايه: "لم أرَ أعظم بركة من هذا النهر يستقي منه الضعفاء من أبواب دورهم، ويأتيهم منافعهم فيه إلى منازلهم، وهو مغيض لمياههم"، ثم أنه سايه زياد أثناء ولايته للبصرة، فقال: "ما رأيت نهراً شراً منه، ينز منه دورهم، ويبغضون له في منازلهم، ويفرق فيه صبيانهم"^(٢)، ومن النص يتبين لنا أن هذا النهر كان يخترق مساكن أهل البصرة، وأن بيوتهم كانت قائمة على ضفافه، وذكر البلاذري أن عبد الله بن عامر حفر نهراً تولى أمر حفره له مولاه نافذ، فغلب عليه اسمه فقبل "نهر نافذ"^(٣).

يتضح مما تقدم، أن كثيراً من الإصلاحات الاقتصادية والعمرانية في إمارة ابن عامر على البصرة، إنما هي ثمرة من ثمرات جهود زياد، ومبادراته المنبثقة عن رغبته في توسيع المدينة وتطويرها، وقد أفلح زياد في تنفيذ المشاريع الاقتصادية، وفي تسير شؤون ولاية البصرة عامة، أثناء إنشغال أميرها ابن عامر في اتمام فتوح فارس وخراسان^(٤)، على أن عبد الله بن عامر وإن كان مهتماً بالفتوحات، إلا أنه لم يهمل الإصلاحات الداخلية في إمارته ويمكن أن نلاحظ مدى رغبته في الإصلاح من خلال قوله: "لو تركت لخرجت المرأة في حداجتها على دابتها، ترد كل يوم على ماء وسوق حتى توفي مكة"^(٥).

وعلى الرغم مما ذكر عن غضب ابن عامر على زياد، إثر إصلاحه لنهر الأبله أثناء غيابه إلا أن زياد بقي من المقربين له، فكان يستشير في أمور ولايته، وإليه يث شكواه، وكان لعنق الصلة بينهما أن شكا ابن عامر لزياد من عقبة الحصر التي تواتيه على المنبر، فذكر له زياد أن ما يصيبه قد يصيب سادة القوم وأثبت له ذلك، حيث استدعى سيده من تميم وشريفاً من ربيعة، ورئيساً من رؤساء الأزد، وأمرهم أن يصعدوا إلى المنبر ليخطبوا في الناس فأصابهم الحصر جميعاً^(٦) وبذلك أثبت زياد

(١) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٤٣. ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٢١. البلاذري، فتوح، ص ٥٠١ (قالوا).
ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣١٧.

(٢) البلاذري، فتوح، ص ٥٠١ (قالوا). بينما ذكر الجاحظ أن القائل هو غيلان بن خرشة الضبي، وليس حارثة بن بدر الذي يرجحه البلاذري، (انظر البيان، ج ١، ص ٣٩٤-٣٩٥. وانظر أيضاً الحيوان، ج ٥، ص ١٩٨).

(٣) البلاذري، فتوح، ص ٥٠١-٥٠٢ (روى قوم). ياقوت. معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٢٤.

(٤) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٥٨. البلاذري، فتوح، ص ٥٦٧ (يقال). الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٣٠١ (المدايني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ١٢٤. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٦ (الوليد بن هشام). ابن خلدون، العبر، م ٢، ص ١١١.

(٥) ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٢١. والحدج: مركب من مراكب النساء، مثل الهودج. (انظر ابن منظور، لسان العرب، م ٢، ص ٢٣٠).

(٦) الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ٢٥١. ابن بكار، الأخبار الموقفيات، ص ٢٠٣-٢٠٤. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٣، ص ١٤.

لأمره - بحكم تجربته وخبرته ودقة ملاحظته - تأثير اللحظات الحرجة في نفسية الانسان ، وانعكاس ذلك على بلاغته وتفكيره ومنطقه ، فكان هذا الامتحان محاولة منه لاقتناع ابن عامر أن ما يشكوه أمر قد يلقيه أشرف الناس ورؤسائهم ، فتبين بذلك لابن عامر فضله في الناس .

وأما عن علاقة زياد بالخلافة في زمن الخليفة عثمان رضي الله عنه ، فلا نجد في المصادر ما يوضح تلك العلاقة على نحو ما رأينا من قبل في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولكن يتبين لنا من خلال الاشارات اليسيرة التي وردت في المصادر أن الخليفة عثمان رضي الله عنه ، كان أشبه بعمر في إعجابه بشخصية زياد ومقدرته الادارية المتميزة ، فيذكر أن عمر كتب الى أبي موسى الأشعري يأمره بإعطاء الناس أعطيائهم وإرسال ما تبقى مع زياد ، ففعل ولما " كان عثمان كتب الى أبي موسى بمثل ذلك ففعل " (١) ، وهذا يُشعر بالتقدير والمكانة المرموقة التي حظي بها زياد لدى الخليفة عثمان .

زياد في عهد الخليفة علي بن أبي طالب

بعد أن فرغ علي رضي الله عنه من وقعة الحمل سنة (٣٦هـ / ٦٥٦م) توجه الى البصرة ودخلها (٢) ، فجاءه أهلها على راياتهم مبايعين له (٣) ، ولم يكن زياد بين الذين وفدوا عليه كما كان ممن اعتزل يوم الجمل ، ولم يقاتل مع واحد من الفريقين (٤) ، وعندما جاء عبد الرحمن بن أبي بكر في المستأمنين ليعلن بيعته ، سأله علي عن عمه زياد ، وقال له : " وعمك المتربص المقاعد بي " (٥) ، فأجابه عبد الرحمن موضحاً له سبب اعتزال زياد للمعركة ، واختفائه عند البيعة " والله يا أمير المؤمنين انه لك لواد ، وانه على مسرتك لحريص ، ولكنه بلغني أنه يشتكي " (٦) ، ويذكر الطبري أن عبد الرحمن كتم عليا مكان زياد حتى أتاه واستأمره ، فأمر أن يخبره ، فأخبره ، وقاده بعد ذلك الى زياد ،

-
- (١) ابن حدون ، التذكرة الحمدونية ، م ، ص ١٤١ . ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج ١٢ ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .
 (٢) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ١٥١ . اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٨٢ . الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٥٣٩ (سيف) . المسعودي ، مروج الذهب ، م ، ص ٣٧٧ .
 (٣) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٥٤١ (سيف) . ابن الأثير ، الكامل ، م ، ص ٣ ، ص ٢٥٦ .
 (٤) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٥٤٣ . الجهشيارى ، الوزراء ، ص ٢٣ . ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ج ١ ، ص ٥٦٣ . ابن عساكر ، تاريخ / خط ، م ، ص ٤٨٦ (سيف) . الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج ١٥ ، ص ١٣ . الكتبي ، فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٣٢ . وذكر ابن الأثير ، أن الذي اعتزل وقعة الجمل هو أبو بكر ، ولم يشر الى اعتزال زياد . (انظر الكامل في التاريخ ، م ، ص ٢٥٦) . والواقع أن أبا بكر اعتزل يوم الجمل ، شأنه في ذلك شأن العديد من الصحابة . (انظر ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ق ٤ ، ص ١٥٣١) .
 (٥) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٥٤٣ . ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ج ١ ، ص ٥٦٣ . ابن عساكر ، تاريخ / خط ، م ، ص ٤٨٦ (سيف) .
 (٦) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٥٤٣ . ابن عساكر ، تاريخ / خط ، م ، ص ٤٨٦ (سيف) .

وكان في بيت نافع بن الحارث^(١)، فلما دخل علي عليه، قال له : "تقاعدت عني وتربصت"، فاعتذر اليه زياد بمرض كان قد ألمّ به، فقبل عذره^(٢).

والحقيقة أن عدم مشاركة زياد في وقعة الجمل، واختفائه يوم بايع أهل البصرة علياً أمر يدعو إلى التساؤل، فهل كان زياد مريضاً حقاً، أم أنه تعلق بالمرض لأسباب أخرى في نفسه؟ لا نعتقد أن السبب الذي حمله على الاختفاء هو الجبن والضعف، فسيرة حياته كلها ليس فيها ما يدل على وجود مثل هذه الصفات في شخصيته، لا بل أن هناك مواقف كثيرة برهن فيها زياد على شجاعته وإقدامه، وليس أدلّ على ذلك من موقفه من معاوية، وتهديده له عندما حاول استمالة، وقد كان عامل علي بن أبي طالب على بلاد فارس^(٣). ويستبعد أن يكون زياد قد وضع نفسه في موضع الوساطة، وأنه لا يريد الخوض في معركة لا يُعرف مصيرها، وذلك لاعتباره أحد دهاة العرب^(٤)، وبإمكانه استقراء الأحداث وإفترض النتائج مسبقاً قبل تحقيقها، ومن ثم باستطاعته الانضمام إلى الفريق الذي افترض فوزه، وقد يكون له شأن في الأحداث مثلاً كان لدهاية العرب الآخر عمرو بن العاص في وقعة صفين^(٥)، إلا أن ذلك لم يحدث قط، وانضمام زياد إلى علي لم يتم على أثر انتصار الأخير في وقعة الجمل، تلك الوقعة التي لم تحسم الموقف نهائياً لصالح أي من الأطراف المتنازعة، وبالتالي يمكننا القول أن انضمام زياد إلى صف علي تأتي بقناعة تامة منه، ولم تضطره الظروف إلى ذلك، ويبدو أن هواه كان منذ البداية مع علي، إلا أن ظروفه الصحية أقعده عن المشاركة إلى جانب علي في يوم الجمل، ودعته إلى التقاعس أثناء البيعة، حتى أن الخليفة أناه بنفسه إلى حيث يقيم، وقد قبل عذره بعد أن رأى مرضه البيّن^(٦). وهناك سبب آخر ربما كان له أثر في عود زياد، وهو أن البصرة كانت عثمانية ابتداءً، الأمر الذي جعل زياد يتحرج في تمثيل الخليفة الجديد في مصر لا يؤدي

(١) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٥٤٣. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٦ (سيف). بينما ذكر الجهشيار أن زياداً كان في دار أمه (انظر الوزراء والكتاب، ص ٢٣). وربما يفهم من قول الجهشيار أن زياداً كان في بيت أمه سمية، التي كانت تسكن عند ابنها نافع بن الحارث، وهو أخو زياد لأمه.

(٢) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٥٤٣. ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج ١، ص ٥٦٣. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٦ (سيف).

(٣) المنقري، نصر بن مزاحم (ت ٢١٢هـ / ٨٢٧م)، وقعة صفين، تحقيق عبد السلام هارون، المؤسسة العربية الحديثة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٣٨٢هـ، ص ٣٦٦-٣٦٧، وسيسار إليه عند وروده هكذا : المنقري، وقعة صفين. ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٤٦. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٨٩. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢١٩.

(٤) ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٤، ص ١٤٤٦. الطرطوشي، سراج الملوك، ص ١٢٧. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٣. ابن تغري بردی، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٧٢. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٠٣.

(٥) المنقري، وقعة صفين، ص ٤٧٦-٤٧٧. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٨٨. اليقوي، تاريخ، ج ٢، ص ١٨٨. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٤٨ (أبو مخنف).

(٦) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٥٤٣. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٦ (سيف).

الخليفة نفسه .

ومهما يكن من أمر، فإن سؤال علي رضي الله عنه عن زياد بهذا القدر من الاهتمام وعبادته له وهو في مرضه، دليل على المكانة السياسية والإدارية التي تمتع بها زياد، وفي قول علي له "تقاعدت عني وتربصت" (١)، اعتراف ضماني بدهائه ومقدرته السياسية، وبأنه لا يتصرف بعفوية، وإنما لكل حركة من تحركاته مغزى وقصد، وبعد أن فهم علي من زياد السبب الذي أفعده، سأله عن بيت المال وعما فيه من الأموال، فأجابه "عندي على حاله" فسرُّ علي بذلك، وهو الذي عهد الأمانة والصدق في زياد منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له "مثلك فليؤتمن" (٢).

ولما استبان علي صدق نية زياد نحوه واستعداده للنصح له، أراد أن يوليهِ البصرة، ولكن زياد أشار عليه أن يجعل على هذا المصر رجلاً من أهل بيته يهابه الناس ويطمئنون إليه حيث قال: "رجل من أهل بيتك يسكن إليه الناس فإنه أجدر أن يطمئنوا أو ينقادوا وسأكفيكه وأشير عليه" (٣)، وطلب الخليفة الذي تقدم به إلى زياد يفسر لنا ثقته بشخص زياد وبقدرته الإدارية، وهو صاحب الخبرة الواسعة في إدارة هذا المصر، فقد تولاه بالنيابة مرات عديدة، لكن زياد رأي بعد تحليله للظروف التي تعيشها الدولة الإسلامية عامة حينئذ وولاية البصرة خاصة، أن أمير البصرة يجب أن يكون رجلاً من بيت الخليفة، فينقاد إليه الناس لكونه من بيت النبوة والخلافة، ومن قرش موضع السيادة، ثم لأنه يركز إلى سلطة قائمة تتمثل في شخص الخليفة، وقد اتفق علي رضي الله عنه وزياد على تأمير عبد الله بن عباس، وما نرى أنها كانا يستطيعا أن يؤمرا غيره، فالكثرة العددية في البصرة مضرية (٤)، وما ينبغي أن يؤمر عليها بعد الفتنة التي أعقبت مقتل الخليفة عثمان، الآخر من مضر شديد القرابة من علي، أما زياد فقد ولّاه الخليفة الخراج وبيت المال في البصرة (٥)، وأمر ابن عباس أن يسمع منه ويستشير في أمور الولاية، ففعل، وكان عبد الله قد استشار زياد في قضية كانت مع بعض

(١) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٥٤٣. ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج ١، ص ٥٦٣. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٦ (سيف).

(٢) الجهشيارى، الوزراء، ص ٢٣.

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٥٤٣. ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج ١، ص ٥٦٣. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٦ (سيف). ابن خلدون، العبر، م ٢، ص ١٠٨٧.

(٤) طه حسين، الفتنة الكبرى، ص ٦٠.

(٥) ابن حبيب، المحبر، ص ٣٧٨. ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٤٦. البلاذري، أنساب (محمد باقر)، ج ٢، ص ٢٧١ (قالوا).

الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٥٤٣. الجهشيارى، الوزراء، ص ٢٣. ابن عبدربه، العقد الفريد، ج ٤، ص ١٦٧، ١٦٩. الأصفهاني، الأغاني، م ١٢، ص ٣١٦ (أبو بكر الهذلي). ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج ١، ص ٥٦٣.

الثعالي، لطائف المعارف، ص ٦٠. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٦ (سيف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٢٥٦. القفطي، إنباء الرواه على أنباء النخعة، ج ١، ص ١٨. وذكر المدائني، أن ابن عباس هو الذي ولي زيادا على

الخراج. (انظر وكيع، أخبار القضاة، ج ١، ص ٢٨٩).

الناس، فأشار عليه أن "أضرب بمن أطاعك من عصاك" ^(١) وقول زياد هذا يشعر بميله الى الشدة، وخاصة في الظروف التي لا تحتل المدارة أو التهاون في معالجة القضايا التي من شأنها المساس بأمن الولاية، أو الدولة على وجه العموم.

بعد أن تم الأمر لعلي بالبصرة انصرف الى الكوفة ^(٢)، بينما استمر زياد في عمله لعبد الله بن عباس، كما كان يعمل للولاء من قبله، وحينما سار ابن عباس الى صفين استخلف أبا الأسود الدؤلي على الصلاة، واستخلف زيادا على الخراج وبيت المال والديوان، فلم يزل على البصرة حتى قدم من صفين ^(٣)، وعندما قتل محمد بن أبي بكر والي علي على مصر سنة (٣٨هـ / ٦٥٨م)، خرج ابن عباس من البصرة مستخلفا عليها زياد ^(٤)، وفي هذه الأثناء كان معاوية ينظر الى انتشار أمر علي في العراق، وما أصاب أصحابه من وهن وتخاذل وفرقة إثر النتيجة التي آلت إليها وقعة صفين، وقد ذكر معاوية أن العثمانية فاشية في البصرة ^(٥)، ورأى أن ابن عباس قد انصرف عنها، هذا في الوقت الذي لم يستطع فيه معاوية مهاجمة البصرة مباشرة، فاكتمى بتفريق جيوشه على الأطراف التي في طاعته، واختار رجلا صليبا له رحم عثمان وهو عبد الله بن عامر الحضرمي ^(٦)، فأرسله الى البصرة، وأوصاه أن ينزل في مضر ويتودد الى الأزدي ويجذر ربيعة، فسار ابن الحضرمي فيمن معه حتى قدم البصرة، فنزل في بني تميم ^(٧) بقصد إثارتهم ضد علي، وعندما علم زياد بذلك بعث الى حضين بن المنذر

(١) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٥٤٣. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٦-٤٨٧ (سيف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٢٥٦.

(٢) المنقري، وقعة صفين، ص ٣. خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٦١. البلاذري، أنساب (محمد باقر)، ج ٢، ص ٢٧١ (قالوا). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٥٢. البيهقي، تاريخ، ج ٢، ص ١٨٤. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٥٦٣ (أبو بكر الهذلي). المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٨١. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٦ (قالوا).

(٣) ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٦ (الشعبي وغيره). وفي كتاب الامامة والسياسة المنسوب الى ابن قتيبة، يُذكر أن عليا عندما هجم بالمسير الى الشام، ضم اليه ابن عباس، واستعمل على البصرة زياد. (انظر ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت) ٢٧٦هـ / ٨٨٩م)، الامامة والسياسة، تحقيق سعيد صالح موسى خليل، ج ٢، رسالة ماجستير بالجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٨م، ج ١، ص ٩٠، وسينشار اليه عند ورود هكذا: ابن قتيبة، الامامة والسياسة).

(٤) ذكر البلاذري أن ابن عباس شخص الى مكة مغاضبا لعلي. (انظر البلاذري، أنساب (محمد باقر)، ج ٢، ص ٤٢٦ (قالوا). وذكر آخرون أنه سار الى علي بالكوفة، وذلك بعد موت واليه على مصر محمد بن أبي بكر (انظر أبو عبيدة، النقائص، ج ١، ص ١٢٥. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١١٠ (عمر بن شبة). المسعودي، علي بن الحسين (ت) ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)، التنبيه والاشراف، تحقيق عبد الله الصاوي، دار الصاوي للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٣٨، ص ١٧٦، وسينشار اليه عند ورود هكذا: المسعودي، التنبيه والاشراف. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٦٠. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ٤، ص ٤١ (عن أبي زهير). النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ١٩٨).

(٥) البلاذري، أنساب (محمد باقر)، ج ٢، ص ٤٢٣ (قالوا). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٦٠. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ٤، ص ٣٥ (عمرو بن حصن). النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ١٩٨.

(٦) عبد الله بن عامر الحضرمي: وهو ابن خالة الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، أمه أم طلحة بنت كرز. (البلاذري، أنساب (محمد باقر)، ج ٢، ص ٤٣٤ (محمد بن الزبير الحنظلي)).

(٧) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٨٠. البلاذري، أنساب (محمد باقر)، ج ٢، ص ٤٢٤ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١١٠ (عمر بن شبة). المسعودي، التنبيه والاشراف، ص ١٧٦. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ١، ص ٢٢٧. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٩، ص ٤٥٦. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٦٠. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ٤، ص ٣٥، ٣٧ (عمرو بن حصن). النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ١٩٨.

ومالك بن مسمع - وهما من بكر بن وائل - وطلب منها أن ينصراه حتى يأتيه رأى الخليفة في هذا الأمر، فأجابه حزين إلى طلبه، أما مالك - وكان أموى الهوى - فقال: "هذا أمر لي فيه شركاء، أستشير وأنظر"^(١)، فلما رأى زياد تردد القوم لم يطمئن اليهم فلجأ إلى الأزدي، وقد أشار عليه بذلك أخيه نافع^(٢)، فأرسل إلى رئيسهم صبرة بن شيان الحداني يطلب منه أن يجيره وبيت مال المسلمين، فأجاره على أن يترك دار الامارة ويتحول إلى داره، وينقل معه منبره وبيت المال، ففعل^(٣)، وقد انقسم أهل البصرة بذلك إلى عدة طوائف: طائفة قامت دون ابن الحضرمي رسول معاوية، وطائفة جعلت تنتظر الأحداث وتترقبها على شيء من الفرقة في صفوفها وهي ربيعة، وطائفة ثالثة حرصت على حماية جاراها الذي لجأ إلى دورها وهي الأزدي، وهكذا ظهرت العصية واضحة بين القبائل البصرية، فقد أخذ الناس يرعون قبائلهم واحسابهم أكثر مما يرعون السلطان والامام ويغضبون لهذه الأحساب أكثر مما يغضبون للدين.

وعلى الرغم من محاربة زياد للعصية القبلية، ومحاولته للقضاء عليها باعتبارها معول هدم في الحياة الاجتماعية^(٤)، إلا أنه اضطر - كما يبدو - لاستخدام هذا السلاح - العصية القبلية - لتحقيق بعض المقاصد السياسية، حيث أخذ زياد يضرب على وتر العصية الحساس شحولا اثاره الحمية والحساس في نفوس مجريه لنصرتة على بني تميم، الذين لجأ اليهم ابن الحضرمي رسول معاوية^(٥).

وكتب زياد إلى علي يخبره بما وقع بالبصرة، واستجارته بالأزدي على أثر قدوم ابن الحضرمي، ومبايعة تميم وجُل أهل البصرة له^(٦)، ويبدو أن عليا لم يَجُل في البداية إلى الحرب، فقد أرسل إلى تميم رجلا منهم هو أعين بن ضبيعة المتجاشعي، وأمره أن يفرق قومه عن ابن الحضرمي، فان امتنعوا

(١) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١١٠ (عمر بن شبه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٦١. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ٤، ص ٤١ (أبو زهير). النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٠٠. وذكر البلاذري، أن زيادا "بعث إلى مالك بن مسمع وغيره من وجوه أهل البصرة، فدعاهم إلى نصرتة، فلم يبعدوا ولم يحققوا..." (انظر أنساب (محمد باقر)، ج ٢، ص ٤٢٦ (قالوا)).

(٢) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١١٠ (عمر بن شبه).

(٣) البلاذري، أنساب (محمد باقر)، ج ٢، ص ٤٢٦ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١١١-١١٠ (عمر بن شبه). ابن دريد، الاشتقاق، ص ٥١١. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٩، ص ٤٥٦ (عن خليفة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٦١. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ٤، ص ٤٢ (أبو زهير). ابن خلدون، العبر، م ٢، ص ١١٢٩. فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١٢٠.

(٤) عن دور زياد في محاربة العصية القبلية انظر، ص ١٣٨ وما بعدها من الفصل الثالث.

(٥) انظر البلاذري، أنساب (محمد باقر)، ج ٢، ص ٤٢٧-٤٢٨ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١١١ (عمر بن شبه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٦٢.

(٦) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٨٠. البلاذري، أنساب (محمد باقر)، ج ٢، ص ٤٢٨ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١١١ (عمر بن شبه). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ١، ص ٢٢٧. ابن عساكر، تاريخ / خط، تاريخ، م ٩، ص ٤٥٦. ابن الأثير، الكامل م ٣، ص ٣٦٢. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٠٠.

قاتل بمن أطاعه من عصاه، فسار أعين حتى أتى زيادا، ثم أتى قومه ليرد عليهم بعض أحلامهم، ولم يكذب ينظرهم في أمرهم حتى اختلفوا عليه، فانصرف عنهم ثم بيّته ذات ليلة وقتلوه^(١). وأراد زياد أن يقتل تميم لقتلهم أعين، إلا أن الأزد امتنعت عليه لأنها أجارته على أن تحمي بيت المال، ولم تجيره على أن تكون حربا على من حارب وسلم لمن سالم^(٢)، ثم كتب زياد إلى علي ينيته بمقتل أعين وما آلت إليه الأمور في البصرة، فدعا علي رجلاً آخر من تميم هو جارية بن قدامة السعدي، ووجهه في بعض رجال قومه، وكتب إلى زياد بمساعدة جارية والاشارة عليه، فقدم جارية البصرة وأتى زياد فسمع منه، ثم سار جارية إلى قومه فقرأ عليهم كتاب علي ووعدهم، فاستجاب له بعضهم وامتنع عليه البعض الآخر، فنهض بمن جاء معه من الكوفة ومن أنضم إليه من أهل البصرة لقتال ابن الحضرمي، وما زال به وبأصحابه حتى ألحق بهم الهزيمة، والجأ ابن الحضرمي ومعه بعض أتباعه إلى دار سنبل، فأنذرهم جارية ودعاهم إلى الطاعة فلم يرجعوا، فأحرق عليهم الدار ولم ينبج منهم أحد^(٣)، وهكذا استتب الأمر لزياد، وخلا له الجوف في البصرة فعاد الأمن إلى نصابه، ورجع زياد إلى دار الامارة، فكتب إلى علي يخبره بما حدث لابن الحضرمي وأصحابه^(٤).

وقد تغنت العصبية الأزدية بهذا الانتصار، بعد مقتل ابن الحضرمي وعودة زياد وبيت المال إلى دار الامارة، فقال عمرو بن العرندس العودي الأزدي، يذكر تحريق ابن الحضرمي، ويعير تميمًا بذلك ويفخر بأحساب قومه حاله في ذلك حال شعراء الجاهلية :

رددنا زياداً إلى داره وجار تميم دخانا ذهب
ونحن أناس لنا عادة نحامي عن الجار أن يغتصب

(١) أبو عبيدة، النقائص، ج ١، ص ١٢٥-١٢٦. خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٨٠. البلاذري، أنساب، (محمد باقر)، ج ٢، ص ٤٢٨ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١١١ (عمر بن شبه). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ١، ص ٢٢٧. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٩، ص ٤٥٦. ابن الأثير، أسد الغابة، م ١، ص ٢٦٣. ابن الأثير أيضاً، الكامل، م ٣، ص ٣٦٢. النويري، نهاية الأرب، ج ٢، ص ٢٠٠.

(٢) البلاذري، أنساب (محمد باقر)، ج ٢، ص ٤٢٩ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١١١ (عمر بن شبه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٦٢. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ٤، ص ٤٧-٤٨ (ابراهيم بن هلال). النويري، نهاية الأرب، ج ٢، ص ٢٠٠-٢٠١.

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٨٠. البلاذري، أنساب (محمد باقر)، ج ٢، ص ٤٢٩-٤٣١ (قالوا)، ص ٤٣٢-٤٣٣ (أبو عبيدة). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١١٢ (عمر بن شبه). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٢٢٧. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٩، ص ٤٥٦. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٦٢-٣٦٣. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ٤، ص ٤٨-٥٢ (كعب بن قعين).

(٤) البلاذري، أنساب (محمد باقر)، ج ٢، ص ٤٣٣ (أبو عبيدة). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١١٢ (عمر بن شبه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٦٣. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ٤، ص ٥٢ (ابراهيم بن هلال).

حينئذ حلّ أبياتنا ولا يمنع الجار إلا الحسب^(١)

ان الروايات التي تناولت فتنة ابن الحضرمي، تشير الى أن أحداثها جرت بعد قدوم عبد الله بن عباس الى علي بالكوفة لمواساته لمقتل محمد بن أبي بكر،^(٢) وهذا ما لا يستقيم مع ما جاء في الروايات ذاتها، فلو كان ابن عباس عند علي بالكوفة، لأُسرع في العودة الى البصرة حين بلغته أنباء ابن الحضرمي، ولما أقام عند علي وترك زياد يواجه المحنة بمفرده، فلعل ابن عباس حينئذ كان بمكة ولم يكن بالكوفة، وهذا ما جاء في رواية البلاذري، التي تذكر أن "عبد الله بن عباس حين شخص الى مكة مغاضبا لعلّي خلفه (أي خلف زيادا) على البصرة، فلم ينزعه علي، وكان يكاتبه عن ابن عباس على أنه خليفته"^(٣)، والحقيقة أن ابن عباس كان قد ضعف في مؤازرة بن عمه بعد قضية الحكمين، حتى اننا نراه يخفق في النهوض معه الى الشام، حين همّ بمحاربة أهلها بعد صفين، كما أنه لم يشهد معه النهروان، واكتفى بارسال الجند من البصرة اليه^(٤)، ثم لم يزد على ذلك. أما زياد فقد أحسن الحيلة والبلاء، ووفق في الاحتفاظ بهذا المصير لعلّي على الرغم من محاولة معاوية لانتزاعه منه.

ومع أن عبد الله بن عامر الحضرمي لم ينجح في تحقيق رغبة معاوية، وقصده في الاستحواذ على البصرة، أو إثارة الفتنة فيها، إلا أنه أفسد من أمرها الشيء الكثير، فليس قليلا أن يلجأ زياد - خليفة الأمير - ويبت ماله الى حي من أحياء العرب ليجيروه، شأنهم في ذلك شأن العرب في الجاهلية. والنتيجة أن أصبح المصير مضطربا بفساد بعض أهله على بعض، أما الفائدة التي جناها معاوية فقد انتفع بالتجربة، وأدرك أن محاربة علي مجاهرة في العراق أمر لم يثن آوانه بعد.

ولايته على فارس

لقد ساء موقف علي بعد وقعة صفين سوءا شديداً، فكان الخوارج في العراق قد ناصبوه الحرب والقتال بعد قضية التحكيم، وقد أظهر أهل العراق تراخيهم وثاقلمهم عن نصرته^(٥) فضعف موقفه في قلب الدولة، مما أثر في مكانته وهيئته في الاطراف.

(١) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١١٢-١١٣ (عمر بن شبة). وقال أبو الأسود الدؤلي في اجارة الأزدي زياد :

أبى الله إلا أن للأزد فضلها وأنهم أوتاد كل بلاد

أجاروا زيادا حين أسلم نفسه اليهم وكان الرأي رأي زياد.

(البلاذري، أنساب، (محمد باقر)، ج ٢، ص ٤٣٣).

(٢) انظر أبو عبيدة، النقائص، ج ١، ص ١٢٥. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١١٠ (عمر بن شبة). المسعودي، التنبيه والاشراف، ص ١٧٦. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٦٠. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ٤، ص ٤١ (عن أبي زهير). النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ١٩٨.

(٣) البلاذري، أنساب، (محمد باقر)، ج ٢، ص ٤٢٦ (قالوا).

(٤) انظر الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٧٨-٧٩ (أبو مخنف).

(٥) انظر مثلاً : تناقل أهل البصرة عن القيام مع علي عندما استنفرهم للخروج معه الى الشام. (الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٧٨-٧٩ (أبو مخنف). ويذكر أن علياً قال لأصحابه بعد يوم النهر "عباد الله، مالكم إذا أمرتكم أن تنفروا انا فلتنم الى الأرض...". (انظر الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٩٠ (أبو مخنف)).

كان مقتل ابن الحضرمي وأصحابه بالنار حين أحرقهم جارية بن قدامة صنيع اشتهر في البلاد، فتشوشت قلوب كثير من الناس على علي^(١)، وسادت الفوضى واضطربت الأمور، وغلب أهل كل ناحية على ما يليهم وأخرجوا عما لهم، وقد تمرد أهل فارس وأهل كرمان فامتنعوا من أداء الخراج، وأخرجوا عاملهم سهل بن حنيف من بين أظهرهم^(٢).

كان تمرد أهل فارس عقبة جديدة واجهها الخليفة علي، في الوقت الذي كان فيه مشغولا بقضايا أخرى أكثر أهمية، ولكي يتفرغ إلى معالجة تلك القضايا كان لابد له أن يختار لولاية فارس رجلا يكون في مستوى الأحداث، وما تتطلبه معالجتها من دراية في السياسة، وقوة في الإدارة، ولكي يكون اختياره ناجحاً وموفقاً، فقد استشار الناس في ذلك، فقال له جارية بن قدامة السعدي: "ألا أدلك يا أمير المؤمنين على رجل صليب الرأي، عالم بالسياسة كافٍ لما ولي؟" فقال علي: "من هو؟"، قال: "زياد"، قال: "هولها"^(٣).

وجارية هذا، كان خبيراً بشخص زياد ودهائه، فقد خاض معه تجربة مرة أثناء فتنة ابن الحضرمي بالبصرة، أدرك من خلالها كفاءته وقدرته على معالجة الأمور الطارئة، فكان رأيه في ولاية فارس المضطربة أن تؤلى لزياد العالم بالسياسة، وقد أخذ علي برأي جارية فولى زيادا بلاد فارس وكرمان.

سار زياد إلى فارس سنة (٣٩هـ / ٦٥٩م) في جمع كثير، لكي يلزم أهل هذه الولاية حدود الطاعة والنظام، ولما وصل إليها وجدها تضرم نارا، فأخذ يعالج ظروفها بحكمة بالغة ثبني عن كفاءة عالية وخبرة واسعة في الإدارة، فقد استخدم سياسة اللين والمدارة حينا، والدهاء والوعيد وضرب أعداء بعضهم ببعض حينا آخر، قاصداً تفرقة بينهم وتشيت شملهم، ليقاوم بعضهم بعضا. وقد نجح زياد في مسعاه حيث تفرق أهل فارس، وقتل بعضهم بعضا حتى فنيت منهم طائفة وهربت

(١) انظر الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ١٣٧ (عمر بن شبة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٨١. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٧، ص ٣٣٣-٣٣٢. ابن خلدون، العبر، م ٢، ص ١١٣٠. نبيه عاقل، خلافة بني أمية، دمشق، ١٩٧٢، ص ٧٢، ويشير إليه فيما بعد هكذا: نبيه عاقل، خلافة بني أمية.

(٢) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ ١، ص ١٧٤. الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ١٢٢ (الشعبي)، أيضا ص ١٣٧ (عمر بن شبة). المسعودي، مروج الذهب، م ٣، ص ١٥ (أبو عبيدة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٨١. البيهقي، الخلافة، جـ ١، ص ١٦٣-١٦٤ (الشعبي). ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٧، ص ٣٣٣.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ١٣٧ (عمر بن شبة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٨١-٣٨٢. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٧، ص ٣٣٣. ابن خلدون، العبر، م ٢، ص ١١٣٠. محمد ضياء الدين الرئيس، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، ط ٤، دار الانصار، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ١٨٠، ويشير إليه عند وروده هكذا: الرئيس، الخراج والنظم المالية، وانظر: Lammens, Ziad Ibn Abihi, P. 24.

طائفة، وبقيت أخرى تنعم بالأمن والاستقرار وتؤدي فروض الطاعة والتسليم^(١)، وقد نهج زياد السياسة ذاتها مع أهل كرمان^(٢)، وبذلك استطاع أن يعيد الأمور في فارس إلى نصابها، فأدى أهلها الخراج وما كان عليهم من الحقوق، ورجعوا إلى السمع والطاعة، وسار فيهم سيرة حسنة، كانت موضع إعجاب بالنسبة لهم، فقالوا: "ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنو شروان من سيرة هذا العربي في اللين والمدارة والعلم بما يأتي"^(٣)، وقولهم هذا يدل على تفهم زياد العميق لنفسيتهم، التي اعتادت الخضوع لسيطرة الملوك الساسانيين، وقد أفلح عندما سار فيهم سيرة مشابهة - من حيث الشكل - بسيرة كسرى أنو شروان.

وهكذا صفت لزياد فارس وكرمان واستقامت له تلك البلاد بعدله وعلمه وصرامته " فلم يلتق فيها جمعا ولا حربا "^(٤)، ثم أتى اصطخر فنزلها وبنى فيها قلعة حصينة، كانت تعرف باسم " قلعة زياد "^(٥)، وفيها - على ما يبدو - وضع أموال فارس^(٦).

وبقي زياد في فارس يديرها بكل حكمة ودهاء، حتى سكن الناس واستتب الأمن والنظام، ولم تذكر المصادر المتوفرة ما يشير إلى حدوث اضطرابات أو قلاقل في فارس أبان ولاية زياد، غير أن اليعقوبي ينفرد بذكر رواية مفادها، أن عليا أرسل إلى من يحمل إليه ما عنده من المال، فقال زياد للرسول فيما قال، ان الأكراد قد كسروا عليه كثيراً من الخراج، وطلب منه أن لا يعلم الخليفة بذلك فيتهمه بالتهاون في بعض الحق، ولكن الرسول أنبا عليا بكل ما حدث به زياد، فكتب إليه علي

(١) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٧٤. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٣٧، ١٣٨ (عمر بن شبه). المسعودي، مروج الذهب، م ٣، ص ١٥ (أبو عبيدة). ابن العربي، العوالم من القواصم، ص ٢٣٧. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٩ (أبو المهاجر القاضي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٨٢. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٨١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ٣٣٣. محمد كرد علي، الإدارة الإسلامية في عر العرب، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٣٤م، ص ٧٦، ونسبشار اليه عند وروده هكذا: محمد كرد علي، الإدارة الإسلامية.

(٢) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٣٨ (قال). المسعودي، مروج الذهب، م ٣، ص ١٥ (أبو عبيدة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٨٢.

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٣٧ (عمر بن شبه). أبو الفداء، المختصر، ج ١، ص ١٧٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ٣٣٣. وانظر فلها وزن، الدولة العربية، ص ١١٣. الرئيس، الخراج والنظم المالية، ص ١٨٠.

وذكر البلاذري، أن زياداً سأل أهل فارس عن أمثل سيرة الملوك الفرس، فقيل له سيرة كسرى أنو شروان، كان يضع عن أهل فارس من خراج كل عشر سنين خراج سنة، ففعل زياد مثل ذلك. أنظر أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٨٨ (قالوا).

(٤) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٣٨ (قال). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٨٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ٣٣٣. الرئيس، الخراج والنظم المالية، ص ١٨٠. محمد كرد علي، الإدارة الإسلامية، ص ٧٦.

(٥) البلاذري، أنساب، (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٨٩ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٣٨ (قال). الاصطخرى، المسالك والممالك، ص ٧٣. ابن حوقل، صورة الارض، ص ٢٤١. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٨٢.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ٣٣٣.

كتاباً ذكر فيه مقالته التي حكاها للرسول، ثم هدده وأوعده قائلاً: "يا زيادا وأقسم بالله أنك لكاذب، ولئن لم تبعث بخراجك لأشدن عليك شدة تدعك قليل الوفرة ثقيل الظهر، ألا أن تكون لما كسرت من الخراج محتملاً" (١)، ان ما ذكره اليعقوبي يتعذر قبوله لاعتبارات عديدة منها: ان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ولّى زياداً على بلاد فارس التي تمردت وامتنعت عن دفع الخراج، لكي يُلزم أهلها حدود الطاعة فيؤدون الخراج وما عليهم من حقوق، وقد تمكن زياد بحنكته السياسية والادارية من تحقيق ذلك في كافة أرجاء فارس وكرمان، فكيف يعجز عن تحصيل الخراج من طائفة الأكراد؟ ولو افترضنا صحة ذلك فما مصلحة زياد في اخفاء هذا الأمر عن أمير المؤمنين؟، ثم انه لا يعقل أن يكون أمير المؤمنين علي قد كلم زياداً بهذا الأسلوب الذي يتهمه فيه بالكذب والخيانة، ويهدده بالأخذ واستصفاء المال، وهو الذي قال له من قبل "مثلك فليؤتمن" (٢)، وكان قد اتهمه على خراج البصرة وديوانها. وإلى جانب هذه الاعتبارات فان هذه الرواية وردت منفردة عند اليعقوبي، المعروف بعدم اعتداله تجاه الأمويين ومؤيديهم، فلا يستبعد أن يكون القصد منها الاساءة الى زياد، ومحاولة اظهار خيائته في عهد الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

بقي زياد بفارس وقد ملكها وضبط قلاعها بكفاءة وحسن تدبير الى أن علم معاوية بأمره، فخاف جانبه، وساءه أن يكون رجل مثل زياد في خدمة علي، فرأى أن يضمه الى جانبه ويستفيد من خبراته الواسعة لدعم سلطان بني أمية، وقد حاول معاوية ادخاله في طاعته تارة بالتهديد وأخرى بالترغيب، حيث كتب اليه كتاباً توعده فيه، وهدده بأنه لن يستطيع الافلات من سلطانه ثم نجده يُعرض له بولادة أبي سفيان (٣)، ولكن زياداً لم يلتفت الى عرض معاوية، وردّ عليه بخطبة حماسية عامرة بالدم والسب، قال فيها "أيها الناس، كتب إليّ ابن أكلة الأكباد، وكهف النفاق، وبقية الأحزاب يتوعدني، وبينني وبينه ابن عم رسول الله في سبعين ألفاً، قبائع سيوفهم عند أذقانهم، لا يلتفت أحد منهم حتى يموت، أما والله لئن وصل هذا الأمر اليه، ليجدني ضرباً بالسيف" (٤). وعندما علم علي بمراسلة معاوية لزياد، كتب الى زياد "أما بعد: فاني قد وليتك ما أنت أهل

(١) اليعقوبي، تاريخ، م ٢، ص ٢٠٤.

(٢) الجهشيارى، الوزراء، ص ٢٣.

(٣) العسكري، الأوائل، ص ١٩٧-١٩٨. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٩ (أبو المهاجر القاضي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٣-٤٤٤. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٨١. ابن الطقطقي، الفخرى، ص ١٠٩. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٠.

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٨٩ (قالوا). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢١٩. العسكري، الأوائل، ص ١٩٨. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٩ (أبو المهاجر القاضي). ابن أبي الدم، التاريخ الاسلامي، ج ١، ص ١٩٥. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ٨، ص ٤٣ (الاعمش). وذكر ابن قتيبة: أن زياداً ردة على معاوية بكتاب قال فيه: "أتوعدني وبينني وبينك علي بن أبي طالب، أما والله لئن وصلت إليّ لتجدني أحر ضرباً بالسيف. (انظر المعارف، ص ٣٤٦).

له، وأنا أعلم أنك لم تضبطه إلا بالتقوى والصبر، وقد قرأت كتاب معاوية، فاحذر فانه الشيطان يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه، وكانت من أبي سفيان زمن عمر فلتة، فلا يثبت بها نسب ولا يُستحق بها ميراث" (١)، فلما قرأ زياد كتاب الخليفة قال: "شهد لي أبو الحسن ورب الكعبة" (٢)، وقد كان ذلك من الأمور التي جرأت كل من زياد ومعاوية على الحاق نسب زياد بأبي سفيان فيما بعد (٣)، على أن زيادا ظلّ على اخلاصه لعلي، ورفض الاستجابة للخليفة الأموي، ولم تنفع معه سياسة التهديد والوعيد، وسد أذنيه عن سماع كل نداء وجهه اليه معاوية للقدوم اليه، وقد تغيّر موقف زياد عقب مقتل علي وتنازل ابنه الحسن عن الخلافة لمعاوية، وهذا ما سنوضحه في الفصل الثاني إن شاء الله.

-
- (١) العسكري، الأوائل، ص ١٩٨. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٥-٥٢٦ (هشام بن محمد). الزنجشيري، ربيع الأبرار، ج ٣، ص ٥٥٩. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٩ (أبو المهاجر القاضي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٤. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٨٢ (المدائني). ابن الطقطقي، الفخرى، ص ١١٠. ابن خلدون، العبرم ٣، ص ١٥.
- (٢) العسكري، الأوائل، ص ١٩٨. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٦ (هشام بن محمد). ابن العربي، العواصم، ص ٢٣٧. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٧٧. ابن خلكان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٥٧-٣٥٨.
- (٣) انظر ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٦. ابن العربي، العواصم، ص ٢٣٧. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ٦، ص ١٧٧. ابن خلكان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٥٨.

الفصل الثاني تحوّل زياد الى الصف الأموي وولايته للعراق

- * الصلح مع معاوية .
- * إلحاق نسب زياد بأبي سفيان .
- * موقف الناس من الاستلحاق .
- * تعيين زياد على العراق .

الصلح مع معاوية

ذكرنا في الفصل السابق المحاولات الأولى التي قام بها معاوية لكسب زياد وضمه الى جانبه، إلا أن تلك المحاولات باءت بالفشل حيث أن سياسة الوعيد والتخويف لم تجد نفعا مع زياد، فأعرض عن كل نداء وجهه إليه معاوية، وظل موالياً لعلي مخلصاً له، بالرغم من العرض السخي الذي عرضه عليه معاوية^(١).

ويُفهم من خطبة زياد التي ردّ فيها على كتاب معاوية، أنه كان يرى أن كفة معاوية لم ترجح بعد وأن علياً بالرغم من تحاذل بعض أصحابه، لا يزال صاحب الموقف الأقوى، وتبعاً لرؤية زياد هذه، فقد قال مهدداً معاوية: "يتوعدني وبينه وبين عم رسول الله في سبعين ألفاً، قبائع سيوفهم عند أذقانهم، لا يلتفت أحد منهم حتى يموت"^(٢).

وعندما قتل علي بن أبي طالب (رض)، وجد معاوية فرصة طيبة لإعادة النظر في مساعيه الهادفة الى استئالة زياد بأقل التكاليف، والظاهر أن معاوية استمر في سياسة التهديد والوعيد مع زياد، وهي سياسة لم تأت أكلها من قبل، وقد ردّ زياد على تهديدات معاوية بخطبة قال فيها: "العجب من ابن آكلة الأكباد، وكهف النفاق، ورئيس الأحزاب، كتب إليّ يتهددني وبينه وبين عم رسول الله (ﷺ) - يعني ابن عباس والحسن بن علي - في تسعين ألفاً واضعي سيوفهم على عواتقهم لا يثنون، لئن خلص إليّ الأمر ليجدني أحمر ضراباً بالسيف"^(٣). وهذه الخطبة تتضمن إقراراً ضمناً بولاء زياد للحسن بن علي، وإخلاصه للذكرى والده الذي مات، ولعل صيغة هذه الخطبة - والتي جاءت مشابهة لتلك الخطبة التي قالها زياد أيام علي عندما ردّ على كتاب معاوية الأول - تفيد التأكيد على موقف زياد الثابت، الذي لا يثنيه التهديد والوعيد، ولا تميّله العروض المغرية والسخية.

(١) انظر: المنقري، وقعة صفين، ص ٣٦٦ (الأعمش). ابن أعمش الكوفي، الفتوح، م ٢، ص ٣٠٠-٣٠١. العسكري، الأوائل، ص ١٩٧-١٩٨. ابن عساکر، تاريخ / خط م ٦، ص ٤٨٩ (أبو المهاجر القاضي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٣. ابن أبي الدم، التاريخ الإسلامي، ج ١، ص ١٩٥. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٨١ (المدائني). ابن الطقطقي، الفخري، ص ١٠٩.

(٢) البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٨٩ (قالوا). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢١٩. ابن أعمش، الفتوح، م ٢، ص ٣٠١. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة ج ٨، ص ٤٣ (الأعمش). بينما ذكر أبو هلال العسكري أن زياداً قال: "يتهددني - يعني معاوية - وبينه وبين عم النبي (ﷺ) في مائة ألف، وأيم لئن أفضى إليّ ليجدنني أحمر ضراباً بالسيف". (انظر الأوائل، ص ١٩٨).

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٧٠ (الشعبي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٥-٤١٦. البيهقي، الإيعاد بالحروب، ج ١، ص ٢٢٨. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٩٤. بينما ذكر اليعقوبي أن زياداً خطب قائلاً: "إن ابن آكلة الأكباد، وكهف النفاق، وبقية الأحزاب، كتب إليّ يتوعدني ويتهددني، وبينه وبين ابنت رسول الله في تسعين ألفاً...". انظر تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢١٨.

وهكذا بقي زياد بفارس مخلصاً لعلّ ولابنه الحسن من بعده، وقد تحصّن بقلعة عُرفت باسمه (قلعة زياد)^(١)، فخافه معاوية وهو من أكثر الناس معرفة بصلابته، وله معه تجربة سابقة، فقد حاول إفساده على علي حينما وجّه إليه عبدالله بن عامر الحضرمي، وكان خليفة ابن عباس على البصرة، ولكن زيادا ناهض ابن الحضرمي، ولم يستجب لمقاصد معاوية^(٢)، هذا فضلاً عما كان يعلمه معاوية من اعجاب المسلمين بشخصية زياد منذ خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وكان وقتذاك غلاماً، فلم يأمن معاوية أن يكون موقف زياد هذا دافعاً لالتفاف الناس من حوله ومبايعتهم لبعض أهل البيت^(٣)، الأمر الذي يضطر معاوية إلى معاودة الحرب التي بدأها من قبل مع علي، وربما أدى ذلك إلى تهديد الخلافة الأموية الفتية، وهي في أدق لحظاتها، مما جعل معاوية يلجأ في تعامله مع زياد إلى أسلوب آخر، حيث بعث بسر بن أرطاة القرشي سنة (٤١ هـ / ٦٦١ م) والياً على البصرة وأمره بقتل من خالفه، ولعل معاوية حرّضه أيضاً على التعرض لأولاد زياد المقيمين هناك^(٤)، كمحاولة للمضغط على أبيهم المتحصن بقلعة فارس للتخلي عن عناده، وقد امتثل بسر لأمر معاوية، فقبض على بني زياد الأكابر ومنهم: عبد الرحمن، وعبيد الله، وعباد، فحبسهم^(٥)، وأراد أن يكره والدهم على الشخصوس لمعاوية والدخول في طاعته، فأرسل إليه يتهدده ويتوعده بقتل أولاده إن لم ينزل مستسلماً، لكن زيادا لم يستجب لتهديدات بسر، وكتب إليه: "لست بارجأ من مكاني الذي أنا به، حتى يحكم الله بيني وبين صاحبك، فان قتلت من في يديك من ولدي، فالمصير إلى الله سبحانه، ومن ورائنا ووراثكم الحساب (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)"^(٦).

-
- (١) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٩٢ (قالوا). أيضاً ق ٤، ج ١ (احسان عباس)، ص ١٨٩ (قالوا). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢١٩. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٧٠ (الشعبي). ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٧ (عوانه). ابن الأثير، الكامل م ٣، ص ٤١٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٥.
- (٢) عن دور زياد في فتنة ابن الحضرمي، بالبصرة، انظر ص ٦٥-٦٨ من الفصل الأول.
- (٣) انظر: البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٠ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٧٧ (عمر ابن شبه). ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ٦. العسكري، الأوائل، ص ١٩٨. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢٢. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٠.
- (٤) انظر: الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٦٧ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٤. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٩٠. علي الخربوطي، تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩، ص ٨٨، وسيشار إليه عند وروده هكذا: الخربوطي، تاريخ العراق. Lammens, Ziad Ibn Abihi, P. 24.
- (٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٨٩ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٦٨ (المدائني). ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٧ (عوانه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٥. البيهقي، الاعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٢٦. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٩١. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٩. وذكر المسعودي: أن بسرا لم يحبس من أولاد زياد إلا عبيد الله وسالم. (انظر مروج الذهب، م ٣، ص ١٥).
- (٦) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٦٨ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٥. البيهقي، الاعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٢٧. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٩١. والآية التي ينضمها النص من سورة الشعراء: (٢٢٧).

وقد همّ بسر بقتل أولاد زياد وتنفيذ وعيده، إلّا أن أبا بكره - أخا زياد لأمه - تدخل في الوقت المناسب، حيث أتى بسرا واعترض على ظلمه لأولاد زياد الأبرياء، وعلى مخالفة الأمان الذي منحه معاوية في صلحه مع الحسن لأنصار علي وشيعته، ثم سأل بسرا أن يؤجله أياما حتى يأتيه بكتاب من معاوية بتخليه سبيلهم، فأجله^(١)، وهذا يشعر أن فكرة ممارسة الضغط على زياد عن طريق تهديده بقتل أولاده لم تكن من قبل بسر، ولكن مرجعها الأول معاوية، الذي كان له الأمر بتنفيذ القتل أو الامتناع عن ذلك، ويبدو أن أبا بكره تمكن من اقناع معاوية - حينما قبله - بالامتناع عن قتل أولاد أخيه، وبعد أن حصل على كتاب العفو، قدم به إلى البصرة وأعطاه لبسر، فأفرج عن الأولاد وأطلق سراحهم^(٢).

وهكذا أخفق معاوية مرة ثانية في استمالة زياد، الذي ظل على إخلاصه لآل علي بن أبي طالب، والظاهر أن زياداً لم يعلم بتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية - والذي تم قبل قدوم بسر إلى البصرة - إلّا في هذه الأثناء، ومع ذلك بقي بفارس متحصناً بقلعها المنيع، وكان محبوباً من قبل أهلها^(٣)، الذين لمسوا فيه حسن التنظيم والادارة. وقد عبّر ابن حزم عن امتناع زياد بفارس، وعدم قدرة معاوية على استمالاته بقوله: " وقد امتنع زياد وهو فقعة القاع، لا عشيرة له، ولا نسب، ولا سابقة ولا قدم، فما أطاقه معاوية إلّا بالمدارة "^(٤)، ولا شك أن اعتصام زياد بفارس مع علمه بأنه الوحيد الذي لم ينزل على حكم معاوية، ويدخل فيها دخل فيه الناس، إنما يدل على ثقته بنفسه أولاً وبامكانيات إقليم فارس الاقتصادية والبشرية ثانياً، إلّا أن هذه الأمور وحدها ليس كافية لمواجهة معاوية إذا ما لجأ إلى استخدام القوة، الأمر الذي دفع زياد في المرحلة التالية من علاقته بمعاوية إلى تبديل موقفه الرافض بموقف أكثر إيجابية.

لقد عاود معاوية - بعد أن صالح الحسن، وبايعت له جماعة الناس - الإتصال بزياد، حيث

(١) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٩٢ (قالوا)، أيضاً، ق ٤، ج ١، (إحسان عباس)، ص ١٨٩ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٦٨-١٦٩ (المدايني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٥. البيهقي، اعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٢٧. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٩٢. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٩.

(٢) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٥٠٥ (عوانه). أيضاً، ق ٤، ج ١ (إحسان عباس)، ص ١٨٩-١٩٠ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٦٩ (المدايني). ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٧ (عوانه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٥. البيهقي، الاعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٧٧. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٩٢. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٩.

(٣) انظر: الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٣٧ (عمر بن شبه). ابن الطقطقي، الفخرى، ص ١٠٩. أبو الفدا، المختصر، ج ١، ص ١٧٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ٣٣٣. فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١١٣.

(٤) ابن حزم، علي بن أحمد (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عجمرة، ٥ ج، دار الجليل، بيروت، ١٩٨٥ م، ج ٤، ص ١٧٣ وسيشار إليه عند وروده هكذا: ابن حزم، الفصل في الملل، الصفدى، الوافي بالوفيات، ج ٥، ص ١٣. الكتبي، فوات الوفيات، ج ٢، ص ٣٣. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٤٩٦.

كتب إليه يطالبه بتقديم حساب عما في ذمته من أموال ولايته، فأجابه زياد : " إنه لم يبق عندي شيء من المال، وقد صرفت ما كان عندي في وجهه، واستودعت بعضه لنازلة إن نزلت، وحملت ما فضل الى أمير المؤمنين رحمة الله عليه ^(١)، ومن جواب زياد هذا نلمس أول تغيرٍ يطرأ على موقفه تجاه معاوية، فبعد أن كان رفضه مطلقاً أخذ يحاور معاوية حول المال بهدوء ومن غير تعنت، ويبدو أن معاوية قد اطمأن لجواب زياد، وقبل عذره الذي اعتذر به، طمعا في كسب وده، لا سيما وأن زياد هذه المرة كان لينّ الجانب على غير عادته، إلا أن معاوية أصرّ على أن يأتيه زياد، فكتب اليه : " أن أقبل إليّ نظراً فيما وليت وجرى على يديك، فإن استقام بيننا أمر فهو ذاك، وإلا رجعت الى مأمك ^(٢)، ولكن زيادا قابل طلب معاوية هذا بالرفض، ولعله حرص على أن لا يضع نفسه تحت رحمة معاوية، دون أن يأخذ منه ما يضمن به سلامة نفسه والمحافظة على اقليمه على الأقل. ويظهر أن عدم إستجابة زياد ورفضه لطلب معاوية أمر اضطر الأخير الى استخدام أسلوب الضغط والتهديد من جديد، حيث بلغ معاوية أن عبد الرحمن بن أبي بكر يلي ما كان لزياد من أموال وأمالك بالبصرة، فكتب معاوية الى المغيرة بن شعبة - وكان واليه يومئذ على الكوفة - يأمره بمصادرة أموال زياد وبتعذيب عبد الرحمن إن امتنع عليه ^(٣)، والظاهر أن صداقة المغيرة لزياد جعلت الأول غير جاد في تنفيذ ما أمر به معاوية، كما أنه كان لزياد يد بيضاء عند المغيرة زمن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في حادثة أم جميل المرأة الهلالية ^(٤)، ولعل المغيرة - وهو ثقفي الأصل - عزّ عليه أن يُنكَل برجل يُعد من بين رجالات ثقيف البارزين، فاكتمى بتعذيب عبد الرحمن بن أبي بكر تعدياً سورياً، ثم كتب الى معاوية يخبره : " إني لم أصب عنده شيئا، وقد بالغت في عذابه، واستقصيت عليه ^(٥)."

وهكذا فشل معاوية مرة أخرى في الضغط على زياد، الذي لم يزل متربصاً في قلعته تلك يكره النزول على حكم معاوية، والدخول في طاعته، دون أن يأخذ منه ضماناً. ولعل زيادا أراد أن يظهر شأنه وقوته، إذ كان يعلم أنه في حصن آمن، وأنه لن يُبدأ بالقتال قبل محادثات ومفاوضات تسبقه،

(١) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٦٨ (المداثني). النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٩١.

(٢) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٦٨ (المداثني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٥. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٤٩١.

(٣) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٩٣ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٧٦ (عمر بن شبة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢٢. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٩٥. ابن خلدون، المعبر، م ٣، ص ١٠. فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١١٤.

(٤) لمزيد من التفاصيل انظر الفصل الأول، ص ٥٣-٥٤.

(٥) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٩٣ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٧٦ ١٧٧ (عمر بن شبة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢٢. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٩٥. فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١١٤.

وبإمكانه أن يلعب في تلك المفاوضات دوره، فلا بأس عليه اذن من بقائه متحصناً فترة من الزمن، ثم يصالح معاوية بشروط حسنة يحصل عليها، والواقع أن تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية أمر جعل زياد يرى أن لا جدوى من عصيانه وعناده لمعاوية، إذ أن أصحاب الحق تنازلوا عن حقهم، فما بال غيرهم؟ نود أن نقول أن زيادا لم يكن جادا في عصيانه بعد صلح الحسن مع معاوية بل اتخذ ظاهره خارجية ليقلق بها معاوية، الذي ضاق بمكانه، وكان معاوية يعلم أن لدى زياد مقدار من المال، وأن له أنصار يتعصبون له من أهل فارس، وكان يعلم أيضاً مكروه وسعة حيلته وبُعد غوره في الدهاء، فلم يأمن جانبه.

إزداد قلق معاوية من أمر زياد، ولم ينقذه من هذا القلق إلا المغيرة بن شعبة، والذي أفضى إليه معاوية قلقه، فأراد المغيرة أن يقلل من شأن زياد وأمره، ليخفف من وجل معاوية الذي أعباه وأسهره الليل، ولكن معاوية لم تهدأ نفسه، وقد عبر عن مخاوفه حينما قال للمغيرة: "شر الوطاء العجز، أترضى أن يكون زياد وهو داهية العرب، وقريع ذوى الرأي والحزم بمكانه؟ ما يؤمنني أن يبايع لبعض أهل هذا البيت، فيعيدها جذعه، والله لقد بت ليلتي ساهراً للذكرى زياد واعتصامه بقلعة بأرض فارس" (١)، ولم يكن هذا القول تعبيراً عما في نفس معاوية من قلق فحسب، بل تضمن أيضاً طلباً للمشورة والمعونة، ومعاوية يعلم أن المغيرة من أشرف ثقيف ومن دهاء العرب، وهو المميز فيهم بحل المعضلات (٢)، ويظهر أن المغيرة حرص أشد الحرص على أن يحل هذه المشكلة، فيتقرب بذلك إلى الخليفة الذي أعباه حلها، ويكسب ود زياد الذي قُدِّر له أن يكون من رجالات الدولة البارزين.

لقد عرض المغيرة على معاوية مبادرة من جهته، يهدف بها المصلحة العامة، فطلب الأذن بزيارة زياد ومفاوضته، فأذن له معاوية ونصحه بالتلطف لزياد عند لقائه (٣)، فكان بذلك أشد حاجة إلى الصلح، وأكثر حماساً من المغيرة، وعندما التقى المغيرة بزياد تلتطف له وترضاه، وذكره بمبايعة الحسن بن علي لمعاوية، ثم حثه على الدخول في طاعة معاوية قبل فوات الأوان، ويبدو أن زيادا لم

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٠ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٧٧ (عمر بن شبة). ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ٦. العسكري، الأوائل، ص ١٩٨. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢٢. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٩٥. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٠. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء،

ص ١٣٤، ٢٤-٢٥، Ziad Ibn Abihi, Lammens,

(٢) انظر ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٤، ص ١٤٤٦ (الشعبي). الطرطوشي، سراج الملوك، ص ١٢٧ (الشعبي). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٣ (الشعبي). ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٧٢ (الشعبي). السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٠٣.

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٧٧ (عمر بن شبة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢٢-٤٢٣. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٩٥. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٠. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٤.

يتشبث برأيه كثيرا، بل استنصح المغيرة، فنصحه بأن يستسلم، حيث قال له: "أرى أن تصل جيلك بحبله، وتشخص إليه" (١)، ولا بد أن المغيرة وعد زيادا وعودا غير معلنة، أقدر منها الحاقه بنسب أبي سفيان وتساهل معاوية بشأن الأموال التي كانت معه.

وهكذا نجح المغيرة في حمل زياد على تعديل موقفه، وأقنعه بمهادنة معاوية، وقد رأى زياد أنه من الأفضل أن يتوجه إلى دمشق، لا سيما وأن معاوية قد كتب إليه بالأمان، فخرج من فارس سنة (٤٢هـ / ٦٦٢م) قاصدا معاوية، وبرفقته المنجاب بن راشد الضبي، وحارثة بن بدر الغدافي (٢)، وعندما قدم زياد إلى دمشق أكرمه معاوية وتلطف له، ثم سأل عما صار إليه من أموال فارس، فأخبره زياد بما أنفق منها في الوجوه المختلفة، وما حمله إلى علي (رض) قبل موته، وما تبقى منها عنده فصدقه معاوية (٣) وأثنى على أمانته قائلا: "قد كنت أمين خلفائنا" (٤)، ويبدو أن معاوية لم يأخذ كل الأموال التي كانت في يد زياد، بل اكتفى بأخذ ألف درهم (٥)، وتنازل عن الباقي لزياد، وربما كانت هذه وسيلة منه لكسب ود زياد أكثر فأكثر.

إن التبدل الذي أصاب الوضع السياسي على أثر تنازل الحسن، وتفويض الأمر لمعاوية بمبايعة جماعة الناس له، هو الذي يفسر لنا التحول في موقف زياد واستجابته لمعاوية أخيرا، بعد مداوات دامت أكثر من ثلاث سنوات، وقد عبر زياد عن هذا التحول بقوله "فلما رأيت الله صرف الأمر عنه (يعني علي بن أبي طالب) إلى معاوية، لم أتهم قضاء الله، ورضيت به، وقد رأيت إلى ما صار أمر علي وأصحابه" (٦). وإلى جانب هذا فلا بد من الإشارة إلى دور المغيرة الذي ساهم بمساعييه مساهمة فاعلة في تبدل موقف زياد، فما زال به حتى ثناه عن رأيه، وكان هذا النجاح من المغيرة من أعظم ما توصل به إلى معاوية من خدمة، إذ كان زياد شوكة في جنب معاوية، وكان إلى ذلك قوى الشكيمة

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٠-١٩١ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٧٧ (عمر ابن شبة). المسعودي، مروج الذهب، م ٣، ص ١٥. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ٦. العسكري، الأوائل، ص ١٩٩. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٦٥ (عوانه وعبد الملك بن عبيد الله الثقفي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢٣. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٩٦-٢٩٥. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١١. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٥.

(٢) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٧٨ (عمر بن شبة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢٣. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٩٦. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١١.

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٧٨ (مسلمة بن محارب). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢٣. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٩٦. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١١.

(٤) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٧٨ (مسلمة بن محارب).

(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩١ (قالوا). ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٧ (عوانه). النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٩٦. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١١. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤١. بينما ذكر ابن الأثير، أن زيادا صالح معاوية على ألف ألف درهم (انظر الكامل في التاريخ، م ٣، ص ٤٢٤). أما ابن كثير فيقول: "أكرم معاوية زيادا، وقبض ما كان معه من الأموال، وصدقه فيها صرفه". (انظر البداية والنهاية، ج ٧، ص ٢٥).

(٦) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٧١ (أحمد بن إبراهيم الدورقي).

داهية عبقرى الادارة، بحيث كان من الصعب على معاوية أن يصل إليه، أو يوفق في إخضاعه إلا بعد قتال عنيف، لا يدري أحد من سيكون الرابع في مثل ذلك الموقف الخطير.

وبعد أن صالح زياد معاوية سأل معاوية أن يأذن له في نزول الكوفة، فأذن له، فشخص زياد الى الكوفة، وكان واليها المغيرة بن شعبة، فأكرمه وعظمه^(١). ولا ندري لماذا اختار زياد الإقامة في الكوفة؟ وكان الأولى به أن يقيم بالبصرة، حيث بيته وأولاده وماله، ويظهر أنه فضل الإقامة بجانب صديقه المغيرة بن شعبة، الذي كان له الفضل في صلحه مع معاوية، وكره أن يقيم بالبصرة الى جوار واليها عبد الله بن عامر، الذي كان في نفسه شيء من زياد منذ ولايته لعثمان بن عفان (رض) على البصرة، وذلك عندما خالفه زياد وقام بإصلاح نهر الابللة أثناء غيابه^(٢)، ولعل هذا التباعد تنامي بعد اعتصام زياد بفارس وعدم استجابته لمعاوية إلا بأخرة.

ويظهر أن معاوية لم يطمئن تماماً إلى زياد الذي كان بالأمس من شيعة علي^(٣)، فطلب من المغيرة مراقبة وملازمة زياد وجماعة من كبار أنصار علي وشيعته، فيروى الطبري أن معاوية كتب الى المغيرة: "خذ زيادا، وسلمان بن صرد، وحجر بن عدي، وشبث بن ربعي، وابن الكواء، وعمرو بن الحمق بالصلاة في الجماعة" فكانوا يتواجدون معه في الصلاة^(٤)، وعلى هذا فان إقامة زياد بالكوفة، كانت من وجهة نظر معاوية امتحانا له، يمكن لمعاوية من خلاله أن يتبين صدق زياد في ولائه له، ومدى ميله وانتمائه الى شيعة علي بعد الصلح، ولعل زيادا أثبت خلال إقامته بالكوفة صدق ولائه وطاعته لمعاوية، وقد حاول أن يدل على ذلك من خلال تطلعه الى اعتراف معاوية به كأخ له، ويبدو أن الناس وقتئذ كانوا يرددون هذه المقالة، فأراد زياد أن يهتم معاوية بالأمر، ويبادر الى الأقرار به رسمياً.

(١) الطبري، تاريخ ج ٥، ص ١٨٩ (قال بعضهم). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢٤. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٩٦. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١١. فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١١٥.

(٢) انظر البلاذري، فتوح، ص ٤٩٨ (عن جماعة من أهل العلم). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٩٠ (عن جماعة من أهل البصرة). ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣١٦ (عن جماعة من أهل العلم).

(٣) انظر Hiskett, M. and Awad, M., The story of the Arabs, First Published, Peninsula Press LTD, hong Konk, 1957. P. 75.

وسيشار اليه عند وروده هكذا : Hiskett, The story of the Arabs

(٤) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٧٩ (قال بعضهم). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢٤. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١١. الحروبوطي، تاريخ العراق، ص ٨٨. P. 25. Lammens, Ziad Ibn Abihi,

إلحاق نسب زياد بأبي سفيان^(١)

أمضى زياد بعد صلحه مع معاوية نحو عامين لم يتول خلالها أي عمل سياسي أو اداري، وهذا ما لم يألفه من قبل، حيث دأب - منذ صغره - على تولي الأعمال الادارية والسياسية، أما معاوية فقد استتب له الأمر بعد مقتل علي (رض) وتنازل الحسن له، وتنفس الصعداء عقب صلحه مع زياد الذي كان يقض مضجعه، فسكت معاوية عن إلحاق زياد بنسب أبيه، وكأنه أراد تأخير ذلك بعض الوقت، فصار زياد هو الذي يسعى في أمر ذلك النسب، ويجهد في استئالة معاوية اليه حتى أنه إتفق مع مصقلة بن هبيرة الشيباني، وجعل له عشرين ألف درهم على أن يذهب الى معاوية، ويذكر أمامه أن الناس تردد القول بأن زيادا هو ابن أبي سفيان، ففعل مصقلة ذلك^(٢)، وهذه الفكرة لم تكن حديثه العهد بالنسبة لمعاوية، فقد حاول عن طريقها بالأمس استئالة زياد الذي كان متحصنا بفارس^(٣)، وعندما أدرك معاوية أن هذا الأمر يتداوله الناس ويعرفونه، رأى أن يستلحق زيادا ويثبت نسبه ويستصفي مودته باستلحاقه، فاتخذ الخطوات اللازمة لاثبات صحة نسبه وإعلانها للملأ.

وفي سنة (٤٤ هـ / ٦٦٤ م)^(٤) حضر زياد من الكوفة الى دمشق، ومعه أربعة شهود^(٥)، وهذا يشير الى اهتمام زياد واعداده المسبق لتدعيم قضيته، التي لم يسبقه الى مثلها أحد في الاسلام، وقد

(١) الإلحاق أي هو الإدراك، وأستلحقه أي إدعاه. (انظر ابن منظور، لسان العرب، م ١٠، ص ٣٢٧-٣٢٨. الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ج ٣، ص ٢٨٩). يقول جواد علي: "الاستلحاق: هو أن يستلحق انسان شخصا فليلقه بنسبه، ويجعله في حمايته، أي في عصبيته" ويضيف أيضا "ومن هذا القبيل ما كان يفعله أهل الجاهلية من استلحاق أبناء الاماء البغايا بهم" (انظر: الفصل في تاريخ العرب، ج ٤، ص ٣٥٧-٣٥٨).

(٢) البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ج ٤، ص ١، ١٩١ (قالوا). ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٨٧ (عوانه). النويري، نهاية الأب، ج ٢٠، ص ٣٠٤. وذكر صاحب كتاب تاريخ الخلفاء: أن زيادا دعا بعض ثقاته، وبذل له ومنأه، لكي يمضي الى معاوية ويذكر أمامه قول الناس في نسب زياد. (انظر مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٠).

(٣) انظر العسكري، الأوائل، ص ١٩٨. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٩ (أبو المهاجر القاسبي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٤. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٨١. ابن الطقطقي، الفخرى، ص ١٠٩. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٠.

(٤) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٩١. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٤. المسعودي، مروج، م ٣، ص ١٤. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٦. البيهقي، الاعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٧٥. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٨٩. ابن خلکان، وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٣٥٨. أبو الفدا، المختصر، ج ١، ص ١٨٤. ابن الوردي، تاريخ، ج ١، ص ١٦٨. بينما ذكر السيوطي أن معاوية استلحق زيادا سنة (٤٣ هـ / ٦٦٣ م). (انظر: تاريخ الخلفاء، ص ١٩٦. أيضا السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م)، مناهل الصفا بتواريخ الأئمة الخلفاء، مخطوط متوفر في قسم مركز الوثائق والمخطوطات بمكتبة الجامعة الاردنية، ص ٢٨٨، وسبشار اليه عند وروده هكذا: السيوطي، مناهل الصفا / خط).

(٥) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢١٨.

جمع معاوية الناس وأحضر من يشهد لزياد بذلك النسب، ثم صعد المنبر وأمر زياد فصعد معه، فقامت جماعة من الناس وشهدت أن زيادا ابن أبي سفيان، أقرّ به قبل موته^(١)، وقام المنذر بن الزبير بن العوام فشهد أنه سمع علي بن أبي طالب يقول: أن أبا سفيان أشهدني أن زيادا ابنه^(٢). وكان فيمن حضر الشهادة أيضا أبو مريم السلوي^(٣) - وكان حمارا في الطائف قبل الاسلام - وهو أخبر الناس ببدء الأمر، وذلك أنه جمع بين أبي سفيان وسميّة أم زياد في الجاهلية، فشهد أن أبا سفيان قدم عليه بالطائف، وطلب منه أن يصيب له بغيا فقدم له سميّة، ثم أخذ أبو مريم يصف تفاصيل الواقعة بصراحة وبأسلوب فاضح^(٤)، ويبدو أن بعض المؤرخين المعروفين بتعصبهم ضد الأمويين ومؤيديهم كاليقوي والمسعودي، قد بالغوا كثيرا في الحديث عن الاستلحاق، وفي وصف الأسلوب الذي تم به^(٥) وذلك للطعن بزياد. والواقع أن معاوية حين استلحق زيادا وأشهد الشهود على ذلك، كان يريد تثبيت نسبه من أبي سفيان، وليس التشهير به ومحاوله المس من كرامته بأسلوب فاضح لا يمكن أن يقبله زياد، وبعد أن انتهى الشهود من الأدلاء بشهادتهم، قام زياد وقال: "أيها الناس إن أمير المؤمنين والشهود قد قالوا ما سمعتم، ولست أدري ما حق هذا من باطله"^(٦). وهكذا ألحق معاوية زيادا بنسب أبيه، فصار يدعى زياد بن أبي سفيان، وكان يعرف من قبل

(١) البلاذري، أنساب (أحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٢ (قالوا). الدينوري، الاخبار الطوال، ص ٢١٩. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٦، ص ١٣٢. المسعودي، مروج، م ٣، ص ١٤-١٥. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٦٦. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٨٧ (المدايني). الكشي، فوات الوفيات، ج ٢، ص ٣١. ابن الطقطقي، الفخرى، ص ١١٠. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٠٥.

(٢) الزبيري، نسب قریش، ص ٢٤٤-٢٤٥. المسعودي، مروج، م ٣، ص ١٤-١٥. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٦٦ (عوانه). البيهقي، الاعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٧٦-٢٧٧. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، ج ١، ص ٥٨٠.

(٣) أبو مريم السلوي: هو مالك بن ربيعة، من بني مرة بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن، يعرفون بأهمهم سلول، وهو بصري له صحبة، وكان من أهل الطائف في الجاهلية، (انظر: ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٥٤. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٤، ص ١٧٥٥. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ١٦، ص ٢٠٦-٢٠٧. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، ج ٣، ص ٣٤٤-٣٤٥).

(٤) اليقوي، تاريخ، ج ٢، ص ٢١٩. المسعودي، مروج، م ٣، ص ١٦. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٤. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٠٥.

(٥) انظر: اليقوي، تاريخ، ج ٢، ص ٢١٩. المسعودي، مروج، م ٣، ص ١٦.

(٦) البلاذري، أنساب (أحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٢-١٩٣ (قالوا). اليقوي، تاريخ، ج ٢، ص ٢١٩. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤، ص ١١٣ (العتبي). المسعودي، مروج، م ٣، ص ١٦. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٨٧ (المدايني). وذكر ابن عساکر أن زيادا قال حين استلحقه معاوية: "هذا أمر لم أشهد أوله، ولم أدع آخره، وقد قال أمير المؤمنين ما قد سمعتم، وشهدت الشهود بما قد حضرتم، فأنا امرؤ رفع الله مني ما وضع الناس، وحفظ مني ما ضيعوا، فإن يك ما قالوا حقا فالحمد لله على بلائه عند وهمه علينا، وأن يكن باطلا فقد جعلت الرجال بيني وبين الله تعالى". انظر: تاريخ دمشق / خط، م ٦، ص ٤٦٦. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، ج ١، ص ٥٨٠.

بزياد بن عبيد. ولكي يؤكد معاوية على صحة استلحاق زياد، ويربط أسرته ربطاً تاماً بأسرة أبي سفيان، فقد زوج ابنته من محمد بن زياد^(١).

وإذا كانت شهادة الشهود هي الحجة الأولى التي استند إليها معاوية في استلحاقه لزياد، فإن الحجة الثانية تتمثل في إقرار أبي سفيان ببنة زياد، وذلك في زمن الخليفة عمر بن الخطاب، وأمام علي بن أبي طالب، ولكنه لم يجرؤ على إعلان ذلك مخافة عمر^(٢)، ولا ندرى لماذا لم يعترف أبو سفيان ببنة زياد في خلافة عثمان وقد عاش فيها سنين عديدة^(٣)، وكان عثمان ألين جانباً من عمر. ذكر ابن أبي الدم (ت ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م)، أن أبا سفيان نفى زياداً عن نفسه، وأن معاوية هو الذي حمله على ذلك^(٤)، وربما يكون هذا حدث فعلاً في خلافة عمر، وهو يفسر لنا سكوت أبي سفيان عن الاقرار ببنة زياد أمام الخليفين عمر وعثمان، كما يفسر تخوف معاوية من إمكانية استلحاق زياد في تلك الفترة، فأراد أن يبقى الأمر منسياً إلى أن تسمح الظروف بذلك.

والواقع أن الحوادث التي تلت قضية الاستلحاق، أثبتت أن معاوية كان مقتنعاً بحق زياد في ذلك ومؤمناً بأن استلحاقه لزياد لم يكن فضلاً منه، ولا عزة لنفسه، بل أنه رآه عملاً لا بد منه، وذلك من باب وضع الشيء في موضعه السليم، ولما كان هذا معروفاً لدى الناس، والفرصة مهيأة وخاصة بعد الصلح الذي تم بين معاوية وزياد، أراد الأول أن يثبت ويعلنه للملا، فكان له ذلك.

هذه القضية بلغ من أمرها أن الناس اختلفوا ولا يزالون مختلفين في الحكم الذي صدر بشأنها، ولقد كان للشعر والاتجاهات السياسية أثرهما في اختلاف الناس في هذا الحكم، وما كان لهم أن يتأثروا بهما في هذا الصدد، وأن يؤثروهما على حكم قاض مجتهد. لقد رأى كثير من الناس أن هذه

(١) ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٦. ابن العربي، العواصم، ص ٢٣٧، ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٨٩.

(٢) الزبيري، نسب قريش، ص ٢٤٤-٢٤٥. اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢١٨. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ٥، أيضاً ج ٦، ص ١٣٢. ابن العربي، العواصم، ص ٢٣٦-٢٣٧. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٩ (أبو المهاجر القاضي). ابن الأثير، أسد الغابة، م ٢، ص ٢١٥-٢١٦. البيهقي، الاعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٧٥-٢٧٦. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١، ص ١٧٣، أيضاً، ج ١٦، ص ١٨٠، ١٨١ (الواقدي). ابن خلكان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٥٧. ابن الوردي، تاريخ، ج ١، ص ١٦٨. القلقشندي، مآثر الخلافة، ج ٣، ص ٣٤٣-٣٤٤.

(٣) عاش أبو سفيان صدراً من خلافة عثمان، يقول المقللون إنه عاش ست أو سبع سنين. (انظر خليفة بن خياط، الطبقات، ص ١٠. ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٤٤. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٢٩٢ (الواقدي). السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٥٦). ويقول المكثرون إنه عاش عشر سنين. انظر ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٤، ص ١٦٨. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٨، ص ٢٦٥. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، ج ٢، ص ١٨٠).

(٤) ابن أبي الدم، التاريخ الاسلامي، ج ١، ص ١٩٥.

ما ردت به أحكام الشريعة علانية^(١)، وذلك لأن رسول الله (ﷺ) قضى: (الولد ماهر الحجر)^(٢)، وذكر ابن الأثير أن من اعتذر لمعاوية قال: إنما استلحق معاوية زيادا الجاهلية كانت أنواعا منها، إن الجماعة يباشرون البغي، فإذا حملت وولدت ألحقت الولد منهم والقول في ذلك قولها، فعندما جاء الاسلام حرم هذا النكاح "إلا أنه أقر كل ولد إلى أب من أي نكاح كان من أنكحتهم على نسبه، ولم يفرق بين شيء منها، فتوهم ذلك جائز له، ولم يفرق بين استلحاق في الجاهلية والاسلام"، ثم ذكر أن "هذا مردود لمين على إنكاره، ولأنه لم يستلحق أحد في الاسلام مثله ليكون به حجة"^(٣).

د في دراستنا لهذه القضية أن نتجاوز السياسة والتاريخ، وعلى هذا فاننا نرى أن ذلك أهون مما ظن به البعض، وأن معاوية كان أجّل من أن يكون استلحاقه لزياد أول قضية سام الشريعة علانية، فهو من كبار صحابة رسول الله (ﷺ)، وكان ممن اختاره لكتابة

عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م)، رأي أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في معاوية والأمويين، تحقيق السيد طار، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٤٦م، ص ١٤-١٥، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الجاحظ، رأي الجاحظ بة والأمويين. وانظر الجاحظ أيضا، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج ٢، ص ١١، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الجاحظ، رسائل. الثعالبي، لطائف المعارف، ص ١٥. ابن كامل، م ٣، ص ٤٤٤. ابن الطقطقي، الفخري، ص ١١٠ (قالوا). أبو الفدا، المختصر، ج ١، ص ١٨٥. نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٠٥. السيوطي، مناهل الصفا / خط، ص ٢٨٩. السكتواري، علاء الدين علي من تأليف كتابة سنة ٩٩٨هـ / ١٥٨٦م)، محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر، ط ٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ص ٨٩، وسيشار اليه عند وروده هكذا: السكتواري، محاضرة الأوائل. البغدادي، خزنة الأدب، ج ٤، ص ٣٢. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٣.

صحيح، وقد رواه الزهري عن ابن المسيب عن أبي سلمه عن أبي هريرة عن الرسول (ﷺ). انظر الصنعاني، عبد همام، (ت ٢١١هـ / ٨٢٦م)، المصنف، حققه وخرّج أحاديثه عبد الرحمن الأعظمي، ١١ ج، ط ١، المكتب ي، بيروت، ١٩٧٢-١٩٧٠م، ج ٧، ص ٤٤٣، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الصنعاني، المصنف. ابن حمد بن محمد (ت ٢٤١هـ / ٨٥٥م)، المسند، شرحه أحمد محمد شاكر، ٢٠ ج، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٨م، ج ١٤، ص ١٨٤، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن حنبل، المسند. الدارمي، عبد الله بن عبد ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م)، سنن الدارمي، طبع بعناية محمد أحمد دهمان، ٢ ج، دار احياء السنة النبوية، بيروت، ج ١٥٢، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الدارمي، سنن. مسلم بن حجاج (ت ٢٦١هـ / ٨٧٤م)، صحيح مسلم ووي، ١٨ ج، ط ٣، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٤م، ج ١٠، ص ٣٧، وسيشار اليه عند وروده مسلم، صحيح. أبو داود، سليمان بن الأشعث (ت ٢٧٥هـ / ٨٨٨م)، سنن أبي داود، تحقيق محمد محي الدين بيد، ٤ ج، المكتبة العصرية، بيروت، ج ٢، ص ٢٨٣، وسيشار اليه عند وروده هكذا: أبي داود، سنن. ابن محمد بن يزيد، (ت ٢٧٥هـ / ٨٨٨م)، سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ٢ ج، المكتبة العلمية، ج ١، ص ٦٤٧، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن ماجه، سنن. الترمذي، محمد بن عيسى (ت ٢٩٧هـ / سنن الترمذي، تحقيق كمال يوسف الحوت، ٥ ج، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ج ٣، ص وسيشار اليه عند وروده هكذا: الترمذي، سنن النسائي، أحمد بن علي (ت ٣٠٣هـ / ٩١٥م)، سنن النسائي نلال الدين السيوطي، المكتبة العلمية، بيروت، ج ٦، ص ١٨٠، وسيشار اليه عند وروده هكذا: النسائي، لبيهقي، أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٥م)، السنن الكبرى، ١٠ ج، ط ١، مطبعة مجلس دائرة المعارف بحيدر آباد، ١٣٥٢هـ، ج ٧، ص ٤١٢، وسيشار اليه عند وروده هكذا: البيهقي، السنن الكبرى. ب، الكامل، م ٣، ص ٤٤٥. ابن الطقطقي، الفخري، ص ١١٠، النريز، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٠٥.

الوحي، واتّمنه على أمر الساء^(١)، فبعد على مثله أن يتعمد مخالفة أحكام الشريعة سراً أو علانية كما زعم أولئك القوم، وقد كان له في ذلك اجتهاد مقبول سنوضحه، ولا يهمننا بعد ذلك إن كان أخطأ فيه أو أصاب، لأن مثله اذا اجتهد فأخطأ عذّر في خطئه، وذلك لأن مسألة الاجتهاد يرجع أمرها الى التخمين والظن، ولا يُعلم الخطأ فيها بيقين.

ولو أمعنا النظر فيما ذكره أولئك الذين أنكروا على معاوية استلحاقه لزياد، لوجدنا أن منهم من ينكر ذلك الحكم بدعوى أن أبا سفيان لم يجتمع بسميه^(٢)، وهذا غير صحيح، لأنه لم يكن هناك ما يدعو أبا سفيان الى أن يكذب في دعوى اجتماعه بسمية، وقد كان لأبي سفيان من الأولاد من هو أعظم شأنًا وأجلّ خطراً من زياد، ولو لم يكن له منهم إلا معاوية لكفى. ويسدو أن علي بن أبي طالب قد صدّق أبا سفيان في حديثه عن اجتماعه بسمية وأن زيادا من صلبه، ولكنه رأى أن ذلك كان فلتة لا توجب ميراثا، ولا تحمل نسباً^(٣)، ورأي علي في ذلك صحيح فيما كان منه في الاسلام، لا فيما كان منه في الجاهلية..

ومنهم من ينكر ذلك الحكم لمخالفته قضاء رسول الله (ﷺ) (الولد للفراس وللعاشر الحجر)^(٤)، إلا أن الرسول (ﷺ) قضى بذلك في زنا الاسلام لا في زنا الجاهلية، ولهذا "أقر كل ولد كان ينسب الى أب من أي نكاح من أنكحتهم على نسبه، ولم يفرق بين شيء منها"^(٥)، وشتان بين استلحاق ولد بزنا الجاهلية واستلحاق ولد بزنا الاسلام، فالثاني هو الذي قضى به الرسول (ﷺ) في حديثه،

(١) ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٤٠٦. خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ٦٤. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ١٧٣. الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م)، تاريخ بغداد، ١٤، دار الكتاب العربي، بيروت، م ١، ص ٢٠٧، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٣، ص ١٤١٦. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ١٦، ص ٦٧٤. ابن حجر العسقلاني، الأصابة، ج ٣، ص ٤٣٣.

(٢) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٩٣ (قالوا)، أيضا (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠٠ (قالوا). الآبي، نثر الدر، ج ٤، ص ١٤٧. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٨٨-١٨٩ (أبو عثمان). ابن خلكان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٥٨. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٠٨.

(٣) العسكري، الأوائل، ص ١٩٨. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٥-٥٢٦ (هشام بن محمد). الزنجشري، ربيع الأبرار، ج ٣، ص ٥٥٩. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٩ (أبو المهاجر القاضي). ابن الأثير، أسد الغابة، م ٢، ص ٢١٦. أيضا ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٤. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٨٢ (المداثني). ابن الطقطقي، الفخري، ج ١١٠. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٥.

(٤) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج ٢، ص ١١. البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٣ (قالوا). الثعالبي، لطائف المعارف، ص ١٥. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٤. ابن الطقطقي، الفخري، ص ١١٠. أبو الفداء، المختصر، ج ١، ص ١٨٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٩. السيوطي، مناهل الصفا / خط، ص ٢٨٩. السكتواري، محاضرة الأوائل، ص ٨٩. البغدادي، خزنة الأدب، ج ٤، ص ٣٢٣-٣٢٤. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٣. وكان ممن أنكروا حكم معاوية لقضاء رسول الله (ﷺ) الحسن البصري. (انظر ابن بكار، الأخبار الموقفيات، ص ٥٧٤. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٧٩ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٧. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٩٣. أبو الفداء، المختصر، ج ١، ص ١٨٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٩).

(٥) ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٥. ابن الطقطقي، الفخري، ص ١١٠. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٠٥.

أما الأول فهو محل اجتهداد، لأنه لم يرد بشأنه نص واضح وقاطع عن النبي (ﷺ)، ولما كان اتصال أبي سفيان بسميّة قد حدث قبل الاسلام، فقد وجد معاوية لنفسه مخرجاً شرعياً، بأنه قد سبق الحدث صدور حكم هذا النص (الولد للفراس وللعاشر الحجر)، وإنه ليس لأي قانون حتمية الحكم الرجعي.

وينكر بعضهم الحكم لأن المسلمين اتفقوا على إنكاره، ولأنه لم يُستلحق أحد في الاسلام مثله ليكون به حجة^(١)، وهذا خطأ ظاهر، وذلك لأن معاوية من كبار الصحابة، ومن يحتج بعمله، ولو لم يُسبق الى مثله، ودعوى الإتفاق في ذلك ظاهرة البطلان. ولا يبقى بعد هذا إلا أن يقال أن حق زياد قد سقط بطول المدة، وينسخ الاسلام لذلك النكاح، الذي قام الاستلحاق على أساسه، ويمكن أن يجاب على هذا بأن الاسلام حين نسخ ذلك النكاح لم ينسخ آثاره، وقد اجتهد معاوية، فكان رأيه أن لا يضيع حق زياد بإسلامه، فالاسلام يضمن للناس حقوقهم ولا يضيعها، وإذا قضى القاضي بها لا يراه غيره، فإنه لا يصح لمن خالفه الرأي، أن يطعن في حكمه ويشهر به، لأن سلطة القاضي لها قداستها واحترامها، فهي من سلطة ولي الأمر، الذي أمر الله بطاعته، وقد قال معاوية لعبد الله بن عامر عندما أنكر عليه صنيعة: "والله لقد علمت العرب أي كنت من أعزها في الجاهلية، وما زادني الاسلام إلا عزاً، وإني لم أتكثر بزياد من قله، ولم أتعز به من ذلة، ولكنني عرفت حقاً فوضعت موضعاً"^(٢). وجواب معاوية هذا دليل واضح على اقتناعه بحق زياد وإيانه به، ولو كان إيمانه صادر عن رؤيته بضرورة رفع زياد الى منزلة ابن أبي سفيان، لاستطاع معاوية - وهو الخليفة - أن يرفع زياد الى المنزلة التي يريدونها دون الدخول في مسألة حساسة كمسألة النسب، إذا لم يكن لها أصل في نفسه.

أما زياد فقد رأى من جانبه أنه استعداد باستلحاق معاوية له حقه الذي كاد أن يضيع، وقد عبر عن ذلك في إحدى خطبه قائلاً: "فقد قال معاوية ما قد علمتم وشهدت الشهود بما قد سمعتم، وإنما كنت إمرأاً حفظ الله منه ما ضيع الناس، ووصل ما قطعوا"^(٣)، فهناك إذاً جانب من زياد

(١) ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٥. أبو الفدا، المختصر، ج ١، ص ١٨٥، البغدادى، خزنة الأدب، ج ٤، ص ٣٢٤. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٣. العلوي، محمد بن عقيل (ت ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م)، النصاب الكافية

لن يتولى معاوية، دار الزهراء، بيروت، ص ٨٢، وسيفار اليه عند وروده هكذا: العلوي، النصاب الكافية.

(٢) البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٢٤ (المدايني). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٥ (عمر بن شبه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٢. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٦.

(٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٢، ص ٢٤١ (الهشيم بن عدي). القالي، اسمايل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٦م)، ذيل الامالي والنوادر، مطبوع مع كتاب الامالي للقالي، ط ١، المطبعة الكبرى الأميرية ببلاط، ١٣٢٤هـ، ص ١٨٩ (ابن معمر)، وسيفار اليه عند وروده هكذا: القالي، ذيل الامالي. الجري، معاني بن زكريا (ت ٣٩٠هـ / ٩٩٩م)، المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، تحقيق محمد مرسلي الخولي، ج ٢، ط ١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣م، ج ٢، ص ٣٦٢-٣٦٣ (عبد الملك بن عمير)، وسيفار اليه عند وروده هكذا: الجري، المجلس الصالح. البيهقي، الاعلام بالحروب ج ١، ص ٢٧٦. وذكر الحسن البصري، أن زياداً قال في خطبته حين دخل البصرة: "أما بعد فإن معاوية غير مخوف على قومه، ولم يكن ليُلحق بنسبه من ليس فيه، وقد شهدت الشهود بما قد بلغكم، والحق أحق أن يُسمع". (انظر: ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٩٩. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣١٥). وقال زياد في خطبته حين قدم الكوفة "فالحمد لله الذي رفع مني ما وضع الناس، وحفظ مني ما ضيعوا". (انظر: الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٣٥ (مسلمة بن محارب)).

وضعه الناس وضيعوه، وقد جرت سنة الحياة وموازينها على أن يحاول صاحب الضعة تعويضاً لنفسه بالسبق في ميدان ما، وسياسة زياد مع أهل العراق فيما بعد، تشير الى أنه اتخذ من الحزم والشدة سلاحاً له.

ويبدو أن زياداً لم يكن ينظر الى عبيد الذي ولد على فراشه نظرة الابن لأبيه، بل كان يعتبره ربيبه وحاضنه، ولعله اشتراه مراعاة للحضانة، فقد حضنه منذ ولد على فراشه واليه نسب بالحضانة^(١)، وبعد الاستلحاق نجد زياداً يذكر عبيد بقوله " وإنما كان عبيد ربيبا مهوراً أو ولياً مشكوراً"^(٢). والواقع أن ما ورد عن حياة زياد في العصر الراشدي وبعده، يشعر أنه لم يكن قوياً الصلة بأسرته، حتى إننا لم نسمع عن علاقته بها، سوى ما ذكر من أمر شرائه لأمه سمية وزوجها عبيد.

موقف الناس من الاستلحاق

أثار إستلحاق معاوية نسب زياد المعارضة الشديدة من قبل المسلمين عامة ومن جانب الأمويين خاصة. أما معارضة الأمويين فلم تكن ناتجة عن عقيدة دينية، وإنما أوجدتها العصبية الأموية، التي حاولت جاهدة منع دخول أي عنصر أجنبي الى البيت الأموي، والى الفرع السفلي بالذات، وكان الأمويون يعلمون المواهب والقدرات التي يتمتع بها زياد، فخشوا أن تجتمع شخصيته بها لديها من صفات مع شرف نسبه الجديد، فيصل بذلك الى أجل المراتب وأرفعها، ومن بين الأمويين الذين عارضوا فكرة الاستلحاق مروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، وهما أبناء عمومة، ينحدران من جد واحد هو أمية الأكبر بن عبد شمس بن عبد مناف^(٣)، فعندما استلحق معاوية زياداً، وآثر عمرو ابن العاص على أهل بيته من الأمويين وقربها دونهم، خاف بنو أمية خوفاً شديداً، واجتمعوا في بيت مروان بن الحكم ليتداولوا الأمر، ويبدو أن معاوية علم باجتماعهم، فأراد أن يحول دون طموحاتهم وتدابيرهم، فبعث الى مروان وقد كتب له بعهدته على المدينة^(٤)، إلا أن القوم أجمعوا على لقاء معاوية فاستأذنوا ودخلوا عليه، وتحدثوا اليه محاولين إقناعه بضرورة التراجع في أمر استلحاق

(١) انظر ابن العربي، العواصم، ص ٢٣٨.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، م ٣، ص ١٦.

(٣) انظر السدوسي، مؤرج بن عمرو (ت ١٩٥ هـ / ٨١٠ م)، حذف من نسب قريش، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط ٢، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٦ م، ص ٣٣، ٣٥، وسيشار اليه عند وروده هكذا : السدوسي، حذف من نسب قريش. الزبيري، نسب قريش، ص ١٥٩، ١٧٦. ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٣٠، ٣٥. ابن حزم، علي بن أحمد (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م)، جبهة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢ م، ص ٧٨، ٨١، ٨٧، وسيشار اليه عند وروده هكذا : ابن حزم، جبهة أنساب العرب.

(٤) ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ١٧٥ (أبو عبيدة). ابن منقذ، أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م)، لباب الآداب، تحقيق أحمد محمد شاكر، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ١٩٣٥ م، ص ٣٨٩ (المدايني)، وسيشار اليه عند وروده هكذا : ابن منقذ، لباب الآداب.

زياد، والاستغناء عن عمرو بن العاص الذي أدناه معاوية دونهم^(١)، وهذا الموقف يصور لنا بها لا يدع مجالاً للشك خوف بني أمية من خروج الأمر من أيديهم، وطمعهم في الاستئثار بالحكم، وبدون أي منافس، وقد فهم معاوية ما دبره قومه فوبخهم، وأخبرهم بحقيقة أمرهم قائلاً "وأيم الله ما إياه راقبتهم، ولا لي نظرتهم، بل أدرككم الحسد القديم لبني حرب بن أمية"، ثم حذرهم معاوية من معاودة الشكوى في ذلك^(٢).

أما زياد فقد دأب معاوية على إكرامه ورفع قدره متحدياً بذلك بني قومه، فعندما كتب زياد إلى سعيد بن العاص يخطب أخته أم عثمان رده سعيد^(٣)، فشكا زياد أمره إلى معاوية، فقال له معاوية: "لأقطعنك أشرف ربع مكة، ولأسدّن عليه وجه داره"، وفعلاً أقطع معاوية زياداً الرحبة الواقعة أمام دار سعيد بن العاص ودار الحكم بن أبي العاص، فبنى زياد فيها داراً، وترك طريقاً عرضه تسعة أذرع للحكم، أما سعيد فجعل طريقه ثلاثة أذرع فقط، وقد سمى أهل مكة دار زياد بـ (دار الصرارة)^(٤)، ويمكن القول أن خطبة زياد لأخت سعيد بن العاص كانت محاولة منه لاستئالة الأمويين والاعتراف من جهتهم بنسبه من أبي سفيان إقراراً حقيقياً مرجعه القناعة والرضا، لا الامتنال والرضوخ لأوامر وتهديدات معاوية.

وكان عبد الرحمن بن الحكم - أخو مروان - ممن لم يرض من بني أمية عن استلحاق زياد، وقد عبر عن عدم رضاه بأبيات شعرية خاطب بها معاوية قائلاً:

أنغضب أن يقال أبوك عفّ وترضى أن يقال أبوك زان
وأشهد أن رحلك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان^(٥).

(١) انظر: ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ١٧٦-١٧٩ (أبو عبيدة). ابن منقذ، لباب الآداب، ص ٣٩٠-٣٩٢ (المدائني).

(٢) ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ١٨١ (أبو عبيدة). ابن منقذ، لباب الآداب، ص ٣٩٣ (المدائني).
(٣) الأزرقى، محمد بن عبد الله (توفي نحو سنة ٢٥٠هـ / ٨٦٤م)، أخبار مكة، تحقيق رشدي الصالح ملخص، ج ٢، ط ٣، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٩م، ج ٢، ص ٢٣٩ (حزرة بن عبد الله)، وسيشار إليه عند وروده هكذا: الأزرقى، أخبار مكة. ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٤، ص ١٦-١٧. وذكر ابن عبد ربه، أن زياداً كتب إلى سعيد بن العاص يخطب إليه ابنته. (انظر العقد الفريد، ج ٦، ص ١٠٠).

(٤) الأزرقى، أخبار مكة، ج ٢، ص ٢٣٩-٢٤٠ (حزرة بن عبد الله).

(٥) الجاحظ، الحيوان، ج ١، ص ١٤٦ (أبو عبيدة)، أيضاً، ج ٧، ص ٢٣٥. المسعودي، مروج، م ٣، ص ١٧ (أبو عبيدة). الإصفيهاني، الأغاني، م ١٣، ص ٢٦٦ (الميثم بن عدي). العسكري، الأوائل، ص ١٩٩. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٧. السياسي، الاعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٧٩. ابن أبي الحديد، نبيح البلاغة، ج ١٦، ص ١٩٠. أبو الفدا، المختصر، ج ١، ص ١٨٥. الكتبي، فوات الوفيات، ج ٢، ص ٢٧٨. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٠٦. وهذه الأبيات تُروى ليزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري الشاعر، لكثرة هجائه لآل زياد (انظر الهمداني، الحسن بن أحمد (ت ٢٣٤هـ / ٨٤٨م)، الاكلیل، تحقيق محمد بن علي الأكوخ، ج ٢، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ٢٦٧-٢٦٨، وسيشار إليه عند وروده هكذا: الهمداني، الاكلیل. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م)، الشعر والشعراء، تحقيق مفيد قمبيحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥، ص ٢٢٨، وسيشار إليه عند وروده هكذا: ابن قتيبة، الشعر والشعراء. البلاذري، أنساب (تحرير مكس سلوسينجر)، ق ٢، ج ٤، ص ٧٨-٧٩. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٥٢٣. ابن منظور، لسان العرب، م ٦، ص ١٣٣-١٣٤. البغدادي، خزائن الأدب، ج ٤، ص ٣٢٤. داود سلوم، شعر ابن مفرغ الحميري، مكتبة الأندلس، بغداد، ١٩٦٨م، ص ١٥٣-١٥٤). والأرجح أن عبد الرحمن بن الحكم هو الذي قالها، واتخذ من نسبتها إلى ابن مفرغ ذريعة لهجاء زياد. (انظر الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٣٢٠ (أبو عبيدة). فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١١٥).

بهذين البيتين هاجم عبد الرحمن معاوية وهجا زيادا، فلما سمعهما معاوية غضب على عبد الرحمن ومنع عنه عطاءه، وحلف أن لا يرضى عنه حتى يرضى عنه زياد، فذهب عبد الرحمن الى زياد واعتذر له وصالحه، فرضى عنه معاوية^(١).

وكان عبد الله بن عامر بن كريز - من بني أمية - ممن أنكر أيضا إستلحاق زياد، وذلك بدافع الغيرة والحسد، لا سيما وأن العلاقة بينهما لم تكن جيدة منذ أن كان ابن عامر والياً لعثمان بن عفان على البصرة^(٢)، وعندما استلحق معاوية زيادا كان ابن عامر عاملاً لمعاوية على البصرة، ولعله خشي أن يعزله معاوية ويعين زيادا مكانه على إمارة البصرة التي كانت في أمس الحاجة الى أمير حازم وحكيم مثل زياد، وقد عاب ابن عامر زيادا ذات يوم بقوله: "هيه، إبن سميّة يقبح اثارى، ويعرّض بعالي، لقد هممت أن آتي بقسمامة من قريش يحلفون أن أبا سفيان لم ير سميّة قط"^(٣)، وعندما علم زياد بمقالة ابن عامر، شكّا ذلك إلى معاوية الذي كان شديد الإيثار له، ولم يكن يحتمل أن يقول فيه أحد ما يكره، فغضب لذلك أشد الغضب، وأمر حاجبه أن يمنع ابن عامر من دخول القصر عليه، وقد نفّد الحاجب أمر معاوية حتى ضاق عبد الله هذه الجفوة، فشكا أمره الى يزيد بن معاوية، فتوسط يزيد لدى والده، لكنه لم يرض عن إبن عامر إلا بعد أن ذهب الى زياد واعتذر اليه وصالحه^(٤).

ولم يبد يزيد بن معاوية رضاه عن عمل أبيه في استلحاق زياد، وكان كسائر الأمويين الذين لم يرضوا عن ذلك، وظلوا فترة طويلة متباعدين عن هذا الإبن غير الشرعي لأبي سفيان، وقد هاجم يزيد زيادا وأولاده من بعده في مواقف عديدة، وكان يحذّرهم من مخالفة أمره أو الوقوع في الزلل، فينقلهم بذلك من عزّ قريش الى ولاء ثقيف ومن أبي سفيان الى عُبيد^(٥).

(١) الأصفهاني، الأغاني، م ١٣، ص ٢٦٦-٢٦٧ (الميثم بن عدي)، ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٩-٥٣٠. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٥٢٥. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٩٠-١٩١. الكتيبي، فوات الوفيات، ج ٢، ص ٢٧٨-٢٧٩.

(٢) انظر البلاذري، فتوح، ص ٤٩٨ (عن جماعة من أهل العلم). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٩٠ (عن جماعة من أهل البصرة). ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣١٦ (عن جماعة من أهل العلم).

(٣) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٢٤ (المدائني). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٤ (عمر بن شبة). ابن الأثير، الكامل م ٣، ص ٤٤٢. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٦.

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٢٤ (المدائني). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٤-٢١٥ (عمر بن شبة). إبن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ٨-٩. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٢. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٦.

(٥) انظر الزيري، نسب قريش، ص ١٢٨. اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٤٢. ابن دريد، محمد بن الحسن (ت ٣٢١هـ / ٨٦٩م)، المحتنى، ط ٤، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، ١٩٨٠، ص ٢٤ (العتبي)، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن دريد، المحتنى. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤، ص ٣٨٢-٣٨١ (محمد بن الضحّاك الخزاعي). الجهشيارى، السوزاء، ص ٢٧-٢٨، ٣١. ابن الكازروني، ظهير الدين علي بن محمد (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م)، مختصر التاريخ، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٧٠م، ص ١٠٩، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن الكازروني، مختصر التاريخ. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٣١ (العتبي). مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٥١.

وهكذا اضطُر معاوية الى التعنيف بقومه من بني أمية خاصة ومن قريش عامة، ليُدخل عليهم هذا النسب الجديد، وما أراهم تقبلوا منه ذلك واحتملوه إلا خوفاً من سلطانه أو رغبة في ماله، وكثيراً منهم أظهر التصديق والقبول وأضمر الإنكار والرفض.

أما عن موقف البيت العلوي من قضية استلحاق زياد، فقد أنكرها عدد من أفرادها، وكان الحسين بن علي ممن عارض حكم الإلحاق، وقد رأى معاوية خرج بعمله ذلك عن سُنّة النبي (ﷺ)، حيث كتب اليه: "أولست المدعي زياداً في الاسلام، فزعمت أنه ابن أبي سفيان، وقد قضى رسول الله (ﷺ) أن الولد للفراش وللعاهر الحجر"^(١)، ولكن حتى في هذا التأنيب لم يتعد الحسين كلمة إدعيت وزعمت، ولم ينف نفيّاً قاطعاً بأن زياداً حقيقة ليس ابن أبي سفيان بل أن في كلام الحسين اعتراف ضمّني بأن زياداً ابن غير شرعي لأبي سفيان.

وكان عبدالله بن عباس ممن نفى أخوة معاوية لزياد، وذلك لقضاء رسول الله (ﷺ)^(٢) أيضاً، وليست لدينا اشارات أخرى تشعر بأن أحداً من البيت العلوي استاء من هذا العمل، وحتى الحسن ابن علي فإنه لم يعلن عن غضبه واستيائه إلا عندما رفض زياد وساطته في أمر واحد من أنصاره^(٣).

وكان أكثر الشيعة ينكرون على معاوية استلحاقه لزياد^(٤)، حتى أنهم وجدوا في عمله هذا مأخذاً عظيماً وسبباً آخر لنقصه والتشهير به، فقال بعضهم إن "أول ذلّ دخل الكوفة، موت الحسن بن علي، وقتل حجر بن عدي، ودعوة زياد"^(٥). ويبدو أن الشيعة في عهد زياد لم يعارضوا هذا العمل ولم يعيروا له أهمية، ليس لرضاهم عنه وإنما لخوفهم من زياد الذي اتبع معهم سياسة حازمة، وقد انصبّ غضب الشيعة على زياد وابنه عبيد الله عقب مقتل الحسين بن علي على يد عبيد الله بن زياد. واستكملنا للحدث عن موقف الناس من مسألة الاستلحاق، لأبد من شرح بعض المواقف التي

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج ١، ص ١٨٨. البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٢١ (قالوا).
(٢) أنظر: مؤلف مجهول (من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي)، أخبار الدولة العباسية، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧١م، ص ٦٣، ٦٥، وسيشار اليه عند وروده هكذا: مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية.

(٣) أنظر الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ٢٩٩. البلاذري، أنساب (محمد باقر المحمودي)، ج ٣، ص ٥٢-٥٣ (ابن عون).
ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ١١. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٥٠٢-٥٠٣ (هشام بن محمد). ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، م ١٦، ص ١٩٤-١٩٥ (الشرقي بن القطامي). ابن خلکان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٥٩-٣٦٠.

(٤) ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٥.
(٥) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٧٩ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٩٥ (أبو مخنف). أيضاً الأصفهاني، علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٦م)، مقاتل الطالبين، تحقيق أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٤٦م، ص ٧٦ (أبو عبيد)، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الأصفهاني، مقاتل الطالبين. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٧. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٤٠.

تبناها أفراد بارزون ليسوا من البيتين الأموي والعلوي، وقد كان لهذه المواقف صداها في نفوس الناس وأثرها في تفسيراتهم لفحوى هذه المسألة، فمن بين تلك المواقف المؤثرة موقف أبي بكر - أخو زياد لأمه -، حيث كان ممن أنكر هذا الحكم ولم يرض عنه^(١)، وقد رأى أن زياداً ركب أمراً عظيماً في الاسلام بانتفائه من عبيد وإنسابه إلى أبي سفيان، فأقسم "أن أبا سفيان لم ير سمية قط"^(٢)، وفي هذا بعض التعنت، فليس هناك ما يدعو أبا سفيان إلى أن يكذب في دعوى اجتماعه بسمية كما ذكرنا، ويبدو أن أبا بكر أنكر أمر الاستلحاق ولم يرض بحكمه، لأنه قبل كل شيء يمس من شرف أمه سمية التي لا ندري ان كانت قد أدركت قضية استلحاق ابنها زياد أم أنها ماتت قبل ذلك، على أن ما جرى لسمية في الجاهلية لا يضرها في الدين، فان الله عفا عن أهل الجاهلية بالاسلام، وأسقط الائم والعار فلا يذكره إلا جاهل به.

وكانت أم المؤمنين عائشة (رض) متحفظة في موقفها تجاه هذا الحكم فلم تنكره كما أنها لم تؤيده، وقد أراد زياد أن يحصل منها على إقرار بصحة نسبه الجديد، فكتب إليها من "زياد بن أبي سفيان"، يريد أن تكتب له: إلى زياد بن أبي سفيان، فيحتج بذلك لدى من ينكره، ولكنها كتبت إليه: من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها زياد^(٣)، وجواب أم المؤمنين هذا لا يتضمن إقراراً أو إنكاراً لنسب زياد من أبي سفيان، ولكن فيه تلميح يشعر برضا عائشة عن زياد وأفعاله. وذكر ابن سعد إن عائشة (رض) كتبت إلى زياد "من عائشة أم المؤمنين إلى زياد بن أبي سفيان"^(٤)، أي أنها اعترفت بنسبه إلى أبي سفيان، والأرجح أن أم المؤمنين لم تنسب زياد لأبي سفيان، ولو كان ذلك القول صحيحاً لاحتج به معاوية وزياد وكل من أيدهم في حكم الاستلحاق.

ويروي البلاذري أن معاوية بعث إلى سعيد بن عبيد أخي صفية بنت عبيد - زوجة الحارث بن كلدة - فأرضاه حتى أقر بحكم الاستلحاق، ولكن ابن يونس لم يرض، وأراد أن يصل إلى معاوية

(١) ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ١٦. البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٩٣ (قالوا). اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٠ (روى بعضهم). ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ١٢. الآبي، نثر الدر، ج ٤، ص ١٤٧. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٦. ابن العربي، العواصم، ص ٢٣٧. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٨ (ابن سيرين). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٥. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٨٨-١٨٩ (أبو عثمان). ابن خلكان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٥٨. طه حسين، الفتنة الكبرى، ص ٢٢٥.

(٢) البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠٠ (قالوا). ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ١٢. الآبي، نثر الدر، ج ٤، ص ١٤٧. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٦. ابن العربي، العواصم، ص ٢٣٧. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٨٨-١٨٩ (أبو عثمان). ابن خلكان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٥٨. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٠٨.

(٣) ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٥. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ٢٠٤. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٠٩. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٥-١٦.

(٤) ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ١٠٠ (موسى بن اساعيل). ابن قتيبة، المعارف، ص ١٧٨. البلاذري، فتوح، ص ٥٠٢-٥٠٣ (القحذمي). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٠. ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٢٣.

ليحاجه في صنيعه، فلم يستطع الوصول اليه، فلما حضرت الصلاة من يوم الجمعة ذهب يونس الى المسجد ووقف بين يدي معاوية مذكراً لإيائه بقضاء رسول الله (ﷺ) في ولد الزنا، ثم قال له " فوالله لئن كان زياد بن أبي سفيان، إنه لعبيدي ومولاي أعتقته عمتي "، فغضب عليه معاوية غضباً شديداً، وحذّره من العودة الى مثل مقولته هذه^(١)، والتي تتضمن اعترافاً واضحاً ببنوة أبي سفيان لزياد، ولكن الحسد دفع يونس الى التجريح بنسب زياد، إلا أن زيادا سبق وأن اشترى والديه من صفية بنت عبيد^(٢)، فليس ليونس بن سعيد أو غيره حق في تعييره بالعبودية أو الموالاتة. وذكر المدائني أن معاوية أرسل يونس الى زياد بالعراق ليذاكره بها شاء، فقدم يونس البصرة ونزل عند عبد الله بن الحارث الكوسج، وحين علم زياد بمكانه استدعاه، فكلّمه وأمر له ببعض المال، ثم أمره بالشخص الى بلده ولكنه أبى، مما اضطر زياد الى تهديد الكوسج بالقتل ان هو لم يخرجّه من البصرة، فأخرجّه^(٣)، ولم يعد يونس بعد ذلك الى التعرض لزياد أو لأبنائه من بعده.

ثم ابتلي ذلك الحكم من يزيد بن مفرغ الحميري أعظم ما ابتلي به، وكان يزيد شاعراً هجاء طويل اللسان، وقد إتصل بآل زياد ومدحهم ابتداءً. ثم صحب عباد بن زياد الى خراسان، وقد انشغل عنه عباد بالحرب والخراج، فبسط يزيد لسانه فيه يذمه^(٤)، مما أغضب عباد وجعله يحبسه ويضربه، فاحتال عليه يزيد حتى أخرجه من السجن، فهرب منه الى البصرة، ثم خرج منها هارباً الى الشام، وجعل ينتقل في قراها ونواحيها هجو بني زياد ويطعن في ذلك الحكم طعناً شديداً، فذاعت أشعاره بين الناس^(٥)، وتأثروا بها تأثراً كبيراً، حتى صار ذلك الحكم عندهم مثلاً في الخروج على أحكام الدين والشريعة الاسلامية، وكان مما قاله ابن مفرغ في هجاء آل زياد :

إذا أودى معاوية بن صخر فبشرّ شعب قعبك يا نصداع^(٦)
فأشهد أن أمك لم تبأشر أبا سفيان واضعة القناع

(١) البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٣ (قالوا). المسعودي، مروج، م ٣، ص ١٦ (أبو عبيدة). العسكري، الأوائل، ص ١٩٩.

(٢) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ١٨٥ (سيف). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٥ (سيف).

(٣) ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ / ١٣١١م)، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق روية النحاس ورياض عبد الحميد مراد وآخرون، ط ١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤-١٩٨٨م، ج ٢٨، ص ١٠٢-١٠٣، وسيشار اليه عند وروده هكذا : ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق.

(٤) انظر ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ج ٢، ص ٦٨٨-٦٨٩. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٢٢٦. البلاذري، أنساب (ماكس سلو سينجر)، ق ٢، ج ٤، ص ٧٧-٧٨. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٣١٧-٣١٨ (أبو عبيدة). الأصفهاني، الأغاني، ج ١٨، ص ١٨٣-١٨٤ (عمر بن شبه ولقيط بن بكر). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٨. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٩١.

(٥) الأصفهاني، الأغاني، م ١٨، ص ١٨٥ (لقيط بن بكر وعمر بن شبه).

(٦) القعب : هو القلح الضخم (انظر ابن منظور، لسان العرب، م ١، ص ٦٨٣).

ولكن كان أمر فيه لبس على خوف شديد وإرتياح^(١).

ولا شك أن هذه الأبيات وغيرها مما قاله ابن مفرغ في هجاء آل زياد لا يحتاج بها في مثل هذا الموضوع ، لأن ابن مفرغ كان على علاقة عداء مع زياد وأولاده ، فليس بعيداً على مثله أن يهجو ويتأذى في هجائه ، حتى أن عبيد الله بن زياد أراد قتله ، إلا أن معاوية منعه وأمر بتأديبه^(٢).

وهكذا اختلف الناس في هذا الحكم إختلافاً كبيراً ، لأن معاوية كان له خصوم سياسيون من بني هاشم وغيرهم . ومن المؤكد أنه كان لمعاوية من الذكاء والدهاء وقوة الإرادة ، ما يمكنه من تحقيق كل ما يريد دون اللجوء إلى إقحام اسم أبيه في قضية مفتعلة ومخرجة ، فلم يعر معاوية بالغ اهتمام لأقوال الناس إزاء هذه المسألة ، ولعله اعتبر هذه الأقوال وتلك الطعنات في نسب زياد ومولده أمراً طبعياً ، لغموض نسب زياد ، ثم لشعور الناس بالغيرة والحسد والعصبية الموروثة ، فزياد تتوفر في شخصيته كل مقومات رجل الدولة الناجح ، فكيف اذا اقترن ذلك بشرف النسب ؟ ، وهذا ما عبر عنه عمرو بن العاص في خلافة عمر بن الخطاب (رض) عندما سمع زياداً خطيباً : " الله هذا الغلام لو كان أبوه من قريش ، لساق العرب بعصاه " ^(٣).

ولقد حاول زياد من جانبه أن يثبت صحة استلحاقه بأبي سفيان بشتى الوسائل ، ليس لمعاصريه فحسب بل للأجيال التالية أيضاً ، فألف كتاباً في المثالب . ويقال أنه ألفه ليكون أداة في يد أبنائه للدفاع عما يوجه إلى أصلاتهم ونسبهم ، فدفعه إليهم قائلاً : " استظهروا به على العرب فأنهم يكفون عنكم " ^(٤).

(١) الهمداني ، الاكليل ، جـ ٢ ، ص ٢٦٨ . البلاذري ، أنساب (ماكس سلو سينجر) ، ق ٢ ، جـ ٤ ، ص ٧٩ . الطبري ، تاريخ ، جـ ٥ ، ص ٣١٨ (أبو عبيدة) . الأصفهاني ، الأغاني ، م ١٨ ، ص ١٩١ (عمر بن شبة) ، أيضاً ص ٢٠٧ (أبو عبيدة) . ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ق ٢ ، ص ٥٢٨ . ابن الأثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٥٢٣ . ابن أبي الحديد ، نهج البلاغة ، جـ ١٦ ، ص ١٩١-١٩٢ . النويري ، نهاية الأرب ، جـ ٢٠ ، ص ٣٠٧ .

(٢) البلاذري ، أنساب (ماكس سلو سينجر) ، ق ٢ ، جـ ٤ ، ص ٧٨ . الطبري ، تاريخ ، جـ ٥ ، ص ٣١٨ (عمر بن شبة) . ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٨ ، ص ٣١٧ . وذكر الأصفهاني أن عبيد الله بن زياد استأذن يزيد بن معاوية في قتل ابن مفرغ فكتب إليه : " إياك وقتله ، ولكن عاقبه بما يُنكله ويشد سلطانك " . انظر الأغاني ، م ١٨ ، ص ١٨٩ (لقيط بن بكر ، وعمر ابن شبة) . والأرجح أن معاوية هو الذي أشار على عبيد الله بذلك ، وليس يزيد بن معاوية ، لأن عباد بن زياد ولي سجستان في أيام معاوية .

(٣) ابن العربي ، العواصم ، ص ٢٣٧ . ابن عساكر ، تاريخ / خط ، م ٦ ، ص ٤٨٩ (أبو المهاجر القاسبي) . ابن الأثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٤٣ . ابن أبي الحديد ، نهج البلاغة ، جـ ١٦ ، ص ١٨٠ (هشام بن محمد) . ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، م ٦ ، ص ٣٥٧ . ابن الوردي ، تاريخ ، جـ ١ ، ص ١٦٨ .

(٤) ابن النديم ، الفهرست ، ص ١٠١ . البكري ، عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) ، سمط اللائي ، تحقيق عبد العزيز الميمني ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٦ م ، م ٢ ، ص ٨٠٧-٨٠٨ ، وسيشار إليه عند وروده هكذا : البكري ، سمط اللائي . ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، م ٦ ، ص ٣٦٤ . البغدادي ، خزائن الأدب ، جـ ٦ ، ص ٥٣ . كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد الحليم النجار ، جـ ٣ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٠-١٩٦٢ م ، جـ ١ ، ص ٢٥٠ ، وسيشار إليه عند وروده هكذا : بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي . أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ط ٨ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦١ م ، ص ١٦٨ ، وسيشار إليه عند وروده هكذا : أحمد أمين ، فجر الاسلام . ومن المرجح أن زياداً صاحب أول مؤلف في المثالب ، ويقال أن كتابه كان متداولاً في القرن الثاني الهجري ، وقرظه الهيثم بن عدي (ت ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م) ، وقام أبو عبيدة (ت ٢٠٨ هـ / ٨٢٣ م) ، بتعليق نصه من جديد . انظر فؤاد سزكين ، تاريخ التراث العربي ، ترجمة محمود فهمي حجازي ، م ٢ ، المملكة العربية السعودية ، أشرف على طباعته إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود ، ١٩٨٣ م ، م ١ ، جـ ٢ ، ص ٣٥ ، وسيشار إليه عند وروده هكذا : سزكين ، تاريخ التراث العربي) .

ظل بنو زياد ينسبون إلى أبي سفيان بن حرب ويدونون في ديوان قريش إلى أن سقطت الدولة الأموية وقامت على أثر ذلك الدولة العباسية، فلما كانت سنة (١٦٠ هـ / ٧٧٦ م)، ردّ الخليفة العباسي المهدي بن المنصور آل زياد إلى نسبهم في ثقيف^(١)، فأبطل بذلك حكم معاوية بعد أن مضى عليه تلك المدة الطويلة وقد حمل المهدي على هذا رجلاً من آل زياد يقال له الصفدي بن سلم ابن حرب، قدم عليه فقال له: "من أنت؟"، قال: "ابن عمك"، قال: "أي ابن عمي أنت؟"، فانتسب إلى زياد، مما أغضب المهدي وحمله على التجريح بنسب آل زياد^(٢)، ثم كتب إلى محمد بن سليمان وإلى البصرة يأمر أن يخرج آل زياد من قريش وديوانهم والعرب، وأن يردهم إلى نسبهم من عبيد في موالي ثقيف، وقد تحامل المهدي في كتابه على معاوية وطعنه في دينه، حيث زعم أن معاوية استلحق زياداً رغبة منه في هلاك دينه وآخرته، وتصمياً على مخالفة الكتاب والسنة^(٣)، ولو كان حكم معاوية كما يصوره المهدي لوجدنا له صدى عند خلفاء بني أمية، وخلفاء بني العباس الذين سبقوا المهدي، ثم أن عمر بن عبد العزيز وهو الخليفة الأموي الذي لا يوجد من يضاهيه في عدله ودينه من خلفاء بني العباس كلهم لم يبطل حكم معاوية^(٤)، كما أبطل ما كان من لعن الخلفاء^(٥)، ونحو ذلك من الأمور التي رأى أنها مخالفة للدين، وسكوته على حكم معاوية أن لم يكن دليلاً على أنه ليس فيه مخالفة للدين، فهو على الأقل يشعر برضا عمر بن عبد العزيز عن ذلك الحكم، الذي اجتهد فيه معاوية وتحرى الحق.

تعيين زياد على العراق

بعد أن ألحق معاوية زياداً بنسبه، عاد زياد إلى الكوفة، وكان عليها يومئذ المغيرة بن شعبة، فنزل في دار سليمان بن ربيعة الباهلي^(٦)، ويظهر أن المغيرة داخله الشك والخوف من أنه بعد أن سعى في

(١) الطبري، تاريخ، جـ ٨، ص ١٢٩. الأزدى، تاريخ الموصل، ص ٢٤٠ (علي بن محمد بن سليمان). ابن الأثير، الكامل، م ٦، ص ٤٧. أبو الفدا، المختصر، جـ ٢، ص ٨. القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، جـ ١، ص ١٨٥.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ ٨، ص ١٢٩ (علي بن سليمان). الأزدى، تاريخ الموصل، ص ٢٤٠ (علي بن محمد بن سليمان). ابن الأثير، الكامل، م ٦، ص ٤٧-٤٨.

(٣) انظر نسخة كتاب المهدي إلى وإلى البصرة في ردّ آل زياد إلى نسبهم. الطبري، تاريخ، جـ ٨، ص ١٣٠-١٣١ (علي بن سليمان). وقد تحامل على معاوية من خلفاء بني العباس أيضاً المأمون والمعتضد، ووجد الأخير في حكم استلحاق زياد سبباً يستحق به معاوية اللعن. (انظر الطبري، تاريخ، جـ ١٠، ص ٥٤-٥٥، ٥٩-٦٠. البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص ٤٩٥).

(٤) يروي ابن عساكر، أن عمر بن عبد العزيز كان إذا كتب إلى عماله، فذكر زياداً قال: "إن زياداً صاحب البصرة، ولا ينسبه". تاريخ دمشق / خط، م ٦، ص ٤٩١ (علي بن حرب).

(٥) انظر ابن عبد الحكم، عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م)، سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق أحمد غنيد، ط ١، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٩٢٧ م، ص ٢٥، وسيشار إليه عند وروده هكذا: ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز.

(٦) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢١٩. الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢١٦ (عمر بن شبة)، أيضاً ص ٢١٧ (عبد الله بن أحمد المروزي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٧.

الصلح بين معاوية وزبياد، سيحل هذا الأخير محله في الولاية، وهذا الشعور من المغيرة لم نلمسه من قبل، وذلك حين وفد عليه زياد بعد صلحه مع معاوية، حيث قابله بحفاوة واحترام، فيروى الطبري أن المغيرة أرسل إلى زياد وأهل بن حجر الحضرمي ليعلم خبره، ولكن زياداً أراد أن يبقى المغيرة في حيرة من أمره فلم يعط مبرراً لقدمه إلى الكوفة^(١).

وذكر الطبري رواية أخرى مكملتها للرواية أعلاه، توضح قلق المغيرة الشديد إزاء تواجد زياد بالكوفة، الأمر الذي جعله يخرج إلى معاوية بالشام، ويسأله أن يعزله عن إمارة الكوفة، ويقطعه منازل بقرقيسيا^(٢) ليكون بين قيس، إلا أن معاوية خشي أن يكون المغيرة قد دبر له شيئاً ما، فرفض طلبه، وأمره بالعودة إلى عمله بالكوفة، فعاد إليها، وعندما وصلها أمر في الحال بإخراج زياد منها، فأخرج في الليلة ذاتها التي دخل فيها المغيرة إلى الكوفة وطرح زياداً إلى ما وراء الجسر^(٣). والواقع أن الرواية الثانية يبدو عليها الضعف ويتعذر قبولها، إذ أنه ليس من المعقول أن يتعامل المغيرة بهذا الأسلوب المجافي مع زياد الذي تربطه به علاقات ودية لا تقبل مثل هذا السلوك، وهو في الوقت ذاته أسلوب لا يمكن أن يتبعه إلا إنسان ضعيف محدود السياسة والدهاء، وهذا ما لا يتفق وشخصية المغيرة المعروفة بالدهاء والفكر والمنطق، ولا يعقل أن يكون المغيرة قد قام بإخراج زياد بدافع انفعال غير مدروس، وهو يعلم وضع زياد الجديد، وقد أصبح أخاً مقرباً للخليفة، أضف إلى ذلك شخصية زياد التي كان لها وزنها ومكانتها لدى رفاقه وأصدقائه. والأرجح أن المغيرة لم يتصل بمعاوية على أثر قدومه زياد إلى الكوفة، ولكنه بقي قلقاً لإقامة زياد في إمارته، وظل ينتظر إلى أن ورد كتاب معاوية من دمشق بولاية زياد على البصرة^(٤)، فسار زياد إليها، وبذلك اطمئن المغيرة وتنفس الصعداء، فقد انصرف عنه أجل الناس خطراً وأكثرهم تهديداً لمركزه.

وقبل أن نتناول تعيين زياد على مصرى العراق - البصرة والكوفة - لابد من إعطاء لمحة موجزة عن الأوضاع العامة في كل منهما، في الفترة الأولى من خلافة معاوية، وذلك لما كان لتلك الأوضاع من أثر في تعيين زياد على هذين المصرين، ثم اتباعه للسياسة الحازمة في إدارتهما.

أما البصرة، فقد آلت إلى حكم بني أمية بعد مقتل علي بن أبي طالب (رض) - سنة (٤٠ هـ / ٦٦٠ م) - ومصالحة ابنه الحسن لمعاوية سنة (٤١ هـ / ٦٦١ م)، فذكر الطبري "لما صالح الحسن

(١) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٦ (عمر بن شبة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٣٠. فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١١٥.

(٢) قرقيسيا: بلد على نهر الخابور، بالقرب من مصب الخابور في الفرات، وهي تشكل مثلث بين الخابور والفرات. (ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٢٨. الحميري، الروض المعطار، ص ٤٥٥).

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٧ (عبد الله بن أحمد المروزي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٧. ابن خلدون، المعبر، م ٣، ص ١٦.

(٤) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢١٩. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٦ (عمر بن شبة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٧. ابن خلدون، المعبر، م ٣، ص ١٦. فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١١٥.

ابن علي ... معاوية أول سنة إحدى وأربعين، وثب حُمران بن أبان على البصرة فأخذها وغلب عليها. . فبعث (معاوية) بسر بن أبي أرطأة^(١)، إلا أن ولاية بسر على البصرة لم تطل، حيث مكث والياً عليها لمدة ستة أشهر، عُزل بعدها عن البصرة^(٢) وولي مكانه عبد الله بن عامر^(٣).

وكانت البصرة قبل ولاية ابن عامر في حال من الفوضى والاضطراب، وذلك بسبب اختلاف القبائل العربية النازلة فيها^(٤)، وغلبة سفهائها عليها، هذا فضلاً عن وجود خليط كبير معهم من سكان تلك المناطق من الفرس والترك والهنود، وكان لهذا الخليط أمزجته المتباينة وثقافته المتفاوتة، وبلد ينزله كل يوم مختلف الجماعات وتآوى إليه مختلف الأحزاب لاد وأن تختل أموره اختلالاً كبيراً، فيكثر في نواحيه التلصص وقطع الطرق، ويتفشى فيه الفساد والعبث بالأمن والنظام. ويبدو أن ولاية ابن عامر كانت غير حازمة، ولم يكن بالوالي الكفؤ الذي يلجأ إلى اللين والتسامح وإلى العنف والحزم كل في حينه، بل سار على خطة المغيرة بن شعبة في مسالمة الناس ومداراتهم، ولئن صح ما فعله المغيرة في الكوفة ولم يؤد إلى مضاعفات خطيرة، فإن هذه السياسة في البصرة قد أدت إلى فساد الناس واستفحال الشر.

وقد ازدادت الفوضى والاضطرابات في البصرة بسبب حركات الخوارج^(٥)، التي اشتد أمرها في المناطق المجاورة للبصرة، فأدى نشاطهم هذا إلى قطع طرق التجارة، واضطراب المواصلات، وازدياد الخوف والقلق، حتى كادت البصرة أن تصبح في عزلة عن معظم الأقاليم، ولا شك أن اللصوص والمفسدين قد استغلوا اضطرابات الخوارج فنشطوا وزادوا الحالة سوءاً.

ويظهر أن ابن عامر كان مسؤولاً إلى حد ما عن فساد هذه المدينة، إذ ينسب إليه البعض اللين والضعف في الحكم، فذكر الطبري "أن ابن عامر كان رجلاً ليناً كريماً، لا يأخذ على أيدي

(١) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٦٧ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٤. البيهقي، الأعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٢٦. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٩٠. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٨. نايف محمود معروف، الخوارج في العصر الأموي، ط ٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨١ م، ص ١٢٢، ويشير إليه عند ورود هكذا نايف معروف، الخوارج. وذكر ابن أعثم أن معاوية بعث إلى البصرة عمرو بن أبي أرطأة، وهو أخو بسر. (انظر الفتوح، م ٢، ص ٢٩٨).

(٢) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٦٨ (المدائني). يعقوب، تاريخ، ج ٢، ص ٢١٧. البيهقي، الأعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٢٨ (المدائني). النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٩٢.

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٨٩. ابن قتيبة، المعارف، ص ٢١١. البلاذري، فتوح ص ٥٧٥ (قالوا). يعقوب، تاريخ، ج ٢، ص ٢١٧. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٧٠ (المدائني). ابن أعثم، الفتوح، م ٢، ص ٢٩٩. المقدسي، البدء والتاريخ، ج ٦، ص ١. ابن عساکر، تاريخ/ خط، م ٩، ص ٤٦٦. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٦. البيهقي، الأعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٨٠. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٩٢. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٨.

(٤) انظر فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١١٢. نبيه عاقل، خلافة بني أمية، ص ٧٠. يوسف العشي، الدولة الأموية، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٥ م، ص ١٣٤، ويشير إليه عند ورود هكذا: العشي، الدولة الأموية.

(٥) لمزيد من المعلومات عن نشاط الخوارج في البصرة في هذه الفترة، أنظر خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٨٨. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٧٠-١٧٢ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٧-٤١٨. البيهقي، الأعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٩٨-٢٩٩. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٧٧-٢٧٨. نايف معروف، الخوارج في العصر الأموي، ص ١٢٢.

السفهاء، ففسدت البصرة بسبب ذلك" (١)، كما أنه كان "سهل الولاية لا يعاقب في سلطانه ولا يقطع لصا"، فلما عوتب في ذلك، احتج بمحاولته تأليف الناس، وزاد في دفاعه عن سلوكه "فكيف انظر الى رجل قد قطعت أباه وأخاه؟" (٢)، وقد عرض بعض الرجال الذين وفدوا على معاوية، سوء الحالة التي آلت إليها البصرة في ولاية ابن عامر، فقال عبد الله بن الكواء: "أما أهل البصرة، فقد غلب عليها سفهاؤها، وعاملها ضعيف" (٣).

ويبدو أن ابن عامر حين طلب الى معاوية أن يولييه البصرة كان يريد أن يسترد أموالا كانت له فيها منذ ولايته السابقة زمن خلافة عثمان، ولا يريد أن يدخل في النزاعات التي كانت تقوم بين أهلها، فيصلح ذات البين ويقطع دابر المفسدين، ذكر المدائني أن ابن عامر قال لمعاوية: "إن لي بها أموالا وودائع، فإن لم توجهني عليها ذهبت" (٤)، فاستجاب معاوية لرغبته رغم هذه الحجة الواهية، وقد اهتم ابن عامر بتحصيل أكبر قدر ممكن من المال ليساعده في شيخوخته بينما استمر في سياسة اللين والتسامح وعدم إثارة الناس عليه، حتى ساءت الأحوال في البصرة. ويمكن معرفة تلك الأحوال أكثر من خلال إلقاء نظرة سريعة على الخطبة البتراء التي ألقاها زياد بالبصرة، حين تولى عمله عليها من قبل معاوية، ففيها نرى أن القتل والغدر عام في المدينة، يُقتل الإنسان الضعيف فلا يجد من يدافع عنه. كما أن السرقة عامة فيها والأمن مفقود في الطرقات، حتى إذا أتى الليل خاف الناس على أنفسهم، والفسوق والفجور منتشر جهارا في وضوح النهار، وبالتنقيب كان المحتالون واللصوص يدخلون الى المنازل فينهبونهم... (٥). هذا الوصف المروّع ينبئ بحالة عجيبة، تدل على انعدام الحكم وغياب النظام والمسؤولية، ومعاوية بصير في هذه الأمور، حيث تواردت الأخبار اليه عن ضعف ابن

(١) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٢. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٩، ص ٤٦٦ (اسحق بن علي الهاشمي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٠. البيهقي، الاعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٨٠. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٠٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٩. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٣. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٣.

(٢) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٢ (عمر بن شبه). البيهقي، الاعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٨٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٩. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٤.

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٢ (مسلمة بن مخارب)، أيضا ص ٢١٣ (عمر بن شبه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٩. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٣.

(٤) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٧٠. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٦. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٩٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٣. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٣.

(٥) انظر خطبة زياد البتراء لدى الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢، ص ٦٢-٦٤. ابن بكارة، الأخبار الموفقيات، ص ٣٠٤-٣٠٦ (المدائني). ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٢، ص ٢٤١-٢٤٣ (الهيثم بن عدي). البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠٦-٢٠٨ (الحرمازي). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٨-٢٢١ (المدائني). ابن أعثم، الفتوح، م ٢، ص ٣٠٧-٣٠٥. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤، ص ١١٠-١١٢ (أبو بكر الهذلي). الجريدي، المجلس الصالح، ج ٢، ص ٣٦٢-٣٦٤ (عبد الملك بن عمير). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٧-٤٥٠. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ٢٠١-٢٠٣. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣١١-٣١٣. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٢٦٠-٢٦١.

عامر، وفساد حال البصرة، فطلب منه بطريقة ودّية أن يعتزل الولاية، بالمقابل سمح له بالاحتفاظ بها في ذمته من أموال^(١)، ولا نرى مبرراً لسياسة الضعف التي انتهجها ابن عامر، سوى حرصه على حياته وسلطانه وانشغاله بجمع الأموال التي تولى البصرة بسببها.

كان السدي خلف ابن عامر على ولاية البصرة - في أول سنة (٤٥هـ / ٦٦٥م) - الحارث بن عبد الله الأزدي^(٢)، ويبدو أن معاوية اختار الحارث لأنه من قبيلة الأزد التي كانت لها مكانة في البصرة، كما أن عددها حينئذ كان قد ازداد في هذا المص^(٣)، فأراد معاوية أن يكسبهم إلى جانبه بتعيين واحد منهم، وربما كان تعيين معاوية للحارث تمهيداً لتعيين زياد من بعده، إلا أن الحارث لم يكن أحسن حالا من الوالي السابق، فلم يزد الأمر في ولايته قصيرة الأمد^(٤) إلا ارتباكاً، وكثر الفساد في الناس وزاد السلب والقتل والجرح والسرقة، إلى غير ذلك من الفضائع، ولم يبق للحكومة إلا الاسم^(٥). وكانت الدولة تحاول السيطرة على زمام الأمور، ولكنها لا تستطيع إلى ذلك سيلاً، فكلما حاولت إبدال والٍ بآخر على أمل أن يصلح الوضع هناك، فإن الوالي الجديد لا يستطيع القيام بمهمته بصورة مرضية، والحالة بالبصرة تزداد بأسوأ مما هي عليه، ولهذا كانت هذه المدينة في أمس الحاجة إلى والٍ حازم يتمتع بصفات سياسية وإدارية جيدة، تمكنه من وضع الأمور في نصابها وردّ فساد المص إلى صلاح، ولم يرّ معاوية بين رجاله من هو أقدر من زياد على القيام بهذه المهمة الصعبة، فولاه البصرة سنة (٤٥هـ / ٦٦٥م)^(٥)، وضم إليه خراسان وسجستان^(٦).

(١) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٣-٢١٤ (المدائني). ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٩، ص ٤٦٦ (اسحق بن عيسى الهاشمي).

(٢) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٩١. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٦ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤١-٤٤٧. البيهقي، الاعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٨٢. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٠٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٩.

(٣) انظر إحسان النص، العصبية القبلية، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٤) ابن الغملاس، ولاة البصرة ومتسلموها، ص ٦-٧.

(٥) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٩٢. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٧ (المدائني). المسعودي، مروج، م ٣، ص ٣٣. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٧. البيهقي، الاعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٨٢ (المدائني). النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٠٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٣٠. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٦. ابن الغملاس، ولاة البصرة، ص ٧. فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١١٥. زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ج ٢، ص ٢، أخرجه زكي محمد حسن بك وحسن أحمد محمود، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥٢، ج ١، ص ٦٢، ويشير إليه عند وروده هكذا: زامباور، معجم الأنساب، الخربوطي، تاريخ العراق، ص ٨٩. استمرت ولاية الحارث بن عبد الله الأزدي على البصرة أربعة أشهر فقط. (انظر الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٦ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٧. البيهقي، الاعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٨٢ (المدائني). النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٠٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٣٠).

(٦) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٧ (المدائني). ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤، ص ١١٠ (أبو بكر الهذلي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٧. البيهقي، الاعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٨٢ (المدائني). النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٠٩. أبو الفدا، المختصر، ج ١، ص ١٨٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٣٠. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٦.

هذا فيما يتعلق بالبصرة، أما الكوفة، فبعد أن ضمن معاوية سيطرته على العراق، ولجأ عليها سنة (٤١هـ / ٦٦١م) المغيرة بن شعبة^(١). كانت الفوضى كامنة في الكوفة وإن كان الأمن والنظام بها أكثر استتباباً مما هو عليه في البصرة، وكان الشيعة بها أكثر عدداً وأقل تفرقة من شيعة البصرة، أما الخوارج فكانوا بالكوفة أشد مراساً وأعظم قوة، وقد واجه المغيرة طيلة فترة ولايته اضطرابات وثورات عديدة قام بها الخوارج، لكنه استطاع بدهائه أن يخمدها^(٢)، على أن سياسة المغيرة التي انطوت على شيء من اللين والتسامح وإن رضي بها أهل الكوفة، إلا أنها لم ترض معاوية الذي ظل متخوفاً من شيعة علي في العراق عامة وفي الكوفة خاصة، فكان يريد أن يكون المغيرة أكثر حزماً وتغانياً له، وأن يستأصل الشر في بدايته وقبل أن يستفحل.

والحقيقة أن موقفاً حازماً من المغيرة كان كافياً لوقف محاولات التمرد التي كانت تعمل لتنظيم صفوفها المتفرقة من جديد، ولم يكن مثل هذا الموقف يكلفه كثيراً، ومع ذلك فإن المغيرة لم يتخذها. وقد عرف أهل الكوفة حالة الفوضى الضاربة في البصرة ومنطقتها، فترك كثير منهم مصرهم وغادروا إليها "فجعل المغيرة لا يسأل عن أحد إلا قيل له قد خرج إلى عبد الله بن عامر، حتى يسأل عن كاتبه، فقيل له قد لحق بعبد الله"^(٣)، وهذا يشعر بضعف وعجز ولاية عبد الله بن عامر.

ويبدو أن المغيرة شعر بعدم رضا معاوية عن سياسته، وخشي أن يعد لينه وتسامحه إهمالاً وتواطؤاً، فرأى أن يعلل تساهله بكبر سنه إذ كتب إلى معاوية: "أما بعد، فقد كبرت سني، وورق عظمي، واقترب أجلي، وسفهنى سفهاء قريش، فرأيت أمير المؤمنين في عمله موفق"^(٤).

لقد اختلف المؤرخون في تفسير الأسباب التي دعت المغيرة إلى اتباع سياسة اللين والتسامح إزاء الخوارج والشيعة في الكوفة، فيروى الطبري نقلاً عن النضر بن صالح أن المغيرة "أحب العافية، وأحسن في الناس سيرة، ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم"، وكان يقال له أن فلاناً يرى رأي الشيعة، وأن فلاناً يرى رأي الخوارج، فيقول "قضى الله ألا تزالوا مختلفين، وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا يختلفون، فأمنه الناس"^(٥). ويرى فلهاوزن أن المغيرة كان يرغب في اتباع تلك السياسة

(١) البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ٤، ج ١، ص ٢٤٤. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢١٨. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٥ (عوانه). ابن عبد البر، الاستيعاب، ٤، ص ١٤٤٦. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٣. البيهقي، الإعلام بالحروب، ج ١، ص ٣١٨. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٩٠. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٨.

(٢) لمزيد من المعلومات عن ثورات الخوارج بالكوفة في ولاية المغيرة، أنظر: خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٩٤. اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٢٠-٢٢١. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٧٤-١٧٥، ١٨١ وما بعدها. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١١-٤١٣، ٤٢٥ وما بعدها. البيهقي، الإعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٣٤-٢٣٦. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٧٥-٢٧٦، ٢٧٨ وما بعدها.

(٣) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢١٩.

(٤) ابن عبد البر، العقد الفريد، ج ١، ص ٨٣.

(٥) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٧٤. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢١.

المحافظة على منصبه ، فلم يستأصل الأخطار في بدايتها بل تركها ليتداركها من خلفه^(١). ويرجع لامنس تساهل المغيرة الى كبر سنه ، ويقول : " كان هم الأول هو البقاء في الحكم واتمام مستقبله المضطرب بهدوء "^(٢). أما بروكلمان فينسب هذا التساهل الى أخلاق المغيرة ، حيث وصفه بأنه " رجل انتهازي لا ذمة له ولا ذمام "^(٣)، ولكن ميور (Muir) لا يتفق مع أصحابه من الباحثين الغربيين ، بل يراه رجلاً ذكياً حكيماً عاقلاً^(٤). ويمكن القول أن سياسة اللين التي انتهجها المغيرة مع الخوارج والشيعة ، تبلورت وفقاً لرؤيته التي كانت ترمي الى التوفيق بين رضا معاوية عنه من جهة ، وعدم التعرض لأهل الكوفة بقتل خيارهم من جهة أخرى ، لذلك فقد دأب المغيرة على إخماد الفتن في ولايته دون أن يثير ذلك الشكوى لدى أهل الكوفة ، أو ينال من رضا معاوية الذي كان في وسعه عزل المغيرة كما عزل ابن عامر عن البصرة من قبل ، وهو الأقرب رحماً لمعاوية ، وقد وضح المغيرة جانباً هاماً وكبيراً من سياسته حينما قال : " ولا أحب أن ابتدئ أهل هذا المصر بقتل خيارهم ، وسفك دمائهم ، فيسعدوا بذلك وأشقى ، ويعزّ معاوية في الدنيا ، ويذل يوم القيامة المغيرة ، ولكني قابل من محسنهم ، وعاف عن مسيئتهم ، وحامد حلیمهم ، وواعظ سفيههم حتى يفرق بيني وبينهم الموت "^(٥). وبعد ، فقد كان المغيرة مرتاحاً في حكم ولايته ، وهو لبعد نظره وقوة حدسه كان يعرف الأوقات التي يتجه فيها فكر معاوية الى عزله عن عمله ، يعرف ذلك منه فيحول دونه بشتى الوسائل^(٦)، وهكذا تم المغيرة ولايته بسلام الى أن توفي سنة (٥٠هـ / ٦٧٠م) ، فضم معاوية الكوفة لزياد^(٧).

كانت العراق أهم ولايات الدولة الإسلامية ، فمنذ تأسيس معسكري البصرة والكوفة أيام عمر

(١) فلهاوزن ، الدولة العربية ، ص ١١٠ .

(٢) Lammens, Ziad Ibn Abihi, P. 11.

(٣) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ومينر البعلبكي ، ط ٥ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٨م ، ص ١٢١ ، ويشير اليه عند وروده هكذا : بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية .

(٤) William muir, The Caliphate : It's Rise, Decline and Fall, Kharats, Beirut, 1963, P.310.

ويشير اليه عند وروده هكذا : Muir, The Caliphate.

(٥) الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٥٥ (أبو مخنف). الأصفهاني ، الأغاني ، م ١٧ ، ص ٨٠ ابن عساکر . تهذيب تاريخ دمشق ج ٢ ، ص ٣٧٤ . ابن الأثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٧٣ . البيهقي ، الاعلام بالحروب ، ج ١ ، ص ٣٢٠ .

(٦) انظر ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ١ ، ص ١٧٢-١٧٣ . اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢١٩-٢٢٠ . الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٣٠١-٣٠٢ (الشعبي). العسكري ، الأوائل ، ص ١٨٨ (الشعبي). ابن الاثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٥٠٣ . البيهقي ، الاعلام بالحروب ، ج ١ ، ص ١١ . ابن خلدون ، م ٣ ، ص ٢٣-٢٤ . السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٠٥ (الحسن البصري).

(٧) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٧ ، ص ٩٩ . خليفة بن خياط ، تاريخ ، ج ١ ، ص ١٩٥ ، أيضا ١٩٧ (الوليد بن هشام). ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ١ ، ص ٢٥٠ . أيضا ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٣٤٦ . البلاذري ، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٢٥ . الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٢٢٣ . اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ . الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٥٥ (عوانه) ، أيضا ص ٢٣٢ . ابن أعثم ، الفتوح ، م ٢ ، ص ٢٠٨ . المسعودي ، مروج ، م ٣ ، ص ٣٤ . العسكري ، الأوائل ، ص ٢٤٠ (المدايني). المقدسي ، البدء والتاريخ ، ج ١ ، ص ٢-١ . ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ق ٤ ، ص ١٤٤٧ . ابن عساکر ، تاريخ / خط ، م ٦ ، ص ٤٨٣ . ابن الأثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٦١ . ابن أبي القدم ، التاريخ الاسلامي ، ج ١ ، ص ١٩٦ . أبو الفداء ، المختصر ، ج ١ ، ص ١٨٥ . النويري ، نهاية الارب ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ . مؤلف مجهول ، تاريخ الخلفاء ، ص ١٤٨ . زامبور ، معجم الانساب ، ج ١ ، ص ٦٢

ابن الخطاب، كان كل منها يؤلف منطقة إدارية مستقلة عن الأخرى، كما كان لكل منهما حاكم مستقل يعين من قبل الخليفة، وقد اتبع معاوية أول الأمر النظام الإداري الراشدي، الذي كان معمولاً به في العراق بتعيين أمير على كل مصر، وبقي الأمر كذلك إلى أن توفي المغيرة بن شعبه سنة (٥٠هـ / ٦٧٠م)، حيث جمع معاوية العراق لزياد، فكان أول أمير يجمع له مصرى العراق^(١)، وقد سار خلفاء بني أمية على هذا النهج الإداري الجديد.

ومما يلاحظ على ذلك النظام الجديد، إنه لم يصل إلى حد إدماج الولايتين في وحدة إدارية واحدة، بل ظل كل مصر مستقلة عن الآخر في جميع النواحي، وربما يعود ذلك إلى رغبة الخلفاء والولاة في الحد من شدة المعارضة العراقية، إذ أن الاتجاه المذهبي والسياسي يختلف عند سكان المصيرين، فأهل البصرة أكثرهم عثمانيه تهمهم مصلحتهم التجارية، ولا يعيرون الناحية السياسية كثير اهتمام، أما أهل الكوفة فأكثرهم شيعة معارضين للحكم الأموي، لذلك فقد اهتموا كثيراً بالناحية السياسية، ودأبوا على ذلك إلى أن سقطت الدولة الأموية^(٢).

ولا شك أن توحيد مصرى العراق - البصرة والكوفة - كان له مزايا إيجابية واضحة، فالكوفة قريبة من البصرة، ووجود سياستين مختلفتين في كل منهما ربما يؤدي إلى تأثير احدهما على الأخرى، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال ولاية كل من المغيرة بن شعبه على الكوفة، وعبد الله بن عامر على البصرة، حيث كانت سياسة الأخير أكثر ليناً وضعفاً، الأمر الذي شجع الكثير من أهالي الكوفة على مغادرة مصرهم إلى البصرة^(٣) التي كانت الفوضى تضرب في أطناها. وقال زياد حين مات المغيرة معبراً عن خوفه من استعمال ابن عامر على الكوفة: "إن وليها لم آمن أن يضربنا بجواره ويلجأ أهل خراجنا إليه"^(٤). ثم أن الكوفة مهمة جداً بالنسبة للعراق من حيث موقعها وماضيها، حيث كانت عاصمة الدولة الإسلامية في خلافة علي بن أبي طالب (رض). أما البصرة فتكمن أهميتها بالنسبة للعراق في موقعها التجاري المتميز، حيث تعتبر المرفأ الرئيس في مجال التبادل التجاري، وهي إلى جانب ذلك غنية بواردات الجباية التي تأتي إليها من كافة المقاطعات التي فتحت على أيدي مقاتليها، أضف إلى ذلك فإن توحيد مصرى العراق، كان من شأنه التخفيف من الاقليمية التي تأصلت في نفوس أهالي المصير الواحد، حتى تجاوزت العصبية القبلية في بعض الاحيان.

(١) خليفة بن خياط، ج ١، ص ٢١٨. ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج ١، ص ٢٥٠. أيضاً ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٤٦، ٥٧١. اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٢٩. ابن رسته، الاعلاق النفيسة، ص ١٩٥. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٣٢. المسعودي، مروج، م ٣، ص ٣٤. العسكري، الأوائل، ص ٢٤٠ (المدايني). المقدسي، البدء والتاريخ، ج ٦، ص ٢. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٦١. ابن أبي الدم، التاريخ الاسلامي، ج ١، ص ١٩٦. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٢٥. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، ج ١، ص ٥٨٠.

(٢) ثابت اسامعيل الراوي، العراق في العصر الأموي، ط ٢، منشورات مكتبة الأندلس، بغداد، ١٩٧٠م، ص ٢٤-٢٥، ويشير إليه عند ورود هكذا: الراوي، العراق في العصر الأموي.

(٣) انظر اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢١٩.

(٤) البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٧ (ابن الكلبي).

ومثلما كان لتوحيد الكوفة والبصرة جوانب إيجابية ، فإن هناك جوانب أخرى سلبية وخطيرة على الدولة ينبغي الالتفات إليها ، إذ أن تولي أمير واحد للعراق يعني سيطرته على منطقة واسعة من الدولة الإسلامية ، وتصرفه في تلك المنطقة تصرف الملوك المستقلين ، فيعين العمال على البلاد التي تحت إمرته ، ويحبيي الأموال ، فينفق منها على جنده وفيما تقتضيه العمارة من إصلاح الجسور واحتفار الترغ ونحو ذلك ، والمشكلة المحتملة تقع إذا ما أصيبت إدارة هذه المنطقة الواسعة بالضعف أو الفساد ، أو أن يقوم الأمير بحركة تمرد وعصيان ، غير أن مثل هذه الأخطار لم تحدث في ولاية زياد ، وذلك لكفاءته وخبرته الواسعة ، وقدرته على التنظيم ، ثم لاختلاصه لمعاوية^(١) الذي تربطه به رابطة القرابة والدم .

أما الأسباب التي دفعت معاوية إلى جمع المصريين تحت إمرة زياد ، فالراجح أن قابلية زياد الإدارية وكفاءته ومقدرته وإخلاصه للدولة ، هي التي شجعت معاوية على توحيد إدارة العراق تحت إمرته ، ولعل معاوية لمس بوادر الفتنة والفوضى في الكوفة ، مثلما لمسها في البصرة من قبل ، وبالمقابل كانت أحزاب المعارضة للنظام الأموي في الكوفة أكثر تعاضداً مما هي عليه في البصرة ، فولى أمرها لزياد ، لكي يضبطها كما ضبط البصرة التي كانت أشد فوضى وأكثر فساداً . ويبدو أن زياداً كان يرغب في ضم الكوفة إلى عمله بالبصرة ، فبعد أن توفي المغيرة بن شعبه ، تخوف زياد أن يستعمل معاوية ، عبد الله بن عامر على الكوفة ، فكتب إليه يبنه بوفاء المغيرة ، ويشير عليه بتولية عروة بن المغيرة ، وربما لمح زياد لمعاوية برغبته في ولاية الكوفة ، فعرف معاوية قصده وكتب إليه : " ليُفرخ روعك يا أبا المغيرة ، لست بموّل عبد الله بن عامر " وبعث إليه بهعهده على الكوفة^(٢) .

كان زياد يقيم في أحد المصريين إما البصرة أو الكوفة ، ويعين نائباً عنه في المصر الآخر ويخوله أغلب الصلاحيات الإدارية التي يتمتع بها الأمير ، وكان يقيم في البصرة ستة أشهر ، وفي الكوفة مثلها ، فاذا خرج إلى البصرة استخلف على الكوفة عمرو بن حريث^(٣) ، وإذا قدم الكوفة استخلف سمرة بن جندب الفزاري على البصرة^(٤) .

-
- (١) القلقشندي ، مآثر الإنافة في معالم الخلافة ، ج ١ ، ص ١١٢ .
 (٢) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٩٧ (ابن الكلبي) . العسكري ، جبهة الأمثال ، ج ١ ، ص ٥٦ (عن أبي العباس) . وذكر ابن منظور أن زياداً أشار على معاوية بتولية الضحاك بن قيس على الكوفة . (انظر لسان العرب ، م ٨ ، ص ١٣٥ (أبو عبيد)) .
 (٣) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٦ ، ص ٢٣ ، أيضاً ج ٧ ، ص ٩٩ . البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢١٠ (عباس بن هشام الكلبي) . الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٢٢٣ (قالوا) . الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٥٦ (عوانه) . ابن الأثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٧٣ . النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٠ ، ص ٣٣١ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٨ ، ص ٥٢ . ابن حجر العسقلاني ، الإصابة ، ج ٢ ، ص ٥٣١ .
 (٤) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٦ ، ص ٣٤ ، أيضاً ج ٧ ، ص ٩٩ . البخاري ، التاريخ الكبير ، م ٤ ، ص ١٧٦ (سليمان بن مسلم العجلي) . البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢١٠ (عباس بن هام الكلبي) . الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٣٧ (عمر بن شبه) . ابن حبان ، مشاهير علماء الأمصار ، ص ٣٨ . العسكري ، الأوائل ، ص ٢٤٠ (المدايني) . ابن عساکر ، تاريخ / خط م ٦ ، ص ٤٨٣ . ابن الأثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٦١ . أبو الفدا ، المختصر ، ج ١ ، ص ١٨٥ . ابن الغملاس ، ولاية البصرة ، ص ٧ .

وفي ولاية زياد أصبح العراق يشكل مركزاً للإشراف الإداري على المناطق الشرقية والشمالية الخارجة عن حدوده الجغرافية، والتي هي في الأصل من فتوح البصرة أو الكوفة، فمن فتوح البصرة فارس وكرمان^(١)، وخراسان وسجستان^(٢)، وأصبهان^(٣)، والأهواز^(٤). وكانت فتوح الكوفة تنحصر في المناطق الشمالية، كقزوين وزنجان^(٥)، وطبرستان^(٦)، وأذربيجان^(٧)، والري وقومس ونهاوند^(٨). كانت هذه المناطق ترتبط بأمر العراق (زياد) مباشرة، حيث كان المسؤول الأول عن إدارتها، وعن تعيين الولاة والعمال عليها في جُلّ الأحوال، وقد كان لهذا الارتباط أهمية كبرى، لأنه يخفف من أعباء إشراف الخليفة على الأقاليم البعيدة، ويعطي أمير العراق أهمية ودوراً رئيساً، وقد بقيت هذه الأقاليم تابعة إدارياً لأمر العراق حتى نهاية الدولة الأموية، ذكر المدائني أن "عمل العراق من هيت إلى الصين والسند والهند، ثم كذلك إلى الري وخراسان والديلم وجيلان والجلال وأصبهان" ثم أضاف "ومن ولي العراق فقد ولي البصرة والكوفة والأهواز وفارس وكرمان والهند والسند وسجستان وطبرستان وجرجان"^(٩)، وبذلك يكون هذا التحديد هو التحديد الإداري لا الجغرافي للعراق، الذي غدا بمصرية (البصرة والكوفة) في أيام زياد الأقاليم المسيطر إدارياً وسياسياً وعسكرياً على كل بلاد فارس تقريباً.

وعلى الرغم من امتداد وسعة الأقاليم الخاضعة إدارياً لمصرى العراق، إلا أنها لم ترض طموح

- (١) انظر: خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٣٩. البلاذري، فتوح، ص ٥٤٤. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ١٨٠. ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٢٧، ٤٥٤.
- (٢) انظر: خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٣٩-١٤١. البلاذري، فتوح، ص ٥٦٧، ٦٠٧. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ١٨٠-١٨١. ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ١٩٠-١٩٢. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤.
- (٣) انظر: خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٣٧. البلاذري، فتوح، ص ٤٣٦. ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٦١. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ١٣٩-١٤١. ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٢٠٩.
- (٤) البلاذري، فتوح، ص ٥٣١. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٧٢، ١٨٣-١٨٤. ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٢٨٤-٢٨٦. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٥٤٢-٥٤٤.
- (٥) انظر: البلاذري، فتوح، ص ٤٤٨. ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٧٩-٢٨١. ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ١٥٢. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٢٣.
- (٦) انظر: خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٤١-١٤٢. البلاذري، فتوح، ص ٤٦٧. ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ٣٠٧. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ١٥٣.
- (٧) انظر: خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٢٤-١٢٥. البلاذري، فتوح، ص ٤٥٥-٤٥٦. ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٨٤. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ١٥٣-١٥٥. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٢٧.
- (٨) انظر: البلاذري، فتوح، ص ٤٢٤. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ١١٤، ١٥٠-١٥٢. ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ١١٨-١١٧.
- (٩) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٦١-١٦٢. وذكر الأصمعي أن "عمل العراق هيت إلى الصين والسند والهند، ثم كذلك إلى الري وخراسان إلى الديلم والجلال كلها ... والجزيرة ما بين دجلة والفرات، والموصل من الجزيرة، لا تدخل في عمل العراق". (انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ٢١٤).

زياد كما يبدو، حتى أن معاوية أضاف إلى عمله الهند والبحرين وعمان^(١)، والظاهر أن هذا التبدل الإداري لم يحدث إلا في خلافة معاوية، حيث بقيت البحرين وعمان تابعتين إدارياً للخليفة في المدينة طيلة العهد الراشدي، ويوضح أبو نعيم الأصبهاني سبب هذا التبدل فيقول: "عمد معاوية فأخذ أصبهان من أهل البصرة ودفعها إلى أهل الكوفة، وأخذ البحرين وعمان من أهل الحجاز فأعطاهما أهل البصرة مكان أصبهان"^(٢)، أما مناطق الجزيرة الأخرى فقد بقيت تابعة إلى المدينة، فيرى البلاذري أنه كان "مجرى عيون الطف وأراضيها مجرى أعراض المدينة وقرى نجد وكل صدقتها إلى عمال المدينة، فلما ولي اسحاق بن إبراهيم بن مصعب السواد للمتوكل على الله ضمها إلى ما في يده"^(٣).

والجدير ذكره أن المصادر المتوفرة لم تشر إلى مدى ارتباط البحرين وعمان بمركز الإدارة في العراق إبان ولاية زياد، ويبدو أن هذا الارتباط لم يكن يسير تبعاً لقواعد مقننة وثابتة، وإنما تأثر بالأحوال القائمة حتى أن زيادا لم يعين والياً من قبله على تلك المنطقة، كما هو الحال بالنسبة لباقى الأقاليم والولايات التابعة للعراق، بل أن معاوية هو الذي كان يولي عليها^(٤)، ولعل الفائدة المرجوة من تبعية شرق الجزيرة العربية للعراق، تكمن في قدرة هذه المنطقة على تأمين العراق بالمهاجرين، كما أن هذه التبعية تمكّن أمير العراق من اتخاذ إجراءاته فيها عند الحاجة لملاحقة مثيري الفتن والقلقل الذين يتخذونها ملجأ لهم^(٥).

(١) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٧ (المدايني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٧. النيسابري، الاعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٨٢ (المدايني). أبو الفدا، المختصر، ج ١، ص ١٨٥. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٠٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٣٠. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٦. فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١١٥. وذكر ابن عبد ربه أن "عبد الله بن زياد أول من جمع له العراق وسجستان وخراسان والبحرين وعمان، وإنما كان البحرين وعمان إلى عمال أهل الحجاز". (انظر العقد الفريد، ج ٥، ص ٨).

(٢) الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م)، تاريخ اصبهان، تحقيق سفيان ديدريج، لندن، بريل، ١٩٣١، ص ٢٩، وسيشار إليه عند ورود هكذا: الاصبهاني، تاريخ اصبهان. ويؤكد قول الاصبهاني هذا ما رواه ابن عباس، حيث ذكر أن "البحرين من أعمال العراق، وحده من عمان ناحية جرجان واليهامة على جبالها، وربما ضمت اليهامة إلى المدينة، وربما أفردت، هذا كان في أيام بني أمية، فلما ولي بنو عباس صيروا عمان والبحرين واليهامة عملاً واحداً". (انظر ياقوت، معجم، البلدان، ج ١، ص ٣٤٧). وذكر صالح أحمد العلي نقلاً عن ابن الجوزي في كتابه (مرآة الزمان / مخطوطة اكسفورد، ص ٢٨٩) أن الشعبي روى أن "أول من جمع له العراق وخراسان وسجستان والبحرين وعمان زياد، وإنما كانت البحرين وعمان إلى ولاية الحجاز". (انظر: صالح العلي، إدارة الحجاز في العهود الإسلامية الأولى، مجلة الأبحاث، تصدرها الجامعة الأمريكية في بيروت، ج ١، السنة (٢١)، آذار ١٩٦٨ م، ص ١٥).

(٣) البلاذري، فتوح، ص ٤١٩ (قالوا). ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٦.

(٤) ولي معاوية على البحرين الأحوص بن عبد بن أمية. (انظر الزبيري، نسب قريش، ص ١٥٢. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، ج ١، ص ٢٣). كما ولي عليها أيضاً مروان بن الحكم. (انظر ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٥٣).

(٥) انظر البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٥٩.

وذكر بعض المؤرخين أن زيادا طالب بحكم الحجاز، اذ كتب الى معاوية : " قد ضببت لك العراق بشمالي ويميني فارغة فأشغلها بالحجاز" (١)، ويبدو أن هذا زعم غير صحيح، لأن الحجاز ولاية ذات أهمية كبيرة ويفترض أن يتولاها والي مستقل يقيم فيها، لا أن تحكم من قبل والي العراق، وهذا ما حدث فعلا في العهد الأموي، ولم يكن زياد كثير الود للأموي الحجاز، الذين تباعدوا عنه منذ استلحاق معاوية لنسبه، فكيف به يطلب الولاية عليهم؟ إن مثل هذا الطلب - إن كان صحيحا - يُعد تحديا من جانب زياد للأمويين في الحجاز، حتى وإن اقتصر الطلب فقط على ترأس موسم الحج كما ذكر اليعقوبي (٢). مثل هذه الادعاءات التي وضعت على لسان زياد تبدو مبالغاً فيها، وهي تفسر لنا حقد وتخوف الأمويين الغيورين من الخطوة والنجاح الدائمين لهذا الرجل الذي داخلهم النسب مجدداً، وساهم أبناء زياد الذين كانوا يرمون الى احتلال مكانة أعلى، ساهموا أيضاً في إيجاد هذه المعطيات التي كادت أن تنال من شخصية زياد، وتلصق بها من الصفات ما ليس فيها.

إن الثقة غير المحدودة التي أولاها معاوية لزياد لا تقل مديحا عن الشعر، هذه الثقة جعلته ملكا غير متوج على النصف الشرقي للإمبراطورية الإسلامية (٣)، وكان معاوية بها لديه من خبرة واسعة في عالم السياسة يعرف جيدا كل بلد والأسلوب الذي يناسبه، وكانت حنكته وراء نجاحه في إقرار الأمور في سائر الأقاليم، أما العراق فقد جعل أمرها لأخيه زياد ولم يتدخل في أموره، بل كان يوجهه بين الحين والآخر توجيهات عميقة لكنها غير تفصيلية، وقد أتاحت هذه الظروف المجال لزياد أن يستمر في اتخاذ تدابير جذرية لاعادة تنظيم ولايته الشاسعة المضطربة، حتى جعل من سلطة أسلافه المهزوزة سلطة قوية وحقيقية تعمل لمصلحة بني أمية، ووصف الطبري ثمرة تلك الجهود بقوله : " وكان زياد أول من شد أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وألزم الناس الطاعة" (٤).

(١) أبو عبيدة، النفاض، ج ٢، ص ٦٢٠. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠٨، ٢٧٦ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٨٩ (المداثني). ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ١، ص ٨٢، أيضا ج ٥، ص ١٢. المسعودي، مروج، م ٣، ص ٣٥. العسكري، الأوائل، ص ٢٤٣. المقدسي، البدء والتاريخ، ج ٦، ص ٢. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٣٠. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٥٠٥ (ابن شاذب). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٩٣. ابن خلكان، وفيات الأعيان، م ٢، ص ٤٦٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٦٤. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٣٠. ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢١٩.

(٢) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٢٩.

(٣) Lammens, Ziad Ibn Abihi, P. 676.

(٤) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٢. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥٠. البيهقي، الإعلام بالخراب، ج ١، ص ٢٨٧. أبو الفدا، المختصر، ج ١، ص ١٨٥.

الفصل الثالث

أعمال زياد الادارية والاجتماعية

- * اجراءاته الأولية (في البصرة والكوفة) .
- * سياسته تجاه الرعية .
- * تنظيم زياد للقبائل في العراق .
- * سياسته تجاه القبائل .
- * سياسة التهجير .
- * سياسة زياد تجاه عماله وموظفيه .
- * المقاتلة .
- * الشرطة والحرس .
- * الدواوين .

اجراءاته الأولية (في البصرة والكوفة)

قدم زياد الى البصرة في بداية سنة (٤٥هـ / ٦٦٥م)^(١)، فألقى نظرة على منازلها وخصاصها، وقال محدثاً نفسه : "رُبَّ فرح يمارتي لم تنفعه، وربّ مبتئس منها لن تضره"^(٢). لقد أدرك زياد بفكره الثاقب الحالة التي آلت اليها الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ورأى أن إصلاح هذه الأوضاع يحتاج الى عمل شامل وجذري، فصمم على ذلك التغيير بكل ما أوتي من قوة.

بدأ زياد ولايته على البصرة بخطبة سياسية مرتجلة ذاعت شهرتها في الأدب العربي، وقد عرفت بإسم (البترء) - أي المنقوصة - وذلك أنه لم يبدأها كما هو معتاد بالتسليم والحمد لله^(٣). رُويت هذه الخطبة في أمهات كتب الأدب والتاريخ، واقتصرت بعض المصادر على رواية أطراف منها، ورواها الجاحظ على نحو من الترتيب والتأليف لا يخلو من أثر الصنعة شأنه في ذلك شأن الكثير من رواة العراق في أكثر ما رووا من خطب ذلك العصر^(٤). وتُعدّ خطبة زياد (البترء) وثيقة سياسية أدبية، وهي جديرة بالدراسة والتحليل من هاتين الناحيتين، ولكننا سنشير إليها هنا بقدر ما تُعيننا على فهم شخصية زياد وسياسته. ان القارئ لهذه الخطبة لا يملك إلا أن يلاحظ أنها تكاد تكون مقسمة الى

(١) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٩٢، الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٧ (المدايني). المسعودي، مروج، م ٣، ص ٣٣. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٧. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٠٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٣٠. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٦. ابن الغملاس، ولاة البصرة، ص ٧.
(٢) ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣٠٢. ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٢، ص ٢٤١ (الهيثم بن عدي). المسعودي، مروج، م ٣، ص ٣٣. القاضي، ذيل الأمالي والنوادر، ص ١٨٨-١٨٩ (أبو العباس). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٥ (العتبي).

(٣) انظر : الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ٦٢. ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣٠٢. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٧ (المدايني). ابن زكريا، أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، ج ٦، ط ١، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٧١هـ، ج ١، ص ١٩٤، وبيشار اليه عند وروده هكذا : ابن زكريا، مقاييس اللغة. ابن الأثير المبارك، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ١، ص ٩٣. ابن منظور، لسان العرب، م ٤، ص ٣٧-٣٨. ذكر الهيثم بن عدي أن زياداً أول من خطب خطبة بترء. (ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٢، ص ٢٤١).

(٤) نص هذه الخطبة ورد في العديد من المصادر انظر : الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ٦٢-٦٥. ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣٠٤-٤٠٦ (المدايني). ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٢، ص ٢٤١-٢٤٢ (الهيثم بن عدي). البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠٦-٢٠٨ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٨-٢٢١ (المدايني). ابن أعثم، الفتوح، م ٢، ص ٣٠٧-٣٠٥. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤، ص ١١٠-١١٢ (أبو بكر الهذلي). الجريري، الجليس الصالح، ج ٢، ص ٣٦٢-٣٦٤ (عبد الملك بن عمير). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩١-٤٩٢ (عبد الملك بن عمير). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٧-٤٥٠. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ٢٠١-٢٠٣. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣١٠-٣١٣. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٢٦٠-٢٦١. وقد أوردنا نص الخطبة نقلاً عن الجاحظ في الملحق رقم (١).

ثلاثة أقسام متكافئة :

في القسم الأول :- عرض عام لأخلاق أهل البصرة ومسلكتهم ، من ضلال وفساد ومعصية الله واستهانة بما أعدّ لأهل الطاعة والمعصية من الثواب والعقاب ، إذ قال : " كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعدّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته " (١) وكأننا وجد في هذا التعميم مجالا للشك ، فجعل يخصه بضرب الأمثال ، فهم يتركون الضعيف يُقهر ويؤخذ ماله ، ويغضون عن المختلس ، ويعتدرون بغير العذر ، وهم يرون أماكن الفسوق تنتشر بينهم دون أن يقاوموا أو ينكروا (٢).

والواقع أن هذا التفكك الاجتماعي والتدهور الأخلاقي ناتج بالدرجة الأولى ، عن طبيعة تكوين المجتمع في البصرة ، والتباين الذي تحلل تركيبة هذا المجتمع الجديد ، إذ نزلت البصرة قبائل عربية عديدة من الجزيرة العربية ، وهذه القبائل بعضها متحضرة - كالقبائل اليمنية - والبعض الآخر بدوية ، كما أن بعض هذه القبائل كان يتمتع بالعتاء ، بينما كان بعضها محروم منه (٣) ، ولا ريب أن اللصوص والمختلسين وقطاع الطرق كانوا من هذه الجماعة المحرومة من العتاء ، وإلى جانب هذا التناقض ، نجد عناصر غريبة عن المجتمع العربي في البصرة كالأساورة والسيابجة والزط (٤) ، وهؤلاء على قلتهم لا بد أنهم احتفظوا ببعض مقومات وعادات مجتمعتهم الأولى ، فأثروا - وبقدر ما - في مجتمع هذا المصر الذي يعيشون فيه . وقد أدى ضعف بعض الولاة في البصرة وتساهلهم في حكم هذه الولاية إلى زيادة تدهور مجتمعتها الجديد ، الذي كان بحاجة إلى مزيد من الرعاية والتوجيه ، كل هذه الظروف ساعدت على ابتعاد الناس - وخاصة الجيل الجديد - عن تعاليم الإسلام ومبادئه ، وضعفت الروح العربية ، وانتشرت السرقات ، وكثر الاعتداء على الأموال والأنفس حتى أن البعض لم يجد حرجا في نبش القبور (٥) لسرقة أكفان الموتى وبيعها .

(١) الجاحظ ، البيان ، ج ٢ ، ص ٦٢ . ابن بكار ، الأخبار الموفقيات ، ص ٣٠٤ . البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٠٦-٢٠٧ (قالوا) . الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢١٨ (المدايني) . ابن عبدربه ، العقد الفريد ، ج ٤ ، ص ١١٠ (أبو بكر الهذلي) . ابن الأثير ، الكامل م ٣ ، ص ٤٤٨ .

(٢) انظر : الجاحظ ، البيان ، ج ٢ ، ص ٦٢-٦٣ . ابن بكار ، الأخبار الموفقيات ، ص ٣٠٥ . البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٠٧ (قالوا) . الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢١٨-٢١٩ (المدايني) . ابن عبدربه ، العقد الفريد ، ج ٤ ، ص ١١١ (أبو بكر الهذلي) ، ابن الأثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٤٨ . ابن أبي الحديد ، نهج البلاغة ، م ١٦ ، ص ٢٠١ .

(٣) انظر العلي ، التنظيمات ، ص ٥٢ .

(٤) انظر البلاذري ، فتوح ، ص ٥١٩-٥٢٤ . الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٩٠ ، ٤٦٨ (سيف) . العلي ، التنظيمات ، ص ٤٠ .

(٥) الجاحظ ، البيان ، ج ٢ ، ص ٦٣ . ابن بكار ، الأخبار الموفقيات ، ص ٣٠٦ . البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٠٧ (قالوا) . الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٢٠ (المدايني) . ابن عبدربه ، العقد الفريد ، ج ٤ ، ص ١١١ (أبو بكر الهذلي) . ابن أبي الحديد ، نهج البلاغة ، ج ١٦ ، ص ٢٠٢ .

أما القسم الثاني من خطبة زياد، فقد كان اعلانا للمنهج العام الذي سيسلكه في سياسته، وهو أشبه ما يكون بالتصريحات الوزارية في الوقت الحاضر، من حيث إبانيتها لأغراض الحاكم الجديد ومذاهبه في الإدارة والحكم ووجوه المنافع والاصلاح فيه. لقد جمع زياد في منهجه بين اللين والشدّة، لكنه غالى بعض الشيء في الخطوط التي حددها لتغيير الحالة الى الحد الذي وسّع فيه نطاق المسؤولية الشخصية حتى شملت الجماعة، فأراد أن تكون عقوبته من نوع جديد، فلم يقصرها على الطغاة وحدهم بل مدها الى شركائهم ولو من بعيد، ومدها الى من يجوز أن تحوم حولهم الظنة، حيث قال: "وإنّي أقسم بالله لأخذن الولي بالمولى، والمقيم بالطاعن والمقبل بالمدير، والمطيع بالعاصي"^(١)، وهذا أمر ليس جاريا على القانون الشرعي، الذي يقصر المسؤولية على شخص المجرم، وانما ذلك يلجأ اليه الاداريون للحدّ من الجرائم والارهاب، وفائدة ذلك في الغالب وقتية^(٢)، وكأننا شعر زياد - مرة أخرى - بأن في وعيده هذا مسارب للشك، فأعلن لسامعيه أنه لا يرتضي لنفسه في موقفه هذا أن يُكذّب، وأن "كذبة المنبر بقاء مشهورة"^(٣)، فهو قد عقد العزم على أن يفعل ما يقول، وفي منهجه وعد بحماية الرعية وصيانة أموالها.

ومن التدابير التي سلكها للتأكيد على منهجه الذي أقره في خطته، أخذ رؤساء القبائل بسفهاؤها ومجرميها، وتهديده بقطع العطاء عن مثيري الفتن والقبائل المشاركة فيها، وكان زياد يجبر رؤساء القبائل وأشرفها على تأديب سفهاء قومهم، ومن تحدّثه نفسه منهم بالتمرد على السلطان^(٤)، ويُذكر أن زيادا قال لأهل البصرة: "أخبروني بصلحاء كل ناحية، فأخبروه، فاختر منهم رجالا فضمهم الطريق" وحدّ لكل واحد منهم حدا^(٥)، وليس هناك ما يدل على أن هذا الضمان كان مقابل عوض مادي كما إنه لا يتعلق بالأراضي، وإنما هو اجراء يدخل ضمن الاجراءات الادارية والأمنية.

(١) الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ٦٣. ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣٠٥ (المدائني). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٩ (المدائني). ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤، ص ١١١ (أبو بكر الهذلي). ابن عساکر، تاريخ/ خط، م ٦، ص ٩٢ (عبد الملك بن عمير).

(٢) محمد الحضري بك، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، ٢ ج، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ١٩٦٩م، ج ٢، ص ١٠٨، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الحضري، محاضرات.

(٣) الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ٦٣ (المدائني). ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤، ص ١١١ (المدائني). ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٨. كان زياد صادقا في خطبه ومقالاته حتى أن ابن عمار قال في قصيدته التي مدح فيها المعتضد عبّاد:

السيف أصدق من زياد خطبة
في الحرب ان كانت يمينك منبرا
(علي بن بسام (ت ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق احسان عباس، ٤ ق، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩م، ق ٢، م ١، ص ٣٨١-٣٨٣، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن بسام، الذخيرة).

(٤) انظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٣ (مسلمة بن محارب). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٧-٢٥٨ (أبو مخنف). ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٤. النص، العصبية القبلية، ص ٢٤٢.

(٥) الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ٣٩. البيهقي، المحاسن والمساوي، ص ٤٧٤. ابن عبد ربه، العقد، ج ٥، ص ٧ (العتبي). وقال المدائني: "أرسل زياد الى قوم كانوا بصبيون الطريق فيهم مالك بن الربيع، فضمّن كل رجل منهم ما يليه". (البلاذري، أنساب، احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠٠.

وحين رأى زياد أن أهل البصرة قد أحدثوا أحداثاً لم تكن، صمّم على أن يضع لكل داء دواء، ولكل ذنب عقوبة شافية عادلة حيث قال: "وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غرّق قوماً غرقناه، ومن أحرّق قوماً أحرّقناه" (١)، وهذه القوانين العرفية الشديدة رآها زياد لاثقة لمعالجة حال أهل العراق، وقد أفادت فعلاً في اصلاح حالهم، ولكي يضمن زياد سلامة الناس وأمنهم في الليل ويحول دون نشاط اللصوص والمختلسين، فقد منع السير ليلاً بعد صلاة العشاء، وأعلن أنه اذا وجد شخصاً بعد ذلك سيقتله، وأمهّل في ذلك الى أن يأتي الخبر الكوفة ويرجع اليهم، فكان يؤخر العشاء حتى يكون آخر من يصلي، ثم يأمر المقرء بتلاوة سورة البقرة أو غيرها من القرآن الكريم، بعد ذلك ينتظر بحيث يترك لكل انسان مهلة من الوقت يبلغ معها أقصى البصرة عائداً الى بيته من المسجد أو غيره، ثم يأمر صاحب الشرطة أن يخرج فاذا رأى انساناً قتله، وطبق ذلك ليل متتالية حتى صار الناس اذا انتهوا من صلاتهم عادوا مسرعين الى منازلهم (٢)، ويذكر مسلمة بن محارب أنه أتى لزياد بأعرابي كان يسير ليلاً في البصرة فسأله زياد: "هل سمعت النداء؟ فقال: " لا والله قدمت بحلوبة لي وغشيني الليل، فاضطرتها الى موضع فاقمت لأصبح ولا علم لي بها كان من الأمير"، فقال زياد: "أظنك والله صادقاً، ولكن في قتلك صلاح هذه الأمة، ثم أمر به فضربت عنقه" (٣)، هذه الحادثة وإن كانت لا تخلو من المبالغة إلا أنها تدل على حزم زياد وتصميمه على الالتزام بأقواله، وربما قصد بها اثارة الخوف والفرع في نفوس أهل البصرة. والحق أن مثل هذا الحكم لا يغتفر ولو كان من معاذيره ضبط الأمور وتأمين الناس. وقد وجد زياد في البصرة حين قدم إليها عدداً كبيراً من المواخير، فأمر بهدمها، فهدمت حتى لم يبق منها شيئاً (٤).

وفي القسم الثالث والأخير من الخطبة، تناول زياد أموراً عديدة تتعلق بالرعية وراعيها، وما يجب أن يكون بين هذين الطرفين من صلات وشؤون، ومن هذه الأمور: ألا يثير الناس نعمة العصبية وأن يكفوا أيديهم عن الوالي، وألا يقفوا مواقف الريب والظنون، ثم أعلن أن له عليهم الطاعة والسمع وأن لهم عليه أن يعدل، وألا يحتجب عن صاحب الشكوى ولو طرق بابه ليلاً، ولهم عليه أيضاً ألا

(١) الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ٦٣. ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣٠٦ (المدائني). البلاذري، أنساب، (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠٧ (الخرماني). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٠ (المدائني). ابن أعثم، الفتح، م ٢، ص ٣٠٦. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤، ص ١١١ (أبو بكر الهذلي).

(٢) انظر: البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٦، ٢١٠ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٢ (مسلمة بن حارب). العسكري، الأوائل، ص ٢٤١ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥٠. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٧.

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٢، العسكري، الأوائل، ص ٢٤١ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥٠. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣١٥.

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠١ (قالوا). ابن عساكر، تاريخ/ خط، م ٦، ص ٤٩٩ (أبو سليمان). الماخور: "هو مجلس الريبة، وجميع أهل الفسق والفساد، وبيوت الخمارين". (انظر: ابن الأثير المبارك، النهاية في غريب الحديث، ج ٤، ص ٣٠٦. ابن منظور، لسان العرب، م ٥، ص ١٦١).

يؤخر أعطياتهم عن أوقاتها، وألا يدع المحاربين منهم زمنا طويلا في الثغور^(١)، وهذه الأمور متى وفرها الوالي وصدقها لا تجد سبباً للثورة أو الفتنة، ثم استمر زياد في تقرير ما أشار إليه من العلاقة بين الحاكم والمحكوم، فذكر أن الأئمة هم ساسة الأمة المؤدبون لها، وكهفها الذي تأوى إليه، وإن في صلاحهم صلاحها، وأنه لا خير يرجى للأمة من وراء بغضها لأئمتها، ثم كانت خاتمة خطبته قصيرة جامعة على نغمة واضحة من الانذار والتهديد، فيقول: "وأيم الله إن لي فيكم لصري كثيرة، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى"^(٢).

وقد وجم الناس لهذه الخطبة وذهل السامعون حتى ظن بعضهم أن الأمير مازح هازل، إذ كيف يأخذ الصالح بالطالح والمقيم بالثائر، فقام أبو بلال مرداس بن أدبه - وهو من زعماء الخوارج - وقال لزياد: "أنبا الله بغير ما قلت، قال الله عز وجل (وابراهيم الذي وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى، وإن ليس للإنسان إلا ما سعى) فأوعدنا الله خيرا مما واعدت يا زياد"، فقال زياد: "إننا لا نجد إلى ما تريد أنت وأصحابك سبيلا حتى نخوض إليها الدماء"^(٣). وأما سيّد تميم الأحنف بن قيس، فقد صورّ جانب المحايدين الذين لا يريدون أن يردوا على الأمير مقالته بما يكره، ولا أن ينزلوا عن مروءتهم في غير جدوى، فقال لزياد: "إنما الثناء بعد البلاء، والحمد بعد العطاء، وإننا لن نشي حتى نبتل" فأجابه "صدق"^(٤).

هكذا كشف زياد في خطبته هذه عن الخطوط العامة للسياسة التي ينوي انتهajها، هذه السياسة وهذا التهديد والوعيد الذي أعلنه على مسامع أهل البصرة، قصد به أن يغير الناس من خطة سيرهم، ويقلعوا عن الانهماك في الشهوات والاسترسال في الفسق والضلال دونما رادع من دين أو وازع من خلق، كما إنه أراد أن يعلن هؤلاء طاعتهم لحكمه، وهذا الأمر لا يتم إلا إذا استقام المجتمع، واعترف المواطنون بواجباتهم تجاه الدولة، وقد استمر زياد في تنفيذ سياسته ببراعة وإحكام حتى بسط سلطانه وعمت هيئته، ولم يكن يحتاج لتنفيذ ما أوعده من العقوبات إلا قليلا، لعلم

(١) الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ٦٤. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٠ (المداثني). ابن عبدربه، العقد، ج ٤، ص ١١٢ (أبو بكر الهذلي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٩. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ٢٠٢-٢٠٣.

ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٧.

(٢) الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ٦٥. ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٢، ص ٢٤٢ (المهشم بن عدي). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢١ (المداثني). ابن عبدربه، العقد، ج ٤، ص ١١٢ (أبو بكر الهذلي). الجريسي، الجليس الصالح، ج ٢، ص ٣٦٣ (عبد الملك بن عمير). ابن عساکر تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٢ (عبد الملك بن عمير). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥٠.

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢١ (المداثني). ابن عبدربه، العقد، ج ٤، ص ١١١ (أبو بكر الهذلي). القالي، ذيل الأمالي، ص ١٨٩. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥٠. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ٦، ص ٢٠٣. الآيات الكريمة التي في النص من سورة النجم: (٣٧-٣٩).

(٤) الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ٦٥. ابن بكار، الأخبار الموقفيات، ص ٣٠٩ (المداثني). البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠٩ (المداثني). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢١ (المداثني). ابن عبدربه، العقد، ج ٤، ص ١١٣ (أبو بكر الهذلي). الجريسي، الجليس الصالح، ج ٢، ص ٣٦٤ (عبد الملك بن عمير).

الناس بصدقة في الایعاد، فأخذوا يقفون عند الحد المشروع لهم، وكانت النتيجة أن استظل الناس بظل حكمه في أمن وسلام " حتى أن الشيء ليسقط من الرجل فلا يعرض له أحد حتى يأتي صاحبه فيأخذه "، وأصبحت المرأة تبات في بيتها دون أن تغلق عليها بابها، بعد أن كانت تستغيث من اعتداءات المجرمين واللصوص فلا تغاث^(١).

يروي هشام بن الكلبي، أن زياداً أراد أن يختبر مدى نجاح تدابير الأمن فبعث "بقطيفه ديباج منسوجة بذهب، فألقيت بالخرية، فمكثت ليالي وأياماً ما يمسها أحد" حتى بعث إليها من أتى بها^(٢). وبفضل ارادة زياد القوية تمكن أول الأمر من توطيد الأمن وإقرار السلطان الحكومي في منطقة البصرة، فعندما قيل له "أن السبل مخوفة" قال: "لا أعاني شيئاً سوى المصر حتى أغلب على المصر وأصلحه فغيره أشد غلبة"^(٣)، فلما ضبطت البصرة تكلف ما وراء ذلك فأصلحه حتى ساد قلب البادية نفسها أمن لم تعهده من قبل، وتبقى مقولة زياد، "لوضاع حبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه"^(٤) من الصور البارزة في سجل أعماله وهو يحيط الناس بالأمن ويُذهب عنهم الفزع وأسباب الخوف.

لا غرو أن نالت اجراءات زياد وسياسته الادارية في البصرة رضى معاوية واعجابه، فيما كاد المغيرة ابن شعبه يلقي حتفه سنة (٥٠هـ / ٦٧٠م)^(٥)، حتى ضم اليه الكوفة، التي كانت أقل فوضى وأكثر أمناً من البصرة، على أن في الكوفة خطراً كبيراً، وهو أنها متشعبة ناصرت عليها وأحبته وتمسكت به وبذكراه حتى جعلته مثلها الأعلى، وكان في هذا صعوبة كبيرة، اذ هي الآن تحت حكم الأمويين، وهم أعداء علي بن أبي طالب وشيعته.

بعد أن كتب معاوية الى زياد بعهدده على الكوفة، توجه الأخير إليها مستخلفاً سمرة بن جندب

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٦. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٢ (مسلمه بن محارب). العسكري، الأوائل، ص ٢٤١ (المدايني). ابن الأثير، الكامل م ٣، ص ٤٥٠. ابن أبي الدم، التاريخ الاسلامي، ج ١، ص ١٩٦. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٧.

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٦. وذكر ابن بكار أن زياداً سأل أهل البصرة: "أبي مسلكت البصرة أخوف؟" فقالوا: "المربد"، فأمر بكساء خنز فألقي فيه "فبقي سبعة أيام لا يقربه أحد" ثم قال للساس "امحوا منازلكم وحوانيتكم فمن ذهب له شيء فزياد له ضامن". (ابن بكار، الاختيار الموفقيات، ص ٣٠٨. الساسي، الاعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٨٧-٢٨٨).

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٣. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥١. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٧. مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٧.

(٤) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٣. ابن عبدربه، العقد، ج ٥، ص ٧ (العتبي). مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٧.

(٥) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٩٥. ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٤٦. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ج ١، ص ٤٠١. ج ١، ص ٢٤٤. اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٢٩. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٥ (عويده). الم. ص ٣٠٨. مروج، م ٣، ص ٣٤. العسكري، الأوائل، ص ٢٤٠ (المدايني).

على البصرة^(١)، وحين قدم زياد الكوفة صعد المنبر وخطب في أهلها خطبته الأولى، ويبدو أنه لم يكن ينظر لأهل الكوفة نظرته لحال أهل البصرة من قبل، لذلك نراه يخطب خطبة مقتضبة يبدأها بالحمد والثناء، ثم يذكر لهم أنهم أهل حق، لهذا فقد أتاهم في أهل بيته، وكان في وسعه أن يشخص اليهم في ألفين من شرطة البصرة^(٢)، لكن هذه الخطبة الرقيقة لم يكن لها أثر في نفوس أهل الكوفة، فلم يكذ زياد يفرغ من خطبته حتى حصبوه، وظنوا أنه كسلفه المغيرة سيتغافل عن فعلتهم تلك، لكنه أمر بأغلاق أبواب المسجد، ثم دعاهم ليقسموا أنهم لم يحصبوه، فخلى سبيل من أقسم وقطع أيدي من لم يقسم^(٣)، هذه الرواية تصور لنا حزم زياد وعدم تهاونه مع من يحاول إثارة الفتن والترويع للثورة، وقد رأى أن يبدأ ولايته بالشدة والحزم، كي لا يظن أهل الكوفة أنه ضعيف ولين في كل الأحوال، وليضع حدا لتطاوُلهم على السيادة وانتقاد أفعالهم، على أن هذه الرواية لا تخلو من المبالغة، فكيف بأهل الكوفة يجرون على حصب زياد على المنبر وقد سمعوا ما سمعوا عن شدته وبأسه، ومكانته لدى الخليفة؟ فالبصرة قريبة من الكوفة، ولا بد أن أهلها قد عرفوا الكثير عن السياسة التي اتبعها زياد مع أهل البصرة خلال الأعوام السابقة حتى استقام له أمرها، وتمكن من ضبطها وتحسين أوضاعها.

ويمكن القول أن إدارة زياد لمدينة الكوفة، كانت مشابهة من حيث الجوهر لسياسته وإدارته لمدينة البصرة، وقد أثبتت مقدرته في ضبط الكوفة بحسن التدبير والحزم والوعد الصادق، قال الشعبي: "فوالله ما تعلّقنا عليه بكذبة وما وعدنا خيراً ولا شراً إلا أنفذه"^(٤). والواقع أن زياداً بالرغم من شدته البادية في ولايته للكوفة، إلا أنه لم يُرهب الناس بأجراءاته الأولية فيها كما فعل في البصرة من قبل، ولقد روى الشعبي أن أول رجل قتله زياد في الكوفة هو أوفى بن حصن الطائي، حيث بلغه عنه شيء فهرب خوفاً من زياد، وفي ذات يوم استعرض زياد الناس فوجد أوفى بينهم، فسأله زياد عن رأيه في عثمان ومعاوية، فقال خيراً فيهما، ثم سأله: "فما تقول في" قال: "بلغني أنك قلت بالبصرة: والله لآخذن البريء بالسقيم، والمقبل بالمُدبر" قال زياد: "قد قلت ذلك" فقال: "خطبتها عشواء"، فقتله زياد^(٥)، ويبدو من رواية الشعبي أن أوفى لم يكن من شيعة علي

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٠ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٣٤ (المدايني).
العسكري، الأوائل، ص ٢٤٠ (المدايني). ابن الأثير، الكامل م ٣، ص ٤٦١. أبو الفدا، المختصر، ج ١، ص ١٨٥.
ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٢٠.
(٢) ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣١٠ (الشعبي). البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٧-١٩٨.
(ابن الكلبي). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٣٤-٢٣٥ (مسلمة بن محارب)، مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٨.
(٣) ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣١٠-٣١١ (الشعبي). البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٧٥ (المدايني). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٣٥ (مسلمة بن محارب). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٦١-٤٦٢.
النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٢٥. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٢٠.
(٤) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٣٥. مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٦.
(٥) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٣٦-٢٣٥. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٦٢. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٢٠.

كما أنه لم يكن مناهضاً لبني أمية، فقد أثنى على كل من عثمان ومعاوية، ولكنه انتقد اجراءات زياد بالبصرة وفكرته في أخذ البريء بالسقيم والمقبل بالمدير، وكأنه يريد اقناعه بضرورة العدول عن مثل تلك الاجراءات، والواقع أن أوفى كان على حق في نقده ذلك، غير أن زياداً حقيقة لم يتخذ تلك الاجراءات إلا عندما تولى البصرة، وقد قصد بها اصلاح الحال واعادة الأمن والنظام، فما أن استقرت الأمور وصلحت الأحوال في البصرة حتى تناساها، يؤيد ذلك ما ذكر عن معاملته للرعية في المرحلة التي أعقبت فترة الأحكام العرفية - إذا جاز التعبير - حيث اتصفت بالحزم حيناً وباللين حيناً آخر، ومهما يكن فإن قتل زياد لأوفى لم يكن حقاً، فهو لم يأت عملاً يستحق به القتل، وكل ما في الأمر أنه شغل في بعض الأمور فأجاب بكل صراحة وجراة، والظاهر أن زياداً رأى في فكرة قتله درساً يمكن أن يستفيد منه كل من تحدّثه نفسه بالتطاول على الحكام، وانتقاد سياستهم واجراءاتهم.

بهذه الاجراءات الحازمة تمكن زياد من اخضاع مصرى العراق، وفرض سلطانه عليهما والقضاء على كل محاولة للمخروج على سلطان الدولة، سواء كانت فردية أم جماعية، ولم يحتاج الى جيوش شامية لضبط العراق، وإنما ضبطها بأهلها كما قال عباد بن زياد لعبد الملك بن مروان قال: "يا أمير المؤمنين ان زياداً قدم العراق وهي جمره تشتعل فسل أحقادهم وداوى أدواءهم وضبط أهل العراق بأهل العراق"^(١). ولا شك أن دهاء زياد وعبقريته واستغلاله للخصومات والنزاعات القبلية، كل هذه العوامل ساعدته على مسك الأمور في العراق، كما ساعده على ذلك أن المعارضة العراقية كانت لا تزال غير منظمة، ولم تتبلور وتسير في اتجاه معين مما جعل مهمته سهلة الى حد ما، وكان زياد يقول: "لو ظلت البصرة لجعلت الكوفة لمن يدلّني عليها"^(٢).

سياسته تجاه الرعية

كانت اجراءات زياد الأولية في مصرى العراق بمثابة أحكام عرفية، وهي خطوة لا يمكن قياسها بمقاييس الأحكام الشرعية، لأنها تدل على حالة استثنائية تُتخذ فيها تدابير استثنائية وهذه التدابير سرعان ما بطل مفعولها بمجرد استتباب الأمن وعودة الهدوء والاستقرار الى هذه الولاية، وبنجاح زياد في خطته يكون "أول من شد أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية وألزم الناس الطاعة"^(٣).

سار زياد في الناس سيرة حسنة تنبىء عن عمق وعيه وتفهمه لمسؤوليته تجاه الرعية، فقد أخذ على نفسه حمايتها وصيانة حقوقها بما في يده من سلطان ومال إذ يقول: "نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل والانصاف فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا"^(٤)، هكذا بين زياد ما على

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ٨.

(٢) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٩٠. ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٧ (شعب بن صالح).

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٢. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥٠. أبو الفداء، المختصر، ص ١، ص ١٨٥.

(٤) الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ٦٤. ابن بكار، الأخبار الموقفيات، ص ٣٠٨. العبدى، تاريخ، ص ٥٥. ص ٢٢٠ (المدايني). ابن عبد ربه، العقد، ج ٤، ص ١١٢ (أبو بكر الهذلي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٩.

الرعية من واجبات وما لها من حقوق، وهو في ذلك مدرك للهدف الأسمى الذي لم تزل تسعى اليه الشعوب ألا وهو العدل، وقد سأل معاوية عبيد الله بن كعب النميري عن رأى زياد في حقوق الناس، فقال له: "ياخذ ماله عفوا، ويعطي ما عليه عفوا"^(١)، وهذا يدل على حنكة زياد السياسية والادارية وقدرته على تفهم ومعرفة النفسيات المختلفة بين رعيته، وتخطى ذلك في عمق المعرفة بالحاجات الأولية وأهميتها في استقرار النفوس، فوعدهم بأنه لن يؤخر لهم عطاء ولا رزقا، ولن يغلق بابا في وجه محتاج ولو أتاه طارق ليليل^(٢). وقال زياد لحاجبه عجلان: "قد وليتك بابي وعزلتك عن أربعة: طارق ليل... ورسول صاحب الثغر... وهذا المنداد بالصلاة وصاحب الطعام"^(٣).

وكان زياد يحترم أشرف القوم وعلماءهم وشيوخهم، وقد خطب يوما فقال: "استوصوا بثلاثة خيرا: الشريف والعالم والشيخ، فوالله ما يأتيني شريف بوضيعة أستخف به إلا انتقمته له منه، ولا يأتيني شيخ بشاب استخف به إلا أوجعته ضربا، ولا يأتيني عالم بجاهل استخف به إلا نكلت به"^(٤).

وكان زياد الى جانب شدته وحزمه لا يؤمن بالتمييز بين الأغنياء والفقراء، وقد سأل حاجبه يوما: "كيف تدعو الناس؟"، فأجابه الحاجب: "على الشرف، ثم على الأسنان، ثم أترك الذين لا يعبا الله بهم" - يعني الفقراء - فاغتاظ زياد لقوله ووبخه^(٥)، وقد كان زياد حريصا على تلبية حاجة المحتاجين ومساعدة الفقراء وأهل الذمة، لأن في ذلك محافظة على الأمن والهدوء ومنعا لأسباب الجريمة والاختلاس، ذكر المدائني أن زيادا ولى أبا بردة صدقة أسد وغطفان، وأعطاه من بيت المال ثلاثة عشر ألف درهم وقال له: 'انطلق فأعط، وألصق بأهل الفاقة، ومن أعطيته ورقا

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٩٠ (المدائني). الآبي، نثر الدر، ج ٤، ص ٢٤٠. ابن منقذ، لباب الآداب، ص ٤١ (المدائني).

(٢) الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ٦٤. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٠ (المدائني). ابن عبد ربه، العقد، ج ٤، ص ١١٢ (أبو بكر الهذلي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٩.

(٣) الجاحظ، رسائل، ج ٢، ص ٣٥-٣٦ (المدائني). ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣١٢. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠٣ (المدائني). المبرد، الكامل، ج ١، ص ٣٠٠ (مسعود). ابن عبد ربه، العقد، ج ١، ص ٧١. العسكري، الأوائل، ص ٢٤٢ (مسلمة بن محارب). ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م)، بهجة المجالس وأئس المجالس، تحقيق محمد مربي الخولي، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، م ١، ق ١، ص ٢٦٦، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن عبد البر، بهجة المجالس. الراغب الأصبهاني، محاضرات الأدباء، ج ١، ص ٢٠٥. وذكر الماوردي أنه كان مكتوبا على بساط زياد "لا حجاب عن صاحب ثغر ولا طارق ليل". (الماوردي، على بن محمد (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م)، نصيحة الملوك، تحقيق محمد جاسم الحديدي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦ م، ص ٣٨٩-٣٩٠ (الرا)، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الماوردي، نصيحة الملوك).

(٤) الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ١٤٥. ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣١١. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٣١ (المدائني). ابن عبد ربه، العقد، ج ٤، ص ١١٣. ابن منقذ، لباب الآداب، ص ٤٠ (المدائني). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٦ (المدائني). ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٩٨.

(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٢٠ (عبد الله بن صالح). ابن عبد ربه، العقد، ج ١، ص ٦٧، أيضا، ج ٥، ص ١٢. العسكري، الأوائل، ص ٢٣٩.

فلا تعطه غنيا ومن أعطيته غنيا فلا تعطه ورقا، وما وجدت من شِغار فأردده" (١)، وكان زياد يعطي المحتاجين والفقراء وأهل الفاقة من غير أن يسألوه العطاء (٢).

هكذا ساد الأمن والاستقرار في ولاية زياد، وقد بالغ البعض حين قال: أنه لم يضبط العراق إلا بالسيف وحده (٣)، والحقيقة أن زيادا كان يدرك أن السياسة فن لا يمكن أن يسير في اتجاه واحد في كل الأوقات، فقد جرد السيف واعتمد على القوة حين كانت ضرورية لحفظ الأمن، واسترجاع هيبة السلطة والدولة، بعدها أخذ ينفذ إلى قلوب رعيته، فعرف متى يعتمد على القوة ومتى يلجأ إلى اللين والسياسة ومحاولة كسب القلوب، وهو في ذلك يسير في خط سياسي وإداري معتدل: شدة في غير عنف ولين في غير ضعف (٤)، مع الصدق في الوعد والوفاء بالعهد، ويظهر أن هذا المزج بين الشدة واللين كان شعارا يود زياد أن يعرف به بين الناس، فقد كان مكتوبا في صدر مجلسه (٥). وقد شبه البعض زيادا بعمر بن الخطاب (رض) في حزمه وسياسته تجاه الرعية، فقال الحسن البصري: "تشبه زياد بعمر وأفرط" (٦)، والواقع أن هذا الإفراط كان حصيلة ظروف زمنية ومكانية عاشها زياد ولم يدركها عمر، كما أن سلوك الرعية غالبا ما يكون له أثر في سياسة الحكام، وكان زياد يجتدي فعل عمر في تعرف أمور رعيته وولايته فيذكر أنه كان يركب بغلة ويتجول في سكك المدينة، ومعه رجل أو رجلان من خاصته (٧)، وروي أن رجلا كلمه في حاجة له، فعرف بنفسه إليه وهو يظن أنه لا يعرفه، فقال له زياد: "تتعرف إليّ وأنا أعرف بك منك بأبيك؟ والله أني لأعرفك، وأعرف أباك وجدك وأمك وجدتك، وأعرف هذا البرد الذي عليك وهو لفلان ابن فلان" فانددهش الرجل حتى

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٤٠ (المدائني).

(٢) انظر مثلا: البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٧-٢١٨ (المدائني). ابن عبد ربه، العقد، ج ١، ص ٢٧١. التنوخي، المستجد من فعاتل الأجواد، ص ٢٣٥ (الشيباني). العسكري، الأوائل، ص ٢٤٢ (مسلمة بن محارب). أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، ج ٣، ص ٨١ (ابن الأعرابي). الأبي، نثر الدر، ج ٤، ص ١٢٠.

(٣) ذكر الطبري أن زيادا "أول من شد أمر السلطان... وتقدم في العقوبة، وجرد السيف وأخذ بالظنة، وعاقب على الشبهة". (تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٢٢٢ (مسلمة بن محارب). وانظر: ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٩٩. أبو الفدا، المختصر، ج ١، ص ١٨٥. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣١٥. مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٦).

(٤) ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٢، ص ٢١١ (عبد الملك بن عمير). ابن عبد ربه، العقد، ج ٥، ص ٧ (العتبي). ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٩٨. وذكر مسلمة بن محارب أن زيادا قال: "جمال السلطان لين في غير ائمال، وشدة في غير افراط". (البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٨. ابن عبد البر، هبة المجالس، م ١، ق ١، ص ٣٣٩. ابن منقذ، لباب الآداب، ص ٣٥. ابن الحداد، الجوهر النفيس، ص ٧٠).

(٥) انظر. ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٢، ص ٢١١ (عبد الملك بن عمير). ابن عبد ربه، العقد، ج ٥، ص ٧ (العتبي). ابن عبد البر، هبة المجالس، م ١، ق ١، ص ٣٣٤ (عبد الملك بن عمير). ابن الأزرقي، بدائع السلك، ج ٢، ص ٣٢. (٦) الجاحظ، البخلاء، ص ٧٤. البيان والتهيين، ج ٢، ص ٦٦. ابن بكار، الاخبار الموفقيات، ص ٣١١. ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ٣٢٩. ابن عبد ربه، العقد، ج ٥، ص ٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٢٤.

(٧) الجاحظ، رسائل، ج ٢، ص ٢٢٨-٢٢٩ (الاصمعي).

كاد يغشى عليه^(١)، وقد ظل زياد يتعرف أفراد رعيته وأمورهم، حتى عرف العدو من الصديق والمؤادع من المشاغب، فساس الرعية على ذلك.

ذكر مسلمة أن زيادا قال: إن معاوية لم يغلبه في السياسة إلا في أمر واحد، وذلك أن رجلا من عماله كسر عليه الخراج ولجأ الى معاوية، فكتب اليه زياد أن في هذا مفسدة للعمال، فأبعث به اليه، فأجابه معاوية: "انه لا يصلح أن أسوس وتسوس الناس سياسة واحدة، أنا ان نشد جميعا نهلك الناس ونُخرجهم، وان نلن جميعا نُبظروهم، ولكن تلين وأشد، وتشد وألين، فاذا خاف أحدهم وجد بابا فدخله"^(٢)، وهذا التوفيق بين سياسة هذين الرجلين، ان دلّ على شيء فانما يدل على خبرتهما الواسعة وفهمهما الواعي لما يحيط بهما، حتى أصبح كل منهما أماما في السياسة.

ويبدو أن سياسة زياد غالبا ما كانت تعتمد على مبدأ الأخذ بالقوة أولا، ثم اللجوء الى السياسة، حيث تكون الحالة قد استقرت نوعا ما، وهذا ما حمل معاوية على القول: "ضبط زياد العراق بالسيف وضبطت العراق والشام والحجاز واليمن بالحلم"^(٣)، ولعل معاوية ظلم زيادا في قوله هذا، فقد أهمل تأثير فكره ودهائه في تسيير شؤون العراق المضطربة، التي كان يمكن أن يكون للسيف رد فعل عكسي لو لم يعرف زياد متى يضرب به ومتى يغمده. وذكر عوانه أن زيادا قدم على معاوية في بعض وفداته فقال له معاوية: "ما بلغ من سياستك رعتك؟" فأجابه "أقمتهم بعد جَنَفٍ، وكففتهم عما لا يُعرف، فأذعن المعاند رغبة، وخضع الأصيل الغشوم رهبة"^(٤).

وعلى الرغم من هذا التباين الملحوظ بين سياسة هذين الداهيتين، إلا أن سياسة زياد في العراق حظيت برضا الخليفة الذي كان مدركاً أن أهل العراق "قوم لا يصلحهم إلا الشدة، واذا وليهم وال فيه لين ورحمة فسدوا وارتكبوا المصاعب وأجروا الى الأمراء أو الخلفاء من غير بينة واضحة"^(٥)، وعلى الجملة فإن عهد زياد بالعراق على ما فيه من شدة وقسوة إلا أنه كان عهد رفاه وأمن، فيروى

(١) التاج في أخلاق الملوك المنسوب للجاحظ، ص ١٦٩. اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٥. البيهقي، المحاسن والمساوي، ص ١٤٤. الزنجشري، ربيع الأبرار، ج ٤، ص ٢١٩. الماوردي، نصيحة الملوك، ص ٣٨٧-٣٨٨. ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، م ١، ص ٣٠٨. الألبشهي، محمد بن أحمد (ت ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م)، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق مفيد قميعة، ج ٢، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م، ج ١، ص ٢٠٠، ويشير اليه عند وروده هكذا: الألبشهي، المستطرف.

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٨٤ (مسلمة بن محارب). ابن عبد ربه، العقد، ج ١، ص ٤٢-٤٣ (الشعبي). الثعالبي، تحفة الوزراء، ص ٦٨. ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٠٥. ابن منقذ، لباب الآداب، ص ٥٢ (عوانة). ابن حداد، الجوهر النفيس، ص ٧٣-٧٤. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٠٢.

(٣) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٢٥ (المدائني).

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠٤. الجنف: الميّل والجور. (انظر ابن منظور، لسان العرب، م ٩، ص ٣٢).

(٥) الحفصري، محاضرات، ج ٢، ص ١٠٨.

المدائني، أن رجلا من العراق قدم على معاوية، فسأله معاوية: "هل من مغربة خبر؟" قال: "نعم" وذكر له أنه مرّ بأعرابي يسقي ابله فلما شربت ضربها على جنوبها وقال: "عليك زيادا" فسأله ما معنى ذلك، فقال: "ما قام لي بها راع مُد ولي زياد"^(١)، هذه الرواية تشعر بمقدار الأمن والاستقرار اللذين نعمت بهما كافة مناطق الولاية.

لقد جرت عادة ولاية العراق على اطعام عامة الناس في سبيل نيل رضاهم، وكان زياد ممن اتبع هذه العادة، وقد ذُكر أن معاوية كتب اليه يأمره "باطعام السابلة والفقراء وذوى الحاجات"^(٢)، فكان زياد يطعم الناس بالغداة والعشي، ولا يُردّ عن طعامه أحد، عدا يوم الجمعة، فكان يكتفي بالعشاء دون الغداء^(٣)، وكان يطعم بالبصرة والكوفة، فاذا غاب عن احدهما قام نائبه مقامه^(٤)، وكان يسرى بين طعامه وطعام أصحابه، فوضع يوما على مائدته شهد، فقال: "أعلى كل مائدة مثلها؟" قيل: "لا" قال: "فأرفعوها"^(٥).

وبعد، فقد كان زياد دائم السؤال عن أحوال رعيته، فيقول: "ينبغي للوالي أن يكون أعلم بأهل عمله منهم بأنفسهم"^(٦)، وقد طالب عماله وأصحابه والمقرّبين له بأن يبلغوه عن أهل ولايته، فكان يقول لهم "ليس كل يصل لي ولا كل من وصل لي أمكنه الكلام فاستشفعوا لمن وراءكم، فاني من ورائكم أمتنع ان أردت أن أمتنع"^(٧)، وهذا يشعر باهتمام زياد البالغ بحقوق الناس وحاجاتهم. وكان يدعو أهل ولايته الى السمر عنده فيقول لهم: "ما أحسب الذي يمنعكم من اتياي الا الرجلة (أي المشي)، فيقولون: أجل. فيحملهم ويقول: أغشوني الآن وأسمروا عندي"^(٨)، يحاول تألفهم والوقوف على آرائهم ومشكلاتهم من طرف خفي، ويستشيرهم في بعض الأمور^(٩)، وهو الى جانب ذلك "يجب السمر ليستجم بحديث الليل تدبير النهار"^(١٠)، ويبدو أن زيادا كان يكره اجتماع

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ٨ (المدائني). ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٠٦.

(٢) التاج في أخلاق الملوك المنسوب للجاحظ، ص ١٥.

(٣) البلاذري، أنساب (ماكس سلوسينجر)، ق ٢، ص ٨٦ (قالوا). ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٩٧ (العتبي).

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٢، ج ١، ص ٢٤٢ (قالوا).

(٥) العسكري، الأوائل، ص ٢٤٢ (المدائني). ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٩٧ (العتبي).

(٦) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٥. البيهقي، الاعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٨٩.

(٧) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٥. الثعالبي، عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م)، التمثيل والمحاضرة، تحقيق عبد الفتاح محمد الخلو، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦١ م، ص ١٣٤، ويشير اليه عند وروده هكذا: الثعالبي، التمثيل والمحاضرة. الحصري القيرواني، ابراهيم بن علي (ت ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م)، زهرة الآداب وثمر الآلباب، ٢ ج، تحقيق علي محمد البجاوي، ط ١، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٣ م، ج ١، ص ٢١٠، ويشير اليه عند وروده هكذا: الحصري القيرواني، زهرة الآداب.

(٨) المبرد، الكامل، ج ٣، ص ٢٦١.

(٩) انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ٢٩.

(١٠) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٩٠ (المدائني). الآبي، نثر الدر، ج ٤، ص ٢٤٠. ابن منقذ، لباب الآداب، ص ٤٠-٤١ (المدائني).

الناس في بيوتهم ، لذلك حاول استمالتهم له وإلى مجلسه ، وخاصة الرؤساء والأشراف منهم . وكان جادا في مجلسه لا يداعب أحدا ولا يمزح^(١) ، ويعجبه من الرجل " إذا أتى مجلس قوم عرف قدره ، وعلم أين ينبغي له أن يجلس منه "^(٢) ، وقال : " ما أتيت مجلسا قط إلا تركت منه ما لو أخذته لكان لي ، وترك ما لي أحب إلي من أخذ ما ليس لي "^(٣) .

كان زياد في معاملته للرعية متقدما على عصره ، فقد دأب على تقديم النصيح والإرشاد لها ، وهو القائل : " ما أعلم شيئا بعد الاخلاص وأداء الفرائض أفضل من نصيحة الوالي رعيته "^(٤) ، وخطب يوما فقال : " أيها الناس لا يمنعكم سوء ما تعلمون متا أن تنتفعوا بأحسن ما تسمعون منا "^(٥) ، وكان بطبيعته شهيا صاحب مروءة بارا بأهله يكره الريب ، ويرى أن من النبل قيام الرجل بواجباته نحو أهله^(٦) ، وكان يرى أن أغبط الناس عيشا رجل له دار وزوجة رضيها ورضته في كفاف من عيشه لا يعرف الأمير ولا الأمير يعرفه^(٧) . ولعل خير وصف لسيرة زياد في أهل العراق ما نقله المبرد عن عمر بن عبد العزيز قال : " قاتل الله زيادا ، جمع لهم كما تجمع الدرة وحاطهم كما تحوط الأم البرة وأصلح العراق بأهل العراق "^(٨) ، ويقصد بذلك أنه رعاهم وأمن مستقبل أجيالهم وأغناهم بما أولى الحياة الاقتصادية من اهتمام زائد ، فحفر الأنهار ، واستصلح الأراضي وبسط الرزق ، وزاد الخراج حتى بلغ خراج السواد مائة ألف ألف وثمانية عشر ألف ألف درهم^(٩) . " وهذه أحسن سيرة لعامل . . وبمثلها يعم الصلاح وتتم الاستقامة "^(١٠) .

(١) انظر البلاذري ، أنساب (إحسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٠٥ (المدايني) . ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ، ص ٦٠ .
(٢) البلاذري ، أنساب (إحسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢١٣-٢١٤ . ابن عبد البر ، بهجة المجالس ، م ١ ، ق ١ ، ص ٤٨ . ابن عساكر ، تاريخ / خط ، م ٦ ، ص ٤٩٩ (الأصمعي) . ابن أبي الحديد ، نهج البلاغة ، ج ١٦ ، ص ٢٠٠ .
(٣) الجاحظ ، البيان ، ج ٢ ، ص ٢٠٠ . ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٢ ، ص ٤٣٠ . ابن عساكر ، تاريخ / خط ، م ٦ ، ص ٤٩٩ (الأصمعي) . ابن أبي الحديد ، نهج البلاغة ، ج ١٦ ، ص ٢٠٠ .
(٤) البلاذري ، أنساب (إحسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٠٣ (قالوا) .
(٥) ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٢ ، ص ٢٥٤ . الطوطوط ، برهان الدين الكتبي (ت ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م) ، غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة ، دار صعب ، بيروت ، ص ١٥٦ ، ويشير إليه عند وروده هكذا : الطوطوط ، غرر الخصائص .

(٦) البلاذري ، أنساب (إحسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٠٣ .
(٧) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، م ١ ، ص ٢٦٤ (الأصمعي) . البيهقي ، المحاسن والمساوي ، ص ٢٦٩ . ابن عبد ربه ، العقد ، ج ١ ، ص ٨٣ . ابن عبد البر ، بهجة المجالس ، م ١ ، ق ١ ، ص ١١٧ (الأصمعي) . ابن حمدون ، التذكرة ، م ١ ، ص ٣٣٣ .

(٨) المبرد ، الكامل ، ج ٣ ، ص ٢٦١ . ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٥ ، ص ٧ . الآبي ، نثر الدر ، ج ٢ ، ص ١٢٤ . الثعالبي ، عبد الملك بن محمد (٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م) ، نثار القلوب في المضاف والمنسوب ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٥ م ، ص ٤٤٠ ويشير إليه عند وروده هكذا : الثعالبي ، نثار القلوب . الماوردي ، علي بن محمد (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) ، الوزارة ، المعروف بـ (أدب الوزير) ، تحقيق محمد سليمان داود وفؤاد عبد المنعم أحمد ، ط ١ ، دار الجامعات المصرية ، الاسكندرية ، ١٩٧٦ م ، ص ١١٩ ، ويشير إليه عند وروده هكذا : الماوردي ، الوزارة . الراغب الأصفهاني ، محاضرات الأدباء ، ج ١ ، ص ١٦٨ .

(٩) المبرد ، الكامل ، ج ٣ ، ص ٢٦١ . الآبي ، نثر الدر ، ج ٢ ، ص ١٢٤ . الثعالبي ، نثار القلوب ، ص ٤٤٠ ، وذكر اليعقوبي أنه بلغ خراج العراق أيام معاوية مائة وعشرين ألف ألف درهم (تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٣٣) .

(١٠) الماوردي ، الوزارة ، ص ١١٩ .

وقد اتصف زياد بسعة أفقه في معالجة القضايا التي لا نص لها في الاسلام، وحاول حل الكثير من المشكلات التي واجهها بعض أفراد رعيته بالاجتهاد، وقد عرف عنه راحة عقله وأصابته في حكمه وصحة تشريعاته، فكان يشرف بنفسه على القضاء، فيجلس إلى جانبه شريح القاضي ويقول له: "ان حكمت بشيء غيره أقرب إلى الحق فأعلمني"، فكان زياد يحكم وشريح لا يرده بشيء^(١). وقد وُصف زياد بالتزام جانب الحق وطريق العدل حتى في معاقبة المذنبين، فيروى المدائني أن زيادا كان إذا أراد أن يعاقب رجلا حبسه ثلاثة أيام، ثم يقرر بعد ذلك، فإن لم ير عقابه خلى سبيله، قال: "لم يمنعني من عقوبته إلا مخافة أن أكون إنما عاقبته للغضب"^(٢)، وكان إذا أتى بصاحب زلة أخر عقوبته أياما ليسأل عن قضيته مخافة الأجحاف في العقوبة^(٣)، ومن كلامه في هذا الصدد: "تأخير جزاء المحسن لؤم، وتعجيل عقوبة المسيء طيش"^(٤)، وهذا يفسر لنا عدل زياد في رعيته، وترويه في معاقبة المخالفين وعدوله عن سياسة العنف التي اضطرت إليها الظروف في أول عهده.

كان زياد يجمع حوله أعيان ولايته لا ليكون بلاطا، ولكنه أراد من خلال هذه الاجتماعات أن يوضح سياسته، ويزيل سوء الفهم الذي قد يحصل بينه وبين رعيته، وليقنعهم بحسن نواياه. وعلى عكس العادة العربية، فإن الشعر لم يحظ بمكانة مرموقة في هذه الاجتماعات، ويظهر أن زيادا كره الشعراء كما كره العصية القبلية، والشعراء هم أبواق دعوى القبلية بما يبالغون به من هجاء ومدح، وبما يثير شعرهم من كوامن الثأر والأحقاد، فعندما استعدى بنو فقيم وبنو نهشل زيادا على الفرزدق لهجائه لهم طلبه زياد^(٥)، ولكنه هرب وغادر العراق إلى الحجاز، فاستجار بسعيد بن العاص، عامل معاوية على المدينة، وبقي هناك إلى أن توفي زياد^(٦)، والواقع أن زيادا لم يلاحق الفرزدق

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٣٥ (محمد بن سيرين). ابن عبد ربه، العقد، ج ٥، ص ١٠. لقد تولى زياد بنفسه القضاء في كثير من الخصومات والنزاعات، ووصف قضاؤه بالعدل والانصاف (انظر مثلا الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ٣٠١ (عوانه). ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ٧٠. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠٥-٢٠٦ (عبد الله بن صالح)، ص ٢٣٦ (الشعبي). اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٥. ابن عبد ربه، العقد، ج ٥، ص ١٠. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٢).

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٧٥. ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٣٢٢.

(٣) ابن عبد البر، هبة المجالس، م ١، ق ١، ص ٣٤٧.

(٤) ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٩٧.

(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٢٦ (المدائني). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٤١ (المدائني). الأصفهاني، الأغاني، م ٢١، ص ٣٧٣ (ابن حبيب). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٦٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٤٦.

(٦) ابن سلام الجعفي، طبقات فحول الشعراء، ج ١، ص ٣٢١ (أبو يحيى الضبي). البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٢٩ (المدائني). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٤٩ (أبو عبيدة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٤٦.

لهجائه بني فقيم وبني نهشل فحسب، بل لسلوكه الأحق بالبصرة أيضا، فقد ذكر أنه جاء يوما إلى المريد ومعه ابلا لأبيه فباعها، ثم أخذ يبعثر ثمنها وينهبه للناس، وذلك مغالاة في ادعاء الشرف وتحديا للناس بالكرم، وكان زياد "ينهى أن يُنهب أحد مال نفسه" فلما بلغه صنع الفرزدق طلبه ليعاقبه ولكنه لم يظفر به^(١). وقد حبس زياد مرة بن محكان السعدي، لأنه أنهب ماله للناس، وبعثه تحدياً لجماعة من قومه كانوا ينافسوه في الشرف^(٢).

ومن الشعراء الذين أكرمهم زياد وشملهم برعايته حارثة بن بدر الغدافي من بني تميم، وقد صاحب زياد منذ فجر حياته وحتى مماته، وكان حارثة شاعراً فصيحاً بليغاً عارفاً بأخبار الناس وأيامهم، وقد اشتهر بمائة خلقه ورجاحة عقله، وإنما كانوا يعيبون عليه أنه صاحب شراب^(٣)، وكان من أثر صداقته لزياد أن أدرج اسمه في ديوان قريش، على الرغم من كونه تميمي الاصل^(٤)، وهذا التمييز جعل البعض اللوم لزياد فقليل له: "أن هذا قد غلب عليك، وهو مستهتر مولع بالشراب" فقال زياد: "كيف لي بطراح رجل هو يسايرني منذ دخلت العراق، لم يصكك ركابي ركابه، ولا تقدمني فنظرت إلى قفاه، ولا تأخر عني فلويت عنقي إليه... ولا سألتته عن علم الأظننت أنه لم يحسن غيره"^(٥)، ان تقدير زياد لمواهب وأخلاق حارثة هو الذي وطّد روابط الصداقة بينهما، بالرغم مما أخذ على حارثة من فتور إيمانه، ولا شك أنه كان أبرز شعراء العصر الذين مدحوا زيادا وأثنوا عليه، فقد قال فيه عددا من القصائد مبعثرة في كتب الأدب والتاريخ، منها قصيدة يمدحه بها لتوزيعه العطايا في البصرة^(٦). ولا نعرف ما هو موقف زياد من شعراء عصره عامة، إذ لم تصلنا أبيات في ذمّه أو هجائه، أما ما ذكر عن هجاء يزيد بن مفرغ لآل زياد، فقد كان ذلك بعد وفاة زياد وليس في حياته^(٧)، كما أن هجاءه لآل زياد جاء على أثر علاقته السيئة بأولاد زياد، وليس لقناعته بأن زيادا يستحق الهجاء.

ولقد أحسن زياد في معاملته للموالي الذين كانوا يؤلفون عددا غير قليل بين السكان العرب في

(١) أبو عبيدة، النقائص، جـ ٢، ص ٦٠٧-٦٠٨. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٢٦ (المدائني). المبرد، الكامل، جـ ٢، ص ٨٦-٨٧. الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٤٢ (أبو عبيدة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٦٧.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، جـ ٢٢، ص ٣٤٨-٣٤٩ (المدائني). (٣) ابن عبد ربه، العقد، جـ ٣، ص ٥٩. الأصفهاني، الأغاني، م ٢٣، ص ٤٨٢ (القحذمي). الرقيق القيرواني، أبي اسحاق ابراهيم (ت ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م)، قطب السور في أوصاف الخمور، تحقيق احمد الجندي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦٩ م، ص ١٦٧، وسيشار إليه عند وروده هكذا: الرقيق القيرواني، قطب السور. الشريف المرتضي، أمالي المرتضي، ق ١، ص ٣٨٤ (محمد بن يزيد). الحصري القيرواني، زهرة الأدب، جـ ٢، ص ٩١٥.

(٤) ابن دريد، الاشتقاق، ص ٢٢٩. الأصفهاني، الأغاني، م ٢٣، ص ٤٤٧ (أبو اليقظان). (٥) المبرد، الكامل، جـ ١، ص ٣١٥-٣١٦. ابن عبد ربه، العقد، جـ ٢، ص ٤٣١-٤٣٢. الأصفهاني، الأغاني، م ٢٣، ص ٤٨٩ (ابن الأعرابي). الرقيق القيرواني، قطب السور، ص ١٦٧. الشريف المرتضي، أمالي المرتضي، ق ١، ص ٣٨٤ (محمد بن يزيد). الزغشري، ربيع الأبرار جـ ٢، ص ٢٩٦. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ ١٦، ص ٢٠٠.

(٦) انظر الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٢٣-٢٢٤. ابن أعثم، الفتوح، م ٢، ص ٣٠٤. (٧) انظر موقف يزيد بن مفرغ من استلحاق زياد، ص ٩٣-٩٤.

مصرى العراق^(١)، فجعل لهم نصيباً في الوظائف العامة، وخاصة فيما يتعلق بالادارة المالية فكان عامل خراج زياد وكاتبه من الأعاجم^(٢)، وكان زياد يقول: "ينبغي أن يكون كتاب الخراج من رؤساء الأعاجم العالمين بأمر الخراج"^(٣)، ولقد أوصى معاوية زياداً بأن يتقرب الى الموالي ويحسن اليهم، فكتب اليه "عليك بالموالي فانهم أنصروا وأغفروا وأشكروا"^(٤)، ويبدو أن زياداً عمل بوصية أميره، ويمكن أن نتبين ذلك من خلال القطائع والأنهار والحمات التي منحها زياد لعدد من الموالى^(٥)، والواقع أننا لم نسمع أن الموالى أثاروا شكوى أو تدمروا لأي سبب من الأسباب في أيام زياد، مما يشعر بحسن معاملته لهم، وكان من حسن سيرته معهم ان ابن أخ له خرج الى السواد يوماً فقتل دهنقانا، فدفعه زياد الى ولي أمر الدهقان ليقتله، ولكنه عفا عنه^(٦)، وقد سار عبيد الله بن زياد على سياسة أبيه في تقريب الموالي، بل فاقه في ذلك فأبدل بالعمال العرب غيرهم من الأعاجم، وكان أول من جفا العرب، كما أنشأ جيشاً من الموالى سمّاه (المحاربة) وفسر ابن زياد هذه السياسة بقوله: "أما استعمال الدهاقين فقد استعملهم أبي ومن كان قبله، وأما المحاربة فوالله ما اتخذتهم إلا وقاية، لأني كنت أقتل بهم أهل المعصية، فلو أمرت عشائهم بهم لم يقتلوهم ولشق ذلك عليهم"^(٧).

هذه هي سياسة زياد تجاه رعيته فهو لم ينتش عن النوايا، ولكنه لم يدع أحداً يعيب بأمن الناس ويفسد أمورهم، وهذه مهمة أي حاكم يتوخى الصالح العام في أي عصر من العصور، وله بعد ذلك بعض العذر ان أخطأ أو تجاوز الحد. وما يؤكد حسن سياسة زياد تجاه الرعية ما ذكره (أبو اسحاق) الذي عاصر زياد ومن بعده حتى أدرك خلافة عمر بن عبد العزيز. قال: "والله ما رأينا بعد زياد مثله"^(٨)، وقال: "ما رأيت قط خيراً من زياد" فقال له أحدهم: "ولا زمن عمر بن عبد العزيز؟" فقال ما كان زمن زياد إلا عرس"^(٩)، وكلام أبو اسحاق هذا وان كان لا يخلو من المبالغة، إلا أنه يشعر أن أهل العراق لم ينعموا في العهود التي تلت عهد زياد بما نعموا به في أيامه.

(١) انظر الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٩٤.

(٢) كان مهران - وهو من الموالي - كاتب زياد على الخراج. (البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٩ (الميثم بن عدي). وكتب اليه على الخراج أيضاً زادا نفروخ. (الجهشياري، الوزراء، ص ٢٦).

(٣) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٤. البيهقي، الاعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٨٩.

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٣٠.

(٥) انظر مثلاً ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٥-٤٣٦، ج ٢، ص ٢٩٨، ج ٥، ص ٣١٩-٣٢٠.

(٦) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٣٦ (محمد بن سيرين).

(٧) ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج ١، ص ٢٥٥ (عوكل).

(٨) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٧٩.

(٩) ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٤.

تنظيم زياد للقبائل في العراق

* البصرة

كان عدد المقاتلة الذين نزلوا البصرة عند تأسيسها قليلاً^(١)، وهم ينتمون الى قبائل مختلفة، ويبدو أن خططهم في المدينة ثبتت في ولاية أبي موسى الأشعري للبصرة، فيذكر أبو وائل " اختط الناس البصرة سنة سبع عشرة"^(٢)، ويوضح ذلك الدينوري الذي ذكر أن عمر أمر أبا موسى عندما أرسله " أن يصرف الخطط لمن هناك من العرب، ويجعل كل قبيلة في حلة، وأن يأمر الناس بالبناء"^(٣)، ولعل الواقدي قصد ذلك حين قال أن البصرة أنشئت سنة (١٧ هـ / ٦٣٨ م)^(٤)، وتغيب عنا أخبار القبائل التي نزلت البصرة عند تمصيرها، فالطبري الذي يعطينا تفصيلات عن المجموعات القبلية الممثلة في الكوفة عند تأسيسها، ويشير بدقة الى كيفية تطبيق الاختطاط لا يذكر مثل تلك التفصيلات عن البصرة، حتى أن البلاذري الذي أفرد فصلاً في كتابه (فتوح البلدان) لبحث تمصير البصرة لم يتعرض لهذا الموضوع، على أنه من المحقق أن عدد سكان البصرة أخذ يتزايد تزايداً سريعاً منذ استقرار الرواد الأوائل فيها، وكان من دواعي هذا التزايد كثرة الغنائم التي حصل عليها مقاتلة البصرة^(٥)، وإرسال عمر بن الخطاب المقاتلة اليها من المدينة عقب اختطاطها^(٦)، ثم نزوح القبائل التي كانت مواطنها قريبة من البصرة واستقرارها في المدينة، وكان في طليعة هذه القبائل تميم وبكر بن وائل، وهما أكثر القبائل عدداً في البصرة حتى نهاية خلافة عمر بن الخطاب، فيذكر المدائني أن الأساورة أسلموا بعد فتح الأهواز سنة (٢٠ هـ / ٦٤٠ م)، ونزلوا في بني تميم وتركوا بكر ابن وائل^(٧).

ومن المتوقع أن الأزدي كانت قد نزلت البصرة بعد فتح فارس وكرمان في خلافة عثمان بن عفان، فاستمرار الفتوحات من البصرة وبشكل ملحوظ في ولاية عبد الله بن عامر (٢٩-٣٥ هـ / ٦٤٩-٦٥٥ م)، وانضمام البحرين والمناطق الشرقية من الجزيرة العربية الى البصرة^(٨)، هذه الأمور

(١) لمزيد من المعلومات، انظر ص ٤٩.

(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ١، ص ٢١٧. يعقوبي، البلدان، ص ٨٠. ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٢٨.

(٣) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٨.

(٤) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٨. وربما قصد ذلك سيف حين قال: " واستقر بأهل البصرة منزلهم بعد ثلاث نزلات كلها ارتحلوا عنها في المحرم سنة سبع عشرة". (الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٤٢. ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٢٨).

(٥) ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٧ (الواقدي). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٧.

(٦) ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٧ (الواقدي). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٥١٦ (أبو عبيدة).

(٧) البلاذري، فتوح، ص ٥٢٠.

(٨) انظر الحلي، التنظيمات، ص ٤٢.

شجعت الأزد وعبد القيس أن تتجه في هجرتها إلى البصرة، ويبدو أن الأزد كانت قبيلة مستقلة لها دورها في الأحداث التي جرت في مطلع خلافة علي بن أبي طالب وإبان وقعة الجمل^(١)، وذكر المدائني أن أناساً من الأزد نزلوا بعد وقعة الجمل في دور لبني عجل تحولوا إلى الكوفة^(٢)، وهذا ينبيء بكثرة رادفة الأزد في تلك الآونة.

وبدلاً من نظام الأعشار ثم الأسباع الذي كان متبعاً في الكوفة أول الأمر، أتبع في البصرة نظام الأخماس، ويرد أول ذكر لتنظيم القبائل العربية في البصرة على أخماس أيام علي بن أبي طالب عند الخروج إلى صفين، وهذه الأخماس هي: أهل العالية، وتميم، وبكر بن وائل، وعبد القيس والأزد^(٣).

ويتكون خمس أهل العالية من العشائر الحجازية الأصل التي استوطنت البصرة وأهمها قريش وكنانة وبجيلة وخثعم وقيس عيلان ومزينة^(٤)، وقد سكنوا في الجهة الجنوبية الشرقية من البصرة^(٥). أما تميم فتعد من أبرز وأكبر القبائل العربية التي استوطنت البصرة منذ بداية تأسيسها، وتسكن في الجهة الجنوبية الغربية ما بين المريد والمسجد الجامع^(٦). وشكلت بكر بن وائل - وهي أقل عدداً من تميم - إحدى المجموعات القبلية الخمسة في البصرة، وقد شارك بعض رجالها في الفتوح الإسلامية الأولى، وكانت بكر تتكون من ثماني عشائر كبرى هي: بنو قيس بن ثعلبة وعنزة وشيع السلات وعجل (وهؤلاء يسمون للهازم)، وذهل بن شيان، ويشكر، وذهل بن ثعلبة، وضبيعة (وهؤلاء يسمون البطون)، ثم أضيفت إليهم حنيقة^(٧)، وكانت خطط بكر تقع إلى شرقي وشمال شرق المسجد الجامع^(٨).

أما عبد القيس، فالمعلومات عن عشائرها وخططها قليلة، بالرغم من أنها تؤلف بمفردها أحد

(١) انظر خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ٦٦ (محمد بن أبي يعقوب الضبي). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٤٦.

الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٥٠٥ (سيف)، ٥٢٢ (أبو مخنف).

(٢) البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٥.

(٣) نصر بن مزاحم، صفين، ص ١١٧ (عمر بن سعد). البلاذري، أنساب (محمد باقر المحمودي)، ج ٢، ص ٢٩٥ (أبو مخنف).

ماسينيون، خطط الكوفة، ص ١٤٠-١٤١. صالح أحمد العلي، خطط البصرة ومنطقتها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٦م، ص ٨١ وما بعدها، وسيشار إليه عند وروده هكذا: العلي، خطط.

(٤) ابن الأثير، الكامل، م ٥، ص ٧١.

(٥) العلي، خطط، ص ٨٢. أحمد كمال زكي، الحياة الأدبية في البصرة، دمشق، ١٩٦١م، ص ٧٧، وسيشار إليه عند وروده هكذا: زكي، الحياة الأدبية.

(٦) العلي، خطط، ص ٨٩. زكي، الحياة الأدبية، ص ٧٦.

(٧) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٥١٥ (أبو عبيدة).

(٨) العلي، خطط، ص ٩٣.

أخماس البصرة، مما يشعر بقلّة عددها في هذا المصر، وكانت منازلها في الأطراف الشمالية الشرقية من البصرة حول نهر معقل، وبالقرب من دار الرزق^(١). وكانت الأزد واحدة من القبائل الخمسة الكبرى في البصرة، وقد شغلت خمسا مستقلا من أخماسها، ذكر أبو عبيدة "ان مضر كانت تكثر ربيعة بالبصرة، وكانت جماعة الأزد آخر من نزل بالبصرة... وأقامت جماعة الأزد لم يتحولوا، ثم لحقوا بالبصرة بعد ذلك في آخر خلافة معاوية وأول خلافة يزيد بن معاوية"^(٢)، ورواية (أبو عبيدة) لهذا الخبر مضطربة بعض الشيء وهي توهم أن الأزد لم ينزلوا البصرة قبل هذا التاريخ، وينبغي أن نفهم من الخبر أن الأزد كانوا آخر من نزل البصرة منذ تمصيرها، وأن عددهم فيها ابتداء كان قليلا تزايد بالهجرة المستمرة، وأن من نزل منهم البصرة في نهاية عهد معاوية وبداية عهد ابنه يزيد انها كانوا موجة واسعة من مهاجرتهم، وقد كانت خططهم في الأطراف الجنوبية الغربية من البصرة^(٣).

كانت هذه القبائل المكونة للأخماس في البصرة تذكر قبل خروج علي لصفين بشكل مشوش، وذلك عند استنفار المقاتلة أحيانا أو عند تعداد ضحايا معركة الجمل^(٤)، الأمر الذي يصعب معه ذكر أخماس البصرة في الفترة التي سبقت وقعة صفين. والواقع أن نزول هذه القبائل وتوزيعها في البصرة لم يخلق مشكلة كما في الكوفة، ومرجع هذا إلى قلة تنوع القبائل التي استقرت في البصرة، وكانت في البداية تتألف من تميم وبكر بن وائل وأهل العالية، وبعد نزول عبد القيس والأزد ظل وضع القبائل في البصرة بعيداً عن كل التعقيدات الظاهرة التي تبلورت في الكوفة على أثر نزول خليط من القبائل الشمالية والجنوبية فيها عند تأسيسها.

وعلى الرغم من كثرة الهجرات الوافدة إلى البصرة إلا أنها بقيت محافظة على التنظيم القبلي الذي عرفته منذ تأسيسها، مما يشعر أن الموجات الطارئة لم تكن من قبائل جديدة غير التي كانت تنزلها في السابق، ولو كان هناك هجرات لقبائل جديدة لكان من المرجح أن تؤدي إلى تغيير في التنظيم القبلي فيها. ويبدو أن تنظيم القبائل العربية في البصرة على الأخماس، ظل حتى نهاية الدولة الأموية، ويرد آخر ذكر لها في أيام ثورة يزيد بن المهلب سنة (١٠٢هـ / ٧٢٠م)^(٥).

كان توزيع السكان في البصرة ابتداء متوازناً، مما يدل على أن الخطط روعي في بداية توزيعها عدد أفراد العشائر التي تسكنها، غير أن هذا التوازن ما لبث أن اختل على مر السنين نتيجة لتباين أعداد الوافدين من مختلف العشائر، ولم تكن الدولة قد وضعت خطة لتحديد الهجرة، وكان هذا الخلل

(١) العلي، خطط، ص ٩٦.

(٢) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٥١٦.

(٣) العلي، خطط، ص ٩٧.

(٤) انظر: خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٦٧-١٧١. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٥٣٩، ٥٤٥.

(٥) انظر الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٦١٨ (أبو مخنف)، ج ٦، ص ٩٥ (أبو مخنف)، ابن الاثير، الكامل، م ٥، ص ٧١.

ينذر بحدوث مشاكل ادارية واسعة لا يمكن افتراضها، وقد أدرك زياد في عهده اختلال ميزان القوى القبلية في البصرة، الأمر الذي دفعه الى اعادة النظر في تنظيم قبائلها، ويبدو أنه رأى أن نظام الأنحاس ملائم لهذا المصير، فأعتمده في تنظيمه الجديد، حيث قسم البصرة الى خمس قبائل كبيرة، يسمى كل منها خمسا، ويضم عددا من العشائر، ويرأسه رجل^(١) له سلطات واسعة مستمدة من مركزه الشخصي^(٢).

والواقع أن المصادر المتوفرة لا تعطينا تفصيلات واضحة عن تنظيم زياد للقبائل في البصرة، حيث أننا لا نجد اشارات الى عدد العشائر التي تتكون منها كل من هذه القبائل الخمسة، ونحن نأسف لذلك وكنا نود أن نرى كيف تم هذا التنظيم، لنعرف مدى قوته وفائدته، ومهما يكن من أمر هذا التنظيم فقد كان عملا خطيرا جليلا.

احتفظ زياد في اجراءاته الجديدة بالهيكل العام للتنظيم السابق، ولكنه في الوقت ذاته لجأ الى أسلوب جديد في التنظيم الداخلي، فتدل الأخبار أنه عمد الى ادخال بعض العشائر في قبائل لا تربط بينها صلة نسب أو رابطة دم، لا بل أنه عمل على ادخال جماعات من العجم ضمن القبائل العربية، فأدخل مع بني تميم الأساورة والسيابجة والزط^(٣) وأدخل معهم أيضا بني العم، وهم ليسوا عربا^(٤)، ولا ريب أن زيادا لجأ الى هذا الاجراء ليجعل عدد القبائل أكثر توازنا، وربما أراد صهر العشائر الموالية للعلويين والمناوئة له، وتخفيف حدة العصية القبلية التي نمت في ظل التنظيم القبلي السابق، حيث روعي فيه النسب ورابطة الدم. ويمكن القول أن التغيير الذي أحدثه زياد - والذي لم توضحه لنا المصادر - حد كثيرا من وحدة القبيلة وأضعف تماسكها، كما أن سلطتها لم تطغ على العشائر المنضوية تحت لوائها، لذا فقد بقيت العشائر هي الوحدات الأساسية في التنظيم الاجتماعي والاداري والمالي، على أن القبيلة بقيت أهم وحدة في الحوادث والأزمات السياسية التي تتعرض لها المدينة وذلك لأنها أكثر عددا من العشيرة، وأعظم بأسا منها في الدفاع عن أفرادها^(٥).

لقد وضع زياد تنظيماته هذه في زمن كانت البصرة قد وصلت فيه الى مرحلة متقدمة من التطور والنمو، ولا شك أنه لم يعد النظر في تنظيم خطط القبائل والعشائر، إلا أن النمو الكبير في سكان البصرة بعد أقل من نصف قرن من تأسيسها، لا بد أن تكون قد رافقته زيادة في عدد الخطط وربما في اعادة تنظيم بعضها، يروى البلاذري، أن زيادا خطب فقال للعرب: "ان عشائركم قد وردت

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٢٠.

(٢) العلي، التنظيمات، ص ٥٣.

(٣) انظر البلاذري، فتوح، ص ٥١٩-٥٢٤. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٩٠. العلي، التنظيمات، ص ٥٤-٥٥.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، م ٣، ص ٢٥٢.

(٥) العلي، التنظيمات، ص ٥٥.

علينا، فاختاروا أن نأخذ نصف أعطياتكم وأرزاقكم فنقوتهم بها مع ما لهم عندنا، أو تكفيننا كلّ عشيرة من فيها، فمنهم من ضمّ عشيرته، ومنهم من طابت نفسه بنصف عطائه ورزقه وأرزاق عياله" (١)، ويظهر أن كثيراً من الافراد المهاجرين لحقوا بعشائرتهم واستوطنوا معهم في خططهم القديمة، ولما كانت الهجرات الوافدة مختلفة من عشيرة لأخرى فقد أدى ذلك إلى ازدحام بعض المناطق، وبقاء البعض الآخر قليل الازدحام، ولعلّ زياد حاول أن يخلق نوعاً من التوازن في خطط القبائل البصرية، كما أوجد توازناً في تنظيمها الإداري، وبذلك يكون قد أكسب البصرة شكلاً عمرانياً فريداً، حتى "أصبحت خريطة قومية لجزيرة العرب بأسرها، أو على الأقل بوتقة صُهرت فيها بشكل متلاصق عناصر عربية متنوعة" (٢).

ولما كانت خراسان وثيقة الصلة بالبصرة التي كانت قاعدة فتوح خراسان، فقد كان تنظيم العرب الاجتماعي والعسكري فيها قائماً على أساس الأحماس كما كان الحال في البصرة، مما يُشعر أن جُلّ المستوطنين العرب في خراسان كانوا من أهل البصرة، ومن بينهم كانوا يختارون ولائها. والحقيقة أن المصادر المتوفرة لم تتحدث عن بداية تنظيم القبائل العربية في خراسان، ونظن أنه كان مع أول استيطان القبائل العربية في تلك المنطقة أي في زمن زياد، وذلك لضرورة هذا التنظيم في تعبئة المقاتلة وتوزيع العطاء، على أن مصادرنا لم تذكر أحماس خراسان إلا في فترة متأخرة، ولعلّ أول ذكر لها ورد أيام قتيبة سنة (٩٣هـ / ٧١١م)، عندما عقد الصلح مع سمرقند، يروى الطبري "فلما تم الصلح بعث قتيبة عشرة من كل خمس برجلين فقبضوا ما صالحوهم عليه" (٣)، وعندما قتل قتيبة كان عدد الأحماس في خراسان حوالي أربعين ألفاً مقسمة على النحو التالي: "من أهل العالية تسعة آلاف، وبكر سبعة آلاف ... وتيم عشرة آلاف ... وعبد القيس أربعة آلاف ... والأزد عشرة آلاف" (٤)، وقد تردد ذكر الأحماس في خراسان في سنوات متعاقبة وخاصة في أثناء الاستعداد للقتال وغزو ما وراء النهر (٥).

* الكوفة

ذكر سيف بن عمر تفصيلات دقيقة للقبائل التي نزلت الكوفة ابتداء وهي: سليم وثقيف وهمدان، وبجيلة وتيم اللات، وتغلب وأسد والنخع وكندة والأزد، والأنصار ومزينة وتيم ومخارب

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٣٧ (الشعبي).

(٢) شارل بلا، الجاحظ، ص ٣٥٢.

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٦، ص ٤٧٥ (المدائني).

(٤) الطبري، تاريخ، ج ٦، ص ٥١٢ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ١٥.

(٥) انظر الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ١٢، ١٤، ١٧٤.

وعامر وبجالة وبجلة، وجديلة وجهينة^(١)، كان تنظيم هذه العشائر في البدء على الأعشار، فكل قبيلة أو زمرة من القبائل التي ترجع إلى أصل واحد تؤلف عشرا، وهذا النوع من التنظيم كان يساعد في التعبئة العسكرية وفي سرعة استنفار الجند كما يسهل في توزيع العطاء والفيء.

ويبدو أن سعدا قد شعر بصعوبة هذا التنظيم نتيجة لكثرة الروادف، فبعث إلى الخليفة عمر يستشيريه في تعديل الأعشار، فبعث إليه عمر قوماً من نساب العرب وذوي الرأي والعقلاء منهم لدراسة أوضاع القبائل وإعادة تنظيمها، فجعلوا القبائل أسباعاً^(٢)، وقد ذكر سيف أسباع الكوفة في عهد سعد بن أبي وقاص على النحو التالي^(٣):

السبع الأول : كنانة وحلفاؤهم من الأحابيش وغيرهم، وجديلة وهم بنو عمرو بن قيس عيلان.

السبع الثاني : قضاعة وبجيلة وخثعم وكندة وحضرموت والأزد، وهم من اليمانيين.

السبع الثالث : مذحج وهمير وهمدان، وهم من العناصر اليمنية أيضا.

السبع الرابع : تميم وسائر الرباب وهووازن، وهؤلاء مضرية.

السبع الخامس : أسد وغطفان ومحارب والنمر وضبيعة وتغلب.

السبع السادس : إياذ وعك وعبد القيس، وأهل هجر والحمراء.

وقد أورد الطبري ستة أسباع وأغفل السبع الأخير، ويرى ماسينيون أن طينا كانت تشكل السبع السابع، وذلك استناداً إلى وجود سهم لهم في الغنائم والفيء ابتداء، ثم لمشاركة أفرادها مع علي بن أبي طالب في صفين وبأعداد كبيرة^(٤)، ويبدو أن الواقع غير هذا، فأبو مخنف يوضح حقيقة تنظيم طيء بقوله "إلا أن عدي بن حاتم كان على طيء مفرداً دون صاحب سبع مذحج والأشعرين"^(٥)، مما يشعر أن طيئاً كانت ضمن السبع الثالث مع مذحج، ويمكننا التعرف إلى السبع الأخير من خلال رواية لأبي مخنف أيضاً تبين أنه يتكون من بكر بن وائل وتغلب وسائر ربيعة عدا عبد القيس^(٦)، ولعل بكراً لم تنزل الكوفة عند تمصيرها، وبقيت في مراعيها القريبة إلى خلافة عثمان وعلي ابن أبي طالب، حيث أخذت تستقر تدريجياً في الكوفة، يؤكد ذلك ما ذكره اليعقوبي بأن بكراً استقرت في الكوفة بعد اختطاطها، ونزلت الأطراف^(٧). ومن الواضح أن توزيع هذه الأسباع كان

(١) الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٤٥.

(٢) المصدر نفسه، جـ ٤، ص ٤٨ (ميف).

(٣) المصدر نفسه، جـ ٤، ص ٤٨. ماسينيون، خطط الكوفة، ص ٤٢-٤٧.

(٤) ماسينيون، خطط الكوفة، ص ٤٨.

(٥) البلاذري، أنساب (المحمودي)، جـ ٢، ص ٢٣٥.

(٦) انظر البلاذري، أنساب (المحمودي)، جـ ٢، ص ٢٣٦. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٤٦.

(٧) اليعقوبي، البلدان، ص ٧٠.

على أساس المبدأ القبلي، اذ وزعت القبائل القحطانية على ثلاثة أسباع، بينما توزعت القبائل العدنانية وأحلافها على الأسباع الباقية، ويلاحظ أن هذا التوزيع تجاوز الأنساب أحياناً، فكانت بعض القبائل موزعة على سبعين أو أكثر، فقبيلة قيس عيلان مثلاً نجدها موزعة في الأسباع : الأول والرابع والخامس، ويبدو أنه روعي في هذا التوزيع مواطن نزول القبائل، كما كان هناك محاولة لايجاد توزيع عددي متكافئ.

ظلت أسباع الكوفة على التنظيم الذي أوجده سعد بن أبي وقاص الى خلافة علي بن أبي طالب حيث طرأ عليها بعض التعديل، وذلك لأن عدد القبائل والعشائر كان عرضة لتغير مستمر نتيجة الهجرات المتصلة، وأمام هذا التخلخل الذي حصل في الاسباع، اضطر علي بن أبي طالب الى إعادة تنظيمها من جديد، وقد تم تعديل الاسباع قبيل وقعة الجمل سنة (٣٦هـ / ٦٥٦م) على النحو التالي :

السبع الأول : قيس عيلان، وعبد القيس . السبع الثاني : قريش وكنانة وأسد وتيمم وضبة والرباب ومزينة . السبع الثالث : الازد وبجيلة وخثعم والأنصار . السبع الرابع : كندة وحضرموت وقضاة ومهرة . السبع الخامس : مذحج والأشعرين وطيء . السبع السادس : همدان وحمير . والسبع السابع : بكر بن وائل وتغلب، وسائر ربيعة عدا عبد القيس^(١).

واذا قارنا الأسباع زمن سعد وأيام علي بن أبي طالب نلاحظ بعض التغيرات في توزيع القبائل على الاسباع، فكانت مذحج وحمير وحمدان وحلفاؤهم سبعا زمن سعد فأصبحت سبعين، وكانت قضاة وبجيلة وحضرموت وخثعم وكندة والأزد سبعا واحداً، فأعيد تنظيمه بين سبعين زمن علي، وهذا يؤكد كثرة رادفة هذه القبائل، ومما يلاحظ أيضاً أن القبائل الشمالية كانت هي الغالبة على سكان الكوفة عند تأسيسها، حيث كانت موزعة على أربعة أسباع اضافة الى سبع بكر بن وائل الذي لم ينزل الكوفة ابتداءً، أما القبائل اليمانية، فكانت موزعة على سبعين وقد تغيرت هذه النسبة في خلافة علي، فصارت ثلاثة أسباع شمالية وأربعة يمانية، ولا ريب أن هذا يشير الى كثرة رادفة القبائل اليمانية وتقلص رادفة القبائل الشمالية . وعندما توجه علي بن أبي طالب الى صفين بقيت أسباع

(١) البلاذري، أنساب (المحمودي)، ج ٢، ص ٢٣٥-٢٣٦.

ذكر نصر من مزاحم هذه الأسباع يوم صفين، وجعل طيها سبعا مستقلا، وأغفل سبع بكر وتغلب وربيعه، ولكن أخبار وقعة صفين تؤيد أن طيها مع مذحج بالرغم من اختلاف راياتهم (انظر وقعة صفين، ص ١١٧ (عمر بن سعد). وذكر الدينوري في كتابه "الأخبار الطوال"، ص ١٤٦، هذه الأسباع، ولكنه جعلها ثمانية، اذ جعل طيها سبعا ثامناً مستقلا. أما الطبري، فروى لنا خمسة من هذه الاسباع وذكر أمراءها، وهذه الأسباع (١، ٢، ٣، ٥، ٧). (انظر الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٥٠٠ (المدائني). التصنيف الذي ذكرناه لم يرد في المصادر وقد وضعناه لتسهيل الحديث عن الأسباع.

الكوفة كما كانت عليه في وقعة الجمل، إلا أن تعبئة المقاتلة روعي فيها توحيد القبائل التي تنتسب إلى أصل واحد من أهل المصيرين (البصرة والكوفة). فجعلت القبائل اليمينية من البصرة والكوفة في اليمنة، وربيعية في الميسرة، ومضر في القلب^(١). ولا شك أن هذه التعبئة كانت ضرورة عسكرية لا شأن لها بالتوزيع القبلي في المصيرين.

بقي نظام الاسباع متبعاً في الكوفة طيلة خلافة عمر وعثمان وعلي وصدرنا من خلافة معاوية إلى أن جاء زياد، ولا نجد في المصادر التاريخية المتوفرة ما يدل على أن تغييراً ما قد طرأ على الأسباع قبل ولاية زياد للكوفة سنة (٥٠هـ / ٦٧٠م)، فلما تولى أمرها حلّ البناء السباعي وأعاد تنظيمه من جديد على شكل أربع على النحو التالي:

الربع الأول: أهل المدينة.

الربع الثاني: تميم وهمدان.

الربع الثالث: كندة وربيعة.

الربع الرابع: مذحج وأسد^(٢).

ومما يلاحظ على هذا التوزيع أنه أغفل فيه ذكر عدد من القبائل التي وردت من قبل في الاسباع كالأشعرين وحمر والأزد وغيرها، وهذا يشير إلى أن زياداً ألحق القبائل القليلة العدد، بالقبائل الكبيرة التي تمت إليها برابطة النسب، فألحق مثلاً الأشعرين وطيء بمذحج، وألحق قبائل حضرموت ومهرة وقضاعة بكندة وهكذا، ويلاحظ أيضاً أن زياداً جمع في الربع الواحد بين قبائل شمالية وأخرى جنوبية، وجعل كل ربع يتكون من مجموعتين قبليتين تشترك معهما بعض القبائل الأقل عدداً، أما ربع أهل المدينة فقد جمع قبائل مختلفة يمنية ومضرية كقريش وكنانة والأزد وبجيلة وخثعم ومزينة وغيرها، وهذه القبائل يجمع بينها أنها كانت قبل الإسلام تستوطن الحجاز والمناطق المجاورة له.

وعندما نقف على أسماء رؤوس الأرباع أيام زياد، يتضح لنا أن اختيارهم لم يكن بالضرورة من القبائل التي سميت بها الأرباع، وربما كان من قبيلة أخرى غير القبائل المكونة للربع الذي يرأسه، وكان رؤساء الأرباع في الكوفة: عمرو بن حريث المخزومي على ربع أهل المدينة، وخالد بن عرفة العذري حليف بني زهرة على ربع تميم وهمدان، وقيس بن الوليد بن عبد شمس بن المغيرة المخزومي

(١) نصر بن مزاحم، صفين، ص ٢٠٥ (عمرو بن شمر). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٣٤ (أبو مخنف).

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس) ق ٤، ج ١، ص ٢٥٥ (المدايني). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٦٨ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٣. ابن خلدون، المعبر، م ٣، ص ٢٥-٢٦. وقد أخطأ ماسينيون عندما أطلق على الربع الأول اسم أهل العالية (انظر خطط الكوفة، ص ٦١). فخمس أهل العالية كان بالبصرة، وهو يقابل ربع أهل المدينة في الكوفة، (انظر ابن الأثير، الكامل، م ٥، ص ٧١).

على ربع كندة وربعية، وأبا بردة بن أبي موسى الأشعري على ربع مذحج وأسد^(١). ولا ريب أن هذا التنظيم خفف كثيراً من احتمالات الخلاف القبلي في الكوفة، وقد بقي نظام الأرباع في الكوفة لم يطرأ عليه أي تعديل أو تعديل حتى نهاية الدولة الأموية، ونجد في المصادر التاريخية - في سياق حديثها عن بعض الأحداث التي شهدتها الكوفة في هذه الفترة - إشارات عديدة إلى هذه الأرباع وإلى رؤسائها^(٢)، ويرد ذكر الأرباع آخر مرة في حوادث ثورة زيد بن علي سنة (١٢٢ هـ / ٧٣٩ م)^(٣).

لم يتحدث المؤرخون عن الدوافع التي حملت زيادا على حل نظام الاسباع بالكوفة، وتحويله إلى أرباع وجمعه للقبائل المتباينة النسب في ربع واحد، ولعل الدوافع الحقيقية لهذا التنظيم تعود بالدرجة الأولى إلى التطور السريع الذي شهدته حياة الكوفة القبلية في النصف الأول من القرن الأول الهجري، وإلى سياسة زياد في جمع اليانبة والنزارية في كل ربع، ويمكن فهم التغييرات التي شهدتها الكوفة أيام زياد عن طريق دراسة الأرباع والتي تشعر بوجود مجتمع كوفي جديد يختلف اختلافاً واضحاً من حيث الحجم والتركيب عن ذلك المجتمع الذي أسس هذا المصر. ولقد كان لبعض الباحثين الغربيين آراء في الدوافع التي حملت زياد على القيام بهذا التنظيم فيرى فلهاوزن أن زيادا أراد بتنظيمه هذا التخفيف من حدة التوتر السياسي في العراق^(٤)، ويفسر لامنس أيضاً مسلك زياد هذا بأنه محاولة لكسر المعارضة ضد الأمويين في العراق، ويقول بأن زيادا رأى أن القبائل العربية في العراق متحدة، وتشكل كتلة ضد سلطة بني أمية، مما دفعه إلى محاولة القضاء على هذه المعارضة وتحطيم هذا التحالف^(٥).

وتبدو تفسيرات فلهاوزن ولامنس دوافع محتملة لمسلك زياد إضافة إلى دوافع أخرى ليست أقل منها أهمية، فزياد أدرك منذ أن تولى إمرة البصرة أن من الإصلاحات الواجب اتخاذها ابتداء تنظيم القبائل العربية في العراق بشكل يساعد على الحد من العصبية القبلية التي كان لها أثر فاعل في تردي أحوال المجتمع العربي في مصرى العراق، وقد أدت تنظيمات زياد الجديدة إلى إضعاف الروح القبلية، وذلك عن طريق جمع المقاتلين من كل قبيلة في فرق مختلفة بحيث لا يقاتل أبناء القبيلة الواحدة في فرقة عسكرية مستقلة، بل كانت الفرقة عبارة عن خليط من أفراد ينتمون إلى قبائل

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٥٥ (المدائني). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٦٨ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ١٨٩ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٣. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٢٦-٢٥.

(٢) انظر الإشارة إلى الأرباع لدى البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ٢٤٨ (قالوا). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٣٨. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٣٦٩، ٤٢٢ (أبو مخنف)، ج ٦، ص ٨١، ٢٥٣، ٥٩١-٥٩٢ (أبو مخنف). ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ٤، ص ١٨٠.

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ١٨٢ (أبو مخنف).

(٤) فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١٢٠.

(٥) Lammens, Ziad Ibn Abihi, P. 657.

مختلفة، وبذلك تمكن من جعل ولاء المقاتلة للدولة لا لقبائلهم التي ينتمون إليها. وكان زياد يعلم الاتجاهات السياسية للقبائل العراقية، فعرف كيف يعالجها بحكمة وذكاء في تنظيمه الجديد الذي جمع العناصر المتعادية في مجموعة واحدة، ولا شك أن هذا الاجراء من شأنه التخفيف من حدة التوتر السياسي، وخاصة في الكوفة التي ظلت مناوئة للحكم الأموي. ويبدو أن زيادا كان يخشى من التقسيمات القبلية القديمة، التي روعي في تكوينها مسألة النسب، مما يجعل احتمال مقاومة تلك التقسيمات للسلطة أكبر وأقوى، فالتغيير الذي أحدثه قلّص من عدد الوحدات القبلية في الكوفة، كما قلّص من سيادة استقلال القبيلة ذاتها، وهذا سيجعل الوضع أكثر استتباً له ويمكنه من فرض سيطرته على القبائل الكوفية، لا سيما أنه لم يجعل على رؤوس الأرباع رؤساء القبائل التقليديين، بل جعل عليها رؤساء يعينون من قبله ليضمن ولاءهم له، ولا ريب أن هذا منحه الفرصة للتدخل غير المباشر في التنظيم الداخلي للقبائل، وتغييره ليقدم مصلحة سياسته المركزية، كما أن تعيين رؤساء معروفين بولائهم لبني أمية، كان من شأنه أن يؤدي مع الزمن الى اذابة المعارضة ضد الأمويين في العراق، لو أن خلفاء زياد تابعوا تلك السياسة.

واضح أن النظام الذي أقيم في البصرة والكوفة في خلافة عمر بن الخطاب قد تغير تحت ضغط نزوح القبائل غير المنظم، ومثلما تطلب الأمر إعادة تنظيم القبائل أيام زياد، فقد حتمت ضرورة تنظيم العطاء والانتداب، وجود نظام اداري متكامل على رأسه رؤوس الأرباع - في الكوفة - أو رؤوس الأخماس كما في البصرة، وتعد وظيفة هؤلاء الرؤوس من أهم وأسمى الوظائف الاجتماعية، وقد انشئت هذه الوظيفة رسمياً في أيام زياد، ويلاحظ أن الرؤساء كانوا يختارون ممن لهم مكانة جيدة في القبائل، ومن عرفوا بميلهم الى بني أمية، وكانوا يعينون بعد اقرار الخليفة لتعيينهم^(١)، هذا ما جرت عليه العادة، أما في أيام زياد فلم يرد ذكر لأحد الرؤوس أقر تعيينه الخليفة، وتفيد الروايات أن زيادا هو الذي كان يختار رؤوس الأخماس أو الأرباع^(٢)، كما كان يختار سائر عماله دون مشاورة معاوية في جُلّ الأحوال، ولا ريب أن زياداً الذي أعاد تنظيم القبائل العراقية وظل ملازماً لها منذ صباه كان أعرف بها وبزعمائها من معاوية، وبالتالي فهو أقدر على اختيار الرؤساء ممن يطمنن الى ولائهم.

يعتبر الرؤوس هم الوسطاء بين أخماسهم أو أرباعهم وبين الأمير، وهم يتمتعون بسلطة كبيرة واحترام واسع بين قبائلهم، ولعل من أهم الواجبات التي أنيطت بهم، الحكم في بعض الخلافات الناشئة بين أفراد القبيلة ورئاسة مجالس القبائل^(٣)، وكانوا يقررون مواقف أخماسهم أو أرباعهم في

(١) العلي، التنظيمات، ص ١٢٠.

(٢) انظر مثلاً تعيين زياد لرؤوس أرباع الكوفة لدى: البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٥٥ (المدائني). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٦٨ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٣.

(٣) انظر: البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٤٠٦ وما بعدها. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٥٢٥-٥٢٦ (عوانه).

الأحداث الهامة^(١)، ولقد استعان زياد بهم في القضاء على بعض الفتن والقلقل التي واجهته في حكم مصرى العراق، وليس أدل على ذلك من شهادة رؤوس أرباع الكوفة على حجر بن عدي الكندي عندما أراد زياد تحويل قضيته الى معاوية بالشام^(٢). ان هذه الواجبات الكبيرة الملقاة على عاتق الرؤساء، تشعر بأنهم كانوا يتمتعون بسلطات ادارية واسعة، على الرغم من تبعيتهم للأمير وخضوعهم له واقتصار سلطتهم تلك على عشائهم فحسب، ولعل هذه السلطات تضاعفت فيما بعد نتيجة لنمو الحياة المدنية وتطورها في الأمصار، ثم للضعف الذي أصاب الروح القبلية، على أن زياداً استطاع بهذا النظام أن ييسر لنفسه حكم العراق والمشرق وأن يديرها بأهلها.

وهناك وظيفة مدنية أخرى لحق بها بعض التغيير على أثر التنظيم القبلي الذي استحدثه زياد، وهذه الوظيفة هي (العرافة)، تؤكد الروايات على وجود وظيفة العريف في زمن عمر بن الخطاب، فيذكر سيف أن توزيع العطاء في الكوفة كان على العرافات "وعرفوهم على مائة ألف درهم، فكانت كل عرافة من القادسية خاصة ثلاثة وأربعين رجلاً، وثلاثاً وأربعين امرأة وخمسين من العيال لهم مائة ألف درهم، وكل عرافة من أهل الأيام عشرين رجلاً على ثلاثة آلاف وعشرين امرأة، وكل عيّل على مائة ألف درهم، وكل عرافة من الرادفة الأولى ستين رجلاً، وستين امرأة وأربعين من العيال ممن كان رجالهم ألحقوا على ألف وخمسة مائة ألف درهم، ثم على هذا الحساب"^(٣)، ويتبين من رواية سيف أن العرافات تساوت في مجموع العطاء ولم تكن متساوية في عدد المقاتلة، وبذلك فإن مسؤولية العريف في هذا التنظيم مالية فقط، وكان يساعده في توزيع العطاء وصرف الأموال رجلان آخران أحدهما يعرف بـ (النقيب) والآخر بـ (الأمين)، فيذكر عطية بن الحارث "كان العطاء يُدفع الى أمراء الأسباع وأصحاب الرايات على أيادي العرب، فيدفعونه الى العرفاء والنقباء والأمناء فيدفعونه الى أهله في دورهم"^(٤)، ويتضح من كلام عطية أن وظيفة العريف أعلى مرتبة من وظيفة النقيب، يؤيد ذلك قول جبهة الاشجعي :

رعاع عاونت بكر عليها كما جعل العريف على النقيب^(٥)

والواقع أن معلوماتنا عن هذا المنصب قليلة ومتناقضة أحياناً بحيث يصعب توضيح أهميته ودوره في ادارة مصر، ولعل ذلك يرجع الى أنه كان أقل أهمية من العريف، وربما كان يساعده في توزيع

(١) انظر مثلاً موقوف رؤوس أحماس البصرة من الحسين بن علي حين خرج وبعث اليهم بكتابه. (الطبرى، تاريخ، ج ٥، ص ٣٥٧) (أبو مخنف). ولزيد من المعلومات عن واجبات رؤساء الأحماس والأرباع، انظر العلي، التنظيمات، ص ١٢٠-١٢١

(٢) البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٥٥ (المدايني). الطبرى، تاريخ، ج ٥، ص ٢٦٨ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٩ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٣.

(٣) الطبرى، تاريخ، ج ٤، ص ٤٩. المقرئى، أحمد بن عبد الله (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقرئية، مطبعة بولاق، ٢، ج، القاهرة، ١٢٩٤ هـ، أوفست مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧٠ م،

ج ١، ص ٩٣، وسيشار اليه عند وروده هكذا : المقرئى، الخطط.

(٤) الطبرى، تاريخ، ج ٤، ص ٤٩. المقرئى، الخطط، ج ١، ص ٩٣. ولعل هذا التنظيم أتبع في البصرة أيضاً.

(٥) الجاحظ، الحيوان، ج ٦، ص ٤٨.

العطاء وجمع المعلومات عن الأفراد الذين في عرافته ، ويظهر أن وظيفة النقيب لم تستمر طويلا بل ذهبت في وقت مبكر، بحيث أنه لم تعرف ماهيتها في القرن الثاني الهجري .

أما العرافة ، فقد برزت في العصر الأموي وخضعت للتغيير أيام زياد شأنها في ذلك شأن سائر المؤسسات الادارية والمالية والاجتماعية ، يروى البلاذري أن زياداً " أول من عرف العرفاء " (١) ، وهذا لا يتفق والأخبار الأنفة الذكر ، والأرجح أن زياداً أعاد تنظيم العرافة بحيث صار لكل عشيرة عريف خاص بها (٢) ، فنسمع عن قبضة بن برمّة الأسدي عريف قومه (٣) ، وعبيدة بن قيس السلمي من مراد الذي كان عريف قومه (٤) ، ورافع بن أبي الطائي عريف بني ثعل من طيء (٥) ، وكان هناك عريف لبني نمير في البصرة (٦) ، ويزيد بن شريك التميمي الكوفي عريف قومه (٧) ، وهذا يعني أن مسؤولية العرفاء لم تعد تقتصر على قيادة عشرة جنود ، بل توسعت حتى شملت عشيرة بكاملها ، وأصبح العرفاء مسؤولين عن الأمن والنظام ومراقبة مثيري الفتن في عرافاتهم (٨) ، وكانوا حلقة الاتصال بين أفراد العشائر وبين السلطات الادارية للدولة فيما يتعلق بتبشيت أسماء الجنود في الدواوين أو توزيع العطاء عليهم (٩) ، ولا ريب أن العطاء يتطلب من العريف اعداد سجل يدون فيه المقاتلة والنساء والأطفال ومقدار عطائهم ، يبين أبو مخنف أن العرفاء كانوا يكتبون أسماء الناس في عرافاتهم للوالي ، وكانوا يأتونه بالغرباء والمشبوهين منهم (١٠) ، وذكر مصعب الزبيري أن العرفاء في زمن معاوية بن أبي سفيان كانوا يأخذون العطاء فلا يغيبون غائباً ولا يميّتون ميتاً ، وأنهم لذلك يقتسمون العطاء مع أهل هؤلاء الغياب أو الأموات (١١) ، ولا شك أنه كانت تتاح للعرفاء عند قيامهم بهذه المهمة بعض الفرص لاستغلال وظيفتهم ، فبوسعهم مثلاً ألا يبلغوا عن حالات الوفاة أو الغياب في عرافاتهم ، ويستمرّوا في دفع عطاء المتوفي أو الغائب لأهله ، وربما دفعوا جزءاً من عطاء المتوفي أو الغائب الى أهله وأخذوا هم الباقي بالاتفاق معهم ، وهكذا فإن العريف مسؤول عن

-
- (١) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٠٢ (قالوا) . العسكري ، الاوائل ص ٢٤٣ (الجوهري) .
 القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٤٨٣ .
 (٢) اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ .
 (٣) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٦ ، ص ١٩٤ (جعفر بن سلام الاسدي) .
 (٤) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٦ ، ص ٩٣ (محمد بن سيرين) .
 (٥) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٦ ، ص ٦٨ .
 (٦) الأصفهاني ، الأغاني ، م ٦ ، ص ١٨٥ .
 (٧) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٦ ، ص ١٠٤ .
 (٨) البيهقي ، المحاسن والمساوي ، ص ٤٧٤ . وانظر العسكري ، جبهة الأمثال ، ج ١ ، ص ١٤٧ ، عن محاولة زياد إلقاء القبض على الفرزدق عن طريق عريف بني مجاشع .
 (٩) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٤٩ (عطية بن الحارث) .
 (١٠) انظر الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٣٥٩ (أبو مخنف) . ابن الأثير ، الكامل ، م ٤ ، ص ٢٤ . ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٩ ، ص ٢٣٨ .
 (١١) الزبيري ، نسب قریش ، ص ١٥٤ . وانظر ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ، ص ٣٤٦ (الواقدي) .

تفقد أفراد عرافته وعن مراقبتهم ومعرفة تحركاتهم ، وهو الذي يدعوهم الى الجهاد ، وهذه المهام تتطلب ممن يشغل هذا المنصب أن يكون صاحب شخصية قوية ، وأن يتمتع بنفوذ واسع ليستطيع تأدية الواجبات المطلوبة منه على أكمل وجه .

ولما كان العرفاء من بين الموظفين الكبار الذين اعتمد عليهم الأمير في ادارة امارته ، فقد كان تعيينهم عن طريق الأمير مباشرة ، وعلى الرغم من أننا لا نعلم الأسس التي كان يتبعها الأمير في اختيار العرفاء ، إلا أنه من الراجح أن الأمير كان يراعي في اختياره للعرفاء مكانتهم الاجتماعية بين أفراد العشائر ، وفي الغالب كان العريف سيدا وشريفا في قومه^(١) ، أي أنه من ذوي النفوذ في العشيرة ، وهذا يمكنه من القيام بواجبه تجاه السلطة وتجاه العرافات ذاتها ، وقد زادت أهمية العرفاء في الأمصار التي كانت تسودها الاضطرابات كالבصرة والكوفة وخراسان ، فبعد أن جمعت البصرة والكوفة الى عبيد الله بن زياد ألزم العرفاء بالإخبار عن الخوارج والمتمردين على السلطة من أفراد قبائلهم^(٢) ، واعتمد الحجاج اعتماداً كبيراً على العرفاء في مراقبة نشاط القبائل السياسي ، وفي استنفار المتخلفين من المقاتلة^(٣) . وفي خراسان كان الوضع مشابهاً لما هو عليه الحال في الكوفة والبصرة ، حيث كان لكل عشيرة عريف يقوم بتوزيع العطاء على أفرادها^(٤) .

يتبين مما تقدم أن زياداً جعل كل عشيرة وحدة مالية مستقلة ، وعيّن عليها عريفا مسؤولاً عن توزيع العطاء على أفراد عرافته ، والواقع أن العشيرة تصلح لأن تكون أساساً طبيعياً لتوزيع العطاء ، وذلك لما بين أفرادها من روابط اجتماعية ، وبذلك جعل زياد التنظيم المالي منسجماً مع التنظيم الاجتماعي الذي يستند أساساً الى العشيرة ، وقد كان هذا التنظيم الجديد عاملاً لصالح الحكومة المركزية ، ولصالح الاستقرار في مصرى العراق .

وقد أحدث زياد وظيفة جديدة هي المنكب^(٥) ، فيذكر الجوهري " زياد أول من عرّف العرفاء ، وجعل عليهم المناكب ، وقال : العرفاء كالأيدي والمناكب فوقها "^(٦) ، ويتضح من هذا أن وظيفة المنكب كانت أعلى من وظيفة العريف ، ولعل المنكب كان مسؤولاً عن العرفاء في كل قبيلة ، يوضح ذلك الليث بن سعد في تعريفه للمنكب : " منكب القوم رأس العرفاء ، على كذا وكذا عريفاً منكب "^(٧) ، ويتضح ذلك أيضاً مما ذكره الشعبي : ان الحجاج جعله " عريفاً على الشعبين ،

(١) انظر ابن سعد ، الطبقات ، جـ ٦ ، ص ١٩٤ (عن قبيصة بن برمة الأسدي) .

(٢) الطبري ، تاريخ ، جـ ٥ ، ص ٣٥٩ (أبو مخنف) . ابن الاثير ، الكامل ، م ٤ ، ص ٢٤-٢٥ .

(٣) الطبري ، تاريخ ، جـ ٦ ، ص ٢٠٧ .

(٤) المصدر نفسه ، جـ ٦ ، ص ٤٧٤ (المدايني) .

(٥) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ٢٠٢ (قالوا) . ابن عبدربه ، العقد ، جـ ٥ ، ص ٨ .

(٦) العسكري ، الأوائل ، ص ٢٤٣ . القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ١ ، ص ٤٨٣ .

(٧) ابن منظور ، لسان العرب ، م ١ ، ص ٢٧٢ .

ومنكبا على جميع همدان^(١)، وهذا ينقض ما ذكره ابن الاثير : " ان المناكب قوم دون العرفاء "^(٢)،
والحق أن المعلومات الواردة في المصادر المتوفرة عن هذه الوظيفة قليلة ومتناقضة ، بحيث لا تمكننا
من تحديد ماهيتها بالضبط ، أو توضيح دورها وأهميتها ، ولعل ذلك يعود الى أنها لم تدُم طويلا بل
زالت في وقت مبكر ، شأنها في ذلك شأن وظيفة النقيب التي أسلفنا ذكرها^(٣) .
هذه السلسلة من الوظائف الادارية كانت تؤلف قنوات اتصال بين الأمير والقبائل ، وقد
توسعت صلاحياتها منذ أيام سعد بن أبي وقاص ، حتى كان لها دور كبير أيام زياد الذي وضع نظاماً
ادارياً دقيقاً ساعده على تحقيق سياسته وتنظيم أحوال امارته ورعيته .

سياسته تجاه القبائل

لا يستطيع باحث في تاريخ صدر الاسلام أن يتجاهل عاملاً خطيراً ، كان وراء كثير مما جرى في
تلك الفترة الحاسمة من تاريخ المسلمين ، ذلك هو الصراع القبلي الذي لعب دوراً كبيراً في حياة
الناس ، وأثر في كثير من المواقف والقضايا السياسية المصرية وقتئذ ، والحديث عن العصبية القبلية
لا يجوز تعميمه ، فبالرغم من مظاهر العصبية التي كانت عند بعض القبائل ، إلا أن عامل العقيدة
والايمان بالاسلام كثيراً ما كان يتجاوز أفراد القبيلة الواحدة ، فنجد طائفة منها في معسكر ، بينما
تكون الطائفة الأخرى في المعسكر الآخر كل حسب اعتقاده واجتهاده . ولا ريب أن الروابط الجديدة
الواسعة التي دعا اليها الدين الاسلامي بين معتنقيه ، ساهمت كثيراً في الحد من الروح القبلية التي
ألفها العرب في جاهليتهم ، كما أن استقرار القبائل في الأمصار الاسلامية الجديدة وخضوعها لسلطة
الأمير العليا ساعدت على اضعاف الروابط القبلية القائمة على أساس علاقة الدم ، ذلك أن الأمير لم
يكن يستمد قوته من رابطة الدم ، بل من سلطة عليا تتمثل في " الخلافة " ، ولقد أدى ازدياد السكان
في الأمصار واتساع نطاق المصالح الفردية المتزايدة الى تقلص المفاهيم القبلية ، واستقلال الكثيرين
عن عشائهم بالتدريج .

وفي العصر الأموي ، بذل عدد من الخلفاء والولاة جهوداً كبيرة في محاربة العصبية القبلية ، على
أن هذه الجهود لم تتعد كونها محاولات فردية محدودة النطاق ، فالدولة لم تضع خطة معينة يتبناها
الخلفاء والولاة في سياستهم تجاه القبائل ، وفي مناهضتهم للنزعة القبلية ، بل كان سلوك الحكام إزاء
ذلك مستوحى من نزعاتهم الشخصية ، وتبعاً لما تقتضيه المصلحة العامة للدولة .

كان زياد من أشد ولاة بني أمية مناهضة لداء العصبية الذي ظل مستعصياً وقتاً طويلاً ، وقد

(١) الجريسي ، الجليس الصالح ، ج ١ ، ص ٨٥-٨٦ . ابن عساكر ، الجزء الخاص بتراجم حروف العين المتلوة بالألف ، تحقيق

شكري فيصل ، ص ٢٠٨ ، ويشير اليه عند وروده هكذا : ابن عساكر ، جزء تراجم حروف العين المتلوة بالألف .

(٢) ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث ، ج ٥ ، ص ١١٣ . ابن منظور ، لسان العرب ، م ١ ، ص ٢٧٢ .

(٣) انظر العلي ، التنظيمات ، ص ١١٩ .

حاول اصلاحه منذ أن تولى إمرة البصرة، فنجده في خطبته البتراء يحذر الناس من العصبية ودعوى الجاهلية، ويتهدد الداعي بها بقطع لسانه^(١)، ولقد كان تنظيمه للقبائل العربية في البصرة والكوفة محاولة جادة منه للقضاء على العصبية، حيث جعل هذه القبائل موزعة في زمر لا علاقة لها بالترتيبات القبلية السابقة، وعلى الرغم من أن تنظيمه للقبائل في البصرة كان قبلياً أكثر منه في الكوفة، إلا أن هذا التنظيم الخطير في مجمله يؤكد رغبة زياد في محاولة القضاء على النعرة القبلية، كما ينبىء عن مقدرة الادارية والسياسية الحكيمة في معالجة القضايا المستعصية والمزمنة.

بذل زياد جهوداً كبيرة لاطفاء نار العصبية إبان ولايته على المصريين، وكان من التدابير التي اتخذها في سبيل ذلك أنه حمل القبائل مسؤولية سلوك أفرادها، وأخذ رؤساءها وأشرافها بالجرائم التي يرتكبها رجال قبائلهم، وأجبرهم على تأديب سفهاء قومهم ومن يتمرد منهم على السلطان^(٢)، وهكذا أخذ رجال القبائل يتنافسون في التقرب إلى الأمير، بسبب منافساتهم وحزازتهم التي استغلها زياد جيداً، إلى جانب استعماله لبيت المال كوسيلة لتقريب القلوب إليه^(٣)، ولقد استعان زياد بأشراف القبائل وصلحائها أيضاً في فرض سيطرته على الولاية وتوطيد النظام والأمن فيها، فقال يوماً: "دلوني على صلحاء كل ناحية ومن يطاع فيها، فدلوه فضمنهم الطريق وحد لكل رجل حدا"^(٤)، عن طريق ذلك تمكن زياد من ضبط الأمن في العراق، ولا ريب أن هذا الاجراء الاداري الأمني أفاد في الحد من التيار القبلي الذي ترعرع ونما من قبل في ظل التنظيم الذي روعي في تخطيط مصرى العراق، حيث كانت القبائل متجاوزة في خطط مستقلة، ضمت كل منها قبيلة أو قبائل تجمع بينها رابطة الدم والنسب.

ان الخطوات التي اتخذها زياد في دمج القبائل العربية مع بعضها البعض - في البصرة والكوفة - بعيدة عن النسب أو الحلف كانت لها أعظم الأثر في نفوس القبائل العربية، حيث أخذت تهيتها نفسياً لتدرك أن حياة المدينة تختلف عن حياة البادية التي تعود عليها العرب في حياتهم الأولى، وقد أخذت هذه القبائل تتحول تدريجياً إلى شكل جديد بحكم الحياة المستقرة، وأصبح أفرادها يشعرون أنهم أبناء مدينة تربط بينهم علاقات اجتماعية ذات ملامح وسمات متميزة، على أن هذا الاحساس لم يقض تماماً على الاحساس القبلي المتأصل، مما يشعر بتحول العصبية القبلية إلى عصبية للمدينة

(١) انظر الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ٦٣. ابن بكار، الأخبار الموقفيات، ص ٣٠٦ (المدايني). ابن قتيبة، عبون الأخبار، م ٢، ص ٢٤٣. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠٧ (الحرملي). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٩-٢٢٠ (المدايني).

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٥٠ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٧-٢٥٨ (أبو خنوف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٢ (أبو خنوف). ابن الأثير، الكامل م ٣، ص ٤٧٤.

(٣) ذكر الطبري أن زياداً "كتب خمسة من مشيخة أهل البصرة في صحابته، فرزقهم ما بين الثلاثة إلى الخمسة". (الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٣).

(٤) البيهقي، المحاسن والمساوى، ص ٤٧٤. ابن عبدربه، العقد، ج ٥، ص ٧ (العتبي).

التي قطنوها، ومن هنا بدأت تظهر في الأفق ظاهرة جديدة تحولت بموجبها القبلية إلى حياة تؤمن بالمدينة، وذلك أن تسمى القبيلة بإسم المدينة، مثل: أزد الكوفة، وأزد البصرة، وتقيم الكوفة، وتقيم البصرة^(١).

وعلى الرغم من معرفة زياد الواسعة بالقبائل العربية النازلة في العراق وقدرته على ضبطها وتنظيمها، إلا أننا نجده يستشير معاوية في كيفية سياستها، فأشار عليه بأن يتبع مع كل قبيلة أسلوب خاص يوافق أخلاقها وطبائعها، فكتب إليه: "انظر أهل اليمن فأكرمهم في العلانية، وأهנם في السر، وانظر هذا الحي من ربيعة فأكرم أشرفهم وأهن سفلتهم فإن السفلة تبع للأشراف، فأما هذا الحي من مضر فإن فيه فظاظة وغلظة فأجل بعضهم على رقاب بعض"^(٢)، ويتضح من كلام معاوية أنه كان عميق المعرفة بالقبائل وخصائصها، فهو يشير على زياد بالدهاء في معاملته لأهل اليمن الذين كانوا أكثر تحضراً من غيرهم، ويوصيه بأن يحسن لهم في العلانية ويتجاف عنهم في السر، ويظهر أن معاوية كان يشعر بالنظام الطبقي في ربيعة، فمتى أخضع الأشراف بالأكرام والاحترام خضعت القبيلة كلها لانتقاد العامة للخاصة. أما مضر فيبدو أنهم كانوا أقل الناس تحضراً في مصرى العراق وأكثرهم غلظة وفضاظة، لذلك رأى معاوية أنه لا يمكن إخضاعهم بسهولة ويسر، وأنه لا بد من تسليط بعضهم على بعض، وتشعر سياسة زياد تجاه القبائل أنه أخذ بخطّة معاوية غير المقتنة في جلّ الأحوال ولكنه تجاوزها أحياناً، فحين أراد القبض على حجر بن عدى وأصحابه بالكوفة هدّد رئيس كندة محمد بن الأشعث وأرغمه على الاتيان بحجر ولم يجد بأساً في اذلاله حتى جعله مثلاً لسائر رؤساء وأشراف أهل العراق^(٣). والحقيقة أن سياسة زياد الحازمة إزاء الرؤساء والأشراف الذين وقفوا إلى جانب الإدارة الأموية أدت إلى تضائل نفوذهم القبلي، وفقدانهم كثيراً من الامتيازات التي كان يتمتع بها أسلافهم فيما قبل الاسلام، حتى أنه لم يجزّئ كثير منهم على اجارة من يحل به سحق الأمير أو السلطان، فحين طلب زياد الفرزدق لم يجد الأخير من يجيره خوفاً من زياد^(٤)، وكذلك لما طلب عبيد الله بن زياد يزيد بن مفرغ لهجائه آل زياد، لجأ ابن مفرغ إلى الأحنف بن قيس ليبيّره، فامتنع عليه، وقال له: "اني لا أجير على ابن سمية فأعزل، وإنما يجير الرجل على عشيرته، فأما على سلطانه فلا"، فحين اجتراً المنذر بن الجارود على ابوائه شتمه عبيد الله وأذله وأخذ منه جاره قسراً^(٥).

(١) ليس أدل على ذلك من قول الأحنف بن قيس التميمي: "يا معشر الأزد وربيعه من أهل البصرة، أنتم والله أحب إلينا من تميم الكوفة، وأنتم جيرانا في الدار ويدنا على العدو". (المبرد، الكامل، ج ١، ص ١٤١ (أبو عبيدة)).

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٥ (الشعبي)، ص ١٥ (المدايني).

(٣) انظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٥١-٢٥١ (الكلبي). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٦٣ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٦.

(٤) أبو عبيدة، النقائص، ج ٢، ص ٦١٦.

(٥) الأصفهاني، الأغاني، م ١٨، ص ١٨٨-١٨٩ (قالوا).

وقد نهج زياد نهج عمر بن الخطاب في الضرب على أيدي الشعراء الذين عمدوا الى هجاء الناس وإثارة الأحقاد القبلية في أشعارهم، فعندما هجا الفرزدق بني نهمش وبني فقيم، ألح زياد في طلبه ليعاقبه على فعله الذي اقتدى فيه بشعراء الجاهلية، بقصد التفاخر وإثارة الفتن القبلية، ولقد اضطر الفرزدق الى مغادرة العراق خوفاً من زياد فلم يعد إليها الا بعد موت الأخير^(١). وكذلك قمع زياد حوادث الثأر الفردي وضرب على يد مرتكبيها، ومن ذلك طلبه بني عوف بن القعقاع، وقتله عمرو ابن عوف لقتلهم غلاماً من بني ميثاء، بقيس بن عوف بن القعقاع^(٢).

والواقع أن موقف زياد المناهض للعصبية القبلية لم يمنعه من استخدامها كسلاح فعال عند الضرورة، وذلك لتحقيق بعض المقاصد السياسية، وليس أدل على ذلك من صنيعه في فتنة عبد الله ابن الحضرمي أيام علي بن أبي طالب، حيث أخذ يثير في نفوس الأزد حمية الجاهلية وروح الاعتزاز القبلي، لينصروه على بني تميم الذين أجاروا ابن الحضرمي^(٣)، والحقيقة أن مثل هذا الصنيع لم يحدث أبان ولاية زياد على العراق، ويعود ذلك الى سياسته الحكيمة مع القبائل العربية، وقدرته على معالجة شتى القضايا التي قد تؤدي الى إثارة الروح القبلية لدى أفراد القبائل المختلفة، ولعل في قضية حجر بن عدي الكندي ما يدل على ذلك، فقد كلف زياد طائفة من مذحج وهمدان بالمسير الى جبالة كندة ليأتوه بحجر، بينما أرسل سائر أهل اليمن الى جبالة الصائدين، وكره أن يسير طائفة من مضر مع طائفة من أهل اليمن " فيقع بينهم شغب واختلاف، وتفسد ما بينهم حمية"، ولم يخرج زياد حضرموت مع أهل اليمن في طلب حجر، وذلك لمكانهم من كندة قبيلة حجر^(٤).

ويمكن القول أن القبائل العربية في الكوفة والبصرة عاشت أيام زياد بعيداً عن ضروب التوتر القبلي، وإن كان التحاسد موجوداً بينها، ولكنه لم يولد انفجارات أو فتن قبلية، ولم يؤد الى أعمال عنيفة كما هو الحال بين الأحزاب السياسية، ومرد ذلك الى السياسة الحكيمة التي اتبعها زياد إزاء القبائل ورؤسائها.

ويظهر أن زياداً رأى أن التدابير التي اتخذها في تنظيماته للقبائل وفي سياسته تجاهها لم تكتمل بعد، على الرغم من سلامتها وشمولها، ولعله لمس بعض مظاهر الفوضى في الكوفة والبصرة الأمر الذي دفعه الى القيام بخطوة رائدة في سبيل توطيد الأمن، ومقاومة التكتلات القبلية والسياسية في مصرى العراق، وذلك باتباعه لسياسة تهجير السكان من الكوفة والبصرة الى مناطق بعيدة عن هذه المراكز.

(١) البلاذري، أنساب (أحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٢٦-٢٢٩ (المدايني). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٤٦-٢٥٠ (أبو عبيدة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٦٧-٤٧٠.
(٢) انظر: أبو عبيدة، النقائص، ج ١، ص ٧٨-٧٩.
(٣) البلاذري، أنساب (المحمودي)، ج ٢، ص ٤٢٧-٤٢٨ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١١١ (عمر بن شبه).
ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٦٢.
(٤) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٦١-٢٦٢. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٥.

سياسة التهجير

يمكن تقسيم هذه السياسة الى نوعين متباينين كل له دوافعه وفوائده ، أما النوع الأول : فيقوم على تهجير العناصر غير العربية ، والتي تواجدت بشكل ملحوظ في الكوفة ، فيذكر مسعر بن كدام أنه كان مع رستم يوم القادسية أربعة آلاف يعرفون بجند (شهان شاه) طلبوا الصلح من سعد شريطة أن يسمح لهم بأن ينزلوا حيث شاءوا ، ويحالفوا من يريدون من قبائل العرب وأن يفرض لهم في العطاء ، فأجابهم سعد الى ما طلبوا ، فنزلوا الكوفة وحالفوا زهرة بن حوية السعدي من بني تميم ، وقد عرف هؤلاء الأعاجم باسم (حمراء ديلم)^(١) ، ويبدو أن عددهم أخذ يتزايد مع الزمن حتى أن زياداً خشي من كثرتهم ، فسير قسماً منهم الى بلاد الشام ، حيث أسكنهم معاوية في أنطاكية وكان يسكنها من قبل الجراجمة^(٢) ، ثم أضاف اليهم معاوية في حوالي سنة (٥٠ هـ / ٦٧٠ م) قوم من زط البصرة والسيابجة^(٣) ، وحوّل زياد قسماً آخر من (حمراء ديلم) بالكوفة الى البصرة ، فدخلوا في الأساورة الذين بها^(٤) ، ويبدو أن تهجير هؤلاء الأعاجم من الكوفة والبصرة واسكانهم في أنطاكية ، كان محاولة من معاوية وزياد لتحقيق نوع من التكتل العنصري غير العربي ، خشية غلبة مقومات حياتهم على مقومات الحياة العربية في كل من الكوفة والبصرة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن إسكانهم مع الجراجمة على الحدود الرومية جعل منهم قوة متقدمة في وجه الروم الذين كانوا أعداءهم بالأمر . أما الغاية من نقل قسم من (حمراء ديلم) الى البصرة ، فيبدو أن زياداً أراد أن يوازن بين أعداد العجم في كل من البصرة والكوفة ، فلا يقتصر تواجدهم في أي من المصيرين فيؤدي ذلك الى تكتلهم ، مما قد يولد أخطاراً كبيرة ، أعظمها شأن التأثير في مقومات الحياة العربية ، أما تفريقهم في أكثر من موضع فانه حتماً سيؤدي الى اضعافهم ، ويحد من عرى الترابط بينهم .

أما النوع الثاني من أنواع سياسة التهجير التي اتبعها زياد في ولايته ، فهو يقوم على تهجير أفراد أو جماعات من القبائل العربية ، يروى البلاذري أن زياداً ولي البصرة سنة (٤٥ هـ / ٦٦٥ م) ، " فولى أمير بن أحمرو ، وخليد بن عبد الله الحنفي أبر شهر ، وقيس بن الهيثم مرو الروذ والطالقان والفارياب ونافع بن خالد الطلحي (من الأزد) هراة وبادغيس وبوشنج وقادس من أنواران ، فكان أمير أول من أسكن العرب بمرو"^(٥) ، وتخصيص هذا النص لسكن العرب في مرو دليل على أنها دون غيرها كانت أول مكان سكنه العرب من بلاد خراسان التي كانت مقسمة الى أربعة مناطق ادارية كما يوضح النص ، غير أن هذا النص الفريد لا يوضح ان كان العرب قد استوطنوا مرو بعيالاتهم أم أنهم

(١) البلاذري ، فتوح ، ص ٣٩٣-٣٩٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢١٧-٢١٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٢١ (أبو حفص الشامي) .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٩٤ (مسعر بن كدام) .

(٥) البلاذري ، فتوح ، ص ٥٧٦ (قالوا) . قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٤٠٤ . (وانظر صالح العلي ، استيطان العرب في خراسان ، مجلة كلية الآداب والعلوم ، العدد (٣) ، السنة ١٩٥٨ ، ص ٣٦ وما بعدها ، وسيشار اليه عند وروده هكذا : العلي ، استيطان العرب في خراسان .

دخلوها وسكنوا فيها لأول مرة، على أن ما تضمنه السياق من تخصيص يجعلنا نرجح أن هؤلاء المتوطنين أسكنوا مع عيالاتهم، ولما كان استيطان هؤلاء العرب قد تم في سنة (٤٥هـ / ٦٦٥م)، أي في الوقت الذي كان فيه زياد والياً على البصرة دون الكوفة، فإن هذا يدعو إلى التأكيد على أن هؤلاء المتوطنين كانوا خليطاً من القبائل العربية في البصرة.

وتشعر المصادر المتوفرة بتوقف تهجير العرب الى خراسان في الفترة التي سبقت ولاية الربيع بن زياد الحارثي سنة (٥١هـ / ٦٧١م) اذ لم تشر الى حدوث هجرات عربية في هذه الفترة، وللربيع أهمية كبرى في تهجير العرب الى خراسان وتوطينهم فيها، فيروى البلاذري "ثم ولّى زياد بن أبي سفيان الربيع بن زياد الحارثي سنة ٥١هـ خراسان وحول معه من أهل المصريين زهاء ألفا بعيالاتهم ... وأسكنهم دون النهر"^(١)، ويقول المدائني أن زياداً "ولّى خليداً أشهراً ثم عزله، وولى خراسان ربيع بن زياد الحارثي في أول سنة إحدى وخمسين، فنقل الناس عيالاتهم الى خراسان، ووطنوا بها، ثم عزل الربيع"^(٢)، ويروى الطبري عن المدائني أيضاً أن زياداً بعث الربيع بن زياد الحارثي الى خراسان في خمسين ألفاً، من البصرة خمسة وعشرين ألفاً، ومن الكوفة خمسة وعشرين ألفاً، على أهل البصرة الربيع، وعلى أهل الكوفة عبد الله بن أبي عقيل، وعلى الجماعة الربيع بن زياد"^(٣)، ومما يلاحظ على هذه النصوص الثلاثة، أن نص البلاذري يبين أن أصل العرب المتوطنين في خراسان من المصريين (البصرة والكوفة) ولكنه لم يعين نسبة ما جاء من كل مصر، أما المدائني في نصه الأول فلم يبين أيضاً أصل هؤلاء المتوطنين، بينما يصرّح في النص الثاني بأن نصفهم من البصرة والنصف الآخر من الكوفة. ويشك الدكتور صالح العلي أن العدد أخذ من أهل المصريين بالتساوي، ويستدل على ذلك بأن الأخبار المتأخرة عن تنظيم العرب في خراسان تظهر أن أهل الكوفة كانوا يشكلون وحدة مستقلة لا تزيد عن سدس العرب هناك، ويضيف أن هذا التنظيم كان قائماً على أساس الأخماس المتبع في البصرة هذا فضلاً عن أن خراسان كانت متصلة بالبصرة^(٤)، ومع أن تفسير الدكتور العلي مقبول، إلا أنه كما يبدو أغفل أعداد العرب الذين تم تهجيرهم لخراسان في ولاية زياد على البصرة دون الكوفة، تلك الأعداد التي رافقت أمير بن أحرار إلى مرو، ولم تعينها المصادر^(٥)، كما أن المهجرات والنجيدات بعد ذلك لم تنقطع بل استمرت، فكان كل عامل يُعين عليها يستقدم معه إليها مجموعة من القادة والمقاتلين النابيين، وكان الخلفاء وأمراء العراق لا يتوانون

(١) البلاذري، فتوح، ص ٥٧٧ (قالوا). قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٤٠٥. ابن الأثير، الكامل م ٣، ص ٤٥٢، ٤٨٩

ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٩.

(٢) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٨٦.

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٦. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٢٩.

(٤) صالح العلي، استيطان العرب في خراسان، ص ٣٨.

(٥) انظر البلاذري، فتوح، ص ٥٧٦ (قالوا). قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٤٠٤.

عن توجيه النجيدات والبعوث الى عمالهم بخراسان ، وذلك لتعويض خسائريهم في المقاتلة^(١)، ولا بد أن نضيف الى تلك البعث الرسمية موجات أخرى من الهجرات الفردية والجماعية ، كانت تحدث من وقت لآخر، وان كان المؤرخون لم يهتموا بهذه الموجات إلا نادرا ، ودليل ذلك أنهم لم يسيروا إليها إلا مرة واحدة في ولاية الربيع بن زياد ، اذ نصوا على أن الناس نقلوا أسرهم معهم الى خراسان ، وسكنوا دون النهر^(٢)، وبما أن خراسان كانت من فتوح البصرة فان هذا يجعلها متصلة بها أكثر من اتصالها بالكوفة ، مما يشعر أن امكانية انتقال العرب من البصرة الى منطقة خراسان كانت أيسر من انتقال عرب الكوفة الى تلك المنطقة ، وهذا يجعلنا نرجح أن جماعات عربية كثيرة انتقلت من البصرة الى خراسان بصرف النظر عن الكيفية التي انتقلت بها ، ومن هنا يتبين لنا أن كثرة العرب المستوطنين في خراسان من أهل البصرة ، وغلبة عددهم على غيرهم من أهل الكوفة ، لم يكن مرجعه رجحان عددهم على عدد أهل الكوفة في هجرتهم مع الربيع بن زياد ، وانما كان ذلك نتيجة لهجرات متتالية قام بها أهل البصرة للمساهمة في الغزو أو للاقامة والعمل .

ويبدو أن هجرات العرب الى خراسان وغيرها من البلاد الاسلامية ، أمر لم يكن متروكا الى القبائل نفسها ، ولم تكن هذه الهجرات عفوية أو فوضوية غير ذات غرض ، وإنما عمد إليها زياد عمدا وقصد إلى أغراضها قصدا بيّنا ، وكانت جزءا من سياسته الادارية ، وما من شك فان هجرة خمسين ألفا بعيالاتهم كان عملا منظما يستر وراءه الكثير من الأهداف البعيدة ، ولعل أهم هذه الأهداف : ترسيخ الوجود العربي في الأقاليم المفتوحة وتأمين أسباب الفتح ، وذلك بتحويل هذه الأقاليم الى قواعد عسكرية مهيأة لمتابعة التحرك العسكري في تلك المنطقة ، ولعل زياد وخلفاءه من ولاة بني أمية وقوادهم قد التفتوا الى مقاومة الفرس العنيفة للفتوح الاسلامية وسلسلة الانتفاضات التي تعثرت فيها ، فتبين لهم أن الأمر لن يستقر للمسلمين في هذه البلاد ان لم يرافق الغلبة العسكرية نوع من الاتصال بالأرض والاختلاط بالسكان ، وبالتالي توطيد العلاقات بينهم ، وسد الفجوات التي تفصل بين الطرفين .

والواقع أن هذه السياسة التي بدأها زياد حققت أهدافا بعيدة ، اذ تمكن المهاجرون العرب من استكمال فتح بعض المناطق ، لا بل أنهم ساهموا في توسيع نطاق الفتوحات الاسلامية حتى جاوزوها

(١) ذكر ابن حبيب البغدادي ، أن زيادا مدّ سعيد بن عثمان حين عقد له معاوية عقدا للجهاد بأربعة آلاف رجل من أهل السجون والدعار ومن يصلح للحرب ، ومضى سعيد حتى نزل مرو . (انظر ابن حبيب البغدادي ، محمد بن حبيب (ت ٢٤٥هـ / ٨٥٩م) ، كتاب أسماء المغتالين من الاشراف في الجاهلية والاسلام وأسما من قتل من الشعراء ، ضمن كتاب (نوادير المخطوطات) ، تحقيق عبد السلام هارون ، المجموعة السادسة ، ط ٢ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٧٣م ، ص ١٦٦ ، ويشير اليه عند وروده هكذا : ابن حبيب البغدادي ، أسماء المغتالين ، ابن أعثم ، الفتوح ، م ٢ ، ص ٣١١) . ولعل هؤلاء المنحرفين قد استقروا في مرو ، طالما أن الحياة قد ضاقت بهم في البصرة .
(٢) البلاذري ، فتوح ، ص ٥٧٧ (قالوا) . الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٢٦ ، ٢٨٦ (المدايني) . ابن الأثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٥٢ ، ٤٨٩ .

حدود المقاطعات الساسانية القديمة، ومن المؤكد أن الهجرات العربية كانت المادة الأولى في تعريب هذه المناطق، وذلك لاختلاط العرب بالسكان الأصليين وامتزاجهم بهم، وكان من الممكن أن يسير التعريب في طريقه هذا حتى يبلغ ما بلغه الاسلام، ولكن الأمر تعثر نتيجة للعداوات السياسية بين العرب والأعاجم.

ولعل زياداً لجأ الى هذه السياسة للحد من مقاومة التكتلات القبلية، والتخفيف من شدة العصبية في البصرة والكوفة، كذلك لتخفيف نسبة الجرائم والمشاكل التي كانت تحدث في البصرة نتيجة لكثرة اللصوص والمشايخ، فأراد زياد أن يصرف هذه العناصر الخطرة الى خراسان، ويستنفذ طاقتها وتوثبها على العمل في جهاد المشركين، فيتخلص بذلك من شرها وعينها^(١).

ويبدو أن زياداً أراد التخلص من بعض العناصر المعارضة للحكم الأموي في العراق كالشعبة والخوارج، لذلك لجأ الى تهجيرها وإبعادها الى مناطق مختلفة، فقد هجر قوماً من أزد البصرة الى مصر، فنزلوا من الفسطاط بموضع يقال له الظاهر^(٢)، والمعروف أن الأزد كانوا أصدقاء لزياد منذ أيام علي بن أبي طالب، وذلك لأجارتهم إياه حين دخل ابن الحضرمي البصرة وحاول فتنة أهلها والسيطرة عليها لصالح معاوية^(٣)، ولذلك فإننا نستغرب هذا الصنيع من زياد، ويبدو أنه نقل بعض العناصر غير المرغوب فيها من الأزد^(٤)، وربما كانوا من الخوارج، وقد أطلق عليهم المصريون اسم (العراقيين) لقدومهم من العراق^(٥).

ولعل من بين الغايات التي طمح الى تحقيقها حين عمد الى هذه السياسة، تخفيف الضيق الاقتصادي في البصرة والكوفة، هذين المصيرين اللذين جذبا الكثير من القبائل العربية من الحجاز واليمن والبحرين وسائر أنحاء العالم الاسلامي، على أن هجرات العرب من البصرة والكوفة الى البلاد الاسلامية المجاورة قابلها هجرات متتابعة غير منتظمة الى هذين المصيرين وخاصة البصرة، اذ كان عدد مقاتلتها زمن علي بن أبي طالب أربعين ألفاً، فأصبح أيام زياد ثمانين ألفاً، وكانت الذرية ثمانين ألفاً، فبلغ بهم عشرين ومائة ألف^(٦)، وتشعر هذه الزيادة بكثرة الروادف، واقبال الناس على الهجرة لهذا المصر.

(١) انظر: ابن حبيب البغدادي، أساء المغتالين من الأشراف، ضمن كتاب نواذر المخطوطات، المجموعة السادسة، ص ١٦٦. ابن أعثم، فتوح، م ٢، ص ٣١١.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٧. احسان عباس، ديوان شعر الخوارج، ط ٤، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٢م، ص ١٦٢، وسيشار اليه عند وروده هكذا: احسان عباس، ديوان شعر الخوارج.

(٣) انظر ص ٦٥-٦٨ من الفصل الأول.

(٤) العلي، التنظيمات، هامش ص ٤٤.

(٥) انظر عبد الله خورشيد البري، القبائل العربية في مصر، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ١٢٢، وسيشار اليه عند وروده هكذا: البري، القبائل العربية في مصر.

(٦) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٢٠ (المداثني). ابن عبد ربه، العقد، ج ٥، ص ٨ (العتبي).

سياسة زياد تجاه عماله وموظفيه

يواجه الباحث عند دراسة الادارة الاسلامية صعوبات كثيرة، منها أن المعلومات المتوفرة عن الوظائف الادارية عموماً غير كاملة، فبعض هذه الوظائف لم تذكر عنها المصادر إلا اسمها أو معلومات مقتبضة من أزمته وأمكنة متباعدة، مما يجعل من الصعب تقديم صورة كاملة عنها، وهناك وظائف لا تذكرها المصادر بالرغم من أن مقتضيات الأحوال تستلزم وجودها، وقد أورد بعض المؤرخين المسلمين الأوائل قوائم بأسماء الأمراء والولاة وكبار الموظفين في زمن كل خليفة، وأبرز من جرى على هذا التقليد: خليفة بن خياط، واليعقوبي، والطبري، على أن هذه القوائم المقصورة على أسماء الموظفين لا تعطي فكرة دقيقة عن كيفية اختيار هؤلاء الموظفين وتحويلهم أو ترقيةهم أو عزلهم أو عن تنظيم كل ديوان، وعدد الموظفين التابعين لهذه الوظيفة أو تلك. كما أن معلوماتنا عن سلطات الولاة والعمال في الأقاليم التابعة لمصرى العراق غير وافية للدرجة التي يمكن أن تكون منها فكرة واضحة شاملة قد تفيد في تفهم أوضح لمكانة هؤلاء الولاة والعمال، لهذا فإننا سنكتفي في دراسة هذا الموضوع ببعض الملاحظات العامة التي يمكن استخلاصها من المعلومات الواردة في المؤلفات العربية.

كان زياد في ادارته واليا واعيا لكل جوانب مسؤوليته بكل دقائقها، وقد جعل نفسه مسؤولاً عن كافة الأمور العظمى والصغرى في ولايته، وحتى يحقق النظام هدفه فقد زاول زياد حقه في تعيين وعزل عماله وكبار موظفيه، وقد كان موضوعياً وعادلاً في اختياره للعمال والموظفين من أصحاب الكفاءات "والجرأة والأمانة دون الهوى والمحاباة"^(١)، وكان زياد يدرك في قرارة نفسه مدى المسؤوليات التي يحملها هؤلاء العمال، فيوازن بينها وبين قدراتهم، فكان يعين الواحد منهم لمدة سنة ولا يجدد تعيينه إلا إذا أثبت جدارته واخلاصه، كما كان يعاقب من يظهر خيانة وضعفاً ويكافئ من يجده قوياً أميناً بأن يزيده في عمله ويرفع له ذكره ويكثر ماله^(٢).

وقد اعتمد زياد في ملء كثير من المناصب الادارية على عدد من الصحابة والتابعين، فكان ممثله في البصرة سمره بن جندب الفزاري من الصحابة^(٣)، وكذلك عمرو بن حريث القرشي المخزومي،

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٩٠ (المداثني). الأبي، نثر الدر، ج ٤، ص ٢٤٠. ابن منقذ، لباب الآداب، ص ٤٠ (المداثني).

(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ٥٥ (عبيد بن عمير). القالي، الآمالي، ج ٢، ص ٨٢ (أبو عبيدة)، الجريري، المجلس الصالح، ج ٢، ص ١٣٣-١٣٤ (أبو عبيدة). ابن حمدون، التلذذة، م ١، ص ٣٠٢-٣٠٣. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٥-٤٩٦ (أبو عبيدة).

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج ٦، ص ٣٤، ج ٧، ص ٥٩-٥٠. البخاري، التاريخ الكبير، م ٤، ص ١٧٦. ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٠٥. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٠ (عباس بن هشام الكلبي). ابن دويد، الاشتقاق، ص ٢٨٢. ابن حبان البستي، مشاهير علماء الأمصار، ص ٣٨. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٦٥٣-٦٥٤. ابن الأثير، أسد الغابة، م ٢، ص ٣٥٤. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٥، ص ٤٥٤.

الذي كان زياد يستخلفه على الكوفة عند خروجه للبصرة^(١)، والحكم بن عمرو الغفاري وإلى خراسان^(٢)، وعبد الرحمن بن سمرة، وأنس بن مالك^(٣)، ومن الصحابة الذين استعان بهم زياد في القضاء عمران بن الحصن الخزازي ولآه قضاء البصرة، وقد استعفى زياداً فأعفاه، واستقضى عبد الله بن فضالة الليثي، ثم أخاه عاصم بن فضالة، ثم زرارة بن أوفى الحرشي^(٤)، وأسند قضاء الكوفة إلى شريح بن الحارث الكندي، وهو من الطبقة الأولى من التابعين ممن روى عن عمر بن الخطاب^(٥)، كما ولّى الربيع بن زياد الحارثي خراسان، وهو أيضاً من الطبقة الأولى من التابعين^(٦). وقد أبدى زياد اهتماماً خاصاً بالثقيفين أبناء جلدته، ولم ينسهم عند ملته للوظائف والمناصب، فقد استعمل جبير بن حية بن مسعود الثقفي على أصبهان^(٧)، وولى عبد الله بن عثمان بن أبي العاص على أردشير خصرة فأقام بها^(٨)، وقرب زياد أولاد أخيه أبي بكر، وشرفهم وأقطعهم وولاهم الولايات والأعمال الجليلة الرفيعة، فعين رواداً على دار الرزق وعبد الرحمن على بيت المال، وعبد الله على فارس^(٩)، وحين سئل زياد عن سبب استعماله لأولاد أبي بكره وتركه أولاد أخيه نافع بن الحارث، أجاب: " رأيت أولاد أبي بكره نجباء طوالاً"^(١٠)، وقد حظي الثقيفون إضافة إلى ذلك

-
- (١) ابن سعد، الطبقات، ج ٦، ص ٢٣. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٠ (عباس بن هشام الكلبي). الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٤١٨-٤١٩. ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج ٢، ص ٥٣١.
- (٢) ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٢٨ (الحسن البصري). ابن حبيب، المحرر، ص ٢٩٥. البلاذري، فتوح، ص ٥٧٦ (قالوا). اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٢٢. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٥ (مسلمة). ابن أعمش، الفتوح، م ٢، ص ٣١٨. العسكري، الأوائل، ص ٢٦٨ (الحسن). ابن الأثير، أسد الغابة، م ٢، ص ٣٦. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ٤٧٤-٤٧٥.
- (٣) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٤ (المداثني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥١. اننويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣١٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٣٠.
- (٤) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ٢١٧. وكيع، أخبار القضاة، ج ١، ص ٢٩٢ (المداثني) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٤ (المداثني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥١. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٨.
- (٥) ابن سعد، الطبقات، ج ٦، ص ١٣٨ (جابر بن زيد). ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ٦١ (الشعبي). وكيع، أخبار القضاة، ج ٢، ص ٣٩٧ (الشعبي). ابن عبد ربه، العقد، ج ٥، ص ١٠. ابن الأثير، أسد الغابة، م ٢، ص ٢٩٤. ابن حجر العسقلاني، الإصابة ج ٢، ص ١٤٦ (ابن المديني).
- (٦) ابن سعد، الطبقات، ج ٦، ص ١٥٩. خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٩٧. البلاذري، فتوح، ص ٥٧٧ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٩١ (المداثني). ابن حبان البستي، مشاهير علماء الأمصار، ص ١٢٥. ابن الأثير، أسد الغابة، م ٢، ص ١٦٤.
- (٧) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٣ (المداثني). الأصبهاني، تاريخ أصبهان، ص ٢٥٢. ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج ١، ص ٢٢٥.
- (٨) ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٥، ص ١٧٤ (المداثني).
- (٩) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٩٤ (أبو هلال). ابن عبد ربه، العقد، ج ٥، ص ٩ (الحسن بن أبي الحسن). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ١٧، ص ٦٣٩ (أبو عثمان النهدي). الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٨-٩ (أبو عثمان النهدي). ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، م ١٠، ص ٤١٩ (الحسن البصري).
- (١٠) ابن عبد ربه، العقد، ج ٥، ص ٨.

بحب زياد وتقربه منهم، فكان عمرو بن أراكة الثقفي ممن يحضرون مجلسه ويجلسون بجانبه على سريته^(١).

إن استعمال زياد لهذه النخبة من الصحابة والثقيين، لم تكن محاولة منه لكسب ود هاتين الطائفتين فقط، ولكنه رأى أن تلك النخبة قادرة على القيام بما يوكل إليها من مسؤوليات ومهام، ولو كان هدف زياد استعمال أقربائه وأصدقائه لكان ابنه عبيد الله من كبار عماله وموظفيه ولكن هذا لم يحدث إلا بعد وفاة زياد حيث عينه معاوية على خراسان^(٢). لقد تجاوز زياد في اختياره للعاملين والموظفين كافة اعتبارات الانتماء والعلاقات الشخصية، واهتم في اختياره بالأمانة والكفاية وقوة الشخصية بينما رفض المسنين والضعفاء^(٣)، فقد ولي من بني الحارث بن كعب عمالا على أنحاء ولايته منهم: الربيع بن زياد الحارثي على خراسان، وقطن بن عبد الله على أذربيجان، وشريك بن الأعور على فارس وكرمان، وكثير بن شهاب على الري، والسري بن وقاص على أعمال الكوفة، وزياد بن النضر على أصبهان، وعندما سأل معاوية الأحنف بن قيس: "من أعر أهل العراق؟" قال: "بنو الحارث بن كعب" وذكر له أسماء الولاة السابقين^(٤)، ويبدو أن معاوية شك أن يكون ذلك ميلا من زياد لهؤلاء القوم دون غيرهم بسبب غير مشروع، فأراد أن يعرف العلة، لذلك كتب إلى زياد يسأل عن معنى ذلك، فأجابه زياد معبرا عن عمق إيمانه الموضوعي في قياس مقدرات الناس، ومحاولة وضعهم في مواضعهم الصحيحة من غير ميل أو محاباة، قال: "وجدت فيهم خلتين لو كانتا في الزنج لوليتهم معها الأمانة والكفاية"^(٥)، هذه الإجابة الشافية المقنعة جعلت ثقة معاوية بواليه تنضاعف وتزداد، حتى أن أحدهم جاء إلى معاوية يسأله أن يولييه بعض ما كان بيد زياد فقال له: "زياد أعلم بثغوره" و "زياد أعلم بشرطته"^(٦)، وهذا يؤكد على أن معاوية لم يكن يتدخل في تعيين عمال وموظفي ولاية زياد بل أطلق يديه في هذا الأمر مثلما أطلقها في تسير جُل الأمور الهامة، وكان زياد عند حسن ظن الخليفة به ذكيا واسع الأفق يعرف جيدا موضع قدمه في كل خطوة يخطوها.

وتسهيلا لإدارة الولايات والمقاطعات طلب زياد من عماله استعمال "عمال المعذرة ومن يُزَن بصلاح"، وحذرهم من استعمال من يحتس منه^(٧)، وقد تابع الولاة بعد زياد استعمال عمال العذر

(١) ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج ٢، ص ٥٢٢ (ابن السكن).
(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ٢٢٩-٢٣٠. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٨٣ (قالوا).
الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٢٥ (قالوا). اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٦. ابن أعثم، الفتوح، م ٢، ص ٣٢١. الأبي، نثر الدر، ج ٣، ص ١٦. الصابي، الهفوات النادرة، ص ٨٤.
(٣) ذكر البلاذري أن زيادا قال لأبي الأسود الدؤلي حين سأله الولاية: "لولا ضعفك وسنك لوليتك". (انظر أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٤. المرزباني، نور القبس ص ١١. الشريف المرتضى، أمالي المرتضي، ق ١، ص ٢٩٢).
(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٥٩ (المدايني).
(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٥٩-١٦٠ (المدايني).
(٦) الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ٢٥٩-٢٦٠ (قالوا).
(٧) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠١.

أو المعذرة، فيذكر المدائني أن عمر بن هبيرة أوصى مسلم بن سعيد حين ولاه خراسان أن يستخدم عمال العذر، فسأله مسلم "وما عمال العذر؟" قال: "مُر أهل كل بلد أن يختاروا لأنفسهم، فإذا اختاروا رجلاً فوله، فإن كان خيراً كان لك، وإن كان شراً كان لهم دونك، وكنت معذوراً" (١).

وقد أعار زياد منطقة خراسان اهتماماً كبيراً، نظراً لبُعد هذا الإقليم عن القواعد الإسلامية في البصرة والكوفة، وصعوبة إرسال البعث بشكل منتظم فقد قرر زياد إقامة قواعد ثابتة تقيم فيها القوات الإسلامية بصورة دائمة، فتسيطر على أقاليم المشرق وتتولى مهمة توسيع رقعة الدولة الإسلامية في هذه الجهة، ويروى اليعقوبي أن عبد الله بن عامر أتم فتح خراسان في خلافة عثمان وكان قد صيرها أربعاً، فولى "قيس بن الهيثم السلمي على ربع، وراشد بن عمرو الجديدي على ربع، وعمران بن الفصيل البرجمي على ربع، وعمرو بن مالك الخزاعي على ربع" (٢)، ويظهر من هذا النص أن خراسان كانت مقسمة إلى أربعة مناطق إدارية، ولا نعرف أن كان زياد قد تبع في هذا ابن عامر، أم أن كليهما اتبعاً نظاماً إدارياً قديماً أوجده الساسانيون من قبل، والجديد في سياسة زياد أنه دعم عمال هذا الإقليم بالجنالوية العربية (٣)، فكان بذلك أول من نظم أمور خراسان، وجعلها القاعدة الهامة لغزو بلاد ما وراء النهر، كما أن عمله هذا يسر على عماله إدارة هذا الإقليم وفقاً للأسس التي وضعها، حتى صار من أهم أقاليم الدولة الإسلامية. وفي سنة (٤٧ هـ / ٦٦٧ م) جمعت خراسان تحت إمرة الحكم بن عمرو الغفاري الذي أوعز إليه زياد أن يصطفي لمعاوية الصفراء والبيضاء فلا يقسم في الناس ذهباً ولا فضة عملاً بكتاب ورد عليه من الخليفة، فكتب الحكم إلى زياد "أني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين، وأنه والله لو كانت السموات والأرض رتقا على عبد فأتقى الله لجعل الله له منها خرجاً"، ثم قسم الفيء على من معه من الناس (٤)، وبقي الحكم على خراسان إلى أن توفي فيها سنة (٥٠ هـ / ٦٧٠ م) (٥) فخلفه الربيع بن زياد الحارثي، وهذا يشعر بما كان للعامل الأمين أيام زياد من الحرية فيما يرتثيه لاصلاح عمله، والادارة في إقليم قد لا تصلح

(١) الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٣٥. ابن الأثير، الكامل، م ٥، ص ١٣٠. ويورد ابن عبد ربه نحو ما أورده الطبري، ولكنه لا يستخدم تعبير "عمال العذر" بل "عمال القدر" وعندما سأل مسلم بن سعيد عمر بن هبيرة عن معنى عمال القدر أجابه: "أن تختار من كل كورة رجلاً لعملك، فإن أصابوا فهو الذي أردت، وإن أخطأوا فهم المخطئون، وأنت المصيب". (العقد الفريد، ج ١، ص ٢٢).

(٢) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٦٧.

(٣) انظر البلاذري، فتوح، ص ٥٧٦، ٥٧٧ (قالوا). قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٤٠٤. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٦، ٢٨٦ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٩.

(٤) ابن سعيد، الطبقات، ج ٧، ص ٢٨-٢٩ (الحسن). الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ٢٩٦-٢٩٧ (الحسن). البسوى، المعرفة والتاريخ، م ٣، ص ٢٥ (الحسن). البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٢١-٢٢٢ (الحسن). اليعقوبي، البلدان، ص ٥٨. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥١-٢٥٢ (عمر بن شبة). ابن عبد ربه، العقد ج ١، ص ٥٨ (الشعبي).

(٥) ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٣٦٦، ابن حبيب، المحبر، ص ٢٩٥. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٢٢ (المدائني). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٢ (المدائني). ابن حبان البستي، مشاهير علماء الأمصار، ص ٦٠. العسكري، الأوائل، ص ٢٦٩ (الحسن البصري). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ١، ص ٣٥٦.

في إقليم آخر. ولقد اعتنى زياد باختيار العمال الثقات على سائر المقاطعات التابعة لمصرى العراق، مثلما اعتنى باختيار ولاية خراسان، والواقع أن عمال زياد الذين اختارهم لم تجمعهم صفات خاصة واحدة يشتركون فيها سوى كونهم جميعاً من العرب، أما فيما عدا ذلك فقد كانوا متباينين في أصولهم وخبراتهم وكانوا من قبائل مختلفة^(١)، وقد أثبت جلهم كفاءة في الإدارة والتوسع العسكري. وكان من حرص زياد على الاحاطة بأمور رعيته، ونشر العدل فيها أنه كتب الى عماله أن "لا ينظرن في أمر الناس حاقن ولا جائع"^(٢)، وقال يوماً: "ينبغي للوالي أن يكون أعلم بأهل عمله منهم بأنفسهم"^(٣)، وكأنه يريد أن يوصي عماله بضرورة التعرف على أفراد الرعية وعلى المشكلات التي قد تواجهها من حين الى حين، وكان زياد يجلس في كل يوم للنظر في أسباب عمله الآ يوم الجمعة "فيسأل رسل عماله عن بلادهم، وينظر فيما قدموا له، وفي أمر الأموال والنفقات"^(٤)، ثم يأخذ في كتب العمال فيمليها بنفسه^(٥)، وهذا يشعر باهتمام زياد البالغ في مراقبة عماله والاطلاع أولاً بأول على أعمالهم وتصرفاتهم.

ويتوقع أن الموظفين في البصرة والكوفة كانوا أكثر عرضة من عمال الولايات والأقاليم لاشراف الأمير ورقابة الناس أنفسهم، لذا كانت مجالات الاستغلال أمامهم محدودة نسبياً، والواقع أن جلهم كانوا يتقاضون رواتب جيدة تمكنهم من أن يحيوا حياة كريمة ولائقة، وتغنيهم عن الانحدار الى الاختلاس وغيره من الأساليب غير المشروعة للحصول على الأموال^(٦). وقد حرص زياد على دفع الرواتب في أوقاتها^(٧)، وهو أول من وضع الرواتب المقررة للوظائف الثابتة، فقد قرر لكل عامل من عماله ألف درهم، ولنفسه خمسة وعشرين ألف درهم، ومائة ألف درهم لخصصات اضافية^(٨). وكان في البصرة والكوفة عدا المقاتلة، الشرطة الذين يقومون بحفظ الأمن وحماية القانون والنظام في الداخل، وليس لدينا معلومات عن رواتبهم سوى أن صاحب الشرطة أخذ عن عمله مائة ألف

(١) انظر الملحق رقم (٢) (عمال زياد على المقاطعات التابعة للعراق).

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٤٠. الاصبهاني، حلية الأولياء، ج ٤، ص ٣١٨ (الشعبي).

ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٦ (الشعبي).

(٣) اليعقوبي، تاريخ ج ٢، ص ٢٣٥. البيهقي، الاعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٨٩.

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٤ (المدايني). ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٠٧. وانظر

الجهشياري، الوزراء، ص ٢٥.

(٥) ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٠٧.

(٦) انظر العلي، التنظيمات، ص ٢٢٥ وما بعدها.

(٧) انظر الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ٦٤. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٨ (ابن عياش).

الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٠ (المدايني). ابن عبد ربه، العقد، ج ٥، ص ٧ (العتبي).

(٨) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٤. ويُذكر أن زياداً ولى أبا الخير (من الخوارج) جند يسابور وما يليها، وجعل له راتباً شهرياً مقداره أربعة آلاف، مع عمالة سنوية مقدارها مائة ألف درهم. (انظر المبرد، الكامل، ج ٣، ص ٢٦١ - ٢٦٢). ويظهر أن زياداً حاول استمالة أبا الخير واصلاحه بالمال والمنصب لأنه كان من الخوارج.

درهم، وذلك في أوائل عهد الملك بن مروان^(١)، ولا يعقل أن يكون راتب الأمير خمسة وعشرين ألف وراتب صاحب الشرطة مائة ألف، ولكن من الجائز أن يكون صاحب الشرطة يتسلم مجموع رواتب دائرته، ويقوم هو بتوزيعها بعد أن يقبض مرتبه، أي أن هذا المقدار كان يمثل خزينة الشرطة. وهناك موظفو الدواوين وأغلبهم من العجم العالمين بأمور الخراج^(٢)، وكان رؤساء الكتاب يتقاضون ثلاثمائة درهم شهرياً، أما صغارهم فيأخذون ثلاثين درهماً^(٣)، وقد رفع زياد رواتب رؤساء الكتاب إلى ألف درهم شهرياً^(٤)، وكان يؤكد على أن يكون الكاتب مسناً يتمتع بخمس خصال: "بعد غور، وحسن مداراة، وإحكام للعمل، وألا يؤخر عمل اليوم للغد، والنصيحة لصاحبه"^(٥).

كما كان زياد يحرص على إتقان الكتاب للغة، فقد كتب كاتب في ديوانه "ثلاث دنان" فقال: "أخرجوا هذا الكاتب من ديوانكم، وأصلحوها ثلاثة أدن"^(٦). أما راتب صاحب بيت المال فقد جعله زياد ألف درهم شهرياً، وراتب القاضي خمسمائة درهم شهرياً^(٧)، وكان زياد يرى أن من بين الشروط الواجب توفرها في القاضي إضافة إلى العلم والفقه والورع، أن يكون مسناً عَضَّ على ناجده^(٨).

وهكذا يمكن القول أن زياداً نجح في الإدارة إلى حد بعيد، فكان يتصرف في إمارته تصرف الملوك المستقلين، فيعين العمال على البلاد التي تحت إمرته وسائر عمال حكومته، ويجبي الأموال وينفق منها على جنده وموظفيه وفيما تقتضيه المصلحة العامة، وكان لا يسمح بأي تدخل حتى ولو كان من الخليفة نفسه^(٩)، إذا كان هذا التدخل يؤدي إلى إيذاء المصلحة العامة، وفي هذا صورة واضحة عن اللامركزية.

المقاتلة

اهتم زياد بتنظيم المقاتلة اهتماماً بالغاً، وكان التنظيم القبلي الذي قام به في العراق محاولة منه

(١) البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ١٧٧ (عمر بن شبة).

(٢) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٤.

(٣) انظر العلي، التنظيمات، ص ١٦٧.

(٤) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٤.

(٥) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٥.

(٦) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠٢. الجهني، الوزراء، ص ٢٥.

(٧) انظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٣٥ (المدايني). كان شريح يُرْزَق على القضاء فيما يقال خمسمائة درهم شهرياً. (ابن سعد، الطبقات، ج ٦، ص ١٣٨ (ابن أبي ليلى).

(٨) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٥.

(٩) ذكر أن زياداً ولى حريث بن جابر على همدان، فكتب إليه معاوية: "أما بعد فأعزل حريث بن جابر عن العمل، فاني لا أذكر مقاماته بصفين، ألا كانت حرازه في صدري"، فكتب إليه زياد: "أما بعد فخفف عليك يا أمير المؤمنين، فإن حريثاً قد سبق شرفاً لا يرفعه معه عمل، ولا يضعه معه عزل". (ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ٥، ص ٢٤١، ج ١٦، ص ١٩٧).

لتذويب القبائل المناوئة للأمويين، وتخفيف حدة العصبية القبلية من جهة، ووصولاً إلى ممارسة الدولة لسلطاتها ومسؤولياتها في تنظيم الجيوش وترتيب القيادات والسيطرة على توزيع العطاء للمقاتلين من جهة أخرى، لذلك نراه يمنح سلطات واسعة للعرفاء، فهم الذين يوزعون العطاء، وهم المكلفون بالدعوة للجهاد لتأمين سرعة استنفار الجند^(١).

ويمكن اعتبار ولاية زياد على البصرة سنة (٤٥هـ / ٦٦٥م) البداية الحقيقية للتشديد في النفي ومعاقبة المتخلفين، لأن سياسته القائمة على الحزم وعدم التهاون مع المخالفين، لم تدع أحداً من الجند يجرؤ على الإخلال بمكانه أو الهرب من بين صفوف المقاتلة، إذ أن ذلك يعرضه لأشد العقوبات، وكان من نتيجة هذه السياسة أن ازداد عدد المقاتلة في العراق خلال مدة ولايته زيادة كبيرة، ذكر المدائني أن عدد مقاتلة البصرة حين قدم زياد كان "أربعين ألفاً فبلغ بهم ثمانين ألفاً، وكانت الذرية ثمانين ألفاً فبلغ بهم عشرين ومائة ألف، ويقال أن ابنه فعل ذلك"^(٢). وذكر مسلمة ابن محارب البصري أن زياداً عرض مقاتلة البصرة "وهم يومئذ ثمانون ألفاً"^(٣). وروى الوليد بن هشام القحذمي عن جده الذي كان على ديوان الجند ليوسف بن عمر قال: "نظرت في جماعة مقاتلة البصرة أيام زياد فوجدتهم ثمانين ألفاً، ووجدت عيالهم مائة ألف وعشرين ألف عيل"^(٤)، وهذا يدعو إلى تحقيق ما ورد في خطبة عبيد الله بن زياد بأهل البصرة، والتي تنسب أكثر نصوصها زيادة عدد المقاتلة والذرية في البصرة إلى عبيد الله، فيذكر وهب بن جرير البصري عن شهرك قال: أنه سمع ابن زياد يقول لأهل البصرة: "لقد وليتكم وما أحصي في ديوان مقاتلتكم إلا أربعين ألفاً، ولا في ديوان عيالاتكم إلا سبعين ألفاً، ولقد أحصي إلى اليوم في ديوانكم ثمانون ألف مقاتل وفي ديوان عيالاتكم مائة وعشرون ألفاً"^(٥). وروى عمر بن شبه بأسناده عن شهرك أيضاً أنه سمع ابن زياد يقول: "لقد وليتكم وما أحصي ديوان مقاتلتكم إلا سبعين ألف مقاتل، ولقد أحصي اليوم ديوان مقاتلتكم ثمانين ألفاً، وما أحصي ديوان عيالاتكم إلا تسعين ألفاً، ولقد أحصي اليوم مائة وأربعين ألفاً"^(٦)، ويلاحظ أن وهب بن جرير وعمر بن شبه قد اختلفا في بيان الأحصائية التي يذكر شهرك أنه سمعها عن ابن زياد، ولعل هذا الاختلاف يعود إلى خطأ من النساخ، أو أحد الرواة الذين سمعوا من شهرك وأخذ عنهم وهب وعمر.

وينفرد الجاحظ بنسب زيادة مقاتلة البصرة إلى زياد وليس إلى ابنه، حيث يذكر أن عبيد الله بن زياد قال في خطبته: "لقد وليكم أبي وما مقاتلتكم إلا أربعين ألفاً، فبلغ بها ثمانين ألفاً وما ذريتكم

(١) العلي، التنظيمات، ص ١١٥.

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٢٠. وانظر ابن عبد ربه، العقد، ج ٥، ص ٨ (العتبي).

(٣) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٣٢.

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٨. ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٤.

(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٤١٨.

(٦) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٥٠٤.

الآ ثمانين ألفاً، وقد بلغ بها عشرين ومائة ألف^(١)، ولعل ما ذكره الجاحظ عن خطبة ابن زياد أكثر دقة مما ذكره غيره، يؤيد ذلك الروايات الموثقة التي أوردناها عن المدائني ومسلمة والوليد بن هشام، ويشعر ما ذكره هؤلاء أن عدد مقاتلة البصرة ظل طوال فترة زياد ثمانين ألفاً، وربها بقي هذا العدد ثابتاً في ولاية عبيد الله بن زياد، الأمر الذي جعل بعض الرواة ينسبون زيادة عدد المقاتلة والذرية إلى عبيد الله وليس لأبيه.

أما الكوفة، فقد بلغ عدد مقاتلتها أيام علي بن أبي طالب أربعين ألفاً، يضاف إليهم سبعة عشر ألفاً من الأبناء ممن هم في سن الرشد^(٢)، وفي زمن زياد ارتفع عدد المقاتلة إلى ستين ألفاً^(٣)، يؤيد ذلك ما ذكره ياقوت من أن زياداً زاد في مسجد الكوفة مقعد عشرين ألف إنسان، فصار يتسع لستين ألفاً^(٤). ويظهر أن هذا الرقم يشمل من نقلهم زياد من مقاتلتها إلى خراسان سنة (٥١ هـ / ٦٧١ م)، إذ كان عدد مقاتلتها أيام الحجاج (٧٥-٩٥ هـ / ٦٩٤-٧١٣ م) أربعين ألف مقاتل^(٥)، ولعل الزيادة التي حصلت أيام زياد كانت بعد إجراء عملية التنظيم في الديوان، وهي قليلة إذا ما قورنت بزيادة مقاتلة البصرة للفترة ذاتها، ولعل توقف فتوح الكوفة وتوسع فتوح البصرة في المناطق الشرقية يفسر ذلك.

ويبدو أن سياسة التهجير التي لجأ إليها زياد، إضافة إلى تنظيمه للديوان أمور أتاحت الفرصة أمام الكثيرين للانضمام إلى الديوان إلى جانب جماعات أخرى من المهاجرين الجدد، فيذكر الشعبي أن زياداً قال للعرب: "إن عشائركم قد وردت علينا، فاخترنا أن نأخذ نصف اعطياتكم وأرزاقكم فنقوتهم بها مع ما لهم عندنا أو تكفيها كل عشيرة من فيها، فمنهم من ضم عشيرته ومنهم من طابت نفسه بنصف عطائه ورزقه وأرزاق عياله"^(٦)، ولا شك أن عملية النقل التي اعتمدها زياد ساعدت على تخفيف ضغط الروادف والأعباء المالية عن البصرة والكوفة، على أن ضغط الروادف دام كما يبدو، وخاصة في البصرة التي استمرت فتوحها في المشرق.

ويظهر أنه كان على أهل الديوان الإقامة في الثغور بالتناوب في جُلّ الأحيان^(٧)، وكانت المدة تختلف من فترة لأخرى، وقد نهى الخلفاء والولاة عن التجيمير في البعوث، فقال زياد لمعاوية موضحاً

-
- (١) الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ١٣٠.
 (٢) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٧٩. مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٢٢.
 (٣) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٨ (الوليد بن هشام). ابن عبدربه، العقد، ج ٥، ص ٨ (العتبي). ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٤.
 (٤) ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩١.
 (٥) الطبري، تاريخ، ج ٦، ص ٢٦٢ (أبو مخنف). ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٧.
 (٦) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٣٧.
 (٧) ابن سعد، الطبقات، ج ٣، ص ٣٠٦ (الواقدي).

له الأسباب التي عن طريقها ضبط الحكم في العراق : " لكني ضبطت ملكي بالحكم عند انبراء القوي الألد، مع توددي الى العامة وأداء حقوقهم وتعقيب بعوثهم، فسلمت لي الصدور عفوا، وانقادت الأجنحة طوعا" (١)، وفي أيام زياد كان الرجل يصيبه البعث كل سنتين اذا كان بعيداً، وكل سنة اذا كان ثغره قريباً، فيذكر ابن عياش أن زياداً قال لأهل الكوفة عندما وليها : " وأي رجل مكتبه (أي ثغره) بعيد فأجله سنتان ثم هو أمير نفسه، وأي رجل مكتبه قريب فأجله سنة ثم هو أمير نفسه" (٢).

وكان زياد كاهن عامر في دعمه لسياسة الفتوح والتوسع، لكنه اختلف عنه في أنه ركز على جبهة خراسان، ففي سنة (٤٧هـ / ٦٦٧م) فتح الحكم بن عمرو الغفاري جبال الغور وفراوند عتوه، وغنم غنائم وسبائا كثيرة، ثم غزا جبل الأشل، وقد لاقى المسلمون صعوبة كبيرة في فتحها كادت أن تهلكهم (٣)، ثم ولي زياد الربيع بن زياد الحارثي ونقل معه خمسين ألف مقاتل مع عيالاتهم وأسكنهم خراسان (٤)، ولا ريب أن تواجد هذا العدد الكبير من المقاتلة العرب في خراسان أدى الى تثبيت الحكم الأموي في تلك المنطقة، كما أنه خلق منها قاعدة للتوسع نحو المشرق، فمنها كانت تجهز الجيوش، وترسل الى فتح بلاد ما وراء النهر (٥)، فيذكر أن الربيع بن زياد قدم خراسان فغزا بلخ، وكان أهلها قد أغلقوها بعدما صالحهم الأحنف بن قيس، فصالحوا الربيع، ثم غزا قهستان ففتحها عنوة (٦).

ومن المناطق التي قامت بدور بارز في حركة الفتوح والتوسع أيام زياد منطقة ثغر الهند - الأبله - التي ولي عليها زياد ابتداء سنان بن سلمة الهذلي، وهو الذي فتح مكران عنوة ومصرها، وأقام بها وضبط بلادها (٧)، ثم استعمل زياد عليها راشد بن عمرو الجديدي، فأتى مكران، ثم غزا القيقان فظفر بها، ثم غزا الميد فقتل، واستعمل زياد على الثغر بعد ذلك المنذر بن الجارود العبدي، فغزا

-
- (١) ابن عساکر، تهذيب، ج ٥، ص ٤٢١ .
 (٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٨ .
 (٣) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٩ (بعض أهل السير)، ٢٥١ (المدائني)، المقدسي، البدء والتاريخ، ج ٦، ص ٤ . ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥٥-٤٥٦ .
 (٤) البلاذري، فتوح، ص ٥٧٧ (قالوا)، الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٦ (المدائني)، قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٤٠٥ . ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥٢، ٤٨٩ .
 (٥) انظر البلاذري، فتوح، ص ٥٧٧ .
 (٦) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٩٧ . الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٨٥ (المدائني)، العسكري، الأوائل، ص ٢٦٩، المقدسي، البدء والتاريخ، ج ٦، ص ٤ . ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٩ . ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٥٧ . ابن خلدون، م ٣، ص ٣٠ . ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ١٣٨ . وقد كان للربيع بن زياد أيضا دور بارز في حركة الفتح، حين كان عاملا لزياد على سجستان . انظر البلاذري، فتوح، ص ٥٥٩ (قالوا) . قدامة ابن جعفر، الخراج، ص ٣٩٥، الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج ١، ص ٥٣ .
 (٧) البلاذري، فتوح، ص ٦٠٩ (علي بن محمد بن عبد الله)، اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٤ . ابن حزم، جوامع السيرة، ص ٣٤٩ .

البوقان والقباقان وفتح قصدار وسبابها وبث السرايا في تلك المنطقة^(١).

وهكذا كان زياد يواجه الجيوش للفتوح، ويختار قوادها من ذوي المكانة بين العشائر والمقدرة العسكرية، فقد اختار الحكم بن عمرو الغفاري، والربيع بن زياد الحارثي، وسنان بن سلمة الهذلي، وأمير بن أحمري، وراشد بن عمرو الجديدي الأزدي وغيرهم من ذوي الكفاءات والخبرة العسكرية. وكان زياد يضرب البعوث "على أهل السجون والسطار وكل من يلوذ به من أهل مصر من داعر وما أشبهه"^(٢)، وهو في ذلك يدعم البعوث بعناصر فتيّة قادرة، كما أنه يتخلص من شغب تلك العناصر ومخالفاتها اليومية في مصر، وكان زياد يوصي قياده فيقول: "تجنبوا اثنين لا تقاتلوا فيهما العدو: الشتاء ويطون الأودية"^(٣)، لأن المسير في الشتاء يتطلب أحمالاً وأثقالاً إضافية من الزاد والخيم والأغطية، مما يضيف عبثاً جديداً على المقاتلة، والقتال في بطون الأودية مغامرة لا يمكن تقدير نتائجها، وكان زياد يقول: "لم يعجبني فتح أتى على غير تقدير"^(٤)، فالتخطيط المسبق إجراء ضروري يتخذه كل قائد ناجح.

ولما كان زياد قد حقق نجاحاً كبيراً في تنظيمه للمقاتلة ورعايته لهم، فقد أخذ عددهم يتزايد وينمو حتى أصبح في البصرة والكوفة وحدهما مائة وأربعون ألف مقاتل، وكان لابد لهذا الزيادة في العدد والارتفاع في المسؤولية والانتساع في الفتوحات، من تطور في تنظيم حياة الجند لتأمين راحتهم ورعاية أسرهم وصيانة ما يفتحون وما ينشئون من المدن، والواقع أن الأمويين اهتموا كثيراً بالتوسع والتطور حتى شمل كل نواحي الحياة في الدولة.

الشرطة والحرس

الشرطة فئة من الرجال يعتمد عليهم الخليفة أو الأمير في تثبيت سلطته في مصر، وضبط الأمن الداخلي، وحفظ النظام وسيادة القانون وصيانة حقوق الرعية^(٥)، وكان عمر بن الخطاب أول من

(١) البلاذري، فتوح، ص ٦٠٩-٦١٠ (ابن الكلبي). اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٤. قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٤١٥.

(٢) ابن حبيب البغدادي، أساء المغتالين من الأشراف، ضمن كتاب (نوادير المخطوطات) المجموعة السادسة، ص ١٦٦. ابن أعثم، الفتوح، م ٢، ص ٣١١.

(٣) ابن عبد ربه، العقد، ج ١، ص ١٣٢، ج ٥، ص ٧. النويري، نهاية الأرب، ج ٦، ص ١٧٠. وانظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠١.

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠١.

(٥) أنظر: لقي، دائرة المعارف الإسلامية، مادة (شرطة)، ج ١٣، ص ١٩٣-١٩٤. حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، ط ٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ٢١٧، وسيشار إليه عند وروده هكذا.

اتخذ عسس الليل، وهي قوة واجبها حفظ الأمن والنظام، يرأسها رجل مهمته النظر في المخالفات والجرائم التي تقع ومعاقبة مرتكبيها، وكان يصدر أحكامه وفقا للعرف^(١). ومعلوماتنا عن النشأة الأولى للشرطة في الأمصار الاسلامية مقتضبة وغامضة، ويظهر أن أول نواة لها في البصرة كانت من السباحة، الذين وكلّ الى أربعائة منهم حراسة بيت المال والسجن منذ أيام أبي موسى الاشعري^(٢)، وتطورت الشرطة بعد ذلك تطورا تدريجياً، ففي عهد علي بن أبي طالب أنشئت قوة شرطة منظمة لحراسة المدينة، وقد لقب رئيسها بصاحب الشرطة^(٣). ويشعر الوضع الأمني أيام زياد أن الشرطة كانت منظمة تنظيميا جيدا، وذلك بفضل ادارته وتوجيهاته، حيث عهد الى أفرادها بتنفيذ أوامره، ونشر الأمن ومطاردة اللصوص والمتمردين وقطاع الطرق والمخالفين، كما تولت الشرطة حفظ الأمن ضد هجمات الخوارج على البصرة^(٤)، وكان من واجباتهم أيضاً مراقبة الأسواق والموازين والمكايل^(٥)، وكانت الشرطة في أول عهدها تتبع القاضي، وتتولى اقامة الحدود، ثم انفصلت عن القضاء وأصبح رئيسها مستقلا ينظر في الجرائم^(٦)، وهكذا فان عمل الشرطة كان محصوراً في المدينة، ولم يُذكر أنهم اشتركوا في حملات عسكرية أو في عملية الفتح الى جانب المقاتلة الذين كان تنظيمهم يختلف عن تنظيم الشرطة، وكان عددهم بالبصرة زمن زياد أربعة آلاف رجل، عليهم عبد الله بن حصن من بني عبيد الله بن ثعلبة صاحب مقبرة ابن حصن، وجعل زياد جعد بن قيس النميري لمراقبة نشاط الفساق والمشبهين في مصر^(٧)، ويظهر من أسماء الشرطة الواردة في المصادر المتوفرة، أن أفرادها كانوا من مختلف القبائل العربية^(٨)، وربما كان بعضهم من الأعاجم أيضاً، وليس لدينا معلومات عن رواتبهم زمن زياد، ومن المتوقع أنهم

(١) انظر : المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٢٢٣. ليفي، دائرة المعارف الاسلامية، مادة (شرطة) ج ١٣، ص ١٩٤.
(٢) البلاذري، فتوح، ص ٥٢٣ (قالوا). ويقال أن عددهم كان أربعون رجلا. (انظر الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٤٦٨ سيف)).
(٣) انظر : الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٥٨ (الزهرى). مولاي. أ. س. حسيني، الادارة العربية، ترجمة ابراهيم أحمد العدوي وعبد العزيز عبد الحق، المطبعة النموذجية، القاهرة، ١٩٥٨ م، ص ١٠٤، ويشير اليه عند وروده هكذا : حسيني، الادارة العربية. حسن ابراهيم، النظم الاسلامية، ص ٢١٧.
(٤) البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ٢٢١ (قالوا).
(٥) حسيني، الادارة العربية، ص ١٠٥.
(٦) حسن ابراهيم، النظم الاسلامية، ص ٢١٧.
(٧) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٧ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٢-٢٢٣. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥١. وانظر الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ٢٥٦. ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣٠٧.
(٨) انظر مثلاً البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٣٨٨ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٧ (أبو مخنف).

كانوا يتقاضون رواتب مقننة ومخصصات منتظمة، مقدارها يزيد نسبياً عن عطاء المقاتلة^(١)، ولعل أول إشارة ترد في هذا الصدد هي في أوائل عهد عبد الملك بن مروان، حيث يُذكر أن صاحب الشرطة أخذ عن عمله مائة ألف درهم^(٢).

ونظراً لأهمية صاحب الشرطة كان زياد يشترط فيمن يختاره لهذا المنصب أن يكون مسناً عَصَ على ناجذه "شديد الصولة قليل الغفلة"^(٣)، والواقع أن اهتمام زياد باختيار صاحب الشرطة لحفظ الأمن كان من أهم العوامل لاطمئنان الناس على حياتهم وحقوقهم وما يملكون.

والمعلومات عن شرطة الكوفة أيام زياد أكثر اقتضاباً وعموضاً، ولعلها كانت مثل شرطة البصرة في تكوينها وتعدادها، أي أنها كانت تتألف من أربعة آلاف رجل من مختلف القبائل العربية بالكوفة، وترد أول إشارة إلى عدد الشرطة في الكوفة سنة (٦٠هـ / ٦٧٩م)، في ولاية عبيد الله بن زياد عند خروج الحسين بن علي من مكة، ويذكر أنها كانت تتألف من أربعة آلاف رجل^(٤)، ولعل هذا العدد كان موجوداً أيام زياد ولم يتغير في زمن ابنه عبيد الله، وكان صاحب شرطة زياد بالكوفة شداد بن الهيثم الهلالي^(٥)، ويستدل من بعض الروايات، أن شرطة الكوفة لعبت دوراً بارزاً في عدد من القضايا التي واجهت هذا المصر، وخاصة في قضية حجر بن عدي، وذلك حين أراد زياد لقاء القبض عليه، من غير إثارة للشغب أو الفتنة^(٦).

وكان زياد يخرج سريه من قصر الامارة إلى مسجد الكوفة، حتى يجتمع الناس حوله^(٧)، وكان مناديه ينادي في طرق الكوفة إذا ما أراد أن يُبلغ أمراً: "الآبرث الذمة من رجل من العرفاء والشرط والحرس لم يحضر المسجد"^(٨)، وهذا يدل على أن زياداً كان يبلغ أوامره إلى العرفاء والشرطة والحرس ليلغوها الناس بعد ذلك. وكان من اعتماد زياد على الشرطة أنه لما عُين والياً على الكوفة، فُكر في أن يكون دخوله إليها تحت حماية ألفين من رجال الشرطة، ولكنه لم يفعل، وذلك لاعتقاده بأن أهل الكوفة أهل حق ولا حاجة للشرطة^(٩)، والواقع أن زياداً أحسن في معاملته لأفراد الشرطة وقدمهم

(١) العلي، التنظيمات، ص ١٦٦.

(٢) البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ١٧٧ (عمر بن شبة).

(٣) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٥. ولزيد من المعلومات أنظر: صالح درادكة، الحرس والشرطة في صدر الإسلام، مجلة دراسات العلوم الانسانية، تصدرها الجامعة الأردنية، م ١٤، العدد الرابع، نيسان ١٩٨٧م، ص ٩٢-٩٣.

(٤) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٤٣.

(٥) خليفة بن الحياط، تاريخ، ج ١، ص ١٩٧ (الوليد بن هشام). البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٤٨ (أبو مخنف). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٧ (أبو مخنف).

(٦) انظر: البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٤٨ (عن أبي مخنف). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٧ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٤.

(٧) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٢٣.

(٨) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٤٠.

على غيرهم في بعض الأمور، فكانوا يحضرون الغداء والعشاء لدى زياد مع الصحابة والمقاتلة^(٢). وما من شك فقد كان للشرطة أيام زياد دور كبير في اشاعة النظام والأمن في مصرى العراق، حتى أن أحداً لم يجرؤ على التقاط أي شيء متروك في الطريق، الى أن يعود صاحبه ويأخذه، وكان باستطاعة النساء النوم بمفردهن في بيوتهن دون أن يغلقن الأبواب، وأعلن زياد أنه يعد نفسه مسؤولاً عن أي شيء يفقده المواطن عن طريق الاختلاس والسرقة^(٣).

أما الحرس، فهم قوة عسكرية مهمتها حراسة الخليفة أو الوالي والسير في موكبه، وحماية دار الخلافة، ويعتبر معاوية بن أبي سفيان أول من اتخذ الحرس^(٤)، حيث لم يتخذ الرسول (ﷺ) أو أي من الخلفاء الراشدين حرساً خاصاً له، ولعل معاوية مهد لظهور هذا الصنف من القوات على أثر محاولة قتله، فكان الحرس يقوم على رأسه إذا سجد^(٥)، ولم تكن محاولة القتل التي تعرض لها معاوية قبل توليه الخلافة هي الدافع الوحيد الذي جعله يتخذ الحرس لحمايته، بل أن اتخاذ الحرس هو أحد مظاهر الحكم والأبهة التي تمتع بها الحكام البيزنطيين في بلاد الشام والتي تأثر بها معاوية^(٦).

وذكرت بعض المصادر أن زياداً أول من اتخذ الحرس وكان عددهم خمسمائة رجل، اتخذهم لحراسته وحراسة دار الامارة وللسير بين يديه بالحرايب والأعمدة^(٧)، والراجح أن زياداً كان أول من اتخذ الحرس من الولاة، وقد قلد معاوية في ذلك كمظهر من مظاهر الأبهة، لذلك قيل أن "أول من أخذ الناس بملك الأعاجم زياد"^(٨).

وكان زياد يؤكد على أن يكون صاحب الحرس "مسنأ عفيفاً مأموناً لا يُطعن عليه"^(٩)، وقد أسند

(١) ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣١٠ (الشعبي). البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٧-١٩٨ (ابن الكلبي). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٣٤-٢٣٥ (مسلمة).

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٤٢ (قالوا).

(٣) انظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٦. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٢ (مسلمة). العسكري، الأوائل، ص ٢٤١ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥٠-٤٥١. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٧.

(٤) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٢. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٣٣٠ (المدائني). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٠٩. ابن الأثير، الكامل، م ٤، ص ١١.

(٥) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٤٩. ابن الطقطقي، الفخري، ص ١٠٦.

(٦) حسن إبراهيم، النظم الإسلامية، ص ٣٦.

(٧) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٢١ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٤. العسكري، الأوائل، ص ٢٤٠. أبو الفدا، ج ١، ص ١٨٥-١٨٦. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٨. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٤٧٣. مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٧-١٤٨.

(٨) ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٥٠٠ (عمرو بن ثابت). السكتواري، محاضرة الأوائل، ص ٥٩.

(٩) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٥.

قيادة حرسه الى شيبان بن عبد الله صاحب مقبرة شيبان من بني سعد^(١). ولا نعرف شيئاً عن القبائل التي ينتمي إليها أفراد هذا الحرس أو تنظيمهم، وما يتقاضون من رواتب، ولعل عناصر هذه القوة كانت تتألف من بعض رجالات القبائل العربية المؤيدة والمساندة للوالي، وخاصة أولئك الذين لم يكن لهم نصيب في العطاء، ولما كانت وظيفة الحرس تقتصر على حماية الأمير وحراسته، وتنفيذ أوامره والسير في مواكبه، وكذلك حراسة قصر الامارة، فهم اذاً لم يكونوا شرطة بالمعنى الدقيق^(٢).

الدواوين

تُحطّ الادارة العربية في العهد الأموي خطوات سريعة، وذلك بفضل امتداد الدولة الاسلامية، وإطلاع المسلمين على معطيات الحضارات القديمة الأخرى ونقل أفكارهم، بالإضافة الى ما اكتسبوه وطوروه، فابتكروا وأبدعوا في هذا المجال، ولقد أدى اتساع الدولة وصعوبة ادارتها بديوان مركزي واحد الى وجود دواوين مستقلة في كل مصر، فكان في مصرى والعراق (البصرة والكوفة) إبان ولاية زياد عدد من الدواوين، منها ما كان قديماً طوّر فيه زياد، ومنها ما استحدث في عهده. ويظهر أن خبرة زياد الأولى في عمل الدواوين سارت على خط ينسجم وطموحه فيما بعد، فلما أصبح والياً على البصرة أحسن ادارة الدواوين وتنظيمها، وكانت أهم الدواوين في الأمصار الاسلامية حينئذ: ديوان الجند، وديوان الخراج، وديوان الرسائل، وديوان البريد، وديوان الزمام. أما ديوان الجند، فهو الديوان نفسه الذي أسسه عمر بن الخطاب لتسجيل أسماء الجند وتحديد العطاء لجميع المسلمين وخاصة الجند منهم^(٣)، وقد أصبح لكل مصر من الأمصار الاسلامية ديوان للجند، ففي العراق كان هناك ديوان للجند في كل من الكوفة والبصرة^(٤)، وكان الانضمام الى الديوان اختيارياً من حيث المبدأ، فلم تفرض الدولة على الفرد الانضمام الى الديوان الا وقت الضرورة، وفي العهد الأموي كان التسجيل في الديوان يلزم المقاتلة بالخروج^(٥). وعمل زياد على تنظيم هذا الديوان، فصارت أوصاف الرجل الجسانية تدوّن كاملة الى جانب اسمه في الديوان^(٦)، وقد مكّن نقل خمسين ألف من مقاتلة البصرة والكوفة الى خراسان سنة (٥١هـ / ٦٧١م)^(٧) واستئناف الفتوحات في هذا الأقليم، مكّن زياداً من اضافة أعداد جديدة وكبيرة الى ديوان الجند في المصريين، يؤكد ذلك زيادة عدد المقاتلة في العراق.

ويعتبر ديوان الخراج من أهم الدواوين جميعاً ويتولى تنظيم الخراج وجبايته والنظر في مشكلاته

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٢١ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٤.

(٢) انظر العلي، التنظيمات، ص ١١٣.

(٣) البلاذري، فتوح، ص ٦٣٠ (الواقدي). اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٥٣. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٢٠٩ (الواقدي). حسيني، الادارة العربية، ص ١٦٦-١٦٧.

(٤) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٥٠٤ (عمر بن شبة). الجهنياري، الوزراء، ص ٣٨.

(٥) اللبثوري، الأخبار، ص ٢٧٢. الطبري، تاريخ، ج ٦، ص ٢٣١ (أبو مخنف). ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ٤، ص ٢٣٧.

(٦) انظر الماوردي، الاحكام، ص ٢٠٣. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ١١٩.

(٧) البلاذري، فتوح، ص ٥٧٧ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٦. قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٤٠٥.

وهو عماد المالية . وديوان الخراج في البدء كان من الدواوين المحلية التي وجدت في بعض الأمصار التي فتحها المسلمون^(١)، وتظهر أهميته الأولى من أنه صار يطلق عليه اسم الديوان^(٢)، وهو الذي عرف منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب، يذكر الجهشيارى " لم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان أحدهما بالعربية لأحصاء الناس وأعطياتهم، وهذا الذي كان عمر بن الخطاب قد رسمه والآخر لوجوه الأموال بالفارسية "^(٣).

وكان في زمن الأمويين ديوان مركزي للخراج في مركز الخلافة بدمشق، ثم دواوين متفرعة عن هذا الديوان في كل أقاليم الدولة الإسلامية، وكان ديوان خراج العراق من أهم وأبرز دواوين الخراج في الدولة لما كان يدره سواد العراق من أموال خراجية اعتمدت عليها الخلافة الأموية في توطيد نفوذها وسلطانها، وقد اهتم ولاية العراق بهذا الديوان اهتماماً كبيراً، ونظموه تنظيمًا دقيقاً، حيث أعدت فيه إيصالات الصرف والاستلام التي كانت تحفظ في سجلات خاصة بها، ولما كان ديوان العراق في ولاية زياد يكتب باللغة الفارسية، لذلك فقد أكد على استخدام كتاب هذا الديوان من رؤساء الأعاجم العاملين بأمور الخراج^(٤)، وهذا يشعر باهتمام زياد بخبرة ودراية موظفيه في مجال عملهم، إذ لم تتوفر بعد خبرات عربية في كل مجالات الدولة، كما أنه كان من اليسير محاسبة ومعاينة الأعاجم إذا ارتشوا أو أساءوا الاستغلال دون أن يخشى تدخل عشائريهم أو حقدهم على السلطان^(٥)، وكان كاتب زياد على الخراج زادن فروخ من الأعاجم^(٦).

أما ديوان الخاتم، فكان من مهامه تسجيل ما يصدر عن الخليفة من أوامر أو رسائل، ثم يختتم قبل أن يرسل إلى الولايات والأمصار والأقاليم، وكانت الرسائل قبل انشاء هذا الديوان تصدر غير مختومة بتوقيعات الخليفة^(٧)، روى الطبري أن معاوية كان أول من اتخذ ديوان الخاتم لضبط المعاملات المالية وصيانة الوثائق الهامة، وكان السبب الذي دعاه إلى إيجاد هذا الديوان، أنه أحال عمرو بن الزبير على زياد بمائة ألف درهم، فمضى عمرو وقرأ الكتاب ولم يكن مختوما فجعل المائة مائتين، فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر هذا العدد، فاكتشف معاوية عند ذلك تزوير عمرو وأمر بحبسه، ولهذا السبب اتخذ معاوية ديوان الخاتم وقلده عبد الله بن محمد الحميري وكان قاضيا^(٨)، فصارت الكتب بعد ذلك تصدر عن الخليفة مختومة لا يدري أحد ما فيها، ولا يتمكن

(١) الجهشيارى، الوزراء، ص ٢٤. الدوري، النظم الإسلامية، ص ١٩٥.

(٢) الجهشيارى، الوزراء، ص ٣٢. الدوري، النظم الإسلامية، ص ١٩٥.

(٣) الجهشيارى، الوزراء، ص ٣٨.

(٤) البقوي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٤. البيهقي، الاعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٨٩.

(٥) انظر ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج ١، ص ٢٥٥ (عوكل).

(٦) خليفة بن خياط، ج ١، ص ١٩٧ (الوليد بن هشام). الجهشيارى، الوزراء، ص ٢٦.

(٧) انظر ابن الطقطقي، الفخري، ص ١٠٧.

(٨) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٣٣٠. الجهشيارى، الوزراء، ص ٢٤-٢٥. الصولي، محمد بن يحيى (ت ٣٣٦هـ/

٩٤٧م) أدب الكتاب، تحقيق محمد بهجة الأثري، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤١هـ، ص ١٤٣ (القحذمي)، وسيشار

اليه عند وروده هكذا : الصولي، أدب الكتاب. العسكري، الأوائل، ص ٨٠-٨١ (الميثم بن عدي). الثعالبي، لطائف

المعارف، ص ١٦. ابن الأثير، الكامل، م ٤، ص ١١. ابن الطقطقي، الفخري، ص ١٩٧.

أحد من تبديلها أو تزويرها^(١)، فكان الغرض الاساسي من هذا الديوان الاحتفاظ بأسرار المكاتبات الصادرة عن مقر الخلافة الى الجهات المختلفة وعدم التلاعب في تلك المكاتبات .
ويروى البلاذري أن زياداً " أول من أحدث ديوان خاتم وديوان زمام " ^(٢)، وربما كانت فكرة تدوين هذا الديوان تعود لزياد ولكنها نسبت الى معاوية لتتام هذا الأمر في خلافته، ومن المؤكد أن زياداً عمل على إيجاد هذا الديوان في العراق ما دام الأمر قد وقع له مع معاوية، ومهما يكن فإن إحداث هذا الديوان كان خطوة هامة في تنظيم شؤون الدولة، ليس في العاصمة فحسب بل سائر الأمصار الإسلامية .

ولم يقتصر حفظ النسخ الادارية وختم الأوامر قبل اصدارها على الحكومة المركزية وحدها، وإنما اتبع الولاة الطريقة نفسها، واعتاد زياد أن يحفظ نسخاً من جميع أوامره، عن المدائني أن زياداً " أول من اتخذ من العرب ديوان زمام وخاتم امثالاً لما كانت الفرس تفعل " ^(٣)، وعمل ديوان الزمام أنه يخزن فيه نسخ من الوثائق المهمة بعد أن توقع من قبل صاحب التوقيع، ويتم التأكد من صحتها بمقابلتها مع الأصل، ثم تختم وتحفظ في الديوان^(٤)، وكان صاحب ديوان الزمام يعّد تذكرة تتضمن ما جُني من الخراج، وما أنفق في وجوه النفقات فيعرضها على الأمير، فتختم التذكرة في حضرة الأمير أو أوثق الناس عنده^(٥).

وكان ديوان الرسائل أيضاً من الدواوين الهامة في العراق، وتعود فكرة هذا الديوان الى زمن الرسول (ﷺ)، حيث كان يستعين في أمور دولته بكتاب يكتبون له الرسائل والكتب الى الملوك والحكام يدعوهم الى الاسلام^(٦)، وحذا الخلفاء الراشدون حذو الرسول (ﷺ)، فكانوا يتخذون من بعض الصحابة كتاباً لتدوين الكتب والرسائل . واستمر الحال كذلك الى أن اتخذ الأمويون ديواناً خاصاً بالرسائل يخدم الادارة المركزية والادارات المحلية، ومهمته تحرير رسائل الخليفة ومراسلاته في الداخل، ومكاتباته مع الولاة والعمال في سائر أقاليم الدولة^(٧).

وكان في كل ولاية ديوان للرسائل خاص بالوالي، وقد أكد زياد على استخدام الكتاب ممن يجيدون اللغة العربية حتى تصلح بهم الدواوين ولا تفسد^(٨)، وكان يكتب لزياد على الرسائل في البصرة عبد

(١) ابن الطقطقي، الفخري، ص ١٠٧ .

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠٢ (قالوا). فتوح، ص ٦٥٠ (المدائني). المرزباني، نور القبس، ص ٣٩ (مسلمة).

(٣) البلاذري، فتوح، ص ٦٤٩-٦٥٠. المرزباني، نور القبس، ص ٣٩ (مسلمة).

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٦٤٩ (المدائني). قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٥٥.

(٥) البلاذري، فتوح، ص ٦٤٩ (المدائني). قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٥٥.

(٦) انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ١٢٥، عبد العزيز الدوري، النظم الإسلامية، ط ١، مطبعة نجيب، بغداد، ١٩٥٠م، ج ١، ص ١٩٥، وسيفار اليه عند ورود هكذا : الدوري، النظم الإسلامية.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ١٢٧. الدوري، النظم الإسلامية، ج ١، ص ١٩٥. حسيني، الادارة العربية، ص ١٦٨.

(٨) انظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠٢. الجهشيري، الوزراء، ص ٢٥.

الله بن أبي بكرة وجبير بن حية ومرداس^(١).

هذه أهم دواوين العراق في عهد زياد، وهناك دواوين أخرى صغيرة أقل أهمية من تلك التي ذكرناها، وهي بمثابة دوائر أو مؤسسات إدارية ومالية^(٢)، ويمكن القول أنه كان لزياد الدور الأول في تنظيم دواوين البصرة منذ البداية، كما كان له دور في تنظيم دواوين البصرة والكوفة عندما ولي هذين المصرين معا (٥٠-٥٣هـ / ٦٧٠-٦٧٣م) أيام معاوية بن أبي سفيان، وما ذكره اليعقوبي من أن زيادا "أول من دَوَّن الدواوين ووضح النسخ للكتب وأفرد كتاب الرسائل من العرب والموالي المتفحصين"^(٣)، هذا النص يشعر أن زيادا كان أول من دَوَّن الدواوين، ولكن الشائب أن عمر بن الخطاب هو أول من دَوَّن الدواوين^(٤)، وما قول اليعقوبي هذا إلا دلالة على أن زيادا أعاد النظر فيها ووضع أسسا جديدة لتنظيمها، كما أوجد ديوانا جديدا هو ديوان الخاتم، مقلدا في ذلك أميره معاوية الذي هو أول من أوجد هذا الديوان.

(١) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٩٧ (الوليد بن هشام). الجهشياري، الوزراء، ص ٢٦.

(٢) انظر الدوري، النظم الإسلامية، ج ١، ص ١٩٦-١٩٧.

(٣) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٤. ابن أبي الدم، التاريخ الإسلامي، ج ١، ص ١٩٥. السياسي، الاعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٨٩.

(٤) انظر الماوردي، الأحكام، ص ١٩٩.

الفصل الرابع التنظيمات المالية والاقتصادية والعمرانية

التنظيمات المالية

* العطاء والرزق .

* موارد بيت المال .

التنظيمات الاقتصادية

* سياسة زياد تجاه الأراضي .

* التجارة والأسواق .

التنظيمات العمرانية

* المساجد .

* دور الامارة .

التنظيمات المالية

العطاء والرزق

العطاء عبارة عن مبلغ سنوي معين من المال، كانت الدولة الإسلامية تقوم بصرفه للمسلمين لسد حاجات معاشهم، ولما كان العطاء يعتمد على موارد الدولة، فقد تطور من حيث المقدار والتنظيم بازدياد ونمو هذه الموارد، وقد ميّز الخليفة عمر بن الخطاب بين الناس في العطاء حين وضع الديوان على أسس عدة منها: قرب النسب من الرسول (ﷺ)^(١)، والسابقة في الاسلام، ثم مقدار حاجة الفرد. وقد خص عمر المقاتلة الأولى بأفضلية في العطاء، كما راعى بقية الناس فيه بصرف النظر عن أصلهم أو مكانتهم، ولهذا كان عطاء الناس يختلف حسب سابقته في الاسلام، فالذين شهدوا بدرًا كان عطاؤهم أكثر ممن أسلموا بعدها، وهؤلاء يأخذون عطاء أكثر ممن أسلموا بعد الحديبية^(٢) وهكذا، فقد أعطي لكل من شهد بدرًا من الانصار والمهاجرين خمسة آلاف درهم وللذين لم يشهدوها منهم أربعة آلاف درهم^(٣)، وفرض لأزواج النبي (ﷺ)، اثني عشر ألف وعشرة آلاف^(٤).

أما في العراق فقد أتبع أسس أخرى في تنظيم العطاء، حيث فرض عمر لمن ولي الأيام قبل القادسية ثلاثة آلاف، وفرض لأهل القادسية وأهل الشام ألفين، وجعل لأهل البلاء منهم ألفين وخمسمائة، ولمن بعد القادسية واليرموك ألفاً، ثم فرض للروادف المثني خمسمائة، وللروادف الثلاث بعدهم ثلثمائة، وفرض للروادف الربيع مائتين وخمسين، وفرض لمن بعدهم وهم أهل هجر والعباد على مائتين، وجعل نساء أهل القادسية على مائتين، وجعل الصبيان سواء على مائة^(٥). وكان العطاء في عهد عمر يدفع في محرم مع بداية السنة الهجرية، حيث كتب عمر الى سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان أن يدفعوا الأعطيات في محرم من كل سنة^(٦)، وفي عهد عثمان بن عفان يذكر الشعبي أن الخليفة زاد الناس في أعطياتهم مائة^(٧).

(١) البلاذري، فتوح، ص ٦٢٩-٦٣٠، ٦٤١ (الشعبي). اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٥٣. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٦١٣.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص ٤٦ (أبو معشر). البلاذري، فتوح، ص ٦٣٢ (الواقدي). الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٦١٤.

(٣) أبو يوسف، الخراج، ص ٤٦ (أبو معشر). البلاذري، فتوح، ص ٦٣٢ (الواقدي). الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٦١٤. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٠١.

(٤) أبو يوسف، الخراج، ص ٤٨ (الشعبي). أبو عبيد، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ / ٨٣٨م)، الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٣٠٧ (سعيد بن السيب)، وبيشار اليه عند وروده هكذا: أبو عبيد، الأموال.

البلاذري، فتوح، ص ٦٣٠ (الشعبي). اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٥٣.

(٥) الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٦١٤-٦١٥.

(٦) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٣ (سيف).

(٧) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٤٥.

ومن المتوقع أن نظام العطاء هذا كان متبعاً في كل الولايات الإسلامية ومنها العراق، ولهذا فإن القواعد التي ذكرناها آنفاً استمرت إلى زمن زياد، ويبدو أن طبقة أهل الأيام اختفت أو كادت في عهد زياد، إذ لم ترد معلومات عنهم في هذه الفترة، بينما يشار إلى أن معاوية ألغى علاوة أهل البلاء البارع في القادسية، يشعر بذلك ما ذكره السجستاني "كانت أعطيات الناس ألفين وخمسمائة، فكتب معاوية إلى زياد أن ينقص الخمسمائة" (١)، ففعل، ولم يستثن من ذلك إلا لبس بن ربيعة العامري الشاعر الكوفي، حيث دفع له ألفين وخمسمائة درهم ولمرة واحدة فقط لأن لبساً توفي بعد ذلك بقليل (٢). ولعل معاوية أنقص شرف العطاء، وجعله ألفين درهم لارتفاع سعر الفضة وازدياد قيمة الدرهم بالنسبة للدينار، فقرر تخفيض شرف العطاء في البلاد التي تتعامل بالدرهم حتى يوازي مقداره في البلاد التي تتعامل بالدينار. (٣).

والواقع أن واردات العراق تناقصت منذ أن قتل عثمان نتيجة لاضطراب الأحوال وتوقف الفتوحات، وامتناع بعض المقاطعات عن دفع الخراج (٤)، مما أدى إلى تناقص دخل البصرة خاصة، وقد ضعفت قدرة بيت المال أيضاً لكثرة الروادف الوافدة، فأدى هذا إلى بروز مجموعتين متميزتين في الرعية: أحدهما تتمتع بالعطاء والأخرى محرومة منه، وكان هذا الوضع ينذر بحدوث تنافس وشقاق بين هاتين المجموعتين، مما قد يهدد وحدة العشيرة والأمن في مصر، وكان على زياد حل هذه المشكلة التي اعترضت سبيله، لذا فقد قام بإجراءات عديدة لحلها، وذلك أن عمل على تدقيق سجلات أهل العطاء، وحذف أسماء الموتى (٥)، ونقل خمسين ألفاً من مقاتلة المصريين إلى خراسان ولا بد أنه كان بين هؤلاء المنقولين عدد كبير ممن كانوا يأخذون العطاء، وربما نُقلت بعض العشائر جميعها أو قسم منها، وبذلك أفسحت مجالاً ليحل محلها جماعات أخرى لم تكن تأخذ العطاء (٦)، وقد كان لهذا تأثير كبير في تنظيم العطاء والتنظيم المالي.

ومن الإجراءات التي اتخذها زياد لحل مشكلة العطاء أيضاً، إعادة تنظيم المدينة المالي على نسق تنظيمها الاجتماعي القائم على النظام العشائري، وذلك بأن جعل لكل عشيرة وحدة مالية مستقلة بذاتها، وأقام عليها عريفاً مسؤولاً عن تسليم العطاء وتوزيعه على أفراد العشيرة (٧). ويبدو أن زياداً حاول حل هذه المشكلة بتوزيع عبء الروادف على عشائرتهم، قال الشعبي: "كانت حُطمة زياد

(١) السجستاني، سهل بن محمد (ت ٢٥٠هـ / ٨٦٤م)، المعمرين والوصايا، تحقيق عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٧٦ (قالوا)، ويشير إليه عند وروده هكذا: السجستاني، المعمرين والوصايا. ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج ٣، ص ٣٢٦.

(٢) ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج ٣، ص ٣٢٦. وانظر ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ١٦٨.

(٣) العلي، التنظيمات، ص ١٥٢.

(٤) انظر مثلاً: الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٣٧.

(٥) العلي، التنظيمات، ص ٤٩.

(٦) المرجع نفسه، ص ٤٩.

(٧) المرجع نفسه، ص ٤٩.

فقال للعرب : ان عشائركم قد وردت علينا ، فاختاروا أن نأخذ نصف أعطياتكم وأرزاقكم فنقتوهم بها مع ما لهم عندنا ، أو تكفينا كل عشيرة من فيها ، فمنهم من ضم عشيرته ، ومنهم من طابت نفسه بنصف عطاءه ورزقه وأرزاق عياله ^(١) ، يفهم من هذا النص أن المقدار الكلي للعرفاة الواحدة (العشيرة) ظل ثابتاً رغم زيادة عدد أفرادها ، وإن استيعاب أعداد جديدة من أفراد العشيرة لأبد وأن يقابله نقصان في مقادير عطاء أفرادها ، على أن زياداً حلّ بهذا الاجراء مشكلة العشائر الوافدة على البصرة ، وتمكن من فرض العطاء لعشرين ألف مقاتل من أهل الكوفة ^(٢) ، وأربعين ألف مقاتل من أهل البصرة ^(٣) .

ويبدو أن زياداً لم يكن يلحق جميع عيالات المقاتلة في العطاء ، يدل على ذلك أن عدد مقاتلة البصرة أيام زياد كان ثمانين ألفاً ، وعيالاتهم مائة وعشرين ألفاً ، وعدد مقاتلة الكوفة في الفترة نفسها كان ستين ألفاً وعيالاتهم ثمانين ألفاً ، ^(٤) اذ يتوقع أن يكون لهؤلاء المقاتلة ذراري من هذه الأعداد ، وبناء على ذلك فانه يحتمل أن يكون زياد قد فرض لواحد أو اثنين من أبناء المقاتل فقط ، وكان مقدار عطاء الذرية في البصرة أيام زياد ستة عشر ألف درهم في السنة ، ^(٥) يوزع عليهم في ذي الحجة ^(٦) .

كان صرف العطاء في مواعده من أبرز معالم سياسة زياد المعلنة ، فقد وعد أهل البصرة في خطبته البتراء بدفع العطاء في موعد ثابت فقال : " ولا حابساً عطاء ولا رزقا عن آبائه " ^(٧) . وحين وليّ الكوفة وعد أهلها بمثل ما وعد به أهل البصرة ، حيث قال لهم : " لن أحبس لكم عطاء ، ولا أحرمكم رزقا " ^(٨) ، وذكر عبد الملك بن عمير أن زياداً كتب في صدر مجلسه " الأعطية لإبائنا ، والأرزاق لأوقاتها " ^(٩) ويبدو أن زياداً قد تنبه - بحكم خبرته الطويلة بديوان البصرة - الى مشكلة دفع العطاء التي واجهت المغيرة بن شعبة من قبل ^(١٠) ، فحاول تجاوزها وذلك عن طريق دفع العطاء

(١) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٣٧ .

(٢) انظر البلاذري ، فتوح ، ص ٤٨٨ (القحذمي) . ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٥ ، ص ٨ (العتبي) . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٣٤ .

(٣) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٢٠ (المدائني) . ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٥ ، ص ٨ (العتبي) .
(٤) البلاذري ، فتوح ، ص ٤٨٨ (القحذمي) . ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٥ ، ص ٨ (العتبي) . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٣٤ (القحذمي) .

(٥) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢١٨-٢١٩ (المدائني) . ابن أعثم ، الفتوح ، م ٢ ، ص ٣٠٨ .

(٦) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢١٩ (الحسن البصري) .

(٧) الجاحظ ، البيان ، ج ٢ ، ص ٦٤ . الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٢٠ (المدائني) . ابن عبد ربه ، ج ٤ ، ص ١١٢ (أبو بكر الهذلي) .

(٨) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٩٨ (الحسين بن علي العجلي) .

(٩) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، م ٢ ، ص ٢١١ . ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٥ ، ص ٧ (العتبي) . ابن عبد البر ، هجرة المجالس ، م ١ ، ق ١ ، ص ٣٣٤ .

(١٠) انظر البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٤٤ (قالوا) . الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٥٤-٢٥٥ (أبو مخنف) . ابن الأثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٧٣ .

على قسطين، فيذكر الحسن البصري أن زيادا "كان اذا جاء شعبان أخرج أعطية المقاتلة فملأوا بيوتهم من كل حلو وحامض واستقبلوا رمضان بذلك، واذا كان ذو الحجة أخرج أعطية الذرية"^(١)، وهكذا أوجد زياد نظاما لتوزيع العطاء ولم يتقيد بنظام عمر بن الخطاب، الذي دعا الى توزيعه في المحرم، وذلك أن شهر محرم في ولاية زياد كان يصادف الأشهر (٣، ٢، ١)^(٢) أي قبل موسم الجباية في العراق، لذلك غير موعد توزيع العطاء ليتلاءم وموسم الجباية، فصار يدفع عطاء المقاتلة الذي يؤلف القسم الأعظم من الأموال التي تصرف في العطاء، في شهر شعبان الذي كان يصادف في ولايته الأشهر (١٠، ٩، ٨، ٧)، أي بعد جباية خراج الحبوب والكروم في العراق، ويدفع عطاء الذرية، وهو أقل مقدارا من عطاء المقاتلة في ذي الحجة^(٣)، الذي يصادف الأشهر (٢، ١، ١٢، ١١)^(٤)، أي في موعد جباية خراج الثمر التي تعتبر من المحاصيل الرئيسة في العراق^(٥).

هكذا استطاع زياد تنظيم العطاء في ولايته وتوزيعه في مواعيد ثابتة دون تأخير، وذلك بمراعاة موعد جباية الخراج والجزية، وتبرز أهمية هذا التنظيم في ربط زياد بين دفع العطاء في شهر معلوم وبيع البائعين الى شهر معلوم، قال زياد لمعقل بن يسار معبرا عن ارضيائه تجاه هذه السياسة: "ألمست تعلم أن الاسواق قائمة، وأن السبل آمنة، وأن الأعطيات تخرج الى شهر معلوم، وبيع البائع الى شهر معلوم؟ قال: بلى، قال: فله الحمد لا يزال الناس بخير ما كان أمرهم هكذا"^(٦)، واذا كان توزيع العطاء في موعده زمن زياد قد ساهم في تنشيط الحركة التجارية، وتحسين الأحوال الاقتصادية فان تأخير العطاء في العهود اللاحقة أدى الى حدوث مشاكل بين التجار وبين المدينين من أصحاب العطاء، وذلك أن دفع العطاء في موعده لم يكن دائما أمرا ميسورا^(٧).

وكان زياد يدعو أهل العطاء الى التوفيق بين مقدار عطائهم ومتطلبات حياتهم من غير مغالاة في العيش، فكان يقول: "ما بال أحدكم يأخذ عطاءه ومؤنته خفيفة ثم يدان؟ تعهدوا معايشكم وأصلحوا ما تحتاجون اليه من أموركم"^(٨). وقد أثنى أهل العراق على زياد لوفائه بوعده في دفع العطاء في موعده المحدد، فيذكر جرير بن حازم البصري أن زيادا قضى على الفساد الذي كان

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٩.

(٢) زامباور، معجم الأنساب، ص ٥٢٣.

(٣) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٩.

(٤) زامباور، معجم الأنساب، ص ٥٢٣.

(٥) لمزيد من المعلومات أنظر هاني حسين أحمد، العطاء في صدر الاسلام، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٨٥م، ص ١٥٠-١٥٢. جمال جودة، العرب والارض، ص ٢٢٦-٢٢٧.

(٦) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٩ (الحسن البصري).

(٧) العلي، التنظيمات، ص ١٥٨.

(٨) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠٩ (مسلمة).

سائداً في البصرة قبيل ولايته " وأدر العطاء " (١)، وأثنى المدائني على زياد بقوله : " وساس الناس سياسة لم يُر مثله... وأدر العطاء وبنى مدينة الرزق " (٢)، وقال سبرة بن نخف : " ما بلغ الناس عاشوراء قط في أيام زياد إلا وطائفة يأخذون العطاء، ولا رأينا الهلال إلا مضينا الى دار الرزق فأخذنا الأرزاق لعيالاتنا " (٣).

وقد بلغ وارد البصرة أيام زياد ستين مليون درهم، يدفع منها ستة وثلاثين مليون عطاءا للمقاتلة، وستة عشر مليون للذرية (٤)، أما الكوفة فقد بلغ واردها في الفترة نفسها أربعين مليون درهم، يُدفع منها ستة وثلاثين مليون درهم في عطاء المقاتلة والذرية. (٥) وقد لاقى زياد احتجاجا من قبل أهل البصرة عندما أراد إرسال الأموال الى بيت المال المركزي قبل دفع عطاء المقاتلة وسد نفقات المصر، مما اضطره الى دفع العطاء وسد النفقات أولا ثم ارسال ما تبقى الى الشام (٦).

وسار زياد على سياسة معاوية في وقف العطاء عن الخارجين عن سلطة الدولة (٧)، والمقاتلة الذين يتفacsون في القتال وعند قمع الثائرين، فقال لأهل البصرة عندما خرج قريب وزحاف الخارجيان بها : " يا أهل البصرة والله لتكفني هؤلاء أو لأبدأن بكم، والله لئن أفلت منهم رجل لا تأخذون العام من عطائكم درهما " فثار الناس بهم وقتلوه (٨).

أما عن طريقة توزيع العطاء، فكان يُدفع الى العرفاء والنقباء والأمناء، فيدفعه هؤلاء الى أهله في دورهم (٩)، وتبين رواية سيف الفريدة لدى الطبري أن كل عرافة كان يخصها مائة ألف درهم، وأن عدد العرافات متباين (١٠)، والواقع أنه لا توجد نصوص واضحة عما كان مخصصاً لكل عرافة بعد تنفيذ تنظيمات زياد (١١)، وربما كانت الدولة تلجأ الى انقاص ما يصيب كل عرافة في حالة انخفاض وارداتها وعجزها عن سد تكاليف العطاء كاملة، ويبدو أن الدولة كانت في مثل هذه الحالة تفضل بعض العشائر على غيرها، يستدل على ذلك من نقل زياد لديوان حارثة بن بدر الغداني الى ديوان قریش لكي يحصل على الامتيازات التي تتمتع بها قریش (١٢).

وتشعر الفترة التي أعقبت ولاية زياد على العراق، وما صاحبها من زيادة طفيفة في أعداد المقاتلة

-
- (١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٦.
 - (٢) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٢. العسكري، الأوائل، ص ٢٤١. ابن الأثير، الكامل م ٣، ص ٤٥١.
 - (٣) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٩.
 - (٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٩-٢١٨ (المدائني). ابن أعثم، الفتوح، م ٢، ص ٣٠٨.
 - (٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٩ (المدائني).
 - (٦) الأصفهاني، الأغاني، م ٢٢، ص ٣٧٢ (العتبي). العلي، التنظيمات، ص ١٧١.
 - (٧) انظر الصولي، أدب الكتاب، ص ٢٢٤.
 - (٨) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٣٨ (أبو عبيدة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٦٣.
 - (٩) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٤٩ (عطية بن الحارث). العلي، التنظيمات، ص ٤٨.
 - (١٠) انظر الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٤٩. المقرئ، خطط، ج ١، ص ٩٣.
 - (١١) يقدر الدكتور صالح العلي ما خصص لكل عرافة في تنظيمات زياد بنصف مليون درهم. (انظر التنظيمات، ص ١٦٤).
 - (١٢) ابن دريد، الاشتقاق، ص ٢٢٩. الاصفهاني، الأغاني، م ٢٣، ص ٤٤٧ (أبو اليقظان).

بعدم اقبال كثير من العرب للانضمام الى الديوان ، ولعل هذا يعود الى تناقص أهمية الديوان من الناحية الاقتصادية ، حيث لم يعد مقدار العطاء مغنيا كما كان في العهد الراشدي ، اضافة الى تحديد الدولة لعدد الذراري الذين يفرض لهم في الديوان ، مما جعل العرب يتجهون الى مزاولة المهن التجارية كمورد اقتصادي .

لقد أضاف الخلفاء الى العطاء الذي كان يُعطى للمقاتلة مقدارا معينا من المواد العينية توزع عليهم في كل شهر ، وقد قرر عمر بن الخطاب أن يعطي لكل فرد من المقاتلة جريبين من الحنطة شهرياً رزقاً له^(١) ، وقد قدر ذلك على أساس مقدار حاجة الفرد ، ولم تكن كمية الرزق هذه ثابتة في كل الأوقات ، بل كانت تتغير تبعاً للأحوال السياسية والظروف الاقتصادية .

وقد عني زياد بتنظيم الأرزاق عناية كبيرة ، فأنشأ دار الرزق في البصرة^(٢) ، لحفظ وتخزين الحبوب والمواد العينية حتى يحين موعد توزيعها على الناس ، وكانت دار الرزق واسعة ، لذلك عرفت أحياناً باسم (مدينة الرزق) أو (قرية الرزق) ، وسعتها ضرورية لاستيعاب ما يودع فيها من مواد^(٣) ، وتقع دار الرزق في الطرف الشمالي الشرقي من مدينة البصرة ، وكان عامل زياد عليها عبد الله بن الحارث ابن نوفل ، ثم رواد بن أبي بكر^(٤) .

كان مقدار ما يأخذه الفرد من الرزق في ولاية زياد ثابتاً كما كان أيام الخلفاء الراشدين يدل على ذلك أن رزق العيل في أيام زياد كان جريبين حنطة في الشهر^(٥) ، ويؤيد هذا أيضاً قول عمران بن حطان الخارجي ، يصف أهل البصرة حين سمع بعضهم يقول : ما لنا وللخروج وأرزاقنا دارة وأعطينا جارية :

فلو بعثت بعض اليهود عليهم
تؤمهم أو بعض من قد تنصراً
لقالوا : رضينا إن أقمنا عطاءنا
وأجريت ما قد شئ من بُر كسكرا^(٦)

ووزعت أحياناً إضافة للحنطة مواد أخرى مما كان يؤخذ من أهل الجزية على سبيل التسهيل عليهم في الدفع ، فيذكر سيرة بن نخف البصري أن زياداً كان " يأخذ الجزية ممن عجز عن الدراهم

(١) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٤٧ . البلاذري ، فتوح ، ص ٦٤٥ (حارثة بن المضرب) . الطبري ، تاريخ ، ج ٣ ، ص ٦١٥ . ابن الأثير ، الكامل ، م ٢ ، ص ٥٠٤ . الجريب يساوي (٣٦٠٠) ذراع مربع ويقصد به ما ينبت في تلك المساحة (انظر جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، ٥ ج ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ج ١ ، ص ١٧٢ ، وسيسار اليه عند وروده هكذا : زيدان ، التمدن الاسلامي) .

(٢) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢١٤ (المدائني) . ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص ١٩١ . الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٢٢ (المدائني) . العسكري ، الأوائل ٢٤١ (المدائني) . ابن الأثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٥١ .

(٣) العلي ، خطط البصرة ، ص ٩٦ .

(٤) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢١٤ (المدائني) .

(٥) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٣٧ (الشعبي) .

(٦) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٦١ .

عروضها ، فكانت خزانتنا مملوءة من ذلك " (١).

وكان الناس يأتون بأنفسهم لأخذ أرزاقهم وأرزاق عيالهم من دار الرزق ، قال سيرة : كنا اذا رأينا الهلال أيام زياد مضيينا الى دار الرزق فأخذنا الأرزاق لعيالاتنا " (٢) ، وكان بعض المقاتلة يكلفون خدمهم أحياناً باستلام أرزاقهم ، ذكر المدائني أن الناس شكوا الى زياد نقصان المكاييل التي يوزعون بها ، فبعث زياد من يراقب الخدم الذين يستلمون أرزاق مخدوميهم ، فوجدهم يشترون من أرزاقهم بعض الطير أو الجلود واللعب لأنفسهم فخطب زياد في الناس وأنبأهم بما يعمل خدمهم ، وأمرهم باستلام أرزاقهم بأنفسهم (٣).

وقد أجرى زياد أرزاقاً خاصة على أشرف القبائل والأشخاص المعروفين بولائهم المطلق لبني أمية ، فيذكر عمر بن شبه النمري البصري أن زياداً " كتب خمسمائة من مشيخة أهل البصرة في صحابته فرزقهم ما بين الثمانية الى الخمسمائة " (٤).

واعتماد زياد أن يجلس كل يوم - عدا يوم الجمعة - فيسأل رسل عماله عن بلادهم وأحوالهم المعاشية ، ثم يأتي عماله على دار الرزق والسوق ، فيسألهم عما ورد دار الرزق وعن الأسعار ، وما يحتاجون اليه من شؤونهم ومصالحهم (٥).

مصادر بيت المال

كان لولاية العراق موارد مالية معينة وثابتة تستطيع بواسطتها دفع عطاء الجند ورواتب الموظفين والقيام بالخدمات العامة ، وكانت هذه الموارد تتكون من : الخراج والغنائم والجزية والزكاة والعشور. أما الخراج فهو أهم موارد الدولة المالية ، ويعود الفضل في تنظيمه تنظيمياً دقيقاً الى الخليفة عمر بن الخطاب ، الذي عين أشخاصاً من ذوي الكفاءة والخبرة لمسح أراضي الأقاليم والولايات الاسلامية ، وذلك ليتسنى له فرض الخراج على هذه المناطق بصورة عادلة ، وقد أرسل عمر لمسح السواد وإحصاء أهله وتقدير الخراج والجزية عليهم عثمان بن حنيف وحذيفة بن اليمان (٦) ففعلاً ذلك ، وعندما قدما الى عمر سألهما عن مقدار الخراج الذي وضعاه ، فاطمأن على أن ما وضعاه كان عادلاً ومناسباً ، وقد عبّر عمر عن ارتياحه تجاه ذلك بقوله : ' أما لئن بقيت لأرامل أهل العراق لأدعهن لا محتجن الى أحد بعدى ' (٧) ، ويتبين من هذا عدم وجود قواعد ثابتة للخراج ، فقد ترك الخليفة عمر

(١) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢١٩ .

(٢) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢١٩ .

(٣) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٠٨-٢٠٩ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٢٣ .

(٥) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢١٤ (المدائني).

(٦) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٤١-٤٢ (الشعبي) ، البلاذري ، فتوح ، ص ٣٧٦ (أبو مجلز) . اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٥٢ . وضع على جريب الزرع درهماً وقيظاً وعلى الكرم عشرة دراهم ، وعلى الرطبة خمسة دراهم ، وعلى الرجل اثني عشر درهماً ، وأربعة وعشرين درهماً وثمانية وأربعين درهماً . (انظر أبو يوسف ، الخراج ، ص ٣٨ (الشعبي)).

(٧) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٤٠ (عمرو بن ميمون الأودي).

تقدير خراج السواد لعثمان وحذيفة^(١).

ويظهر أن تنظيم عمر هذا بقي طيلة الخلافة الراشدة، وصدر من الخلافة الأموية دون أن يلحق به أي تغيير، على أن الأمويين وأن أخذوا بمسوحات عمر إلا أنهم عملوا على توسيعها وتطويرها، وابتكروا وحدات قياسية جديدة كان لها أثر كبير في تحديد المساحات الأرضية، ومن ذلك المسح الذي قام به زياد^(٢).

لقد شهد العراق أيام زياد استصلاحاً في الأرض، واستقراراً ملحوظاً في مقدار الخراج، وذلك بفضل سياسته الحكيمة في الجباية، فقد أحسن السيرة في الفلاحين وأهل الخراج، وأمر بعدم التشدد في تحصيل الخراج منهم ومراعاة ظروفهم، وكان يقول: "أحسنوا إلى المزارعين فإنكم ما تزالون سماناً ما سمنوا"^(٣). ويذكر أن عاملاً له جبي السنة في ثلث السنة، فقال له زياد: "لو أردنا هذا لقدرنا عليه فأردد عليهم ثلثي ما جبيت"^(٤)، وهذا يشعر بشدة زياد في مراقبة عماله ومحاسبتهم في كل عام على ما يصير في أيديهم من الأموال، وفي ولايته استمرت جباية الخراج بيد الدهاقين لخبرتهم ومقدرتهم المالية، فكان زياد يقول: "ينبغي أن يكون كتاب الخراج من رؤساء الأعاجم العالمين بأمور الخراج"^(٥)، ويبدو أن زياداً لم يدع العرب يتدخلون في ذلك، خوفاً من تجاوزاتهم وصعوبة محاسبتهم في الأمور المالية، على أن زياداً كان يعين عمالاً مستقلين عن السيادة والقواد للقيام بجباية الخراج^(٦)، وكان هؤلاء العمال أو الموظفين عادة من العرب الذين لديهم الأمانة والكفاءة الخاصة للقيام بهذا العمل، ولعل زياداً زاد في رواتب هؤلاء الموظفين حتى لا يلجأوا إلى الاختلاس، وقد ألزم زياد السكان بدفع الوافي من الدراهم وزن المثقال، وكانوا في أيام عمر يدفعون الدراهم عداً، وأخذوا يستبدلون بالوافي الدرهم الذي يزن أربعة دنانير^(٧).

ولدينا معلومات مفصلة عن مقدار الخراج وحجم المصروفات في مصرى العراق أيام زياد، فيروى البلاذري عن المدائني عن مسلمة، أن زياداً كان يجبي من كور البصرة ستين ألف ألف درهم فيدفع منها ستة وثلاثين ألف ألف للمقاتلة، ويعطي الذرية ستة عشر ألف ألف، وينفق على الشؤون والمشاريع العامة ألفي ألف، ويحفظ في بيت المال احتياطاً للبوائق والنوائب ألفي ألف،

(١) الدوري، النظم الإسلامية، ج ١، ص ١١٤.

(٢) الماوردي، الأحكام، ص ١٥٣. هنتس، المكاييل والأوزان، ص ٨٨.

(٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١، ص ١٠. وانظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٢٣. ابن حدون، التذكرة، م ١، ص ٢٩٥. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٩٨.

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٢٣.

(٥) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٤. اليباسي، الإعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٨٩.

(٦) انظر مثلاً: الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٦ (المدائني). الاصفهاني، الأغاني، م ١٢، ص ٣١١ (محمد بن سلام).

الصائبي، الهفوات النادرة، ص ٣٩٧ (ابن سلام).

(٧) العسكري، الأوائل، ص ٢٣٨ (عبد الله بن سليمان). وانظر الماوردي، الأحكام، ص ٨٠-٨١.

ويرسل الى بيت المال المركزي في دمشق أربعة آلاف ألف درهم، وكان يجبي من الكوفة أربعين ألف ألف درهم سنوياً، ويرسل الى بيت المال بدمشق ثلثي الأربعة آلاف ألف، لأن جباية الكوفة ثلثا جباية البصرة^(١)، ويستدل من تفاصيل المصروفات وما كان يدفع لبيت المال المركزي من واردات البصرة، أنه كان يحمل من الكوفة الى دمشق ما مقداره مليونين وثلثي المليون درهم على اعتبار واردات الكوفة أربعين ألف ألف، أي ما نسبته ثلثي واردات البصرة وبالباقي ستين ألف ألف. وإذا أخذنا بعين الاعتبار تفوق البصرة على الكوفة فيما يتعلق بتعداد السكان والمقاتلة^(٢)، فإن نسبة السورادات والمصروفات في المصيرين تكاد تكون متقاربة، إلا أن الظروف الاقتصادية في البصرة واتساع فتوحها جعلها أكثر غنى ورفاهاً من الكوفة، وقد أحسن زياد استعمال الأموال التي كان يرصدها لسد النفقات في المصيرين، إذ استثمرها في المشاريع العمرانية والانتاجية كحفر الأنهار والقنوات، واستصلاح الأراضي، وإنشاء الطرق والمباني العامة وغيرها من الخدمات الضرورية والتي سيأتي ذكرها.

ومع أن رواية البلاذري لم تذكر نفقات جباية الكوفة، إلا أن مجموع الجباية في المصيرين بلغ مائة وعشرة آلاف ألف درهم، وهذا الرقم قريب لما ذكر عن جباية العراق زمن معاوية، ذكر اليعقوبي أن خراج السواد استقر أيام معاوية على مائة ألف ألف وعشرين ألف ألف درهم^(٣)، وذكر المبرد أن زياداً "جبي العراق مائة ألف ألف وثمانية عشر ألف ألف"^(٤)، وروى الصولي عن القحذمي أن زياداً جبي السواد مائة ألف ألف ألف^(٥)، وبالنظر فيما أورده اليعقوبي والمبرد والصولي فإنه من المرجح أن ما رواه البلاذري، أنها هو تفاصيل لواردات ومصروفات مصرى العراق في سنة من سنوات ولاية زياد، ولا ينطبق ذلك على جميع سنوات ولايته، تشعر بذلك هذه الفروق البسيطة بين ما ذكره هؤلاء الرواة، وربما يكون ما نقله كل منهم يخص سنة معينة من سنوات ولاية زياد على العراق.

لقد كانت القاعدة العامة في النظام المالي الاسلامي، أن يخصص لكل مصر ما يجبي من المقاطعات التي فتحها مقاتلة ذلك المصير، وعلى هذا كانت جباية المقاطعات والمناطق التابعة ادارياً للعراق تجمع في بيوت المال الموجودة في المدن الرئيسية، ثم تحمل تلك الأموال مخزومة^(٦) الى المركز الرئيسي في المصير (بالكوفة أو البصرة)، وبعد أن يستخرج من هذه الأموال أعطيات الجند ونفقات الولاية اللازمة يرسل الباقي الى دمشق^(٧).

وقد اهتم زياد اهتماماً كبيراً بالخراج، لما كان يدره سواد العراق من أموال اعتمدت عليها ولاية العراق، وعمل على تطوير وتنمية هذا المورد، كان زياد يضع قسطاً منه لمن يزيد في عمارة

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٨-٢١٩.

(٢) انظر تعداد المقاتلة في البصرة والكوفة زمن زياد، ص ١٥٢ وما بعدها.

(٣) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٣.

(٤) المبرد، الكامل، ج ٣، ص ٢٦١. الأبي، نثر الدر، ج ٢، ص ١٢٤. الثعالبي، ثمار القلوب، ص ٤٤٠.

(٥) الصولي، أدب الكتاب، ص ٢٢٠.

(٦) انظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٤٢ (الملائني).

(٧) انظر اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٣. الراوي، العراق في العصر الأموي، ص ٧٨-٨٩.

الأرض^(١)، وهذا لا يعني أنه كان يضع الخراج عن الأراضي الخراجية كلها أو بعضها، فيذكر أن أرض ميسان ودستميستان كانت خراجية، فاعترض أهلها على سياسة زياد وقالوا: "البصرة من أرضنا، فحط عنا من خراجنا بقدر ما في أيدي العرب" ولكن زياد رفض طلبهم^(٢). وكان من اهتمامه بهذا المورد أن "ألزم الخراج كلفة الحمل ومؤنثته"، فبقي حتى أسقطه بنفسه^(٣).

لقد استعان معاوية في تدبير أمور دولته ببعض واردات العراق المالية، وكان زياد يرسل إليه الأموال والهدايا النفيسة طيلة ولايته على العراق حتى صار بيت المال المركزي يتمتع بوضع مالي جيد، وقد عبر زياد عن دوره في ذلك حين قال لمعاوية: "أنا والله يا أمير المؤمنين أقمت لك صعر العراق وجبيت لك مالها، وألفظت اليك بحرهما"^(٤)، وكان أهل العراق يغارون كثيراً على بيوت أموالهم، فاذا ما حاول الولاة تحويل شيء إلى العاصمة قبل سد نفقات مصر فإنهم يحتجون ويحولون دون ذلك، وهذا ما حدث بالفعل عندما أراد كل من زياد وحزمة بن الزبير إرسال الأموال من البصرة إلى بيت المال المركزي قبل دفع عطاء المقاتلة، إذ أجبر أهل البصرة هذين الأميرين على دفع وسد نفقات مصر أولاً، ثم إرسال ما قد تبقى^(٥).

وكانت الغنائم مورداً هاماً من موارد بيت المال، ولا سيما في عصر الراشدين وبداية العصر الأموي عصر الفتوحات الإسلامية الواسعة، حيث كانت الغنائم في هذه الفترة كبيرة جداً، وكانت الدولة تأخذ الخمس من هذه الغنائم، وتوزع الأربعة أخماس الباقية على المقاتلة^(٦)، وذلك عملاً بقوله تعالى ﴿وَأَعْلَمُوا إِنَّا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾^(٧). وقد اهتم زياد اهتماماً كبيراً بالغنائم لكونها تشكل مورداً مالياً جيداً وإن كان غير منتظم كالخراج والجزية، وكان معاوية يوعز إلى زياد بأن يهتم بهذا المورد، فلما علم الأخير بخبر انتصارات الحكم بن عمرو الغفاري عامله على خراسان، وأحرازه لغنائم كثيرة كتب إليه: "أما بعد فإن أمير المؤمنين كتب إلي أن أصطفي له الصفراء والبيضاء فلا تقسم بين الناس ذهباً ولا فضة"، ولكن الحكم أنكر أن تستصفي الغنائم لبيت مال الخليفة فكتب إلى زياد "إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين وأنه والله لو كانت السماوات والأرض رتقا على عبد فأتقى الله لجعل له منها مخرجا"، ثم أمر المنادي فنادى في الناس أن

-
- (١) الراغب الأصبهاني، محاضرات الأدباء، ج ١، ص ١٦٨. ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٣١. ابن الجوزي، عبيد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م)، المصباح المضيء في خلافة المستضيء، تحقيق ناجية عبد الله، ٢، مطبعة الأوقاف، بغداد، ١٩٧٧م، ج ١، ص ٣٢٢، وسيشار إليه عند وروده هكذا: ابن الجوزي، المصباح المضيء.
- (٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٥ (المدايني).
- (٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٤٨٢.
- (٤) ابن دريد، المجتبى، ص ٢٤ (العتبي). الجهشباري، الوزراء، ص ٢٧. ابن خلكان، وفيات، م ٦، ص ٣٥٩. مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٥١. وانظر الآبي، نثر الدر، ج ٣، ص ٣٨-٣٩. ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٠٧.
- (٥) الأصفهاني، الأغاني، م ٢٢، ص ٣٧٢ (العتبي). العلي، التنظيمات، ص ١٧١.
- (٦) أبو يوسف، الخراج، ص ١٩. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٦١٨ (سيف).
- (٧) سورة الأنفال، آية ٤١.

يغدو على غنائمهم ليقسموها، فقسمها بينهم بعد أن عزل خمسها^(١)، ولم يعمل الحكم بما أمر به الخليفة من أمر يححف بأرباب الاستحقاق في العطاء من الجند والعمال، ذلك لأنه رأى في ولايته ما لم يراه الخليفة ولا عامله الأكبر زياد.

ولقد أرجع الأمويون بعض الضرائب الساسانية التي كان عمر بن الخطاب قد ألغها أو أهملها وهي هدايا النوروز والمهرجان، وهذه الضرائب اعتاد الساسانيون تقديمها إلى ملوكهم في عيدي النوروز والمهرجان، ففعلوا، وكان معاوية أول من أعادها حيث "طالب أهل السواد أن يهدوا له في النوروز والمهرجان ففعلوا، فبلغ ذلك عشرة آلاف ألف درهم"^(٢)، وظلت هدايا النوروز تجبى من الناس حتى جاء عمر بن عبد العزيز فأبطل هذه الضريبة^(٣).

(١) ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٢٨-٢٩ (الحسن البصري). البلاذري، أنساب (احسان عباس) ق ٤، ج ١، ص ٢٢١-٢٢٢ (الحسن). اليعقوبي، البلدان، ص ٥٨. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥١-٢٥٢ (عمر بن شبه). ابن عبد ربه، العقد، ج ١، ص ٥٨ (الشعبي).

(٢) الجهشياري، الوزراء، ص ٢٤. وانظر اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢١٨. الدوري، النظم الإسلامية، ج ١، ص ١٤٢.

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٦، ص ٥٦٩ (داود بن سليمان الجعفي).

التنظيمات الاقتصادية

سياسة زياد تجاه الأراضي

تعتبر الزراعة أهم مظاهر الحياة الاقتصادية في العراق ، وقد حتمت جغرافية العراق أن تكون الزراعة حرفته الأولى ، لخصوبة تربته ودوام جريان أنهاره واعتدال مناخه . والواقع أن الزراعة لم تنل العناية اللازمة في العراق حين استوطنها العرب أول أمرهم حيث كانوا جنوداً محاربين مستعدين للقتال في أي وقت ، والزراعة كما نعلم تحتاج إلى الاستقرار والسكنى قرب المناطق الزراعية ، وقد يؤدي هذا الاستقرار إلى فقدان الروح العسكرية لدى أفراد القبائل العربية القادمة إلى العراق ، ولهذا فقد ترك العرب الأراضي الزراعية بيد سكانها الأصليين المعروفين بـ (النبط) وكانوا منتشرين في سواد العراق .

وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد بُذلت محاولات ومجهودات - منذ عهد مبكر ، يرجع إلى أيام الخليفة عمر بن الخطاب - لاستصلاح الأراضي واتساحة التسهيلات الواسعة للزراعة ، ومن ذلك إرسال عمر لعثمان بن حنيف وحذيفة بن اليمان إلى العراق^(١) ، لمعرفة مقدار الأراضي الزراعية وفرض الخراج عليها ، واهتم عمر أيضاً بمشاريع الري ونظمها تنظيمياً يتفق والحاجة إليها ، فبعث إلى أبي موسى يأمره أن يحفر نهراً لأهل البصرة ، وذلك بعد أن توجه إليه الأحنف بن قيس شاكياً له فقر تربة البصرة وملوحة مياهها^(٢) . وفي عهد الخليفين عثمان وعلي بُذلت أيضاً جهود طيبة في سبيل تعمير الأراضي وتنشيط الحركة الزراعية^(٣) .

شهد العصر الأموي اهتماماً بالغاً بالأرض ، ونشاطاً زراعياً واسعاً ، وكان ذلك وليدة الأسس والقواعد التي وضعت في زمن الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين في مجال الاقطاع والاحياء وطرق الري ووسائله ، ولا بد أن الأمويين قد أخذوا ببعض التنظيمات المحلية الساسانية والبيزنطية ، وبخاصة في مجالي المسح والري ، فلا غرو والحال هذه أن يعتبر بعض المؤرخين المحدثين أن النظام الأموي استمراراً أو مكماً للنظام الراشدي ، ومهداً للنظام العباسي^(٤) .

لقد اهتم معاوية وولاته بزيادة مساحة الأراضي المزروعة في العراق ، فقد كانت البطائح هي

(١) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٤٠-٤١ (الشعبي) . البلاذري ، فتوح ، ص ٣٧٦ (أبو مجلز) . يعقوب ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٥٢ .

(٢) البلاذري ، فتوح ، ص ٤٩٧ (عوانه) . ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص ١٨٩ . الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٧٥ (قالوا) . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٣١٦ (عوانه) .

(٣) لمزيد من المعلومات انظر : عواد مجيد الأعظمي ، الزراعة والاصلاح الزراعي في عصر صدر الاسلام ، مطبعة الجامعة ، بغداد ، ١٩٧٨ م ، ص ٨١-٨٢ ، وسيشار اليه عند وروده هكذا : الأعظمي ، الزراعة .

(٤) الدوري ، النظم الاسلامية ، ج ١ ، ص ١٤٠-١٤١ .

مشكلة العراق الكبرى ، اذ كان نهري دجلة والفرات يتفرعان عند مصبيهما في شط العرب الى نهيرات كثيرة ومتشعبة ، وكانت هذه النهيرات قليلة العمق فتفيض المياه على الجانبيين وتغرق الأراضي الزراعية المجاورة ، وفي أواخر الحكم الساساني للعراق شغل الأكاسرة بضعف دولتهم فانثبقت بشوق عظام عجز كسرى عن سدها ، فطغى الماء على الأراضي ، فتحول بذلك قسم كبير منها الى بطائح واسعة ، ولما تولى معاوية أخذ في استصلاح هذه البطيحة ، فولى مولاة عبد الله بن دراج خراج العراق ، وأمره بمكافحة الفيضانات والاهتمام بأمر البطائح وتحسينها ، فاستخرج له منها أراض كثيرة بلغت غلتها خمسة آلاف ألف درهم^(١).

ومن الاجراءات الهامة المتعلقة بالأرض في عهد معاوية ، استيلاؤه على أرض الصوافي في العراق حيث فصلها عن بيت المال وجعلها تحت تصرف الخلافة في دمشق ، ولم تعد تابعة للفتاحين ، وصار يحمل واردها كل سنة الى دمشق^(٢) وأقطع معاوية منها أتباعه وخاصته^(٣) ، ولا شك أن هذا العزل ألحق ببيت المال خسارة كبيرة ، فقد كانت إيرادات صوافي السواد وحدها تبلغ سبعة ملايين درهم سنويا^(٤).

ولم تتوفر تفصيلات أكيدة عن الطريقة التي تم فيها استغلال هذه الصوافي ، ويبدو أنها أعطيت اما بالمزارعة أو القبالة ، أو أنها أقطعت للاستغلال فقط ، على أن الأمويين اعتبروا إيرادها مدخولا خاصا بهم ، وليس لبيت مال المسلمين كما كان في السابق .

لم تقتصر سياسة الأمويين الزراعية على ما أشرنا اليه من استصفاء الصوافي واستصلاح البطائح بل تناولت أيضا إعادة مسح بعض الأراضي وإحياء الموات وحفر الأنهار والقنوات ، وكان الخليفة معاوية بن أبي سفيان وواليه زياد من السابقين في هذا المجال . ذكر الماوردي في معرض حديثه عن الأذرع ، أن الذراع الهاشمية الصغرى أصغر من الهاشمية الكبرى بثلاثة أرباع عشر ، وانها سميت " زيادية لأن زياد مسح بها أرض السواد"^(٥) ، ثم يأتي القلقشندي ليزيد الأمر تأكيداً بخصوص الذراع الزيادة هذه ، لكن ما أورده أيضا لا يعطي الدليل فيما اذا كان زياد قد قام بمسح السواد

(١) البلاذري ، فتوح ، ص ٤١١ (جماعة من أهل العلم) . قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ١٦٨-١٦٩ . الماوردي ، الأحكام ،

ص ١٧٩ . م . سترك ، دائرة المعارف الاسلامية ، مادة (بطيحة) . م ٣ ، ص ٦٨٤ .

(٢) اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢١٨ ، ٢٣٤ . مشكلة الناس لزمانهم ، ص ١٦ . الصولي ، أدب الكتاب ، ص ٢١٩ .

أرض الصوافي : هي كل أرض كانت لكسرى أو لأهله أو لرجل قتل في الحرب أو لحق بأرض الحرب ، أو معيظ ماء أو دير بريد أو أوقاف بيوت النار والأجرام . (البلاذري ، فتوح ، ص ٣٨٠-٣٨١ (عبد الملك بن أبي حرة) وانظر أبو يوسف ،

الخراج ، ص ٦٢ (عبد الله بن أبي حرة) .

(٣) اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .

(٤) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٦٢ (عبد الله بن أبي حرة) . أبو عبيد ، الأموال ، ص ٣٦٠ (عبد الملك بن أبي حرة) . قدامة بن

جعفر ، الخراج ، ص ٢١٧ .

(٥) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ١٥٣ .

فعلا، أم أن الأمر اقتصر على رغبته في المسح فأوجد هذه الوحدة القياسية^(١)، ونظراً لعدم وجود تفاصيل أخرى حول هذه النقطة وخاصة في المصادر التاريخية المتوفرة، فإن ما وصلنا يدعو الى الاعتقاد بأن ذلك المسح لم يكن عاما لكافة أراضي السودان، وربما خصّ بعض المناطق دون غيرها وقد استخدمت الذراع الزيدانية لهذا الغرض، يشعر بذلك ما رواه عمر بن شبه "كان زياد يبعث الى سكة المربد فيمسحها، فإن زيد فيها بناء أمر به فهدم"^(٢)، ولعل إعادة مسح الأراضي بالذراع الزيدانية في بعض كور السودان، جعل من هذه الذراع وحدة قياس شائعة في تلك المناطق، يقول الماوردي في معرض كلامه عن الذراع الزيدانية "وهي التي يذرع بها أهل الأهواز"^(٣).

لقد كان للمسوحات التي تمت في خلافة عمر بن الخطاب واستمرت في أيام زياد أهمية كبرى في بيان أصناف الأرض واقطاعها وإنشاء العديد من مشاريع الري، ففي مجال الاقطاع نجد في العصر الأموي اتجاها جديدا، ألا وهو حق منح القطاع الى الولاة الى جانب الخلفاء، فبعد أن كان أمر الاقطاع بيد الخليفة وحده طيلة الخلافة الراشدة، صار الولاة يمنحون القطاع بأنفسهم دون الرجوع الى الخلفاء، ولا شك أن هذا كان منسجماً مع نظام اللامركزية الأموية في إدارة الأمصار.

والواقع أن هذا الاتجاه ساعد في توسع القطاع وازدياد عددها في العراق، وبرز ذلك بصورة واضحة في منطقة البصرة والبطائح، ويعطي البلاذري في معرض حديثه عن تمصير البصرة قائمة طويلة بأسماء تلك القطاع، ومقطعيها والأشخاص الذين منحت لهم هذه القطاع^(٤)، ويعد زياد من أبرز ولاة العراق الذين كان لهم دور هام في منح القطاع، وقد سار في هذا الاتجاه بهدف تعمير الأرض وتشجيع الناس على الزراعة، وتوفير أسباب المعاش لهم، وفي الوقت نفسه إيجاد مصادر جديدة لخزينة الدولة، فيروي البلاذري أن زيادا "كان يقطع الرجل القطيعة ويدعه سنتين فإن عمرها والا أخذها منه"^(٥).

واذا كانت قطائع زياد للعامة صغيرة نسبياً بحيث لم تتعد السنتين جريب مع شرط الأحياء^(٦) فإن قطائعه لأقربائه وللأشراف وكبار الشخصيات كانت أكبر من ذلك، ذكر ابن سعد "كان زياد قد قرّب ولد أبي بكره وشرفهم وأقطعهم وولاهم الولايات، فصاروا الى دنيا عظيمة"^(٧)، وكان جدهم أبو بكره من الرواد الأوائل الذين نزلوا البصرة منذ اختطاطها، ويبدو أنهم من أوائل العرب الذين

(١) الفلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٥١٣ (عن الزجاجي). هنتس، المكايل والأوزان، ص ٨٨. وروى أسو هلال العسكري، أن زيادا "أول من اتخذ الذراع التي تذرع بها الأرضون". (العسكري، الأوائل، ص ٢٣٩ قالوا). السكتواري، محاضرة الأوائل، ص ١٩٨.

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٢٣.

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٥٣.

(٤) انظر البلاذري، فتوح، ص ٥٠٤-٥٠٩.

(٥) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٥ (المدايني).

(٦) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٦ (القحذمي). ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٥.

(٧) ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ١٦. وانظر قطائع زياد لآل أبي بكره لدى: البلاذري، فتوح، ص ٥٠٤، ٥٠٦، ٥٠٩.

اهتموا باحياء الأراضي بالبصرة يشعر بذلك قول الأصمعي "كان أبو بكرة أول من غرس النخل بالبصرة، وقال : هذه أرض نخل ثم غرس الناس بعده" (١)، ويظهر أن آل أبي بكرة أصبحوا من كبار ملاكي الأراضي بالبصرة زمن معاوية، وأكثر الناس معرفة بأرضها حتى أن معاوية عهد إلى عبد الرحمن بن أبي بكرة باستصفاء أرض الصوافي له (٢)، ويستدل من بعض النصوص أن ملكيات آل أبي بكرة كانت كبيرة وواسعة، بحيث مكنتهم من أن يقطعوا قطائع كبيرة من أراضيهم الخاصة (٣)، وكان عبد الرحمن بن أبي بكرة من الذين درت عليهم قطائعهم نعا كثيرة، يستدل على ذلك من قوله : "لي ثلاثة خبازين فليس منهم خباز إلا وهو يأتيني بثرده لا تشبه صاحبها ... ولم تأت علي ليلة إلا في بطني عسل وفي رأسي بنفسج وفي رجلي زنبق" (٤).

وأقطع زياد نافع بن الحارث الثقفي قطيعة واسعة (٥)، وأقطع كل واحدة من بناته ستين جريبا (٦)، ولم تبن الرواية لنا عدد بنات زياد. وأقطع زياد لنفسه الجموم فأحيها وكانت لأبي بكرة ثم صارت لعبد الرحمن بن أبي بكرة (٧)، ولزياد أيضا بحر لوبة سابور من دست ميسان، ردها الحجاج فيها بعد إلى الخراج (٨)، وأقطع زياد مرة بن أبي عثمان مولى عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق مائة جريب على نهر الأبله، فحفر فيها نهر مرة (٩)، وأقطع عبيد بن كعب النميري (١٠)، وأقطع معقل بن يسار (١١)، وأقطع جمران مولى عثمان بن عفان عبادان (١٢). وأقطع حبيب بن شهاب الشامي التاجر (١٣)، وعمران بن حصين (١٤)، وأنس بن مالك (١٥)، وآل سعيد بن عبد الرحمن بن عباد بن أسيد (١٦)، كما منح زياد قطائع لعدد من مواليه، فأقطع قيل ومسار (١٧)، والقاسم بن سليمان (١٨).

- (١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٢. وانظر ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٨ (الواقدي).
- (٢) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢١٨.
- (٣) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٨٩. البلاذري، فتوح، ص ٥٠٨ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٦٨ (المدايني).
- ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٦.
- (٤) البلاذري، أنساب (محمد حيد الله)، ج ١، ص ٤٩٣ (عوانه).
- (٥) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٦ (القحذمي).
- (٦) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٦ (القحذمي). ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٥.
- (٧) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٥ (المدايني).
- (٨) ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٤-٢٥.
- (٩) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٢-٥٠٣ (القحذمي). ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٢٣.
- (١٠) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٣٠٣ (مسلمة). مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٥٤.
- (١١) البلاذري، فتوح، ص ٥١٠ (هشام الكلبي).
- (١٢) البلاذري، فتوح، ص ٥١٣ (القحذمي). ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٧٤.
- (١٣) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٤ (قالوا).
- (١٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٠ (الوليد بن هشام).
- (١٥) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٣ (قالوا).
- (١٦) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٦ (القحذمي).
- (١٧) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٧ (القحذمي). ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٥-٤٣٦.
- (١٨) البلاذري، فتوح، ص ٥١٤ (القحذمي).

ويروي البلاذري عن العقوى الدلال، أن معاوية أقطع الجزيرة الواقعة بين نهري الأبله ومعقل^(١) لبعض بني أمية، وكانت سبخة فأغرقها زياد بالماء ليقفل من أهميتها، فلما قدم المَقْطَع ليراها زهد بها فباعها لزياد، ويظهر أنها كانت واسعة جداً بدليل أن ثمنها كان مائتي ألف درهم على الرغم مما بدت عليه من عدم صلاحيتها للزراعة^(٢)، ولعل زيادا أراد بصنيعه هذا إبعاد نفوذ ومصالح الأمويين الكارمين له خارج دائرة حكمه في العراق.

ومن كل هذه النماذج والأمثلة المحددة التي سقناها عن حركة القطائع في عهد زياد، يتبين لنا أنه جمع في سياسته القطاعية بين سيادة الملكية الصغيرة من جهة وسيادة الملكيات الكبيرة من جهة أخرى، ولعله وفق في قطائعه بين أرض الموات والأرض الصالحة للزراعة، والظاهر أن زيادا قد ركز في منحه للقطائع على أخوته وأقاربه وبعض أنصاره حتى شملت قطائعه عدداً من مواليه، وربما ساعد بعضهم في حفر الترع والأنهار لاروائها، ولا نعلم على وجه التحديد مجموع المساحات التي أقطعها زياد، ومقدار وارداتها بعد الإصلاح، ويتوقع أنها كانت تدر دخلاً جيداً على أربابها.

وليس لدينا ما يشير إلى أن أهل العراق كانوا قد استاءوا من توزيع زياد للقطائع. ولما كانت الأراضي المقتطعة أصلاً من الموات وغير مملوكة لأحد، فيظهر أن ذلك ساعد في عدم إثارة أي شكوى، ويبدو أن زيادا كان ينظر للوضع المالي للمَقْطَع قبل إقطاعه، فان رآه قادراً على الإحياء أقطعته والآ فلا، يؤيد ذلك أنه كان يشترط على من يقطعه أن يصلح الأرض خلال سنتين من منحها، والآ استردها منه^(٣)، وكان يقول: "إني لا أنفذ الآ ما عمرتهم"^(٤)، وهو في ذلك يمشد هدفاً جليلاً، تعود فائدته على المَقْطَع والدولة معاً.

ويبدو أن الاهتمام الزائد الذي حظيت به الأراضي وزراعتها أيام زياد، أوجد وعياً ملحوظاً لدى أشرف ورؤساء القبائل لأهمية امتلاك الأرض الزراعية والعناية بها وبمحاصيلها حتى عدوها من أفضل الأموال التي يجب أن يسعى المرء من أجل الحصول عليها، فعندما سأل معاوية صعبعة بن صوحان عن أفضل المال أجابه "أن أفضل المال لبرة (الحنطة) سمراء في تربة غبراء، أو نعجة صفراء في روضة خضراء، أو عين خراة (غزيرة) في أرض خواة (سهلة)"^(٥)، ويظهر أن زيادا قد لمس اهتمام هذه الفئة بالأرض، لذا فقد رأى ضرورة إعادة مسح بعض المناطق في العراق^(٦)، للتأكد من أصناف الأرض فيها، وأدى التوسع في منح القطائع زمن زياد إلى تعيين عبد الرحمن بن تبع الحميري

(١) العلي، خطط البصرة، ص ١٥٧.

(٢) البلاذري، فتوح، ص ٥١٤.

(٣) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٥ (المداثني).

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٠٥ (المداثني).

(٥) ابن عبد ربه، العقد، ج ٣، ص ٣٢.

(٦) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ١٥٣.

عاملاً عليها^(١).

إضافة إلى القطاعات اهتم زياد بشؤون الزراعة والري اهتماماً عظيماً، فقام بحفر الأنهار والقنوات وإنشاء القناطر والجسور، ولما كانت جُل أرض البصرة سبخة لا تصلح للزراعة إلا بعد استصلاحها وتفتقر إلى المياه العذبة للاستهلاك البشري، لذا فإن حفر الأنهار وتطهيرها كان خطوة كبيرة في طريق استصلاح الأراضي، وتأمين السكان بالمياه العذبة.

ويمكن معرفة طبيعة أرض البصرة وفقرها للمياه العذبة من خلال الشكوى التي تقدم بها الأحنف بن قيس إلى عمر بن الخطاب، حيث وصف له حال البصرة وما يلحق أهلها من عناء بسبب الماء فقال في شكواه "نزلنا سبخة نشاشة لا يحف نداها، ولا ينبت مرعاها... يخرج الرجل الضعيف فيستعذب الماء من فرسخين"^(٢) وقد استجاب الخليفة عمر لشكوى الأحنف، فأمر أبا موسى الأشعري أن يحفر لأهل البصرة نهراً^(٣)، ويظهر أنه كان لهذا النهر أثر كبير في انعاش الحياة الاقتصادية والاجتماعية في البصرة التي كانت تبعد عن النهر أربعة فراسخ، وبعد حفره أصبحت تقع على ضفافه. ويبدو أن الولاة أهملوا هذا النهر مما أدى إلى انطامه، فلما ولي عبد الله بن عامر البصرة أشار عليه زياد أن ينفذ نهر الأبله من حيث انظم حتى يبلغ به البصرة، ولكنه ظل يباطل في حفره، فلما شخص ابن عامر إلى خراسان واستخلف زيادا، أقر الأخير حفر أبي موسى على حاله وحفر النهر من حيث انظم حتى بلغ به البصرة، وولي ذلك عبد الرحمن بن أبي بكر^(٤)، وعندما فرغ من اصلاح نهر الأبله حفر فيض البصرة^(٥).

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان نشط زياد في حفر الأنهار في منطقة البصرة، حتى أنه كان يسأل أهلها دائماً عما يحتاجون إليه من حفر نهر أو اصلاح قنطرة، أو تسهيل عقبة^(٦). وقد أورد كل من البلاذري في كتابه (فتوح البلدان)، وياقوت الحموي في (معجم البلدان)، معلومات واسعة بما ذكره عن كثرة أنهارها التي أقطعت أو حفرت واستصلحت أيام زياد، فذكر المدائني أن المنذر بن الجارود العبدي كلف معاوية في حفر نهر بالبصرة فكتب إلى زياد في ذلك، فحفر له نهر معقل ولما فرغ منه وأراد فتحه بعث زياد معقل بن يسار ففتحته تبركا به، لأنه من أصحاب الرسول (ﷺ)، فقال

(١) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٢، ٥١٧ (القحذمي). وانظر محمد عبد القادر خريسات، القطاعات في العصر الأموي، مجلة

دراسات (العلوم الانسانية)، الجامعة الأردنية، م ١٦، ج ٣، ١٩٨٩، ص ٤٤.

(٢) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٧ (عوانه). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٩. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٧٥ (قالوا). ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣١٦ (عوانه).

(٣) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٧ (عوانه). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٩. الجهشيري، الوزراء، ص ١٩. ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣١٦ (عوانه).

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٧ (عوانه). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٩-١٩٠. وانظر خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٤٢. العلي، خطط البصرة، ص ١٥٩-١٦٠.

(٥) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٨ (أبو عبيدة).

(٦) ابن حديد، التذكرة، م ١، ص ٤٠٧.

الناس نهر معقل^(١). وفي رواية أخرى للبلاذري عن الواقدي أن حفر نهر معقل جرى في خلافة عمر على يد أبي موسى الأشعري^(٢)، والأرجح أن زيادا هو الذي حفر هذا النهر، وأن اسم معقل غلب عليه لأنه فتحه، يؤيد ذلك ما ذكره القحذمي من أن زيادا أعطى رجلا ألف درهم وقال له: "أبلغ دجله وسل عن صاحب هذا النهر من هو فإن قال رجل انه نهر زياد فأعطه الألف"، فذهب الرجل ثم عاد فقال: "ما لقيت أحدا إلا يقول هو نهر معقل"، فقال زياد: "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"^(٣).

كما تم في عهد زياد حفر أنهار عديدة، ذكرت المصادر منها: نهر دبيس نسب إلى رجل يقال له دبيس، ونهر حرب نسب إلى حرب بن مسلم بن زياد، وبنق الحميري، نسب إلى رجل نبطي من أهل الحيرة، ويقال كان مولى لزياد، ونهر أم حبيب نسبة إلى أم حبيب بنت زياد، وكان عليه قصر الأبواب يسمى (الهزارد)، وقال المدائني سمي هزارد لأن شيرويه اتخذ من قصره ألف باب^(٤). وحفر زياد نهر مسلم نسبة إلى مسلم بن زياد^(٥). ونهر مرة نسبة إلى مرة مولى عبد الرحمن بن أبي بكر، وكانت عائشة (رض) قد كتبت إلى زياد توصيه فيه فحفر له نهرا وأقطعته مائة جريب على نهر الأبله^(٦). ونهر البنات نسبة إلى بنات زياد^(٧)، ونهر حبيب نسبة إلى حبيب بن شهاب الشامى التاجر في قطيعة من زياد، ونهر أبي بكر نسبة إلى أبي بكر بن زياد^(٨)، ونهر الرأه أقطعته إلى رواد بن أبي بكر^(٩)، ونهر أبي شداد نسبة إلى أبي شداد مولى زياد، وبنق سيار لفيل مولى زياد^(١٠)، ونهر شيطان نسبة إلى شيطان مولى زياد^(١١) أيضا.

واستحدث زياد حفر نهر شيلي، منسوب إلى شيلي بن فريخ زاذان المروزي، وكان هذا النهر قديما ويظهر أنه قد انطم، فعمل زياد على تطهيره فعرف بنهر زياد لأنه استحدث حفره^(١٢)، وإضافة إلى

(١) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٩. المرزباني، نور القبس، ص ١٧٢. البكري، معجم ما استعجم، ج ٢، ص ١٢٤٤. ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٢٤. وانظر ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٩٧. ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٩١.

(٢) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٩. ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٢٤.

(٣) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٩-٥٠٠. المرزباني، نور القبس، ص ١٧٢. ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٢٤.

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٠. وانظر ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣١٧، ٣١٩-٣٢٠.

(٥) البلاذري، فتوح، ص ٥٠١ (قالوا). ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٢١.

(٦) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٢-٥٠٣ (القحذمي). ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٢٣ (أبو اليقظان). وانظر ابن قتيبة، المعارف، ص ١٧٨، ٥٦٣.

(٧) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٦ (القحذمي). ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٥.

(٨) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٤ (القحذمي). وانظر ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٢٠.

(٩) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٤ (العقوى الدلال). سمي نهر الرأه بهذا الاسم لأنه صيدت فيه سمكة تسمى الرأه. (انظر المصدر نفسه، ص ٥٠٤).

(١٠) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٩ (قالوا).

(١١) ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٢١. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج ٣، ص ١٤٠٣. وانظر ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٩١.

(١٢) ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٢١. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج ٣، ص ١٤٠٣.

هذه الأنهار قام زياد بحفر الصهاريج لتوفير المياه العذبة للناس، يروى البلاذري: "وكانت الولاة والأشراف بالبصرة يستعذبون الماء من دجلة ويحتفرون الصهاريج، وكان للحجاج بها صهريج معروف يجتمع فيه ماء المطر، وكان لابن عامر وزياد وابن زياد صهاريج يبيعونها للناس" (١).

ولا ريب أن زياداً استعان ببيت المال عند حفره للأنهار الكبيرة بالبصرة. أما الأنهار التي يجريها الناس إلى أرضهم ومزارعهم وبساتينهم "فكربها عليهم خاصة وليس على بيت المال من ذلك شيء" (٢)، ويستدل من أسماء هذه الأنهار أن جُلها يعود إلى أشخاص بارزين ومعروفين في البصرة، وربما كان بعضها يجري في قطائع منحت لهؤلاء الأشخاص.

يتبين مما سبق أن منطقة البصرة كانت في عهد زياد عبارة عن شبكة من الأنهار والقنوات والجداول، وقد ظلت مشهورة بكثرة أنهارها حتى قدر بعض الرواة عددها أيام بلال بن أبي بردة بأكثر من مائة وعشرين ألف نهر (٣)، وهو رقم مبالغ فيه ولكنه يعبر عن كثرة الأنهار والأراضي المستصلحة في البصرة، والأرجح أن يكون هذا الرقم قد شمل كل الترع والقنوات الصغيرة. أما فوائد هذه الأنهار فقد أدت إلى إنعاش الحياة الزراعية في العراق عامة، وفي البصرة خاصة حيث كانت جُل أراضيها مواتاً، حتى وصلت وارداتها مع كورها في ولاية زياد إلى ستين ألف درهم (٤)، إضافة إلى ذلك فقد استخدم السكان هذه الأنهار في النقل، وكذلك الأنهار الصغيرة كانوا يستفيدون منها لأنها كانت متصلة بأنهار أخرى كبيرة.

وفي الكوفة قام زياد بإنشاء جسر ضخم لمنع طغيان المياه على المدينة، وظل هذا الجسر قائماً طوال العهد الأموي، وقام باصلاحه وتجديده كل من ابن هبيرة وخالد بن عبد الله القسري ويزيد بن عمر ابن هبيرة (٥)، ويبدو أن هذا الجسر كان مهماً، الأمر الذي جعل الولاة بعد زياد يحرصون على ترميمه وتجديده.

والملاحظ أن زياداً ترك بصمات واضحة فيما يتعلق بالقطائع ومشاريع الري في البصرة، بينما لم نجد له مثل ذلك الأثر في الكوفة، ولعل هذا يعود إلى أمرين رئيسيين: أولهما أن جُل أرض البصرة عشيرة، أي أنها تدفع الصدقة وليس الخراج، لكونها موات أحيائها المسلمون فتملكوها، بينما اعتبرت الكوفة من الأراضي الخراجية، لأنها أرض عامرة فتحها المسلمون عنوة (٦)، وهذه الأرض لا

(١) البلاذري، فتوح، ص ٥١٥-٥١٦ (قالوا). العلي، خطط البصرة، ١٣٩.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص ١١٩.

(٣) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٥٧. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢١٢. الأدرسي، نزهة المشتاق، ج ٤، ص ٣٨٣. زكي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، ط ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٦٧، ويشير إليه عند ورود هكذا: لسترنج، بلدان الخلافة.

(٤) البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٨ (مسلمة بن محارب).

(٥) البلاذري، فتوح، ص ٤٠٣.

(٦) أبو يوسف، الخراج، ص ٦٤. الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٥٨. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢١٥.

يجوز بيعها في نظر الفقهاء ، وانما هي فيء للمسلمين^(١) ، وكانت الارض المحيطة بالبصرة مواتا تتطلب الأحياء ، فكان بإمكان أي شخص أن يطلب اقتطاعه منها^(٢) ، وذلك لأن أحياءها يتطلب أموالا كثيرة ، بينما كانت الصوافي في الكوفة عامرة ومزروعة ، لذا أقطع زياد من أرض البصرة دون أية معارضة .

أما الأمر الثاني فيبدو أنه يعود لقصر الفترة التي تولى فيها زياد لولاية الكوفة ، حيث لم تتجاوز الثلاث سنوات (٥٠-٥٣هـ / ٦٧٠-٦٧٣م) ، وهي فترة قصيرة نسبياً إذا ما قورنت مع مدة ولايته على البصرة ، والتي بلغت حوالي تسع سنين (٤٥-٥٣هـ / ٦٦٥-٦٧٣م) ، ولا شك أن طول ولاية زياد على البصرة مكنته من انجاز مشروعاته واصلاحاته ، لا سيما وأن حكمه في هذه الفترة اقتصر على هذه الولاية دون غيرها .

ولعل ملوحة مياه البصرة كان من العوامل التي دفعت زياد الى الاستكثار من حفر الأنهار في البصرة لتوفير المياه العذبة للسكان ، بينما كانت المياه في الكوفة عذبة صالحة للاستهلاك البشري^(٣) وكان زياد يقول : " مثل الكوفة كمثل اللّهاء ، يأتيها الماء ببرّده وعذوبته ومثل البصرة كالمثانة يأتيها الماء وقد تغيرّ وفسد "^(٤) .

ان ما تقدم ذكره من اصلاحات وتنظييات في مجالي القطائع وحفر الأنهار ، ليدل دلالة واضحة على اهتمام زياد بالأرض ومحاولة استثمارها للمصلحة العامة ، وقد عُرف زياد بتشجيعه للزراعة ، فيذكر الجاحظ أنه قال لأهل البصرة : " لو أن في يدي فسيلة ، ثم قيل لي أن القيامة تقوم الساعة لبادرتها فغرستها "^(٥) ، ويذكر أنه خرج يوما الى السوس فرأى عمارة حسنة ، فخاف أهلها أن يزيد في خراجها ، فقال لهم مشجعا أيّاهم على عمارة الأرض : " بارك الله عليكم ، فقد وضعت عنكم مائة ألف لما رأيتم من عمارة بلدكم "^(٦) ، وكان زياد يحاسب كل من يقوم بإلحاق أي ضرر أو أذى بالمرزوعات ، فيذكر المدائني أن رجلا عقر نخلا ، فأغرمه عن كل واحدة ألف درهم^(٧) . ولأجل تنشيط الحياة الزراعية والحصول على المزيد من المال ، فقد أحسن زياد السيرة في الفلاحين وأمر بمراعاة ظروفهم والعناية بهم ، وعدم التشدد في تحصيل الخراج منهم^(٨) .

(١) يحيى بن آدم ، الخراج ، ص ٥١ ، ٥٢ . البلاذري ، فتوح ، ص ٦٢٩ (عن أبي حنيفة ، والثوري ومالك وغيرهم) .

(٢) انظر الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٧٥ (سيف) . ابن الأثير ، الكامل ، م ٢ ، ص ٥٤٤ .

(٣) انظر الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٥٨ . ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٢١٣ .

(٤) الثعالبي ، لطائف المعارف ، ص ١٦٧ . اللّهاء : اللحمة المشرفة على الخلق . (انظر ابن منظور ، لسان العرب ، م ١٥ ، ص ٢٦٢) .

(٥) الجاحظ ، البخل ، ص ١٤٥-١٤٦ .

(٦) الراغب الأصبهاني ، محاضرات الأدباء ، ج ١ ، ص ١٦٨ . ابن حمدون ، التذكرة ، م ١ ، ص ٤٣١ . ابن الجوزي ، المصباح المضيء ، ج ١ ، ص ٣٢٢ .

(٧) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢١٤ . البيهقي ، المحاسن والمساوي ، ص ٥٠٥ .

(٨) انظر ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، م ١ ، ص ١٠ . وانظر البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٢٣ . ابن حمدون ، التذكرة ، م ١ ، ص ٢٩٥ .

وهكذا يمكن القول أن زيادا ساهم في تحويل الكثيرين من العرب الى مزارعين ، ولم يكن ذلك على حساب ميزاتهم العسكرية ، كما أن هؤلاء العرب لم يتغيروا من يوم لآخر من فاتحين الى خبراء زراعة ، بل أن ذلك تأتى على شكل تطور مستمر، دلّ على مرونة الانسان العربي وسهولة تكيفه مع الأوضاع الجديدة . ولا شك أن هذه التطورات والتغيرات قد ساهمت بمجملها في انعاش الملكية الفردية للأرض ، وذلك على حساب ملكية الدولة ، نعني أرض الخراج ، وقد أدى نمو الملكية الفردية خلال العهد الأموي الى انتشار القبائل العربية في السواد على شكل أفراد أو جماعات لهم قرى وضياع .

أما عن أهم مزارعات بلاد العراق أيام زياد ، فإن المعلومات الواردة عنها نادرة بحيث لا تمكن من رسم صورة واضحة ومتكاملة ، ويظهر أن منطقة البصرة وضواحيها قد اشتهرت بزراعة النخيل وهو أول نبات زرع العرب في أرض البصرة عند انشائها^(١) ، وقد كان أهل البصرة من أعلم الناس بالنخيل وأحذقهم بغراستها وتربيتها وإصلاحها ، وأعرفهم بأحوالها من حين غرسها الى أن تكتمل وتنضج ، وهم من أبصر الناس بالتمر وتمييزه وخزنه^(٢) ، ولم تقتصر زراعة النخيل على مدينة البصرة ومنطقتها فحسب ، بل انتشرت أشجاره في جميع أنحاء العراق ، وكان أهل العراق يفتخرون بذلك على أهل الشام^(٣) ، ومما يشعر بازدهار زراعة النخيل في عهد زياد قول أبي اسحاق السبيعي : " ما زال شراب أهل الكوفة الزبيب ، حتى كان زياد فشربوا التمر"^(٤) .

واشتهرت مدن العراق بزراعة أنواع مختلفة من الفاكهة ، حتى أن المغيرة بن شعبه لاحظ أن انتاج العراق من الفاكهة زاد على انتاج الحنطة والشعير^(٥) ، وليس لدينا معلومات عن هذه المزارعات في زمن زياد ، ولكن يتوقع أن يكون ناتجها قد ازداد في عهده نتيجة للاهتمام الزائد بشؤون الزراعة والرعي .

وكان أهل المصيرين الكوفة والبصرة يكثر من غرس البساتين ، وخاصة على ضفاف الأنهار ، فيذكر الاصطخري أن الأراضي الواقعة ما بين بغداد في الشمال والكوفة في الجنوب ، ودجلة في الشرق ، والفرات في الغرب كانت كثيفة الزرع لدرجة يصعب معها التمييز بين المزارع المختلفة^(٦) .

(١) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص ١٨٨ (الواقدي) . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٣٢ .

(٢) الحميري ، الروض المطاء ، ص ١٠٧ .

(٣) البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ، ص ٤٠ (أبو خنوف) .

(٤) البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ، ص ٢٧١ .

(٥) البلاذري ، فتوح ، ص ٣٧٦ (محمد بن عبد الله الثقفي) .

(٦) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٥٩-٦٠ .

التجارة والأسواق

لقد حرص العرب المسلمون على انشاء الأسواق عند تخطيطهم للمدن الجديدة، وكانت هذه الأسواق واحدة من ثلاثة مراكز كبيرة استندت إليها المدن الإسلامية الى جانب المسجد الجامع ودار الامارة^(١)، مما يشير الى أهمية الناحية التجارية في حياة العرب.

نشطت الحركة التجارية في بلاد العراق طوال عصر الخلفاء الراشدين والأمويين، وعرف أهل العراق أنواع التجارات المختلفة ومستلزماتها من أسواق وطرق للمواصلات ومصارف وعقود^(٢)، ولا ريب أن هذه الأمور متى تيسرت الى جانب توفر الأمن، فإن ذلك سيؤدي حتماً الى نهضة التجارة الداخلية والخارجية على حد سواء.

في عهد زياد ازدهرت التجارة وتطورت تطوراً ملحوظاً في العراق، وهذا التطور يعود الى عوامل عديدة منها: الموقع الجغرافي الذي تتميز به بلاد العراق، حيث تشكل نقطة التقاء وتبادل بين فارس والهند وأواسط آسيا والصين شرقاً والشام ومصر وشمال أفريقيا غرباً، هذا الموقع الجغرافي الممتاز جعل مدن العراق تتمتع بشهرة واسعة في عالم التجارة منذ وقت مبكر، وقد مكّن ذلك سكان العراق من أن يصبحوا وسطاء ناجحين في التجارة العالمية.

ومن العوامل التي شجعت التجارة في عهد زياد انتشار الأمن والنظام ليس داخل مصري العراق فحسب، بل في سائر المناطق والأقاليم التابعة لها، مما يسّر في عملية تنقل التجار بتجاراتهم دون خوف من اللصوص وقطاع الطرق، ويستدل على الأمن الذي تمتعت به ولاية العراق من قول زياد للناس: "أفتحوا منازلكم وحوانيتكم فمن ذهب له شيء فزياد له ضامن"^(٣)، فكانوا يغطون أمتعتهم ويذهبون^(٤).

وقام زياد بعدد من المشاريع التي سهلت عملية التجارة الداخلية، فحفر الأنهار وشق القنوات والترع، وكان نهر معقل بالبصرة طريق المواصلات الرئيس في المدينة، لذا فقد اتخذ عليه جبهة العشور مقرهم، ومدوا عليه سلسلة تسمى (الحبل) لخصر السفن القادمة الى البصرة وتفتيشها وتحصيل العشور منها^(٥)، وقد استعمل زياد على هذه السلسلة مسروق بن الأجدع الهمداني^(٦)، ولم تذكر لنا المصادر المتوفرة مقدار ما كانت تجبى البصرة من هذا المصدر ومن المؤكد أن مقدار ما يجبي

(١) عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام، ط ٢، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٠م ص ٨١، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام.

(٢) انظر الخربوطلي، تاريخ العراق، ص ٣٦١.

(٣) ابن بكار، الأخبار الموفيات، ص ٣٠٨.

(٤) العسكري، الأوائل، ص ٢٤١ (عمر بن شبه).

(٥) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٠ (قالوا). ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ق ١، ص ١٥٢ (الأعمش). العلي، خطط البصرة، ص ١٥١.

(٦) أبو عبيد، الأموال، ص ٦٣٦ (الشعبي). البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٩ (المدائني). ابن حبان البستي، الثقات، ج ٥، ص ٤٥٦. أبو حيان التوحيد، البصائر والذخائر، م ٤، ص ٣٠١. ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ق ١، ص ١٥٢ (الأعمش).

من عشور التجارات كان يتوقف على الأحوال التجارية في مصر ويتغير تبعاً لنشاط الحياة الاقتصادية .

وقد عُرف زياد بتشجيعه للتجارة وأسبابها ، يدل على ذلك اهتمامه بالأسواق التي كان لها دور كبير في حياة أهل العراق الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فكما كانت السوق مركزاً للبيع والشراء كانت كذلك مركزاً من مراكز الحياة السياسية ، فيها يتلاقى الناس بحجة البيع والشراء بعيداً عن عيون رقباء الولاة فيدبرون المؤامرات والفتن^(١) . وكانت الأسواق في بادئ الأمر أرضاً فضاء ليس فيها أبنية ، وكان التجار والباعة يضعون بضائعهم وسلعهم في الأماكن التي يختارونها ، ولم يكن هناك موضع محدد لكل بائع ، حيث قال عمر بن الخطاب : " الأسواق على سنة المساجد ، من سبق إلى مقعد فهو له ، حتى يقوم منه إلى بيته أو يفرغ من بيعه " ^(٢) ، وقد أكد زياد مقولة عمر هذه بقوله : " من قعد في مكان فهو أحق به ما دام فيه " ^(٣) ، وهذا يشعر أن الأسواق بقيت إلى زمن زياد من غير بناء ، إلا أن ابن سعد يذكر أن عبد الله بن عامر قام بشراء عدد من الدور بالبصرة ، فهدمها ثم بنى سوقاً بدلاً منها^(٤) .

أما الكوفة فليس لدينا معلومات تشير إلى بناء أسواقها قبل ولاية زياد ، ويذكر عبد الرحمن بن عبيد أن المغيرة بن شعبة قال للتجار والباعة في الكوفة : " من قعد في مكان فهو أحق به إلى الليل " ^(٥) ، إلا أن القعود في الأسواق لا يعني عدم وجود الحوانيت فيها ، فلا يعقل أن تكون أسواق الكوفة قد بقيت من غير بناء حتى زمن زياد .

يتضح مما تقدم أن بعض ولاة البصرة الأوائل التفتوا إلى مسألة الأسواق ، فعملوا على تنظيمها وإقامة الأبنية لها ، أما أسواق الكوفة فلم تحظ كثيراً باهتمام الولاة ، ويستدل من بعض الروايات أن زياداً بنى أسواق الكوفة من القصب والعمد ، فيذكر أبو مخنف أنه حين أراد زياد أن يقبض على حجر بن عدي وأصحابه أمر أمير شرطته ومن معه أن ينتزعوا عمود السوق ويشدوا بها على أصحاب حجر حتى يأتوا بهم^(٦) ، وهذا يشعر أن أسواق الكوفة كانت معقودة بالعمد والقصب ، وربما أنها لم تسقف إلا في فترة متأخرة من عهد زياد ، يؤيد ذلك ما رواه البلاذري ، من أن زياداً كان " أول من سقّف حوانيت السوق " ^(٧) ، وذلك لمنع دخول الحيوانات - وخاصة الكلاب - إلى الحوانيت

(١) الجاحظ ، البيان ، ج ٢ ، ص ٦٩ .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٤٥-٤٦ (سيف) . ابن الأثير ، الكامل ، م ٢ ، ص ٥٢٩ .

(٣) أبو عبيدة ، الأموال ، ص ١١١ (عبد الرحمن بن عبيد) . البلاذري ، فتوح ، ص ٤٢١ (عبد الرحمن بن عبيد) .

(٤) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ، ص ٤٧ (قالوا) .

(٥) أبو عبيد ، الأموال ، ص ١١١ . البلاذري ، فتوح ، ص ٤٢١ .

(٦) الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٥٨ .

(٧) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٢٠ . المزياني ، نور القبس ، ص ٢٦٦ . العسكري ، الأوائل ،

ص ٢٤٠ (المدايني وغيره) . السكتواري ، محاضرة الأوائل ، ص ٩٨ .

والعبث بالأمتعة والسلع^(١)، وكذلك لحماية الباعة من حرارة الصيف وأمطار الشتاء، وقد بقيت الأسواق في العراق على حالها الى ولاية خالد القسري (١٠٥-١٢٠ هـ / ٧٢٣-٧٣٧ م) في العهد الأموي، فكان أول من بنى الأسواق بناء محكما وجعل لها سقوفا معقودة بالآجر والجص^(٢). واهتم زياد بمراقبة المكاييل والموازين في الأسواق، وذلك ليحول دون استغلال التجار، وكانت السوق في عهده خاضعة لرقابة موظف خاص يدعى (عامل السوق)، ولعل أول ذكر له في البصرة يرجع الى زمن زياد، حيث كان عامله على السوق الجعد بن قيس النميري^(٣)، وكان تعيين عامل السوق يتم عن طريق الأمير، وهو يتمتع ببعض السلطات القضائية والتنفيذية، ويزود ببعض الأعيان الذين يساعده على القيام بواجباته^(٤)، والراجح أنه كان من واجباته مراقبة الأوزان والمكاييل والتحكيم في الخلافات التي تنشأ بين التجار وأصحاب المهن^(٥)، وكان زياد يجلس في كل يوم جمعة فيأتيه فيمن يأتيه عمال السوق فيسألهم عن الأسعار والأخبار وما يحتاجون اليه من مصالحهم^(٦). وقد عني زياد بمراقبة الأسعار وضمان عدم استغلال التجار لحاجة الناس الى تجارتهم، وذهب في عقاب التجار الجشعين الى حد التعذيب والتمثيل بهم^(٧)، وقد أدى هذا الى اعتدال مستوى الأسعار ورخصها في البصرة، وكان زياد يلجأ الى دعم السلع الغالية بهدف اغراق السوق بها وبالتالي انخفاض أسعارها، ذكر المدائني "غلا الطعام في عهد زياد فدفع الى التجار مالا، فابتاعوا به طعاماً وقال: زيدوا ربعاً ربعاً، فلما رخص الطعام وشعر برجله ارتجع ماله"^(٨)، وكان زياد لا يسمح بأي تدخل من شأنه إرباك الاسعار في الأسواق، يذكر البلاذري أن مولى لفاخته بنت قرظة سأل معاوية أن يكتب له كتاباً منشوراً بأن يخلي له سوق الطعام بالبصرة، فلا يبيع فيها أحد سواه حتى يخرج ما في يده، فكتب له بذلك وقال له: "ويحك إني أحذرك زياداً"، ولما شح بيع الطعام للناس غلا السعر، فجاء زياد للسوق ووجد مولى فاخته يناول الدنانير والرقاع بالقصب، فأمر به، فقال: "ان معي كتاب أمير المؤمنين" فقال زياد: "اقطعوا يده" فقطعوه^(٩)، وهكذا كان زياد يعاقب كل من تسول له نفسه باحتكار السلع والتجارة في الأسواق.

(١) انظر العسكري، الأوائل، ص ٢٤٠-٢٤١ (المدائني وغيره). السكتواري، محاضرة الأوائل، ص ٩٨. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٧.

(٢) البلاذري، فتوح، ص ٤٠٢ (أبو مسعود). اليعقوبي، البلدان، ص ٧١.

(٣) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٤ (المدائني). العلي، خطط البصرة، ص ١٢٧.

(٤) العلي، التنظيمات، ص ٢٦٧.

(٥) الأصفهاني، الأغاني، م ٨، ص ٢٧٧-٢٧٧. وانظر الماوردي، الأحكام، ص ٤٦٥.

(٦) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٤ (المدائني). وانظر ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٠٧.

(٧) انظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٢٣، ٢٢٥ (المدائني).

(٨) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٣٧.

(٩) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٣٩.

والواقع أن البصرة تعتبر بلدا رخيص الاسعار نسبيا^(١)، ولعل هذا يعود الى عوامل عديدة منها : خصوبة التربة وسهولة الإرواء بالماء والجزر، ثم وقوعها قرب البحر على ممر الطرق التجارية من الهند والشرق الأقصى وبلاد العرب، وقد ساعد هذا الموقع الجغرافي في بقاء البصرة مركزا تجاريا مزدهرا حتى بعد انشاء بغداد عاصمة العباسيين.

وكان بمقدور الأمراء والولاة في الولايات الاسلامية الاشتغال بالتجارة والحصول على أموال طائلة منها، ولا شك أن مناصبهم ونفوذهم قد ساعدهم في تسهيل أمورهم التجارية، كما أنه كان بإمكانهم اقتراض الأموال من بيت المال لتوظيفها في تجارتهم الخاصة، فقد اشتغل بها زياد في البصرة^(٢)، ولعله أراد بذلك الحصول على بعض الأرباح المادية من ناحية، ودعم وتشجيع التجارة في ولايته من ناحية أخرى، فكان يقول : " طوبى لمن له دويرة تؤويه وتجارة تكفيه " ^(٣).

وهكذا اهتم زياد بانشاء كل ما يؤدي الى نهضة التجارة من أسواق وأنهار وطرق، فقد كان يعلم أن النهضة التجارية تزيد في إيرادات بيت المال، فيصبح بذلك موضع رضى الخليفة معاوية وقد استقبلت بلاد العراق آلافا من المقاتلة المسلمين الذين أقاموا فيها، أو كانوا يمرون بها خلال فتوحاتهم في المناطق الشرقية من الدولة الاسلامية، ولا شك أن فتح هذه المناطق كان له أثر كبير في نقل الكثير من تجارتها الى بلاد العراق. ويمكن القول أن فترة ولاية زياد على العراق بها شهدته من أمن واستقرار واصلاحات شاملة لشتى نواحي الحياة ساهمت في خلق قاعدة متينة للحركة التجارية التي ازدهرت ونشطت نشاطاً ملحوظاً في زمن الحجاج، وقد أدى هذا النشاط الى أن هجر الفلاحون أرضهم وقراهم وأقبلوا على مدن العراق للاشتغال بالتجارة، مما مهد الثروة الزراعية، وهي عماد من الأعمدة التي تقوم عليها الثروة التجارية، فعمد الحجاج الى ارجاعهم بالقوة الى قراهم^(٤).

التنظيمات العمرانية

لقد سارت مراحل البناء في مصرى العراق (البصرة والكوفة) بخطوات عديدة ارتبطت بالغرض العسكري ووضع القبائل معا. ففي البصرة يظهر أن المسلمين نزلوها ابتداء في خيام وفساطيط فقط، يروى البلاذري أنه عندما نزل عتبة بن غزوان والمقاتلة البصرة " ضربوا بها الخيام والقباب والفساطيط، ولم يكن لهم بناء " ^(٥)، ولعل هذا يبدو أمرا واقعياً أمام عدم اختطاط القبائل في خطط خاصة بها أيام عتبة، هذا الى جانب كون جُلّ مقاتلة البصرة - وقتذاك - من الأعراب فكان نزولهم بالخيام أمر يتفق وطبيعة حياتهم التي كانوا يعيشونها.

(١) انظر الجاحظ، البلدان، ص ٥٠٤. ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ٢٢١.

(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ١٧٥ (أبو اليقظان).

(٣) الزنجشيري، ربيع الأبرار، ج ٤، ص ٢٣٦.

(٤) ابن عبد ربه، العقد، ج ٣، ص ٤١٦.

(٥) البلاذري، فتوح، ص ٤٧٦ (قالوا). وانظر ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٦. الدينوري، الأخبار الطوال، ص

١١٧. ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٢. ماسينيون، خطط الكوفة، ص ٣٧.

ويبدو أن أول بناء بالكوفة والبصرة كان بالقصب، وذلك سنة (١٧هـ / ٦٣٨م) عندما وزعت الخطط للقبائل في المصريين، يتضح ذلك من رواية سيف "لما نزل أهل الكوفة الكوفة، واستقرت بأهل البصرة الدار، عرف القوم أنفسهم، وثاب اليهم ما كانوا فقدوا، ثم أن أهل الكوفة استأذنوا في بنيان القصب، واستأذن فيه أهل البصرة" (١)، ولعل ظروف القتال هي التي اضطرت مقاتلة العراق الى الاكتفاء بالقصب في بناء دورهم، والقصب اضافة الى توفره في البطيحة وعلى ضفاف الأنهار فهو سهل الاستعمال ينسجم والظروف العسكرية، يوضح ذلك قول أبو عبيدة: "أن المسلمين كانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه حتى يرجعوا من الغزو، فاذا رجعوا أعادوا بناءه" (٢).

ظل البناء في الكوفة والبصرة بالقصب حتى ولاية المغيرة بن شعبه (٢٢-٢٤هـ / ٦٤٣-٦٤٥م)، حيث طلب المقاتلة الإذن من عمر بالسماح لهم البناء باللبن، ذلك أن القصب والأشخاص كانت عرضة للحريق، فسمح لهم عمر بذلك (٣)، وهكذا تدرج البناء وتطور بعد أن استقر الناس وازدهرت الحياة الاقتصادية فأصبح باللبن والطين، وليست لدينا تفاصيل عن وصف المساكن والأبنية في هذه المرحلة، ولكن من المرجح أنها كانت رخيصة بسيطة الكلفة نظراً لدفع المناخ في المصريين، فلا يستلزم الأمر أبنية محكمة قوية، بل يكفي أن تشاد من الطين واللبن، وهي مواد وافرة ورخيصة.

ويبدو أن سكان الكوفة والبصرة استمروا في بناء دورهم من الطين واللبن حتى زمن زياد حيث شهد هذان المصران تطوراً عمرانياً كبيراً، ليس في بناء الدور والمساكن فحسب بل في بناء المساجد ودور الامارة والأسواق وسائر المرافق العامة.

المساجد

المسجد الجامع هو البناء العام الرئيس لأهل مصر، فهو مركز يقيم فيه الناس صلواتهم ويجتمع فيه الوالي بالناس لتبليغ ما يقتضي تبليغه، وفي الجامع أيضاً يجتمع الناس ويتحدثون في الأمور الخاصة والعامة، فهو بذلك مركز للحياة الدينية والادارية والاجتماعية والفكرية.

ولأهمية المسجد الجامع في حياة المسلمين، فقد كان موضعه في وسط المدينة بين خطط القبائل. ففي البصرة تعود أول اقامته الى زمن ولاية عتبة بن غزوان، يروي البلاذري "وكان محجر بن الأدرع اختط مسجد البصرة، ولم يبنه فكان يصل في غير مبني" (٤)، أي أن التخطيط الأول كان مجرد

(١) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٤٣. وانظر البلاذري، فتوح، ص ٤٨٣ (أبو عبيدة). ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ٣١٢. ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٢٨. ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩١ (ابن عباس).

(٢) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٤. ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٢ (عوانة).

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٤٣-٤٤. ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٢٨-٥٢٩. النويري. نهاية الأرب، ج ١٩، ص ٣٤١-٣٤٠.

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٩ (الواقدي).

تحديد الموقع، وهذا ينسجم وظروف المقاتلة آنذاك، وقيامهم بحركات عسكرية مستمرة، ثم أن عتبة وضع له حائطاً من قصب^(١)، وهي المادة التي بنيت منها المدينة كما وضحنا، ويبدو أن هذا الحائط كان يوضع لتحديد موقع المسجد الى حين خروج المقاتلة للغزو، فاذا رجعوا أعادوا بناءه.

وحينما تولى أبو موسى الأشعري إمارة البصرة ثبت بناء المسجد، فيروي البلاذري "ثم أن الناس اختطوا وبنوا المنازل وبنى أبو موسى الأشعري المسجد ودار الإمارة بلبن وطين وسقفها بالعشب وزاد في المسجد"^(٢)، يتضح من هذا النص أن أبا موسى لم يبدل موقع المسجد، ولكنه وسعه عما كان عليه من قبل وثبت بناءه باللبن والطين، والواقع أننا لا نعرف شيئاً عن مساحته ومعالمه في هذه الفترة، إذ أن التوسعات والتجديدات الكثيرة اللاحقة قد أذهبت معالمه الأولى تلك، كما أن المصادر لم تذكر شيئاً عن سعة وشكل بناء أبي موسى، ولكن يتوقع أنه لم يكن واسعاً، وأنه كان يسد حاجة السكان حينذاك ولم يكن عددهم كبيراً.

بقي مسجد البصرة على وضعه هذا طيلة خلافة عثمان وعلي إلى أن ولي زياد البصرة لمعاوية فرأى أن هذا البناء البسيط لا يتفق وعظمة الدولة التي أخذت بالاتساع والارتقاء، لذلك فقد أعاد بناءه و "زاد في المسجد زيادة كبيرة، وبناه بالآجر والجص وسقفه بالساج"^(٣)، وجعل لصفته المقدمة خمس سوار، وبنى منارته بالحجارة، وقد أتى بسواريه من جبل الأهواز^(٤)، وولي زياد بناءه الحجاج بن عتيك الثقفي، فجنى من ذلك ثروة كبيرة، وفيه قيل "حبذا الإمارة ولو على حجارة"، فذهبت مثلاً^(٥)، ولما فرغ الحجاج من بنائه جعل زياد يطوف فيه وينظر اليه ومعه وجوه أهل البصرة، فيقول لهم: "أترون خللاً، فيقولون: ما نعلم بناء أحكم منه، فقال: بلى هذه الأساطين التي على كل واحدة منها أربعة عقود لو كانت أغلظ من سائر الأساطين"^(٦)، وذكر يونس بن حبيب النحوي أنه "لم يؤت من تلك الأساطين قط تصديع ولا عيب"^(٧)، وقال حارثة بن بدر، ويقال بل قال ذلك البعيث المجاشعي، معبراً عن عظمة بناء المسجد الجامع في البصرة:

بنى زياد لذكر الله مصنعة من الحجارة لم تعمل من الطين

(١) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٩ (الواقدي). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٨. وانظر ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٥ (الواقدي). خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ٩٨. ابن قتيبة، المعارف، ص ٥٦٣. اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٤٣.

(٢) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٤. ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٣. وانظر ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٨.

(٣) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٤ (الأصمعي). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٨. ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٣. وانظر ابن قتيبة، المعارف، ص ٥٦٣.

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٥ (الفحلمي وأبو عبيدة). ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٣.

(٥) البلاذري، فتوح، ص ٣٩٠، ٤٨٥-٤٨٦ (أبو عبيدة). ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٣. وانظر الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، ص ٤٠.

(٦) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٤-٤٨٥ (الأصمعي). ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٣.

(٧) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٥. وانظر ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٣.

لولا تعاون أيدي الأنس ترفعها
إذاً لقلنا من أعمال الشياطين^(١)
وعلى الرغم من التصحيقات التي أصابت البيتين المذكورين ، فانهما معاصران لبناء المسجد ، وإذا
صححت روايتهما فهما يدلان على استعمال الحجر الذي لم يرد له ذكر إلا في بناء المنارة^(٢) .
وقد أدخل زياد تحسينات أخرى على المسجد ، فأمر بوضع المنبر في صدر المسجد ، ثم حوّل دار
الامارة من الدهناء الى جهة الجامع القبلي وفتح في حائط الجامع بابا يتصل بدار الامارة ، يدخل منه
الأمير الى المسجد دون أن يتخطى رقاب الناس كما كان من قبل^(٣) ، ولا شك أن هذا الاجراء يعبر عن
رغبة زياد في التجديد والتطوير بما يتفق والمصلحة العامة ، حيث قال : " لا ينبغي للامام أن
يتخطى الناس " ^(٤) .

لم تذكر المصادر المتوفرة شيئاً عن سعة جامع البصرة زمن زياد ، كما أنها لم تذكر سوى الأساطين
الستة لصفته المقدمة ، والعقود الأربعة التي على الأساطين ، ولا بد أن بعض الأساطين لم تكن عليها
عقود^(٥) ، ويظهر أن شكل المسجد أيام زياد لم يكن منتظماً ، فقد كان جانبه الشمالي منزوياً لوجود
دار نافع بن الحارث في تلك الجهة ، فأبى ولده بيعها ، وبقي هذا الوضع طيلة عهد زياد ، فلما ولي
ابنه عبيد الله البصرة ، قرّر أن يهدم الدار في غياب صاحبها ، فعندما خرج عبيد الله بن نافع الى قصره
بالبطيحة أمر أن يهدم منها ما يسوى " به تربيع المسجد " فلما عاد ابن نافع أرضاه عبيد الله بن زياد
بأن " أعطاه بكل ذراع خمسة أذرع ، وفتح له في الحائط خوخة الى المسجد " ^(٦) ، وبذلك انتظم شكل
المسجد ، وتشعر الرواية أعلاه أن شكل المسجد كان مربعاً أو مستطيلاً ، وأنه لم يكن له حائط يحده
آنذاك ، بحيث أن الأبنية والمنازل كانت في أروقه ومقاصيره .

ويظهر أن أرضية المسجد كانت حتى عهد زياد تربة خالية من البلاط ، فكان المصلون اذا انتهوا
من الصلاة نفصوا أيديهم من التراب ، فلاحظ زياد ذلك فقال : " لا آمن أن يظن الناس على طول
الأيام أن نفص الأيدي في الصلاة سنة " ، فأمر بجمع الحصى وإلقائه في صحن المسجد^(٧) . ويذكر
البلاذري أن زياداً أول من اتخذ المقصورة بالمسجد^(٨) ، والأرجح أنه تشبه بمعاوية في ذلك^(٩) ، وكان
" لا يدع أحداً يني بقرب مسجد الجماعة مسجداً ، فكان مسجد عدي أقربها منه " ^(١٠) .

ونظراً لزيادة سكان البصرة وتوسعها في عهد زياد ، فقد بنى زياد سبعة مساجد أخرى منها :

- (١) البلاذري ، فتوح ، ص ٤٨٥ . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٣٣ .
- (٢) البلاذري ، فتوح ، ص ٤٨٥ (القحذمي) .
- (٣) البلاذري ، فتوح ، ص ٤٨٤ (الأصمعي) . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٣٣ .
- (٤) البلاذري ، فتوح ، ص ٤٨٤ (الأصمعي) . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٣٣ .
- (٥) العلي ، خطط البصرة ، ص ٦٦ .
- (٦) البلاذري ، فتوح ، ص ٤٨٦ (أبو عبيدة) . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٣٤ .
- (٧) البلاذري ، فتوح ، ص ٤٨٦ (أبو عبيدة) . الماوردي ، الأحكام ، ص ٢٤٤ . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٣٤ .
- (٨) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٢٠ . المرزباني ، نور القبس ، ص ٢٦٦ .
- (٩) انظر الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ١٤٩ (اسماعيل بن راشد) .
- (١٠) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٣٢ (قالوا) .

مسجد بني عدي ومسجد الأساورة ومسجد حدّان ومسجد بني مجاشع^(١)، " وكل مسجد بالبصرة كانت رحبته مستديرة فانه من بناء زياد " وربما نسب الى غيره^(٢).

وفي الكوفة اختط المسلمون مسجدها الجامع في ولاية سعد بن أبي وقاص، ذكر البلاذري " فلما انتهى الى موضع مسجدها أمر رجلا فعلا بسهم قَبِلَ مهب القبلة فأعلم على موقعه، ثم علا بسهم آخر قَبِلَ مهب الشمال وأعلم على موقعه، ثم علا بسهم قَبِلَ مهب الجنوب وأعلم على موقعه، ثم علا بسهم قَبِلَ مهب الصبا فأعلم على موقعه، ثم وضع مسجدها " (٣)، وذكر سيف أن سعدا بنى ظُلَّة في مقدمة المسجد " ليست لها مجنّبات ولا مواخير، والمربعة لاجتماع الناس لثلا يزدحموا ... وكانت ظلّته مائتي ذراع على أساطين رخام كانت للأكاسرة "، وتم حفر خندق حول صحن المسجد لثلا يقتحمه أحد البنيان^(٤)، ويستدل من هذا أن المسجد في أول الأمر لم يكن له سور يحيط به ويحميه، حتى أن الجالس فيه كان يرى من يمر من حوله^(٥).

أما المساحة التي كان يشغلها مسجد الكوفة عند تخطيطه، فان المؤرخين الأولين أمثال البلاذري والطبري لم يذكروا شيئا عنها، غير أن ياقوت حاول أن يعطينا صورة واضحة عن هذه المساحة، فذكر أن عمر بن الخطاب كتب " الى سعد أن اختط موضع المسجد الجامع على عدة مقاتلتكم، فخطّ على أربعين ألف انسان " (٦)، وروى ياقوت أيضا أن مساحة " مسجد الكوفة ستة أجرة وأقفزة " (٧).

بقي مسجد الكوفة على وضعه هذا الى أن وسعه المغيرة بن شعبة^(٨)، ولم توضح المصادر ماهية هذا الاجراء الذي قام به المغيرة، ويبدو أنه لم يكن ذا شأن، فقد ذكر سيف عن عطاء أبي محمد مولى اسحاق بن طلحة قال : " كنت أجلس في المسجد الأعظم قبل أن يبنيه زياد، وليست له مجنّبات ولا مواخير، فأرى منه دير هند وباب الجسر " (٩). وظل مسجد الكوفة على هذه الحالة بسيط البناء والتكوين الى أن تولى زياد ولاية الكوفة سنة (٥٠هـ / ٦٧٠م)، فبناه بالآجر ووسعه بحيث أصبح يتسع لستين ألف شخص^(١٠)، ذكر سيف أنه لما أراد زياد بناء مسجد الكوفة دعا ببنايين من بنائي

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٣٢ (قالوا). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٩١

(٢) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٩١.

(٣) البلاذري، فتوح، ص ٣٨٨ (أبو عبيدة). الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٤٤ (سيف) ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٢٩. وانظر خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١١٢. ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٦٣ (قالوا).

(٤) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٤٤-٤٥. ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٢٩. النويري، نهاية الأرب، ج ١٩، ص ٣٤١.

(٥) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٤٧ (سيف).

(٦) ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩١.

(٧) ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩٢ (الشعبي).

(٨) البلاذري، فتوح، ص ٣٨٩ (أبو عبيدة والمدائني).

(٩) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٤٧.

(١٠) ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩١. ذكر ابن قتيبة أن زياداً " هو باني مسجد الكوفة ". (انظر المعارف، ص ٥٦٥).

الجاهلية الذين لديهم خبرة في البناء ، فوصف لهم موضع المسجد وقدره ، وقال لهم أنه يرغب في اقامة بناء لا مثيل له ، فقال له ببناء من كان في خدمة كسرى : " لا يجيء هذا إلا بأساطين من جبال أهواز، تُنقر ثم تثقب ، ثم تحشى بالرصااص وبسفافيد^(١) الحديد ، فترفعه ثلاثين ذراعاً في السماء ثم تسقفه ، وتجعل له مجنبات ومواخير فيكون أثبت له " . فقال زياد : " هذه الصفة التي كانت نفسي تنازعني إليها ولم تعبرها " ^(٢).

ويبدو أن زيادا لم يزل يذكر تلك الأنواع من الأبنية التي رآها في القصور الكسروية في فارس عندما كان أميراً عليها لعلي بن أبي طالب^(٣) ، وأعجب بشموخها وفنها العمراني ، فلم يرَ بأساً في اقتباس بعض الأسس الحضارية المادية والمظاهر العمرانية الساسانية ، دون أن يمس ذلك مقومات الفكر الحضاري الذي جاء به الاسلام ، وهذا يدل على عمق تفكير زياد وسعة أفقه وتطلعه المستمر الى التطور والتقدم ، بما يعكس عظمة وشموخ السمات المعنوية والمادية للدولة الاسلامية التي امتد سلطانها على أرجاء واسعة حتى شملت أمماً متمدنة ذات تراث عريق .

هذا ولم تذكر المصادر تفاصيل دقيقة عن النفقات التي صرفها زياد في بناء وتوسيع المسجد ، وكل ما تذكره أنه أنفق على كل أسطوانة من أساطين المسجد ثمان عشرة مائة^(٤) . وقد اتخذ في المسجد مقصورة لنفسه ، ويبدو أنه اتخذها حين حصبه أهل الكوفة^(٥) ، ثم جدد هذه المقصورة فيما بعد خالد ابن عبد الله القسري حين ولي العراق سنة (١٠٥ هـ / ٧٣٢ م)^(٦) ، وقام زياد أيضاً بفرش صحن المسجد بالحصى مثلاً فعل في مسجد البصرة^(٧).

تلك هي أهم التجديدات التي لحقت بمسجد الكوفة في عهد زياد كما تحددها نصوص التاريخ ، ويبدو أن هذه التجديدات بقيت دون أن يطرأ عليها تغييرات جذرية ذات شأن ، فابن جبير (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) ، الذي شاهد مسجد الكوفة في النصف الثاني من القرن السادس الهجري وصفه بقوله : " جامع كبير في الجانب القبلي منه خمسة أبلطه وفي سائر الجوانب بلاطان ، وهذه البلاطان على أعمدة من السواري الموضوعة في صَمّ الحجارة المنحوتة قطعة على قطعة ، مفرغة بالرصااص ... وهي في نهاية الطول متصلة بسقف المسجد ، فتحار العينون في تفاوت ارتفاعها ، فما أرى في الارض مسجداً أطول أعمدة منه ولا أعلى سقفاً " ^(٨) ، يشعر هذا النص أن أساطين وعمد

(١) السفافيد : جمع سفود ، حديدة معققة ذات شعب . (انظر ابن منظور، لسان العرب ، جـ ٣ ، ص ٢١٨) .

(٢) الطبري ، تاريخ ، جـ ٤ ، ص ٤٦-٤٧ .

(٣) المصدر نفسه ، جـ ٥ ، ص ١٣٧ (عمر بن شبة) . ابن الاثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٣٨١-٣٨٢ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٧ ، ص ٣٣٣ .

(٤) البلاذري ، فتوح ، ص ٣٨٩ (أبو عبيدة) . ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٤٩٣ (عبد الملك بن عمر) .

(٥) الطبري ، تاريخ ، جـ ٥ ، ص ٢٣٦ . النويري ، نهاية الارب ، جـ ٢٠ ، ص ٣٢٥ . ابن خلدون ، العبر ، م ٣ ، ص ٢٠ .

(٦) البلاذري ، فتوح ، ص ٣٩٠ (أبو عبيدة) .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٣٨٩-٣٩٠ (المدايني) . الماوردي ، الأحكام ، ص ٢٤٤ .

(٨) ابن جبير ، محمد بن أحمد (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) ، رحلة ابن جبير ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٥٩ م ، ص ١٨٧-١٨٨ ، وسبشار اليه عند وروده هكذا : ابن جبير ، رحلة .

مسجد الكوفة التي وضعت في القرن الأول الهجري بقيت على حالها حتى زمن رحلة ابن جبير، إلا أنها لم تحظ - مع مرور الزمن - بالعناية الكافية، فسقطت جميعها وظلت مطمورة حتى كشف البحث الأثري آخر الأمر عن أسطوانة من تلك الأساطين التي ربما تعود إلى عهد زياد، وقد وضعت هذه الأسطوانة في وسط المسجد أمام محراب النبي (ﷺ) (١).

هكذا لفتت أهمية المسجد انتباه زياد منذ توليه لولاية البصرة، وفيما بعد عندما عُين على الكوفة، ويبدو أن تجربته كرجل دولة ومعايشته القريبة للقلقل والاضطرابات التي شهدتها العراق جعلته يدرك قيمة المراقبة لهذه المراكز (المساجد)، التي تمثل جانباً مهماً من جوانب الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية إلى جانب كونها مراكز دينية، لذلك سعى زياد إلى توسيع مساحة مساجد الجماعة كي تغطي على مساجد القبائل الصغيرة المنتشرة في خطط المدينة، حيث يُعقد فيها اجتماعات خاصة، غالباً ما تكون ضد السلطة، ومن الصعب القيام بمراقبتها، وتحسباً لقيام الاضطرابات أو الفتن من مركز المدينة (المسجد الجامع)، فقد اتخذ زياد بالبصرة "رابطة عدتهم خمسمائة وولى أمرهم شيبان صاحب مقبرة شيبان من بني سعد، فكانوا لا يرحلون المسجد" (٢).

ومهما يكن من أمر فإن اهتمام زياد ببناء وإصلاح المساجد في ولايته هو دليل آخر على استقامته ورغبته في إجراء المزيد من الإصلاحات التي ترقى بها ولايته خاصة والدولة عامة. ولم يقتصر اهتمام زياد على بناء المساجد بل تعداه إلى دور الامارة والقصور وغيرها من المعالم العمرانية.

دور الامارة

دار الامارة من أهم الأبنية في مصر، وهي المكان الذي يقيم فيه الأمير، وما يتصل به بالإضافة إلى الدواوين (٣).

في البصرة بُنيت دار الامارة منذ زمن عتبة بن غزوان، حيث بناها دون المسجد في رجة بني هاشم التي كانت تسمى (الدهناء)، وكانت المادة التي بُنيت منها الدار هي القصب، وهي المادة التي بُنيت منها مدينة البصرة في ولاية عتبة، ويبدو أن دار الامارة أقيمت على مقربة من المسجد ولم تكن ملاصقة له، حيث كانت تضم السجن والديوان (٤).

وفي ولاية أبي موسى الأشعري أعاد بناء دار الامارة باللبن والطين وسقفها بالعشب (٥)، وبهذا

(١) كاظم الجنابي، تخطيط مدينة الكوفة، ط ١، مطابع دار الجمهورية، بغداد، ١٩٦٧م، ص ١٢٢، وسيشار إليه عند وروده هكذا: الجنابي، تخطيط الكوفة.

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٢١ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٤.

(٣) العلي، خطط، البصرة، ص ٧٦.

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٣-٤٨٤ (أبو عبيدة). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٨. ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٢.

(٥) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٤ (أبو عبيدة). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٨. ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٣.

البناء البسيط تثبت مكان دار الامارة ولم يكن ملاصقا للمسجد، كما أنه لم يكن في جهة القبلة يوضح ذلك ما رواه البلاذري " وكان الامام اذا جاء للصلاة بالناس تخطاهم الى القبلة " (١).

في خلافة معاوية حول زياد دار الامارة من الدهناء وجعلها في قبلة المسجد وبناها باللبن والطين (٢)، وفتح بابا في جدار القبلة ليدخل الوالي من دار الامارة الى مصلى المسجد، فكان الامام يخرج من الدار عبر الباب الذي في حائط القبلة من غير أن يتخطى صفوف المصلين (٣)، ولا شك أن لهذا الاجراء أهميته حيث ربط دار الامارة مركز الحياة الادارية والسياسية بالمسجد الجامع الذي يعتبر مركزا للحياة الدينية والاجتماعية والفكرية.

ونقل البلاذري عن أبي عبيدة قوله : " لما قدم الحجاج بن يوسف العراق أخبر أن زياداً ابنتى دار الامارة بالبصرة، فأراد أن يزيل اسمه عنها، فهمّ بنائها بجص وآجر، فقليل له انما تزيد اسمه فيها ثباتاً وتوكّداً، فهدمها وتركها فبنيت عامة الدور حولها من طينها ولبنها وأبوابها "، وبقيت البصرة من غير دار للأمرأ حتى عهد سليمان بن عبد الملك، وكان صالح بن عبد الرحمن عامله على خراج العراق، فأخبر صالح الخليفة سليمان أنه ليس في البصرة دار امارة، وأعلمه بما فعل الحجاج، فأمره سليمان باعادة بنائها، فبناها بالآجر والجص (٤).

أما دار الامارة في الكوفة فقد بنيت حذاء المسجد الجامع الى الجهة الجنوبية (القبليّة)، وقد تمهد ببناء المسجد ودار الامارة زمن سعد دهقان من أهل همدان اسمه روزبة بن بزرجهر فخطّ القصر، وكان الناس يسمون دار الامارة بقصر سعد، وبناءه من نقض آجر قصر كان للأكاسرة في منطقة الخيرة، ووضع المسجد حيال بيت المال الى منتهى القصر على القبلة ثم حدا به عن يمين ذلك الى منقطع الرحبة التي سميت فيما بعد (رحبة علي بن أبي طالب)، فكانت قبلة المسجد الى الرحبة وميمنة القصر (٥).

بقي هذا البناء على حاله الى أن وليّ زياد الكوفة سنة (٥٠هـ / ٦٧٠م)، حيث يذكر البلاذري أن زياداً بنى مسجدها " وبنى دار الامارة " (٦)، ولم تذكر المصادر معلومات أخرى عن كيفية بناء زياد لدار الامارة والنفقات التي أنفقها في البناء، والأرجح أن زياداً لم يستحدث بناء دار الامارة بالكوفة، وربما أجرى على بناء سعد بعض التجديدات أو الزيادات، يؤيد ذلك ما ذكره ابن بطوطة الطنجي الذي زار الكوفة سنة (٧٢٦هـ / ١٣٢٥م)، حيث وصف أنقاض دار الامارة فيها بقوله :

(١) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٤ (أبو عبيدة). ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٣.

(٢) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٥ (القحذمي). ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٣.

(٣) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٤ (الأصمعي). ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٣.

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٧. ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٤.

(٥) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٤٦ (سيف). ابن الاثير، الكامل، م ٢، ص ٥٢٩. الجنابي، تخطيط مدينة الكوفة، ص ١٣٥.

(٦) البلاذري، فتوح، ص ٣٨٩ (أبو عبيدة).

"أما قصر الامارة الذي بناه سعد بن أبي وقاص (رض)، فلم يبق منه إلا أساسه" (١).
واضافة الى بناء وعمارة المساجد ودور الامارة أيام زياد، فقد أقيم في البصرة عددا من القصور
الفخمة المبنية من الآجر والجص، أهمها : قصر أوس نسبة الى أوس بن ثعلبة أحد بني تميم الله بن
ثعلبة وهو من وجوه العرب بخراسان، وقصر أنس نسبة الى أنس بن مالك الانصاري، والقصر
الأحمر لعمرو بن عتبة بن أبي سفيان، وقصر المسيرين لعبد الرحمن بن زياد، وقصر عبيد الله بن زياد
والي جانبه جوسق (٢)، وقصر زياد سمّاه الشطّار قصر النواحق (٣)، وبني زياد قصر ابن عمار ودار
البيضاء والحمراء " فلم يضافا اليه" (٤).

ويبقى عدد هذه الدور والقصور التي ذكرتها المصادر قليلا جدا، ولا بد أن هناك دوراً أخرى لم
تذكرها ولكنها بنيت زمن زياد في كل من البصرة والكوفة نتيجة استقرار الناس فيها، ونظراً لتطور
الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وربما نسبت بعض الأبنية التي أنشئت في عهد زياد الى من تلاه من
الولاة لسكانهم تلك الأبنية أو لادخالهم بعض التجديدات والتحسينات فيها، مما أدى الى ضياع
أخبار نشأة بعض تلك الأبنية، وقد أشار الجاحظ الى ما حدث في البصرة حيث قال : "من شأن
الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم وأن يميّتوا ذكر أعدائهم، فقد هدموا بذلك السبب أكثر المدن
وأكثر الحصون"، كما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر (٥)، ولعل العلاقة السلبية بين زياد
وابن عامر تفسّر لنا صنيع زياد هذا، وقد لقي زياد مثل ما لقيه ابن عامر اذ يذكر ابن الفقيه " وبني
زياد بالبصرة دار الرزق وحفر نهر الأبلّة ونهر معقل، وبني داره وبني البيضاء والحمراء فلم يضافا
اليه، وبني سكة فأسكنها أربعة آلاف من البخارية، فقبل سكة البخارية فأضيفت اليهم، وبني
سبعة مساجد فلم يضاف اليه شيء منها : مسجد الأساورة، ومسجد بني عدي، ومسجد بني
مجاهش، ومسجد حُذّان"، وأضاف ابن الفقيه " وكلما بنى فيها (في البصرة) أو صنع فإنه نسب الى
غيره مثل مسناة مصعب ونهر عدي ونهر بلبل وباب الأصفهاني وحفيرة مطيع وقصر ابن عمار وحمام
سياه وحمام فيل وحمام منجاب وقصر أوس وباب عثمان ومقبرة حصن ومقبرة بني شيبان ونهر مرة ونهر
بشار" (٦). وقد أراد الحجاج أن يطمس ذكر زياد بهدمه لدار الامارة في البصرة، ولكنه أخفق في ذلك
فتركها مهدومة (٧).

ان القائمة الواسعة التي أوردها ابن الفقيه تظهر لنا الاعمار الكبير الذي حدث في البصرة زمن
زياد، ولا ريب أن بعض تلك الأبنية كان من بنائه، وأنه أنفق عليها من بيت المال (٨)، غير

(١) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي (ت ٧٥٦هـ / ١٣٥٥م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج ٢، ط

١، المطبعة الأزهرية بمصر، ١٩٢٨، ج ١، ص ١٣٨، ويشير اليه عند وروده هكذا : ابن بطوطة، تحفة النظار.

(٢) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٥ (هشام الكلبي). وانظر ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٥٦. الجوسق : الحصن،

وقيل : هو شبيه بالحصن. (انظر ابن منظور، لسان العرب، ج ١٠، ص ٣٥).

(٣) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٥ (القحذمي).

(٤) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٩١.

(٥) الجاحظ، الحيوان، ج ١، ص ٧٣.

(٦) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٩١. العلي، خطط البصرة، ص ٥٥-٥٦.

(٧) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٧ (أبو عبيدة). ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٤.

(٨) ابن أعثم، فتوح، م ٢، ص ٣٠٨.

ان الراجح أن الدور والقصور والمقابر والحمامات بنيت بنفقات أصحابها^(١) لكونها مصالح خاصة، وهي من غير شك ثمار الرخاء الاقتصادي الذي نعمت به البصرة في عهد زياد.

لقد دفعت هذه النهضة العمرانية في مصرى العراق الى احتذاء السكان بواليتهم في بناء وتعمير بيوتهم بالأجر والخص، هذه المواد التي يُعد زياد أول من بنى بها في البصرة^(٢). ولم يكن في البصرة والكوفة أية عوارض جغرافية تحد حدودهما أو تعطل امتدادهما وتوسعهما، ولم يرد ذكر قيود وضعتها الدولة لتعطيل توسعهما إلا ما ذكر عن منع زياد بناء المساجد حول المسجد الجامع^(٣)، وكذلك ما ذكره المدائني من أن الحمامات لم تكن تبني في زمن الامويين إلا بأذن من الولاة^(٤)، ولا نعلم ان كان ما ذكره المدائني محصوراً بالبصرة أم عاماً في بقية أمصار الدولة، كما أننا لا نعلم ان كان ذلك يرجع لأسباب اقتصادية أو صحية، أو نتيجة متابعة لتقاليد كان معمولاً بها.

ولا شك في أن بناء الحمامات له تأثيره على الصحة العامة، لما تفرزه من مياه قذرة، مما قد يؤثر في الأوضاع الصحية للمنطقة، وذكر البلاذري "كان زياد يمنع الحمامات إلا في المواضع التي لا تضر بأحد"^(٥)، وقد أقيمت بالبصرة في زمن زياد حمامات عديدة منها: حمام مسلم بن أبي بكر، روى البلاذري "واتخذ مسلم بن أبي بكر حماماً ولم يكن بالبصرة غيره، فكان يستغله في كل جمعة ألف درهم وكري^(٦) حنطة"^(٧)، ثم تتابع بناء الحمامات، فبنى فيل مولى زياد حمام فيل^(٨)، وبنى المنجاب بن راشد الضبي حمام المنجاب، وبنى سياه الاسواري حماماً بأسمه، وبنى ريطة زوجة زياد حماماً باسمها^(٩)، وبنى بلج بن نشبة السعدي حمام بلج^(١٠).

ويبدو أن الحمامات كانت تدر دخلاً طيباً على أربابها أول الأمر، ذكر المدائني أن أبا بكر سأل ابنه مسلم عن سبب غناه ولم يل عملاً أو منصباً، فأجابه "اني أغتلت من حمامي هذا في كل يوم ألف

(١) العلي، خطط البصرة، ص ٥٦.

(٢) الثعالبي، لطائف المعارف، ص ١٧. القلقشندي، صبح الاعشى، ج ١، ص ٤٨٦.

(٣) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٣٢ (قالوا).

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٣ (المدائني).

(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٢٣.

(٦) الكُر: مكيال لأهل العراق، وهو يساوي عندهم ستون قفيزاً. والقفيز ثمانية مكايك والمكوك صاع ونصف. (أنظر ابن منظور، لسان العرب، ج ٥، ص ١٣٧).

(٧) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٥٠٢ (قالوا). وروى البلاذري عن القحذمي أن الحمام الثالث الذي بني في البصرة هو "حمام مسلم بن أبي بكر في بلالاباذ، وهو الذي صار لعمر بن مسلم الباهلي". (انظر الفتوح، ص ٤٩٣. ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٩).

(٨) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٣ (القحذمي). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٩ (هشام بن الكلبي). ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٩٨. وانظر الجاحظ، الحيوان، ج ٧، ص ٨٣-٨٤ (أبو عبيدة).

(٩) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٥٠٢ (قالوا). وانظر ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٩١. العلي، خطط البصرة، ص ١٣٢.

(١٠) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠٥ (عوانه). أيضاً فتوح، ص ٤٩٥ (قالوا).

درهم وطعاما كثيراً^(١)، ويظهر أن هذا الدخل المرتفع دفع الكثيرين الى استئذان الأمير في بناء الحمامات، فاستأذن كل من عبيد الله بن أبي بكرة، والحكم بن أبي العاص، والحسين بن أبي الحر العنبري، فأذن زياد لهم جميعاً^(٢). هذا وتدل كثرة الحمامات التي أنشئت في عهد زياد على اهتمام الناس بالنظافة وتطور حياتهم الاجتماعية والاقتصادية.

ويبدو أن كثرة السكان في مصرى العراق - وخاصة في البصرة - وازدحامهم في بعض الخطط جعل الاعتماد على الأفراد في نظافة طرق وسكك المدينة أمراً صعباً، وقد حاول زياد إلزام الناس بتنظيف أفنية بيوتهم وخاصة بعد سقوط المطر، إلا أن ذلك لم يؤد إلى الغاية المنشودة، فذكر المدائني "كان زياد يأخذ صاحب كل دار بعد المطر اذا أصبحت برفع ما بين يدي فئاته من الطين فمن لم يفعل أمر بذلك الطين فألقي في حجته، ويأخذ الناس بتنظيف طرقهم من القذر والكناسات ثم أنه اشترى عبيدا ووكلمهم به فكانوا يُنَحْنُون"^(٣)، هذا النص يوضح اهتمام زياد البالغ بنظافة المدن، حيث رأى في نهاية المطاف أن الأمر يتطلب توظيف أشخاص معينين مهمتهم تنظيف الطرق من القذر والكناسات، ولا نعلم ان كان هذا الاجراء قد طبقه ولاة المسلمين في الأمصار الاسلامية الأخرى، أم أن زيادا كان أول من شرع به فتابعه في ذلك ولاة آخرين.

هكذا اهتم زياد بالبناء والعمران في ولايته، فسارت الحركة العمرانية بخطوات سريعة أدارت عجلتها الظروف الاقتصادية الجيدة، والاتجاه نحو الاستقرار النهائي. والملاحظ أن البصرة أخذت في البناء باللبن والأجر والجص قبل الكوفة بزمان^(٤)، حتى فاقتها بكثرة المباني وفخامتها ولعل هذا يعود إلى ارادة عدد من ولاة البصرة في تعميرها وتنظيمها، فقليل : "أن البصرة صنائع ثلاثة رجال : عبد الله بن عامر، وزياد، والحجاج"^(٥)، كما أن مواد البناء في البصرة كانت أكثر وفرة ورخصا من الكوفة وغيرها من مدن العراق، وفي ذلك يقول الجاحظ "ولو أن رجلا ابتنى دارا يتممها ويكملها ببغداد أو بالكوفة أو بالأهواز أو في موضع من هذه المواضع فبلغت نفقتها مائة ألف درهم، فإن البصري اذا بنى مثلها بالبصرة لم ينفق خمسين ألفا، لأن الدار انما يتم بناؤها بالطين والأجر والأجذاع والساج والخشب والحديد والصناعات، وكل هذا يمكن بالبصرة على الشطر مما يمكن في غيرها"^(٦)، وعلى الرغم من هذه الايجابيات التي تميزت بها البصرة على الكوفة إلا أنه يمكن القول أن المدينتين اتخذتا شكلهما التقريبي المستقر في زمن زياد، وبدت في كل منهما صبغة تمدنية ثابتة، حيث أصبحت مواقع القبائل واضحة وتميزت المساحات الخالية.

(١) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٣. ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٥.

(٢) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٣. ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٥.

(٣) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٣٧.

(٤) ماسينيون، خطط الكوفة، ص ٤١. وانظر شارل بلا، الجاحظ في البصرة، ص ٣٥٢.

(٥) ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٥، ص ٢٥٩ (يقال).

(٦) الجاحظ، البلدان، ص ٥٠٣.

الفصل الخامس

سياسة زياد تجاه قوى المعارضة في العراق

* الخوارج .

* الشيعة .

- حركة حبر بن عدي .

* موقف زياد من بيعة يزيد .

الخوارج

لم تكن مبايعة أهل العراق لمعاوية تعني أن جميعهم قد سلّموا أمرهم للأمويين عن قناعة ورضى فقد كان الكثير منهم قد سكتوا على مضض لأن الموقف يستوجب السكوت، ولا سيما بعد أن تنحى قادتهم عن أدوارهم، ولعل بعضهم ملّ القتال والحرب فوجد في مبايعة معاوية موثلا لحياة الاستقرار والهدوء التي فقدت أو كادت أيام النزاع بين علي ومعاوية. ومهما تكن مشاعر العراقيين نحو الأمويين، فقد أدركوا أن خلافة معاوية أصبحت أمرا محتوما، فهو خليفة المسلمين بإجماع الأمة، وبخاصة أن الحسن والحسين أبناء علي بايعا له^(١).

أما الخوارج فأنهم لم يرضوا عن الصلح الذي تم بين معاوية والحسن، اذ وجدوا فيه تحطيا لأمالهم وطموحاتهم التي ترمي الى أبعاد الحكم عن كلا الفريقين، وكان معاوية أبغض اليهم من علي وأبنائه، إذ اعتبروه ملكا بينما اعتبروا علي خليفة، ووصموا بني أمية بالفسق والظلم واغتصاب الحكم^(٢)، وقد صوّر الخوارج أنفسهم بأنهم حماة الدين، فرفضوا الاستكانة في ظل العهد الجديد، وحملوا سيوفهم على عواتقهم معلّنين سخطهم على حكم معاوية، وما كان على السيادة الأمويين في العراق، إلا أن يواجهوا عسف وتمرد الخوارج ويسلكوا معهم سبيل الشدة والقمع ليأمنوا شرهم، ويحولوا دون ما يلقونه من بذور التفرقة التي كادت تؤدي بالأمة الإسلامية.

وتذكر المصادر المتوفرة عدداً من فتن الخوارج التي شبت في الكوفة والبصرة إبان سنوات خلافة معاوية، ولكن هذه الفتن سرعان ما أخذت ولم يكن لها من ثمرة إلا مضاعفة عدد القتلى، والحد من نمو وازدهار الحياة الاقتصادية.

ففي سنة (٤١هـ / ٦٦١م) استعدت جماعة الخوارج الذين اعتزلوا عليا بشهرزور وعددهم خمسمائة، بزعامه فروة بن نوفل الأشجعي^(٣)، وساروا الى معاوية حتى دخلوا الكوفة، فأرسل اليهم معاوية جندا من أهل الشام لم يتمكنوا من تفريقهم، فاستعان بأهل الكوفة لمقاومتهم وقال لهم: "لا أمان لكم والله عندي حتى تكفوا بوائقكم"، عندئذ توجه أهل الكوفة لقتال الخوارج الذين تعجبوا من موقف أهل الكوفة وقالوا لهم: "ويلكم! ما تبغون منا! أليس معاوية عدونا وعدوكم! دعونا حتى نقاتله، وإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا"، ولكن أهل الكوفة لم يستجيبوا لنداء الخوارج، وقاتلوهم قتالا شديداً حتى قتل فروة، فأفرخ روع معاوية^(٤). ويبدو أن أهل الكوفة كانوا أشد بغضا وعداء للخوارج من معاوية، لأنهم قتلوا عليا واتبعوا أساليب شنيعة في قتل الأبرياء، مما جعل الناس يستأثروا منهم ويقاومونهم بعنف.

(١) ابن العربي، العواصم، ص ١٩٩.

(٢) انظر الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٦٤ (أبو مخنف). القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٢٢٥-٢٢٦.

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٦٥-١٦٦ (عوانه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٠٩.

(٤) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٦٦ (عوانه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٠٩. وانظر اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢١٧.

٢١٧. فلهاوزن، الخوارج والشيعية، ص ٤٣.

وعندما استعمل معاوية المغيرة بن شعبة على الكوفة، لم يفتش الوالي الجديد عن أصحاب الأهواء تجنباً لاثارتهم وطمعاً في تأليفهم. في هذا الجو الملائم تنفس الخوارج الصعداء، فأخذوا يجتمعون وينظمون صفوفهم من جديد، ومنذ بداية ولاية المغيرة أخذوا بالخروج والثورة، إلا أن هذه الثورات لم تشكل خطراً كبيراً، لأنها اقتصرَت على مجموعات صغيرة لم تكلفه جهداً كبيراً في القضاء عليها^(١)، وعلى الرغم من قضاء المغيرة على ثورات الخوارج الواحدة تلو الأخرى، إلا أنه لم يكن عنيفاً في مقاومته لهم، ويصف النضر بن صالح سيرة المغيرة في أهل العراق فيقول: " فأحب العافية، وأحسن في الناس السيرة، ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم، وكان يؤتى فيقال له: ان فلانا يرى رأي الشيعة، وان فلانا يرى رأي الخوارج"، وكان يرد عليهم: " قضى الله ألا تزالون مختلفين، وسيحكم الله بين عبادِهِ فيما كانوا فيه يختلفون"^(٢). هكذا ترك المغيرة الخوارج أحراراً يلقي بعضهم بعضاً، يجتمعون ويتذاكرون أمرهم، وأبى أن يعرض لهم إلا أن يحدثوا شراً أو يبادوه بعداوة.

ويتبين للباحث في سياسة المغيرة مع رعيته من أهل الكوفة، أنها كانت تمثل نظرة الخليفة معاوية للحكم، فللحلم موضع وللسيف موضع آخر، فقد تمكن من اشغال أهل الكوفة عن معارضة الأمويين معارضة فعالة، وعمل بمنتهى الدهاء والذكاء حين جعل خصوم بني أمية من الشيعة يقاومون ويحاربون الخوارج^(٣)، ويبدو أن كبر سن المغيرة وجهه للعافية جعله أقل عنفاً وأكثر ليناً وتسامحاً، وهذا ما صرح به معاوية حين أراده الخليفة أكثر حزماً وشدة، فكتب إليه يقول: " أما بعد، فقد كبرت سني ورقّ عظمي، واقترب أجلي"^(٤)، ومهما قيل بشأن سياسة المغيرة في الكوفة^(٥)، فقد نجح نجاحاً كبيراً في إدارة ولايته التي دأبت على معارضة الحكم الأموي، كما نجح في اسكات الخوارج وتقليل خطرهم طوال مدة ولايته.

وفي البصرة وجد الخوارج مجالاً خصباً لخروجهم وممارسة نشاطهم في أوائل خلافة معاوية حيث كان هذا المصر يعج بالفوضى والفساد^(٦)، فما أن تم الصلح بين معاوية والحسن في عام الجماعة حتى غلب حمران بن أبان على البصرة ثم أن معاوية أرسل للبصرة بسر بن أبي أرطاة، فأمسك بزمَام

(١) انظر ثورات الخوارج في ولاية المغيرة لسدي: البيهقي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٢٠-٢٢١. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٧٣-١٧٥. البغدادي، عبد القاهر بن طاهر (ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م)، الفرق بين الفرق، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ص ٤٩، وسيشار اليه عند وروده هكذا: البغدادي، الفرق بين الفرق.

(٢) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٧٤. ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢١.
(٣) انظر المبرد، الكامل، م ٣، ص ٢٤١. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٨٤-١٨٥ (أبو مخنف). ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢٩.

(٤) ابن عبد ربه، العقد، ج ١، ص ٩٧.
(٥) عن الآراء التي قيلت في سيرة المغيرة في أهل الكوفة، انظر الفصل الثاني، ص ١٠٠-١٠١.
(٦) انظر الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٢. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٩، ص ٤٦٦ (اسحاق بن علي). ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٠.

الأمر فيها، وأعاد الأمن إلى نصابه^(١)، ويبدو أن الوالي الجديد لم يحسن السيرة في أهل البصرة وخاصة الشيعة منهم^(٢)، فعزله معاوية وولى مكانه عبد الله بن عامر، وذلك سنة (٤١ هـ / ٦٦١ م). كان على ابن عامر - منذ بداية عهده - القضاء على الفساد الذي استشرى في ولايته، كما كان عليه مواجهة الخوارج الذين ازداد نشاطهم في هذه المنطقة، فقد خرج عليه سهم بن غالب الهجيمي في سنة (٤١ هـ / ٦٦١ م)، في سبعين رجلا منهم يزيد بن مالك المعروف بالخطيم الباهلي، فمضوا في خروجهم حتى أصبحوا عند الجسر وكانوا يستعرضون الناس، فقتلوا رجلا وابنه وابن أخيه، فخرج اليهم ابن عامر وقتلهم فقتل منهم عدة، وانحاز بقيتهم وفيهم سهم والخطيم، فعرض عليهم ابن عامر الأمان فقبلوه فأمنهم، ولما علم معاوية بالأمر كتب إلى واليه بقتلهم فلم يستجب ابن عامر لأمر الخليفة، ورد عليه: "قد جعلت لهم ذمتك"^(٤).

وهكذا كانت سياسة ابن عامر أقرب إلى اللين والتسامح من الشدة والحزم، وقد وصفه الطبري بأنه "رجلا لينا كريما لا يأخذ على أيدي السفهاء" ففسدت البصرة بسبب ذلك أيام ولايته^(٥)، وحين أدرك معاوية عجز سياسة ابن عامر عزله عن ولاية البصرة تمهيدا لتولية زياد فكان ذلك في سنة (٤٥ هـ / ٦٦٥ م)^(٦). وإذا أردنا المقارنة بين سياسة ابن عامر وسياسة المغيرة تجاه الخوارج، فاننا نلاحظ أن ابن عامر كان ألين جانبا وأكثر تساهلا مما كان عليه المغيرة في الكوفة وربما يعود ذلك إلى حرص ابن عامر على مركزه وصلاحيات نفسه، فقد شكى سوء حال أهل البصرة إلى زياد، فقال له زياد: "جرد فيهم السيف" فقال: "اني أكره أن اصلحهم بفساد نفسي"^(٧).

كانت البصرة عندما قدم إليها زياد تموج بالخوارج في داخل المدينة وفي خارجها، وكانت غاراتهم إلى ذلك العهد أشبه بحرب العصابات، يتحركون بغتة دون أن يتوقعهم أحد فيكتسحون البلاد ويفاجئون المدن، ثم ينسحبون مسرعين تخلصا من ملاحقة جند الدولة لهم، وكان من أبرز المناطق التي يتجمع فيها الخوارج منطقة البطائح حول البصرة^(٨)، ولم يكن هذا الأمر خافيا على زياد، فكان يعرف جيدا قوة الخوارج وقدرتهم على القتال، وما يتمتعون به من روح معنوية وخشي أن تركهم

(١) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٦٧ (المدايني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٤. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٨.

(٢) انظر الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٦٩ (المدايني).

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٨٩. البلاذري، فتوح، ص ٥٧٥ (قالوا). يعقوب، تاريخ، ج ٢، ص ٢١٧. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٧٠ (المدايني).

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٧٢-١٧٣ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٧١ (المدايني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٧. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٧٧.

(٥) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٢. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٩، ص ٤٦٦ (اسحاق بن علي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٠. ابن كثير، البداية، ج ٨، ص ٢٩.

(٦) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٩٢. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٧ (المدايني). المسعودي، مروج، م ٣، ص ٣٣. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٧.

(٧) الطبري، تاريخ، م ٥، ص ٢١٢.

(٨) ليفي دلافيدا، دائرة المعارف الإسلامية، مادة "الخوارج"، ج ٨، ص ٤٧٢.

وشأنهم أن يؤلبوا الناس عليه وعلى أميره معاوية، ويروّجوا لكرههما ويدعوا المسلمين لمناهضة السياسة الأموية، فلا يكون اليوم الذي يمكن فيه وقفهم عند حدهم وقطع دابرهم، ولعل أهم ما يدل على تخوف زياد من أمر الخوارج، قوله لمرداس بن أديّة - أحد زعماء الخوارج - حين اعترض على ما جاء في خطبته البتراء قال: "إنّا لا نبلغ ما تريد وأصحابك حتى نخوض إليه الدماء" (١).

لقد سلك زياد سلوكاً فيه كثير من الحكمة ورجاحة العقل في معاملته للخوارج، حيث مزج بين الشدة والاعراء "فكان يقتل المعلن ويستصلح المُسر، ولا يجزّد السيف حتى تزول التهمة" (٢)، ومن جهة أخرى فقد عمل على تشتيت من يرون رأي الخوارج، حيث حاول جلب بعض الأقوياء والزعماء منهم إلى حظيرة الدولة، بأن أسند إليهم بعض الوظائف والأعمال، وأكثر لهم العطاء والرزق، فقد وليّ أبا الخير - أحد الخوارج الذين كان يُخشى أمرهم كما يبدو - جندي سابور، ورزقه أربعة آلاف درهم في كل شهر، فكان هذا الخارجي يقول: "ما رأيت شيئاً خيراً من لزوم الطاعة والتقلب بين أظهر الجماعة" (٣). وعلى الرغم من هذه السياسة الحكيمة التي انتهجها زياد، إلا أننا نجد أنه يتعجب من الخوارج ويتحير في أمرهم، فكان يقول: "العجب من الخوارج أنك تجدهم من أهل البيوتات والشرف وذوي الغناء وحملّة القرآن وأهل الزهد، وما أشكل عليّ أمر نظرت فيه غير أمرهم، فمن كف عني يده ولسانه كففت عنه" (٤)، وبالمقابل فإنه لم يكن يغفر لمن تظهر منه ريبة، فيصل به الأمر أحياناً إلى أهلاكه قتلاً أو سجنًا (٥).

لقد عمد زياد إلى عدد من الإجراءات الحازمة، استطاع بواسطتها الحد من نشاط الخوارج وتحركاتهم، ولعل أهم هذه الإجراءات وأكثرها نفعا أنه ألزم كل قبيلة بمن يخرج منها من الخوارج "فكانت القبائل إذا أحست بخارجية فيهم شدتهم وأتت بهم زيادا، فكان هذا أحد ما يذكر من صحة تدبيره" (٦).

ولم تقتصر شدة زياد على رجال الخوارج فحسب، بل شملت أيضاً نساءهم اللواتي كنّ يخرجن مع رجالهن، فيتلقين ويلاّت القتال والحرب إلى جانبهم في الميدان، بصورة قلما نجد لها فيما سبق من فتوح إسلامية وغزوات (٧)، ويبدو أن زيادا أدرك أن تواجد النساء في معسكر الخوارج من شأنه اذكاء حماسهم وشحن عزائمهم وزيادة استبسالهم، لذلك أراد أن يضع حداً لهذه الظاهرة، فحدث أن

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠٩ (المدائني). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢١. ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥٠. وانظر الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ٦٥. ابن عبد ربه، العقد، ج ٤، ص ١١٣ (المدائني). القالي، ذيل الأمالي، ص ١٨٩.

(٢) المبرد، الكامل، ج ٣، ص ٢٦٠.

(٣) المبرد، الكامل، ج ٣، ص ٢٦١-٢٦٢.

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠٢.

(٥) انظر المبرد، الكامل، ج ٣، ص ٢٦٢. ابن عبد ربه، العقد، ج ٤، ص ٢٦.

(٦) المبرد، الكامل، ج ٣، ص ٢٤٥. ابن عبد ربه، العقد، ج ١، ص ٢٢١. ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٣٨.

(٧) انظر سهر القلياوي، أدب الخوارج في العصر الأموي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٥، ص ٤٩، وسيشار إليه عند ورود هكذا: القلياوي، أدب الخوارج.

خرجت مع الخوارج امرأة فظفر بها زياد فقتلها ثم عراها، وقال: "أيتها امرأة خرجت فعلت بها مثل هذه" (١)، فلم تخرج النساء بعدد على زياد "وكن إذا دعين إلى الخروج قلن: لولا التعرية لسارعنا" (٢)، وبعد ولاية زياد عُدن إلى الخروج وشارك الرجال في القتال والمبارزة (٣)، وكان بعض الخوارج أنفسهم لا يبيعون خروج النساء منهم أبو بلال مرداس بن أدية (٤). وعلى الرغم من قيام زياد بهذه الإجراءات الصارمة لمكافحة خطر الخوارج، فقد تعرضت ولايته إلى عدد من ثوراتهم، ففي السنة التالية لقدم زياد البصرة خرج عليه الخطيم الباهلي وسهم بن غالب الهجيمي، اللذين كانا قد أمتهما ابن عامر بعد خروجهما عليه، وقد خرج سهم إلى الأهواز ودعا الناس لدعوته، ثم أخذ ومن استجاب لدعوته يستعرضون الناس، فقتل سهم مسلماً أعلن إيمانه بينما خلى سبيل يهود صرحوا بيهوديتهم، ثم أقبل يريد البصرة طالباً الأمان من زياد، فلم يؤمنه، بل ظل يطلبه حتى ألقى القبض عليه فقتله وصلبه على باب داره (٥)، فقال رجل من الخوارج:

فإن تكن الأحزاب بأؤوا بصلبه فلا يبعدن الله سهم بن غالب (٦).

أما الخطيم فقد سيرة زياد إلى البحرين، ثم رجع إلى البصرة، ففرض عليه زياد الإقامة الجبرية في بيته، وطلب من مسلم بن عمرو أبا قتبية أن يتفقدته، فلما أخل الخطيم بما أمره به زياد، جيء به إليه فقتله وألقى به في عشيرته (باهلة) (٧)، وأخذ زياد امرأتين أرادتا الخروج مع الخطيم يقال لهما أراكة وأم سريع فقتلها (٨).

ويظهر أن نشاط الخوارج قد توقف بعد مقتل سهم والخطيم حتى سنة (٥٠هـ / ٦٧٠م)، حيث بدأت اضطراباتهم من جديد في البصرة، وكان زياد حينئذ في الكوفة وسمره بن جندب خليفته على البصرة، ففي هذه السنة خرج قريب بن مرة الأزدي وزحاف بن زحر الطائي - وهما ابنا خالة - في سبعين رجلاً (٩)، متتهزين فرصة غياب زياد عن البصرة، فنزلوا في مقبرة بني يشكر ثم

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٧٧ (بعض الرواه).
(٢) المبرد، الكامل، ج ٣، ص ٢٤٦. ابن عبد ربه، العقد، ج ١، ص ٢٢١-٢٢٢. ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٣٨-٤٣٩. وانظر الجاحظ، الحيوان، ج ٥، ص ٥٨٨-٥٨٩ (ابان بن عثمان)، الزنجشري، ربيع الأبرار، ج ٤، ص ١٩٠.

(٣) ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٣٩.
(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٨٠ (قالوا).
(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٧٣ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٨ (المداثني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٨، ٤٥٤. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٧٨. وانظر خليفه بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٩٢.
(٦) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٧٣ (قالوا). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٨.
(٧) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٧٣ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٨ (المداثني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥٤. وانظر خليفه بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٩٤.
(٨) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٧٣ (قالوا).
(٩) خليفه بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ٢٠٧ (جيرير بن زيد). البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٧٥ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٣٧ (وهب بن جري). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٦٣.

أخذوا يستعرضون الناس فلا يمرون بقبيلة الآقتلوا من اعترض طريقهم منها^(١). ويذكر اليعقوبي أن قريبا وزحافا ومن معها من الخوارج، استعرضوا الشرط فقتلوا كثيرا منهم وساروا الى المسجد الجامع فقتلوا خلقا من الناس، ثم مالوا الى القبائل فأعملوا القتل والنهب، ولما عجز عامل زياد عن ردهم استنجد بزياد من الكوفة، فحين قدم زياد البصرة جعل يؤنب أهلها ويتوعدهم ويشرك قبائلهم في تحمل مسؤولية خروج الخوارج فقال: "يا أهل البصرة، ما هذا الذي قد اشمتم عليه؟ اني أعطي الله عهدا لا يخرج عليّ خارجي بعدها فأدع من حيّه وقبيلته أحدا، فأكفوني بوائقكم"، فقام خطباء البصرة فتكلموا واعتذروا له^(٢)، وقد خصّ زياد الأزدي بتهديده ووعيده حيث قال لهم: "يا معشر الأزدي لولا أنكم أطفأتم هذه النار لقلت: أنكم أرثتموها"^(٣)، ويبدو أن هذه القبائل أخذت قول زياد بجدية لا يشوبها هزل، فصاروا اذا علموا بخارجي بينهم قبضوا عليه وجاءوا به الى الأمير^(٤)، وكان من أمر قريب وزحاف وأصحابها أن خرج اليهم بعض رجال القبائل فقتلهم عن آخرهم^(٥)، وقد استنكر أبو بلال مرداس بن أدية خروج قريب وزحاف واستعراضهما الناس وقتلهما للأبرياء، كما أنه أبدى رضاه عن صنيع زياد حين قال: "قريب لا قربه الله من الخير وزحاف لا عفا عنه ركبها عشواء مظلمة"^(٦) يعني الاستعراض.

اشتبذ زياد في أمر الخوارج بعد قريب وزحاف، ولم يتوان في قتلهم واهلاكهم، وقد أمر سمرة بن جندب - نائبه على البصرة - بقتلهم متى ظفر بهم، فقتل منهم عددا كبيرا^(٧). ولما كان الخوارج يقتلون المسلمين الذين يخالفونهم في مبادئهم وآرائهم حتى الأطفال والنساء، لذا فقد كانوا منبوذين ومكروهين لدى كثير من الناس، وقد استغل زياد هذا الشعور فأخذ يحرض أهل البصرة على ملاحقتهم وقتلهم، وكان يهددهم بحرمانهم من العطاء ان تهاونوا في قتال الخوارج، قال: "أي خارجة خرجت من قبيلة فلم تقاتلها كما فعلت بنو راسب حرمتهم العطاء وأجلبتهم"^(٨).

(١) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ٢٠٨-٢٠٩ (سعيد بن يزيد). البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٧٦-١٧٧ (قالوا). المبرد، الكامل، ج ٣، ص ٣٤٤-٣٤٥. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٣٧-٢٣٨ (وهب بن جرير). ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ٤، ص ١٣٥.

(٢) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٢.

(٣) المبرد، الكامل، ج ٣، ص ٢٤٥. ابن عبد ربه، العقد، ج ١، ص ٢٢١.

(٤) المبرد، الكامل، ج ٣، ص ٢٤٥.

(٥) المبرد، الكامل، ج ٣، ص ٢٤٥. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٣٨ (أبو عبيدة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٦٣. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ٤، ص ١٣٥. ابن الغملاس، ولاة البصرة، ص ٨٧.

(٦) المبرد، الكامل، ج ٣، ص ٢٤٥. ابن عبد ربه، العقد، ج ١، ص ٢٢١. وانظر خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ٢١٠ (سعيد بن يزيد). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٣٨ (وهب بن جرير).

(٧) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ٢١٠ (وهب بن جرير). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٣٨ (وهب بن جرير). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٦٥٣. ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٣٥٤. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، م ٤، ص ٢٠٧.

(٨) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٧٦ (قالوا). وانظر الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٣٨ (أبو عبيدة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٦٣.

ويتبين لنا من تحريض زياد لأهل البصرة على قتال الخوارج أن عددهم كان كبيراً في مصر، وأنهم كانوا ينتشرون في الأحياء، وبين مختلف العشائر ويخفون في البيوت، مما يشعر بتدني سلوك بعضهم من الالتزام بمبادئهم والجهاد جهاراً من أجلها إلى سلوك أشبه بأفعال اللصوص والمجرمين، بحيث يصعب على السلطة دون مساعدة أهل مصر مراقبتهم والقبض عليهم.

وقد استعمل زياد لحراسة المسجد الجامع وباب عثمان شيان بن عبد الله السعدي، صاحب مقبرة شيان، فجذ في طلب الخوارج وأخافهم، فلم يزل كذلك حتى أتاه ليلة بعض الخوارج، وهو متكئ على باب داره فقتلوه وقتلوا بعض ولده^(١)، وكان رئيسهم عباد بن حضين، فخرج اليهم بشر ابن عتبة التميمي في الشرطة فقاتلهم حتى قضى عليهم، وكان زياد بعدها إذا أخذ رجلاً من الخوارج قال: "اقتلوه متكئاً كما قتل شيان متكئاً"^(٢).

وفي سنة (٥٢هـ / ٦٧٢م)، خرج على زياد في الكوفة زياد بن خراش العجلي في ثلاثمائة من أصحابه فنزلوا الأخنونية من أرض مسكن، فأرسل إليهم زياد خيلاً عليها أحد قادته فقتلهم^(٣). وفي السنة ذاتها خرج على زياد أيضاً معاذ الطائي في ثلاثين رجلاً من أصحابه، فبعث إليهم قوة تمكن من القضاء عليهم جميعاً، ويقال لهم أصحاب نهر عبد الرحمن بن أم الحكم^(٤).

إن أعمال الخوارج هذه لتبدو وكأنها ضرب من ضروب المغامرة، غير أنها لم تكن غريبة على سلوكهم، فهم لا يتحرجون من القيام بهذه الأعمال وأمثالها، وهي أعمال ربما دلت على تمسك بعضهم بالمبادئ، تلك المبادئ التي اعتقدوا فيها أنهم وحدهم على حق وأن غيرهم من المسلمين على باطل، مما جعلهم يلجأون إلى الشدة مع أعدائهم، ولم يكن زياد يبغي الشدة مع الخوارج إلا لردهم عن غيهم، فقد جيء له بعروة بن أذية الخارجي، فأمر بقتله حين أصر على اعتقاده وسبه وسب أميره معاوية سباً قبيحاً^(٥)، ثم نجده يبعث إلى الرجل الذي يستسلم من الخوارج فيعطيه ويكسوه ويقول له: "ما أراه منعك من اتياننا إلا الخلة والرجلة"^(٦). وهكذا فقد استطاع زياد - بدهائه حيناً وبقسوته حيناً آخر - أن ينشر الأمن والاستقرار في سائر مناطق ولايته، كما تمكن من

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٧٤ (قالوا). المبرد، الكامل، ج ٣، ص ٢٦٣. ابن دريد، الاشتقاق، ص ٢٥٣. ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٥٤.

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٧٤ (قالوا). المبرد، الكامل، ج ٣، ص ١٦٣. وانظر ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٥٤. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ٥، ص ١٠٠.

(٣) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٧٧ (قالوا). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٩١. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٨٣. وانظر البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٤٩.

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٧٧-١٧٨ (قالوا). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٩١. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٨٣.

(٥) المبرد، الكامل، م ٣، ص ١٨٠-١٨١. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ٢، ص ٨٠، ص ٢٧٤، بينما يذكر ابن الأثير أن عبيد الله بن زياد هو الذي قتل عروة بن أذية. (الكامل، م ٣، ص ٥١٨).

(٦) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٧٤ (قالوا). وانظر المبرد، الكامل، م ٣، ص ٢٦١. التنوخي، الفرق بعد الشدة، ج ١، ص ٧٦ (المدايني).

اتحاد نشاط الخوارج الذين رضخوا لقوته وأجبروا على طلب الأمان واعتزال السياسة في عهده استجابة لكلمته في الخطبة البتراء "كفوا عني أيديكم وألسنتكم أكف يدي وأذاي" (١).

يتضح مما تقدم أن الخوارج قاموا بثورات عديدة في ولاية زياد وكانت جُل هذه الثورات قد قامت في البصرة ومنطقتها، بينما نجد خوارج الكوفة - في الفترة نفسها - أكثر سكوناً وأقل نشاطاً، ولعل هذا يعود إلى كثرة عددهم في البصرة، وقتلهم في الكوفة مركز الشيعة هؤلاء الذين كانوا على طرفي نقيض من الخوارج، ولقد أثرت ثورات الخوارج تأثيراً واضحاً على الدولة الأموية وعلى العراقيين على حد سواء، فقد اضطر زياد وغيره من ولاة بني أمية أن يكونوا مستعدين دوماً لمواجهة هذه الثورات ومقاومتها والقضاء عليها، فتحملت الدولة نتيجة لذلك أموالاً طائلة وأرواحاً كثيرة، ولا ريب أن الناحية الاقتصادية قد تأثرت في هذا المجال وبخاصة التجارة، وذلك لما كان يحدثه هؤلاء الخوارج من قطع طرق المواصلات بين المدن والمناطق المختلفة، كما سيطر على الناس في العراق جو من الفزع والخوف لعلمهم أن الخوارج لا يتورعون عن احراق القرى وقتل كل من يخالفهم في العقيدة حتى وإن كان طفلاً أو امرأة (٢).

لقد تناول بعض المستشرقين علاقة زياد بالخوارج، فذكر فلهاوزن أن الخوارج كانوا مختلفين فمنهم الورع الملتزم بالمبادئ، ومنهم المتطرف قليل المبالاة بالمبادئ، فلم يتعرض زياد إلى أهل الورع منهم، بل ضرب على أيدي المجرمين الذين قام الدليل على إجرامهم "وهو لم يلجأ إلى المذابح الرادعة... أما ما يروى عن أفعال زياد خلافاً لذلك فيجب أن يعتبر تشنيعاً مغرضاً" (٣). وفي موضع آخر قال فلهاوزن أنه لا محل "للكلام عن قسوة زياد على الخوارج وإنما فعل ما يقضي به منصبه وما يفرض عليه القرآن" (٤). أما خودا بخش "Khuda Bakhsh" فيعتقد أن شدة زياد مع الخوارج جعلتهم يترددون في القيام بالثورة، فما أن أدركوا قلة فرص الثورة في عهد زياد حتى آثروا الهجرة من العراق، وسموا أنفسهم "مهاجرين"، وسموا كل مكان قصدوه "دار هجرة"، متشبهين بمن هاجروا من مكة إلى المدينة (٥). وإذا كان زياد قد تشدد كثيراً في أمر الخوارج، فإنه إنما كان يمثل لأمر وإرادة أميره معاوية، وذلك بعد أن أخفقت سياسة اللين والمداراة التي اتبعها أسلافه مع الخوارج، فنجح زياد حيث أخفق سواه.

(١) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٠ (المدايني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٩. وانظر الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ٦٣.

(٢) الراوي، العراق في العصر الأموي، ص ٢٤٢-٢٤٣. Hiskett, The story of the Arabs, P. 69. Spuler, Bertold, The Muslim world, Translated from the German F. R. C. Bagley, Leiden, E. J. Brill, 1960, Vol. I, P. 37.

(٣) فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١٢٢.

(٤) فلهاوزن، الخوارج والشيعة، ص ٦٢.

(٥) Khuda Bakhsh, Contributions to the History of Islamic Civilization, 2Vols, Calacuta, (٥) 1930, II, P. 176-177.

ومما يلاحظ أن ثورات الخوارج التي قامت في ولاية زياد أخفقت مبكرا، وتم القضاء عليها قبل أن يتسع نطاقها، فلم تحقق شيئا من أهدافها التي كانت تسعى إليها، والمرجح أن أسباب ذلك الاختفاق تنحصر فيما يلي :

١ - السياسة الحكيمة التي انتهجها زياد مع الخوارج، وقد أوضحنا معالم هذه السياسة فيما سبق .
٢ - كان الخوارج يخرجون فرقا متعددة في أعداد قليلة نسبيا، وفي أوقات متباعدة مما أدى إلى تفتيت وحدتهم وأضعاف قوتهم، فسهل على زياد مقاومتهم والقضاء عليهم دون أن يكلفه ذلك جهد كبير.

٣ - الأفعال الوحشية التي كانوا يحدثنها من قتل الأطفال والنساء، وقتل كل من يخالفهم في مبادئهم، وقطع طرق التجارة وكسر الخراج، مما أدى إلى كرههم لدى العراقيين عامة فأخذوا يساعدون الولاة في القضاء عليهم.

٤ - غلبة مذهب التشيع على أهل الكوفة، ومناقضة ذلك المذهب لمبادئ الخوارج، وكره الشيعة خاصة وأهل الكوفة عامة للخوارج، لخروجهم على علي بن أبي طالب وتكفيرهم إياه، مما جعل هؤلاء لا يترددون في الوقوف إلى جانب الولاة في مقاومة الخوارج.

الشيعة

لم يقيم الشيعة بأية حركة سياسية أو عسكرية منذ تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية ومغادرته الكوفة إلى المدينة، بيد أنهم لم يكونوا راضين عن الحكم الأموي، فقد خبيت خلافة معاوية أمالهم في إقامة خلافة علوية، ولم يكن هذا رأي الشيعة وحدهم، بل اتفق معهم في هذا الرأي جُلُّ أهل الكوفة، فكانوا يعتبرون عليا الشخصية السياسية التي حققت الاستقلال للعراق^(١).

إن السنة التي استنتها معاوية في سب علي بن أبي طالب على المنابر^(٢)، جعلت الشيعة يتحمسون لقضيته، وإن كان المعروف عن العراقيين بعامة وأهل الكوفة خاصة أنهم يكتفون بالحساسة، لكن هذه الحساسة لم تتعد العاطفة إلى العمل الإيجابي الأقل، إنهم غالبا ما يرفضون الحاكم ويثورون عليه، وخاصة إذا لمسوا فيه لينا أو ضعفا، لكنهم سرعان ما يخضعون له خشية من شدته وبطشه ويأثرونه متى لمسوا فيه قوة وحزما^(٣). وقد عرف أميرهم المغيرة هذا الأمر منهم، فسار فيهم سيرة معتدلة أيسر من سيرته مع الخوارج، فلم يعرض لهم بشر أو أذى، وربما بادؤوه بالكلام القاسي الغليظ، فرد عليهم برفق ناصحا لهم ومحبا إليهم العافية ومذكرا إياهم بطش السلطان وسطوته^(٤)، ثم لم يؤذهم بعد ذلك في أنفسهم أو أموالهم.

(١) فلهاوزن، الدولة العربية، ص ٦٣.

(٢) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٣ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٢.

(٣) العش، الدولة الأموية، ص ١٣٣.

(٤) انظر : البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٤٣-٢٤٤ الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٤-٢٥٥ (أبو مخنف).

لقد انتفع الشيعة من سياسة المغيرة اللينة، فنظموا أمورهم، وعارضوا السياسة الأموية معارضة حرة كان معاوية يخشاها، ولكنه لم يجد على أصحابها سيلا، وقد ظل المغيرة والياً على الكوفة مدة تجاوزت التسعة أعوام بأشهر قليلة^(١)، لم ينكر الشيعة خلالها منه شيئاً ذا خطر إلا عييه لعل شيعة، وتأخير العطاء أحياناً^(٢)، وقد كان مضطراً إلى ذلك بحكم السياسة الجديدة وكانت الشيعة تلقى ذلك منه بالنكران مرة، والاضضاء مرة أخرى.

بعد وفاة المغيرة سنة (٥٥٠ هـ / ٦٧٠ م) ضم معاوية ولاية الكوفة لزياد،^(٣) ولا نستطيع أن نصف نظرة أهل الكوفة للوالي الجديد، الذي كان بالأمر واحد من شيعة علي وعاملاً له على فارس^(٤)، وهو اليوم يعمل في خدمة معاوية، هذا إلى جانب كونه أخ الخليفة بالاستلحاق، ويبدو أن نظرة أهل الكوفة إلى زياد تبلورت بعد أن ألقى عليهم خطبته الأولى، وفيها بين الخطوط العامة التي يريد السير عليها في سياسته لهم، ولم يتوعددهم ويتهدهم مثلما فعل مع أهل البصرة من قبل^(٥)، وكأنهم ظنوا أن واليهم الجديد لا يخلو من الدين أو الضعف، فما أن فرغ زياد من خطبته تلك حتى حصبوه، وربما اعتقدوا أنه مثل المغيرة سيغفر لهم هذا الصنيع، ولكن زياد أراد أن يؤكد لهم حزمته وشدة منذ البداية، فأخذ تلك الفئة التي اجتأت عليه وعاقبها عقاباً شديداً^(٦). هكذا اختلفت سياسة زياد مع الشيعة عن سياسة سلفه "المغيرة" الذي كان يتساهل أمام الأقوال، فرأى زياد أن يلجم الأقواء فلا يدع سيلاً لترجمة الأقوال إلى أفعال.

والواقع أن شيعة علي في الكوفة كانوا - في هذه الفترة - قوة كبيرة جعلت الكوفة تتسم بأنها المركز الأول للمعارضة الشيعية، وقد فجر الشيعة في هذا المصر أكثر من حركة احتجاج على الحكم الأموي كان أولها حركة حجر بن عدي الكندي وأصحابه.

✽ حركة حجر بن عدي

توجد تفصيلات دقيقة وواضحة عن هذه الحركة لدى كل من الطبري والبلاذري، وقد نقل الطبري معظم رواياته عن أبي مخنف وعوانة بن الحكم، أما البلاذري فيزودنا بتفاصيل أوسع وأدق كان أولها حركة حجر بن عدي الكندي وأصحابه.

(١) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٤. (أبو مخنف). لاحظ كيف أن مدة ولايته "سبع سنين وأشهر" على ما يبدو تصحيف "لثبع سنين" ولاحظ كيف اختلفت رواية عوانة التي تجعل وفاة المغيرة سنة (٥١ هـ / ٦٦١ م)، ص ٢٥٥، والأرجح أن المغيرة بقي على الكوفة حتى توفي.

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ص ٢٤٣-٢٤٤. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٤ (أبو مخنف). (٣) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٠ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٣٤ (المداثني). العسكري، الأوائل، ص ٢٤١ (المداثني). ابن الأثير، الكامل م ٣، ص ٤٦١.

(٤) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٧٤. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٣٧ (عمر بن شبة). المسعودي، مروج، م ٣، ص ١٥ (أبو عبيدة). ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٩ (أبو المهاجر القاسي).

(٥) أنظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٧-١٩٨ (ابن الكلبي). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٣٤-٢٣٥ (مسلمة).

(٦) أنظر ابن بكار، الأخبار الموقفيات، ص ٣١٠-٣١١ (الشعبي). البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٧٥ (المداثني). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٣٥ (مسلمة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٦١-٤٦٢.

للأحداث من وجهة النظر العراقية وغير العراقية، فهو يأخذ عن أبي مخنف وعوانة وابن الكلبي، واهيشم بن عدي، وابن سيرين هذا إضافة إلى عدد من الروايات الجمعية.

وحجر بن عدي المعروف بـ "ابن الأدبر" و "حجر الخير"^(١) من أبرز رجال كندة، وأحد قراء الكوفة^(٢)، وفد على النبي (ﷺ) هو وأخوه هانيء بن عدي، وكان في ألفين وخمسمائة من أهل العطاء، وقد شارك حجر في حركة الفتوح ابتداءً فشهد القادسية.^(٣) وكان على ميمنة جيش هاشم ابن عتبة بن أبي وقاص في جلولاء^(٤)، وهو الذي فتح مرج عذراء في بلاد الشام^(٥).

أقام حجر بالكوفة كواحد من أبرز الشخصيات التي تجتمع عليها الكلمة، وتنقاد إليها أئمة الزعامة والرئاسة في الوسط الشيعي، فقد عرف عنه إخلاصه لعلي بن أبي طالب، حيث شارك معه في موقعي الجمل وصفين^(٦) وكان على ميمنته في النهروان^(٧)، ويذكر الدينوري أن علياً أراد أن يوليّه رئاسة قبيلته "كندة"، على أن يعزل الأشعث بن قيس فأبى حجر أن يلي هذا الأمر والأشعث على قيد الحياة^(٨)، وظل مخلصاً لعلي طوال خلافته، ثم للحسن من بعده. ويصف الدينوري موقف حجر من تنازل الحسن لمعاوية بقوله: وكان حجر أول من لقي الحسن وندّمه على ما صنع، ودعا إلى رد الحرب، وقال للحسن: 'يا ابن رسول الله لوددت أني مت قبل ما رأيت، أخرجتنا من العدل إلى الجور، فتركنا الحق الذي كنا عليه ودخلنا في الباطل الذي كنا نهرب منه'^(٩).

ويبدو أن معاوية قد لمس روح التشيع الزائد لدى حجر وبعض أصحابه، لذلك نجده يطلب من المغيرة - عامله على الكوفة - أن يأخذ حجراً وسليمان بن صرد وشبث بن ربعي وابن الكواء وعمر بن الحمق بالصلاة في الجماعة "فكانوا يحضرون معه في الصلاة"^(١٠)، وهؤلاء كانوا من أعوان

(١) ابن سعد، الطبقات، ج ٦، ص ٢١٧. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٦٨ (هشام بن محمد). ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٤، ص ٢٦٣. ابن الأثير، أسد الغابة، م ١، ص ٣٨٥. ابن كثير، البداية، ج ٨، ص ٥١.

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٧١ (وهب بن جرير). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٦٥ (أبو مخنف).

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج ٦، ص ٢١٧. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٦٨ (ابن الكلبي). ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٤، ص ٤٦٣. ابن الأثير، أسد الغابة، م ١، ص ٣٨٥-٣٨٦.

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٣٦٩ (قالوا).

(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٦٨ (ابن الكلبي). ابن دريد، الاشتقاق، ص ٣٦٤. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٤، ص ٢٦٣.

(٦) ابن سعد، الطبقات، ج ٦، ص ٢١٧-٢١٨. ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٣٤. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٦٨ (ابن الكلبي). وانظر نصر بن مزاحم، صفين، ص ١١٧، ٥٠٧.

(٧) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٨٥ (أبو مخنف). وانظر ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج ١، ص ١٥٦، ابن الأثير، أسد الغابة، م ١، ص ٣٨٥.

(٨) الدينوري، الأخبار، ص ٢٢٤.

(٩) الدينوري، الأخبار، ص ٢٢٠ (قالوا). وانظر البلاذري، أنساب (محمد باقر)، ج ٣، ص ١٥١ (قالوا).

(١٠) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٧٩ (الملائني).

علي وأشد الناس حباله فاهتمام معاوية بأمرهم دليل على رغبته في أن يأخذ أهل الكوفة بالشدة والحزم ليظهروا طاعتهم للأمراء، وأن يعلمهم أن طاعة الأمراء أمر لا ينبغي التردد فيه والالتواء به، وأن من لم يعط الطاعة لا أمان له.

كان أول احتجاج شيعي على المغيرة بسبب سبه لعلي بن أبي طالب، وقد تزعم حجر بن عدي هذا الاحتجاج في المسجد الجامع^(١)، فقد ألّب الناس على الأمير واتهمه بتأخير العطاء: "حرمت الناس أرزاقهم وأخرت عنهم عطاءهم"^(٢)، وقد وجد احتجاج حجر مساندة بين أصحابه مما يشعر بتزايد بعض القبائل بحيث أن العطاء لم يعد يكفيها، ولا نعرف بالتحديد عدد الذين أزرؤا حجرا في احتجاجه، فيذكر أبو مخنف أنهم ثلث الناس في المسجد^(٣)، ويقدرهم البلاذري في رواية أخرى بأنهم أكثر من ثلاثين رجلا^(٤)، ويفهم من هذا أن الاحتجاج كان عفويا ولم يسبقه أي تخطيط أو تنظيم، ويبدو أن المغيرة لم يحفل بهذا التحدي العلني الذي أظهره حجر، بل اكتفى بتحذيره من غضب السلطان.^(٥) وفي خبر ينفرد به الدينوري أنه استرضاه بخمسة آلاف درهم^(٦)، وقد غضبت ثقيف على المغيرة لموقفه التسامح، فقال له قومه يلومونه: "علام ترك هذا الرجل يقول هذه المقالة ويجترئ عليك في سلطانك هذه الجرأة فأجابهم المغيرة: أي قد قتلته، انه سيأتي أمير بعدي فيحسبه مثلي فيصنع به شيئا بما ترونه يصنع بي، فيأخذ عند أول وهلة فيقتله شر قتلة"، ثم أضاف معللا سياسة اللين والتسامح التي اتبعها مع حجر وغيره من أهل الكوفة: "ولا أحب أن ابتدء أهل المصر بقتل خيارهم"^(٧)، ولم تذكر المصادر المتوفرة أن المغيرة اتخذ أي إجراء ضد حجر وأصحابه حتى توفي سنة (٥٠ هـ / ٦٧٠ م)، فتولى إمرة الكوفة من بعده زياد.

وتشعر الروايات أن زيادا كان صديقا لحجر أيام علي عندما كانا رفاقا منطلقا واحدا^(٨)، ولكن

-
- (١) البلاذري، أنساب (احسان عباس) ق ٤، ج ١، ص ٢٤٣ (أبو مخنف). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٤-٢٥٥ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٧٩. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ٤، ص ٥٨.
- (٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٤٤ (أبو مخنف). وانظر الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٤-٢٥٥ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٧٩. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٣.
- وذكر يونس بن عبيد أن معاوية استمد من ولاية الكوفة أيام المغيرة فمنع حجر العير من الذهب إلى دمشق مؤكدا أن هذا في أهل الكوفة. (ابن كثير، البداية، ج ٨، ص ٥٢).
- (٣) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٥. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٤، ص ٢٦٥ (أبو معشر). ويذكر النويري أنه قام مع حجر أكثر من ثلثي الناس. (نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٣٠).
- (٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٤٤ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٧٩. ويروي الذهبي أن حجرا عسكر في ثلاثة آلاف بال سلاح وخرج عن الكوفة. (سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٤٦٣).
- (٥) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٤ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٧٩. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٣. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٢٢.
- (٦) الدينوري، الأخبار، ص ٢٢٣ (قالوا).
- (٧) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٥ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٧٩-٨٠. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٣. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٢٣.
- (٨) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٤٥ (أبو مخنف). وانظر الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٧٩ (المدايني).

زياداً أصبح نصيراً مخلصاً لمعاوية ومناضلاً لترسيخ دعائم دولته، بينما بقي حجر على اخلاصه علي، فكان التناقض واضحاً في مسلك الشخصيتين، وتُظهر الروايات أن زياداً أراد - ابتداءً - أن يأخذ حجراً بالدين والرفق لعله يستطيع اقناعه بتأييد الوضع الراهن، ففي رواية أموية أنه حاول استمالة حجر لكنه لم يستجب له^(١)، وفي رواية أخرى لوهب بن جرير تبدو نبرة أموية أيضاً، فيبين أن زياداً كشف للحجر عما في نفسه، وبين له أن كل ما كان يضمه من حب وتأييد علي قد تحول إلى معاوية، ثم طلب منه أن يصحبه إلى البصرة لئلا يحدث حدثاً، ولكن حجراً رفض طلب زياد بحجة أنه مريض ولا يستطيع السفر^(٢). وفي رواية نقلها البلاذري بصيغة إسناد جمعي عن أبي مخنف وغيره، أنه لما قدم زياد إلى الكوفة بعث إلى حجر فقال له: "قد بلغني ما كنت تصنع بالمغيرة، وما كان يحتمل منك، واني والله غير محتملك، والرائد لا يكذب أهله، وأنت الأثير عندي ما لم تبسط لساناً ولا يدا بشيء مما أكرهه"^(٣)، هذا النص يتضمن تحذيراً شديداً للهجرة من زياد لحجر، حتى لا يطمع الأخير في تغاضي زياد عن سلوكه ويستغل صداقتها السابقة في إثارة الفتنة.

ويبدو أن زياداً قد تحرّج في أمر حجر وأصحابه، حتى أنه أشعر معاوية بنشاطهم، فكتب إليه يخبره بأن حجراً وأصحابه "يردون أحكامي وقضايائي"^(٤)، وكان الذي حمل زياد على قول ذلك أن حجراً وأصحابه حاولوا التدخل في قضاء زياد بشأن رجل من بني أسد قتل نبطياً أسلم حديثاً، فكان رد معاوية يحمل زياد على التريث في أمرهم حتى تقوم عليهم الحجة^(٥).

ونقلت المصادر روايات متباينة عن خروج حجر وأصحابه، فيذكر عوانة أن أصحاب حجر تهرأوا على خليفة زياد في الكوفة (عمرو بن حريث)، وحصبوه وهو يخطب، لأنه لعن علي بن أبي طالب، فلما علم زياد بالخبر قدم إلى الكوفة، وتوجه حال وصوله إلى المسجد، فوجد حجراً جالساً في المسجد وحوله "أصحابه أكثر ما كانوا"^(٦)، ولا يشير عوانة إلى اعتقاله، بينما يبين وهب بن جرير أن حجراً اختفى عندما علم بمجيء زياد، وأن زياداً جعل يطلبه فلا يقدر عليه^(٧). وفي رواية أخرى يعطي ابن سيرين تصوراً آخر لخروج حجر، حيث يذكر أن زياداً خطب يوماً في الجمعة وأطال الخطبة، فاحتج حجر على تأخير زياد للصلاة، وضرب بيده إلى كف من الحصى وثار إلى

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٤٢ (عوانة). وأنظر ابن سعد، الطبقات، ج ٦، ص ٢١٨.

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٧٠-٢٧١. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٤، ص ٢٦٦.

وأنظر اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٠.

(٣) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٤٥. الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٠.

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٥٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٥٣.

(٦) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٦. الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٠. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٣-٤٧٤.

ابن كثير، البداية، ج ٨، ص ٥٢-٥٣.

(٧) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٧١.

الصلابة فثار الناس معه^(١)، وتتفق رواية الهيثم بن عدي مع رواية عوانة المذكورة أعلاه في أن حجراً وأصحابه حصصوا عمرو بن حريث، وأن زيادا كان في البصرة حينئذ^(٢). ولا نعرف على وجه التحديد كم كان عدد أصحاب حجر، ويبدو أنه تزعم مجموعة كبيرة من شيعة مصر، فقد قال زياد لأشراف الكوفة: "أنتم معي وأخوانكم وعشائركم مع حجر"^(٣).

يعرض أبو مخنف في رواياته المتسلسلة كيفية طلب حجر واعتقاله، ويوضح مواقف القبائل المختلفة، وردود فعل الكوفيين، كما يبين علاقة أشراف القبائل ورؤسائها بالسلطة^(٤)، وقد اتبع زياد أساليب إدارية حكيمة في القبض على حجر وهو بين أهله وأنصاره في الكوفة، إذ استعان أول الأمر بالشرطة الذين لم يوفقوا في اعتقال حجر، حيث منعهم أصحاب حجر من بلوغ صاحبهم^(٥)، ويستأنف أبو مخنف - في نقل الطبري - روايته فيقول أن زياداً عمد بعد ذلك إلى تهديد أهل الكوفة بأنه سيأتي بأقوام يؤدبهم بهم فقال: "يا أهل الكوفة أتشجعون بيد وتأسون بأخرى! أبدأكم معي وأهواؤكم مع حجراً... أنتم معي وأخوانكم وأبنائكم وعشائركم مع حجراً هذا والله من دحسكم وغشكم! والله ل تظهرن لي براءتكم أو لا تينكنم بقوم أقيم بهم أودكم وصعركم"^(٦)، ويظهر أن موقف زياد كان صعباً، بحيث أنه لجأ إلى التهديد والوعيد لمنع أهل الكوفة من الالتفاف حول حجر، فلما تأكد له ولاء زعماء أهل الكوفة وعدم جديتهم في تأييد حجر، أمر كل واحد منهم أن يدعوا أقرباءه ومن يطيعه من عشيرته إلى عدم مساندة حجر والكف عن تأييده^(٧)، ويبدو أن زياداً نجح في استخدام الأشراف والزعماء لتخذيل أبناء عشائرتهم عن حجر حتى أنه لم يثبت معه سوى قرابته من بني جيلة من كندة^(٨) رغم تهديدات زياد لهم.

ولما رأى زياد تفرق أصحاب حجر حتى لم يبق معه إلا طائفة قليلة، أرسل إليه صاحب شرطته شداد بن الهيثم الهلالي مع "الخمراء"^(٩)، وأمرهم أن يقاتلوا بعمد السوق ويأتوه بحجر، ويبين أبو

(١) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٦. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٤، ص ٢٦٥.
(٢) البلاذري، أنساب، (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٤٧. وانظر الدينوري، الأخبار، ص ٢٢٣ (قالوا). ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٤، ص ٢٦٥ (أبو معشر).
(٣) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٨ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٢. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٤.

(٤) أنظر الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٧-٢٥٨.
(٥) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٧ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٤.
(٦) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٨-٢٥٧. الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٢. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٤.
(٧) النوري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٣٢.
(٨) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٤٦ (أبو مخنف). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٨ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٢. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٤.
(٩) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٥٠ (الهيثم بن عدي). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٦١ (أبو مخنف). ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٢٣.
(٩) انظر معنى الخمراء عند ابن منظور، يفهم منه أنهم "الذين لا سلاح معهم". (لسان العرب، م ٤، ص ٢١٠).

مخنف أن مناوشات دارت بين الشرطة وأصحاب حجر وعلى رأسهم عمرو بن الحقيق الخزاعي وأبو العمرطة عمير بن يزيد الكندي من بني هند، وعبد الله بن خليفة الطائي، لكن هذه المحاولة لم تؤد إلى اعتقال حجر، الذي استطاع أن ينجو ويتنقل من محلة إلى محلة ومن بيت إلى آخر^(١)، وقد ساعده في ذلك العطف العام الذي كان إلى جانبه، فوجد ملجأ له حيثما سعى، ولكنه لم يشأ جلب الضرر على من يلجأ إليهم، فكان يترك مكانه كلما اقترب منه رجال الشرطة، ويبدو من تتبع الروايات لأماكن تنقل حجر أثناء اختفائه بالكوفة التزام أصحاب هذه الدور بالمساخنة الشيعية^(٢)، وقد أتاح هذا الموقف لأصحاب حجر أن يختفوا ليال متتاليات دون أن تتمكن شرطة زياد من القاء القبض عليهم.

وكانت آخر وسيلة لجأ إليها زياد في القبض على حجر بعد أن أعياه اعتقاله، بسبب اختفائه في سكك ودور المصر، أن استعان بالقبائل وندبها لهذه المهمة، وكان من الممكن أن يكون للعصبية القبلية شأن غير محمود في هذه الأحداث، لولا أن زيادا تمكن بدهائه وذكائه من تسخير هذه القوة الكامنة لمصلحة السلطة. فيذكر أبو مخنف أن زيادا أرسل همدان وقيس وهاويز وأبناء أعصر ومذحج وأسد وغطفان إلى جبانة كندة ليأتوه بحجر، ثم أنه كره أن يسير طائفة من مضر مع طائفة من أهل اليمن فيقع بينهم اختلاف، فتشتعل نار العصبية القبلية بينهم في هذه المناسبة الحرجة، لذلك أمر زياد أن تقيم قيس وهمدان وأبناء أعصر وأسد وغطفان، وندب القبائل اليمنية لتأتيه بحجر، فأمر مذحج وهمدان أن يمضوا إلى جبانة كندة، بينما أرسل الأزدي وبجيلة وخشم والأنصار وخزاعة وقضاة إلى جبانة الصائدين، ولم تخرج حضرموت مع أهل اليمن لمكانهم من كندة^(٣).

ويبين كل من الكلبي وأبي مخنف أن زيادا أعقب خطته في توزيع القبائل الكوفية ومحاصرة حجر، بأن عمد إلى تهديد رؤسائها والضغط عليهم، وفيهم محمد بن الأشعث الكندي، الذي هدده زياد بقوله "لتأتينني بحجر أو لا أدع لك نخلة إلا قطعتها، ولا دارا إلا هدمتها، ثم لا تسلم مني، أقطعك إربا إربا"^(٤)، ويبدو أن حجرا قد سمع بهذا التهديد فخشي أن يظل على موقفه فيعرض قومه للأذى، لذلك قرر أن يسلم نفسه، فأرسل إلى محمد بن الأشعث يطلب منه أن يذهب ونفر من

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٤٨-٢٤٩. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٨-٢٥٩. الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٢-٨٣. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٤-٤٧٥. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٣٣.

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٥٠ (أبو مخنف والكلبي)، ص ٢٧١ (وهب بن جبر). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٨، ٢٦٤ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٥ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٦-٤٧٥.

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٦٠-٢٦١. الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٤. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٥. وانظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٥٠ (قالوا).

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٥٠ (الكلبي). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٦٣ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٦ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٦. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٣٣.

قومه الى زياد ليأخذوا منه أمانا حتى يبعث به الى معاوية فأجابهم زياد الى ما طلبوه فأرسلوا الى حجر فجيء به ، وما أغنى عنه قومه ولا من كان يظن أنه سينصره ، فأودع السجن^(١) عشر ليال^(٢) ، استطاع زياد خلال هذه الفترة إلقاء القبض على معظم أصحاب حجر ، وقد بلغ مجموع رؤوس هذه الحركة الذين قبض عليهم أربعة عشر رجلا من الشيعة^(٣) ، أخذ منهم اثني عشر رجلا أثناء سجن حجر ، وقبض على اثنين آخرين بعد إرسال حجر وأصحابه الى الشام^(٤) ، وكانوا : حجر بن عدي ، والأرقم بن عبد الله الكندي ، وشريك بن شداد الحضرمي ، وصيفي بن فسيل الشيباني ، وقبيصة بن ضبيعة العبسي ، وكريم بن عفيف الخثعمي ، وعاصم بن عوف البجلي ، وورقاء بن سمي البجلي ، وكدام بن حيان العنزي ، وأخوه عبد الرحمن بن حيان من بني هُميم ، ومحرز بن شهاب المنقري ، وعبد الله بن حوية الأعرجي ، وعتبة بن الأحنس من بني سعد بن بكر ، وسعيد بن نمران الناعطي من همدان^(٥) . ويذكر أبو مخنف أن التهمة التي وجهت الى حجر وأصحابه أنه : " جمع اليه الجموع ، وأظهر شتم الخليفة ودعا الى حرب أمير المؤمنين ، وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب " ^(٦) .

ويورد ابن الكلبي ، أنه عندما خرج حجر وأصحابه من سجن زياد متوجهين الى الشام ، قام عبيد الله بن الحر الجعفي بحث الناس على مساعدته لتخليص حجر وأصحابه من رجال زياد ، ولكنه لم يجد من يؤازره^(٧) ، وإذا استثنينا هذه البادرة ، فإننا لا نجد أية بادرة أخرى قام بها أهل الكوفة لانقاذ حجر وأصحابه بشكل جاد .

وبين أبو مخنف والمدائني أن زياداً أشهد أهل الكوفة على حجر وأصحابه بتهمته خروجهم على الجماعة ، ويظهر أنه أشهد أولاً رؤوس الأرباع وكانوا يومئذ عمرو بن حريث على ربع المدينة ، ونخالد ابن عرفطة على ربع تميم وهمدان ، وقيس بن الوليد بن عبد شمس المخزومي على ربع كندة وربيعة ،

(١) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٥١-٢٥٠ (الكلبي) . الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٦٤ (أبو مخنف) . الدينوري ، الأخبار ، ص ٢٢٣ (قالوا) . الأصفهاني ، الأغاني ، م ١٧ ، ص ٨٧ (أبو مخنف) . ابن الأثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٧٦ .

(٢) الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٦٥ (أبو مخنف) . الأصفهاني ، الأغاني ، م ١٧ ، ص ٨٧ (أبو مخنف) . البيهقي ، الأعلام بالحروب ، ج ١ ، ص ٣٢٨ . ابن كثير ، البداية ، ج ٨ ، ص ٥٣ .

(٣) هكذا وصفهم البلاذري بأنهم شيعة ، أنظر : أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٥٣ (قالوا) .

(٤) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٥٩ (المدائني) . الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٧٢ (أبو مخنف) . ابن عساکر ، تاريخ / خط ، م ٢ ، ص ٦٦٨ (أبو مخنف) . ابن الأثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٨٤ .

(٥) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٥٤-٢٥٣ (قالوا) . الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٧٢-٢٧١ . الأصفهاني ، الأغاني ، م ١٧ ، ص ٩١-٩٠ (أبو مخنف) . ابن عساکر ، تاريخ / خط ، م ٢ ، ص ٦٦٨ (أبو مخنف) . ابن الأثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٨٣ . ابن كثير ، البداية ، ج ٨ ، ص ٥٣-٥٤ .

(٦) الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٦٨ . ابن الأثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٨٣ . ابن كثير ، البداية ، ج ٨ ، ص ٥٣ . ابن خلدون ، العبر ، م ٣ ، ص ٢٦ .

(٧) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٥٦ . الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٧١ (أبو مخنف) .

وأبو بردة بن أبي موسى الأشعري على ربيع مذحج وأسد^(١)، ويبدو أن أهل مصر اعتبروا ذلك تواطؤاً من رؤوس الأرباع عليهم، فأخذوا يتعرضون لهم^(٢)، مما اضطر زياد إلى توسيع الشهادة، ويذكر أبو مخنف أنه قرأ شهادة رؤوس الأرباع، وطلب من الناس أن يشهدوا على مثل شهادتهم^(٣)، فشهد من أهل الكوفة سبعون رجلاً، ثم قلصهم زياد إلى أربعين، هذا ولم تورد المصادر المتوفرة قائمة بأسماء جميع الشهود، ويظهر من بعض الأسماء التي ذكرت أن الشهادة كانت لوجوه وأشرف مصر وبعض من عرفوا بحسبهم وصلاح دينهم، وأكثرهم من ربيعة وأقلهم من اليمانية^(٤)، ويبدو أن زياداً خشي من رد الفعل القبلي في الكوفة، لذلك فقد عمل على توزيع الشهادة على مختلف القبائل في مصر ولم يخص بها قبيلة دون سائر القبائل، كما أنه لم يخص بها ربيعة دون اليمانية. ويذكر المدائني أن بعض الوجوه زاغوا عن الشهادة ومنهم المختار بن أبي عبيد الثقفي^(٥)، ويبدو أن المدائني أراد اظهار التزام المختار بعلي، فحاول أن يصور موقفه من هذه الحركة بما يتفق والدور الذي لعبه فيها بعد، والمدائني في الرواية ذاتها يحاول أن يعطي الصفة الحزبية للشهادة على حجر وأصحابه، حيث يشير إلى دور العثمانية فيها^(٦). وأما ما تورده رواية ابن الكلبي من أن زياداً كتب شهادة شريح بن الحارث الكندي القاضي وكان غائباً، فلما علم بذلك كتب إلى معاوية يتنصل من شهادته المزورة ضد حجر، ويشهد له بالعفة والورع والالتزام بفرائض الاسلام^(٧)، فرواية ضعيفة، إذ لا يعقل أن يقوم زياد - وهو المعروف بدهائه وسعة أفقه - بإدخال شهادة زائفة، قد تثير الشك في سائر الشهادات، كما أنه كان في غنى عن شهادة شريح، فقد بلغ عدد الشهود في هذه القضية ابتداءً من سبعين رجلاً، فقلصهم زياد إلى أربعين، وتوضح الروايات للمرة الأولى تمسك بعض الشيعة بالولاء لعلي بن أبي طالب، فيذكر أبو مخنف أن صيفي بن فسيل الشيباني أصر على رأيه في علي بن أبي طالب، حتى بعد أن عذبه زياد وألقى به في السجن^(٨).

يروي ابن الكلبي أن زياداً سير حجر وأصحابه إلى الشام بأمر من معاوية مكبلين بالسلاسل

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٥٥ (المدائني). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٦٨ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٧٩ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٨٣.

(٢) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٦٨ (أبو مخنف).

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٦٩. الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٩.

(٤) انظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٥٤ (قالوا)، ص ٢٥٥ (المدائني). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٦٩-٢٧٠ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٩-٩٠ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٨٣.

(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٥٥. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٧٠ (أبو مخنف).

(٦) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٥٥.

(٧) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٥٥-٢٥٦. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٧٢ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٩١ (أبو مخنف). ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٢، ص ٦٦٩ (أبو مخنف).

(٨) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٥١-٢٥٢. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٦٦-٢٦٧. الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ١٨٨ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٧.

ووجه معهم شبت بن ربيعي الرياحي، ووائل بن حجر الحضرمي، وابن مصقلة بن هيرة الشيباني وكثير بن شهاب الحارثي^(١)، وهذا مناقض لما أورده الدينوري، حيث يذكر أن زياداً أرسل حجر وجماعته إلى معاوية مع مائة جندي، وبعث معهم ثلاثة أفراد ليشهدوا عليهم عند معاوية وهم: أبو بردة بن أبي موسى، وشريح بن هاني الحارثي، وأبو هنيذة القيني، وقد شهد هؤلاء عند معاوية على حجر وأصحابه فأمر بقتلهم^(٢).

ويبدو أن حجراً لم يلق معاوية بل سار مع أصحابه إلى مرج عذراء^(٣)، حيث أمر معاوية بحبسهم هناك^(٤)، أما ما ذكرته رواية ابن سيرين من أن حجراً أدخل على معاوية فسلم عليه، ولم يرد عليه معاوية السلام وأمر بقتله^(٥) فرواية ضعيفة، وقد أبدى البلاذري شكه في هذه المقابلة^(٦)، وهي تنسجم مع الخط الذي انتهجه ابن سيرين في رواياته التي تعطي تصوراً شعبياً لحجر وتبالغ في أخباره وتحاول اظهار تدينه وتمسكه بالفرائض مع التلميح إلى أنه قتل مظلوماً^(٧).

وعندما وصلت شهادة الشهود إلى معاوية أخذ يقرأها على أصحابه من وجوه أهل الشام، ويستشيرهم في أمر حجر وأصحابه، فأشار عليه بعضهم بالحبس، وأشار البعض الآخر بالنفي، وأقام معاوية وقتاً لا يقطع في أمرهم برأي حتى كتب إليه زياد يعجب من ترددده وعدم جديته، ويقول له: "إن كانت لك في مصر حاجة فلا تردن حجراً وأصحابه"^(٨)، هنالك استبان الرأي لمعاوية، فأمر بقتل حجر وستة من أصحابه، بينما عفا عن الباقيين بشفاعاة بعض أصحابه من قومهم، وتتفق الروايات على اظهار أسلوب معاوية في استجابته للاعتبارات القبلية^(٩)، حيث قبل شفاعاة أهل الشام في بعض أصحاب حجر ورفضها في آخرين، وكان الناجون من أصحاب حجر:

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٥٦. ويذكر أبو مخنف أن زياداً دفع شهادة الشهود إلى وائل بن حجر الحضرمي، وكثير بن شهاب، وأمرهما أن يخرجوا بحجر وأصحابه. (الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٧٠. ابن عساکر، تاريخ، جزء تراجع حرف العين المتلوة بالألف، ص ٨١ (الحسن بن عثمان). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٣).

(٢) الدينوري، الأخبار، ص ٢٢٣-٢٢٤ (قالوا).

(٣) عذراء: قرية بغوطة دمشق من اقليم خولان واليها ينسب مرج عذراء. (ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٩١).

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٥٦ (ابن الكلبي). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٧٢ (أبو مخنف). ابن عساکر، تاريخ، خط، م ٤، ص ٢٧٠.

(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٦١-٢٦١. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ١، ص ٣٣٠. ابن عساکر، تاريخ، خط، م ٤، ص ٢٦٥. ابن كثير، البداية، ج ٨، ص ٥٤.

(٦) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٦١.

(٧) انظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٦١-٢٦١.

(٨) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٥٧ (ابن الكلبي). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٧٣-٢٧٢. الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٩٢ (أبو مخنف). ابن عساکر، تاريخ، خط، م ٢، ص ٦٦٩ (أبو مخنف).

(٩) انظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٥٧ (ابن الكلبي). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٧٤.

ابن عساکر، تاريخ، جزء تراجع حرف العين المتلوة بالألف، ص ٨١ (الحسن بن عثمان). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٤. أبو الفدا، المختصر، ج ١، ص ١٨٦.

كريم بن عفيف الخثعمي ، وعبد الله بن حوية التميمي ، وعاصم بن عوف البجلي ، وورقاء بن سمي البجلي ، والأرقم بن عبد الله الكندي ، وعتبة بن الأحنس من بني سعد بن بكر، وسعيد بن نمران الهمداني^(١)، وقد رفض معاوية قبول شفاعة مالك بن هبيرة السكوني في حجر بن عدي ، وقال : " هذا رأس القوم ، وهو أنغل المصّر وأفسده ، ولئن وهبته لك اليوم لتحترج أن تقتله غدا " ^(٢) . وتنقل لنا الروايات تفصيلاً مأساوياً لمقتل أصحاب حجر الذي تم سنة (٥١ هـ / ٦٧١ م) ، وتتنق على أن المقتولين منهم هم : حجر بن عدي وشريك بن شداد الحضرمي ، وصيفي ابن فسيل الشيباني ، وقبيصة بن ضبيعة العبسي ، ومحرز بن شهاب المنقري ، وكدام بن حيّان العنزي^(٣) .

لم توضح الروايات موقف معاوية من ولاء أصحاب حجر لعلي بن أبي طالب ، حيث لا تعطه الأهمية التي أخذتها عند زياد ، ولا يرد سوى رواية واحدة لأبي مخنف تبين أن معاوية طلب من عبد الرحمن بن حيّان العنزي أن يسبّ علياً عنده فرفض ، فيما كان منه إلا أن بعثه إلى زياد في الكوفة ، فدفنه زياد حياً^(٤) .

تبين لنا الروايات اتجاهاً عديدة لرد الفعل على مقتل حجر وأصحابه ، ففي الكوفة كان رد الفعل قليلاً وإقليمياً ، يذكر أبو مخنف أن الناس كانت تقول أن أول ذل دخل الكوفة مقتل حجر بن عدي^(٥) . وقد ترك لنا الشعر شواهد حية على ردود الفعل الكوفية ، تعبر بصديق عن مشاعر العصبية القبلية من جهة ومشاعر العصية للمصر من جهة أخرى ، وتحدث عن الحزن الشديد لمقتل حجر وأصحابه من الشيعة^(٦) ، هذا الحزن الذي أورث مبغضة جديدة لدولة بني أمية من تلك المبغضات التي كمنت وطالت حتى نسبت أسبابها وبقيت نوازعها . أما في غير الكوفة فقد بينت روايات أخرى تعاطفاً كبيراً مع حجر وأصحابه عن كثير من الشيعة وغير الشيعة ، ومنهم السيدة عائشة أم المؤمنين (رض) التي حاولت أن تنقذ حجراً وأصحابه من هذه النهاية المؤلمة ، ولكن سبق

-
- (١) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٦٢ (قالوا) . الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٧٧-٢٧٨ . الأصفهاني ، الأغاني ، م ١٧ ، ص ٩٤-٩٥ (أبو مخنف) . ابن عساکر ، تاريخ / خط ، م ٢ ، ص ٦٧١ (أبو مخنف) .
 (٢) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٥٧ (ابن الكلبي) . وانظر الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٧٨ (أبو مخنف) . ابن عساکر ، تاريخ / خط ، م ٢ ، ص ٦٧١ (أبو مخنف) . ابن الأثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٨٤ .
 (٣) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٦٢ (قالوا) . الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٧٧ . الأصفهاني ، الأغاني ، م ١٧ ، ص ٩٤ (أبو مخنف) . وانظر خليفة بن خياط ، تاريخ ، ج ١ ، ص ١٩٩ .
 (٤) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٦٢ (قالوا) . الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٧٧ . الأصفهاني ، الأغاني ، م ١٧ ، ص ٩٤ (أبو مخنف) . ابن عساکر ، تاريخ / خط ، م ٢ ، ص ٦٧١ (أبو مخنف) . ابن الأثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٨٦ .
 (٥) الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٧٩ . الأصفهاني ، الأغاني ، م ١٧ ، ص ٩٥ . ابن الأثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٨٧ . ويروي الدينوري أن أهل الكوفة استفظعوا مقتل حجر وأصحابه استفظاعاً شديداً ، (الأخبار الطوال ، ص ٢٢٤) .
 (٦) انظر البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٦٩-٢٧٠ . الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٨٠-٢٨٥ . ابن عساکر ، تاريخ / خط ، م ٤ ، ص ٢٧٥-٢٧٦ (أبو مخنف) . ابن الأثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٧٨-٤٨٢ . الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٣ ، ص ٤٦٥-٤٦٦ .

سيف معاوية العذل ، فوصل رسولها بعد مقتلهم ، وقد لامت عائشة (رض) معاوية على قتله حجر فقالت له : " يا معاوية أما خشيت الله في قتل حجر وأصحابه ؟ " قال : " اني لم أقتلهم ، انما قتلهم الذين شهدوا عليهم " (١). ويروى البلاذري أنه لما نعى حجر الى عبد الله بن عمر - وكان في السوق - أطلق صوته ، وقام وقد غلب عليه النحيب (٢). وقد سخط الربيع بن زياد الحارثي والي زياد على خراسان لمقتل حجر ، فقال معبرا عن سخطه : " لا تزال العرب تقتل صبورا بعده ، ولو نفرت عند قتله لم يقتل رجل منهم صبورا ، ولكنها أقرت فذلت " (٣). كما استنكر الحسن البصري مقتل حجر ووصفه بأنه كان خصلة من عدة خصال كن في معاوية " لو لم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة " (٤)، ويرى طه حسين أن مقتل حجر كان من الاحداث الكبار في الدولة الأموية وأنه كان صدعا في الاسلام (٥).

ويعتبر بعض المؤرخين زياداً المسؤول الأول عن قتل حجر وأصحابه ، فيروى الدينوري أن مالك ابن هبيرة دخل على معاوية وقال له : " يا أمير المؤمنين أسأت في قتلك هؤلاء النفر ولم يكونوا أحدثوا ما استوجبوا به القتل " ، فقال معاوية : " قد كنت هممت بالعفو عنهم إلا أن كتاب زياد ورد علي يعلمني أنهم رؤساء الفتنة ، وإني متى قتلتهم اجتثت الفتنة من أصلها " (٦)، ولكن زياد لم يدع معاوية الى قتل حجر وأصحابه ، بل أشار عليه أن لا يعيدهم الى الكوفة ، حيث قال : " فان كانت لك في مصر حاجة فلا تردن حجر وأصحابه " (٧)، ولو كان زياد حريصا على قتل أصحاب حجر جميعا لما سكت حين قبل معاوية شفاعاة أهل الشام في بعضهم ، وهكذا كان قتلهم بإرادة معاوية وليس بتحريض من زياد ، حتى أن من استنكر هذا الأمر لام معاوية ولم يلم زيادا .

وهناك من يدافع عن زياد ومعاوية معا في هذه القضية ، فيرى ابن العربي انه لو كان قتل حجر ظلما محضا " لما بقي بيت إلا لعن فيه معاوية ... ولكن حجرا - فيما يقال - رأى من زياد أمورا منكرة فحصبه وخلعه ، وأراد أن يقيم الخلق للفتنة ، فجعله معاوية ممن سعى في الأرض فسادا " (٨). أما

(١) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٦٥ (الكلبي وقناة) ، ص ٢٦٨ (عوانة) . الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٧٩ (أبو مخنف) . ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ق ١ ، ص ٣٣١ (أبو سعيد المقبري) . ويذكر ابن لهيعة أن معاوية رد على عائشة بقوله : " يا أم المؤمنين اني رأيت قتلهم اصلاحا للأمة وأن بقاءهم فساد " . (البسوي ، المعرفة والتاريخ ، م ٣ ، ص ٣٢٠-٣٢١ . ابن عساکر ، تاريخ / خط ، م ٤ ، ص ٢٧٣ . ابن كثير ، البداية ، ج ٦ ، ص ٢٣١) .

(٢) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٦٢ (عمرو الناقد) ، ص ٢٦٦ (ابن عون) . ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ق ٤ ، ص ٣٣٠ (المدائني) .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٩١ (المدائني) . ابن الاثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٩٥ . ابن خلدون ، العبر ، م ٣ ، ص ٣٠ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٧٩ . ابن الاثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٨٧ . ابن أبي الحديد ، نهج البلاغة ، ج ١٦ ، ص ١٩٣ . أبو الفدا ، المختصر ، ج ١ ، ص ١٨٦ .

(٥) طه حسين ، الفتنة الكبرى ، ص ٢٤٥ .

(٦) الدينوري ، الأخبار ، ص ٢٢٤ . وانظر الخربوطي ، تاريخ العراق ، ص ٩٨-٩٩ . ويقول العسقلاني أن زيادا " هو الذي سعى في قتل حجر بن عدي ومن معه " . لسان الميزان ، ج ٢ ، ص ٤٩٤ .

(٧) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٥٧ (ابن الكلبي) . الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٧٣ .

(٨) ابن العربي ، العواصم ، ص ٢١٣ .

جولد تسهير فيرى أن الأمويين ومنهم معاوية وزيايد كانوا يرون أن الشيعة وإن ثاروا لأسباب دينية فهم عصاة ناثرون، وهم أعداء الاسلام لأنهم يحاولون تهديد وحدة الدولة، وأن الأمويين يرون أنه لا يجوز الفصل بين صالح الدولة والاسلام^(١). ويقف لامنس موقفًا وسطًا بين المدافعين والمتهمين، فيرى أن ضعف سياسة المغيرة من جهة، وشدة زياد من جهة أخرى كانا السبب في ثورة الشيعة التي أدت إلى مقتل حجر وأصحابه^(٢).

ويتضح لنا بما تقدم أن حركة حجر لم تكن ثورة مسلحة ولكن معاوية اهتم بها اهتماماً بالغاً خوفاً من الفتنة، وتجنباً للخطأ الذي وقع به الخليفة عثمان بن عفان، فرأى أن يأخذ حجراً وأصحابه بأقصى العقوبة قبل أن يستطير شرهم ويكون في ذلك من البلاء على المسلمين ما هو أعظم من قتل حجر وأصحابه^(٣)، ولا سيما في مثل الكوفة التي أخرجت العدد الأكبر من أهل الفتنة الذين بغوا على عثمان بسبب اللين والتسامح.

ومهما يكن من أمر فإن هذه الحركة الكوفية تعد أول تعبير شعبي منظم واجه السلطة الأموية وأثبت صدق ولاء أصحابها لعلي بن أبي طالب وآل البيت، ومع أن حجراً وأصحابه كانوا قليلي العدد وانتهت محاولتهم بالقتل، إلا أن تعاطف أهل الكوفة عامة ومساندة الشيعة خاصة لهم، عمل على ترسيخ هذه المحاولة لدى الشيعة منتظرين فرص أخرى.

ورغم استنكار الكثيرين لمقتل حجر وأصحابه، إلا أن زياداً جدياً في مطاردة وتصفية أنصار حجر في الكوفة، فأخذ من قدر عليه منهم، وهرب بعضهم خوفاً من قسوة الوالي، ومن هؤلاء عمرو بن الحمق الخزاعي^(٤) ورفاعة بن شداد البجلي، يروى البلاذري أنها مضيا إلى أرض الموصل وأقاما في جبل من جبالها، إلى أن علم بسرهما، فانهزم رفاعة وقبض على عمرو، فأرسل به إلى والي الموصل - وكان يومئذ عبد الرحمن بن أم الحكم - فقتله وبعث برأسه إلى دمشق^(٥)، وتبين الروايات أنه أول رأس حمل في الاسلام^(٦). وادعى رشيد الهجري لأصحابه أنه رأى علي بن أبي طالب بعد مقتله مسحى

(١) جولد تسهير، العقيدة والشريعة، ص ٨٢-٨٣.

(٢) Lammens, Ziad Ibn Abihi, P. 223-224

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٧٨. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٧.

(٤) عمرو بن الحمق الخزاعي : صاحب النبي (ﷺ) ونزل الكوفة، وشهد مع علي بن أبي طالب مشاهد كلها، وكان فيهم سار إلى عثمان وأعان على قتله. (أنظر ابن سعد، الطبقات، م ٦، ص ٢٥. ابن حبيب، المحرر، ص ٢٩٢. ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٩١-٢٩٢. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٣، ص ١١٧٣-١١٧٤. ابن الأثير، أسد الغابة، م ٤، ص ١٠٠).

(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٧٢ (قالوا)، ص ٢٧٣ (الهشم بن عدي). يعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣١-٢٣٢. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٦٥ (أبو مخنف والمجالد بن سعيد) الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٧-٨٨ (أبو مخنف). ابن عساکر، تاريخ / خط، م ١٣، ص ٤٣٥-٤٣٦ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٧. أما رفاعة بن شداد، فقد بقي إلى أن قتله المختار سنة ست وستين. (خليفة بن خياط، الطبقات، ص ١٥٢).

(٦) العباس بن بكار الضبي، أخبار الوافدات من النساء على معاوية، ص ٥٢ (أبو بكر الهذلي). البخاري، التاريخ الصغير، م ١، ص ١٣١ (جواد الضبي). ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٩٢، ٥٥٤. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٧٣ (أبو اسحاق). الشاشتي، الديارات، ص ١٧٩. العسكري، الأوائل، ص ٢٣٤ (قالوا). الطبراني، الأوائل، ص ١٠٧ (هنيدي بن خالد الخزاعي). ابن عساکر، تاريخ، جزء تراجم النساء، ص ٤٣.

يفهم الكلام " ويرد السلام ويتنفس تنفس الحي " ، فبلغ ذلك زياداً فقتله وصلبه على باب دار عمرو بن حريث^(١). ويذكر ابن حبيب أن زياداً صلب مسلم بن زيمر وعبد الله بن نُجَحي الحضرميين على أبوابها أياماً بالكوفة وكانا شيعيين ، وذلك بأمر من معاوية^(٢).

ويظهر أن شدة زياد هذه حالت دون قيام أية معارضة علنية - فردية كانت أم جماعية - ضد الولي في الكوفة ، على أن مقتل حجر وأصحابه كان له تأثير شديد على أهل الكوفة عامة والشيعية خاصة ، ويبدو أنه كان سبباً مهماً لاتحاد المعارضة القبلية مع المعارضة الدينية^(٣) ، كما دفعهم ذلك إلى التنظيم السري ضد الحكم الأموي ، وإن كان زياد في ولايته قد حذرهم من الاجتماعات السرية ، وسمح لهم بتداول الحديث في المسجد^(٤) ، وقد ظهرت نتائج هذا التنظيم فيما بعد عندما حاول أهل الكوفة الاتصال بالحسين بن علي بعد موت أخيه الحسن ، يرغبونه بالمجيء إلى مصرهم ، ولكنه خيَّب آمالهم وردَّ عليهم بضرورة السكنية ما دام معاوية حياً^(٥). وإذا كانت الكوفة قد نعمت بالاستقرار والهدوء أيام زياد نتيجة لحزمه وشدته فقد حرمت منهما بعده ، ولم يتمكن خلفاؤه - أمثال الضحاك بن قيس وعبد الرحمن بن أم الحكم - من ضبط الأمن والنظام .

أما عن علاقة زياد بالشيعية في البصرة ، فالظاهر أنها لم تكن سلبية ، وأعتقد جازماً أن ذلك يعود إلى عدة أسباب منها : أن الشيعة كانوا قلة في البصرة ، وقد عُرف ذلك عن البصرة حتى في الفترات التي تلت ولاية زياد^(٦) ، ثم أن زياداً كان يعرف الشيعة جيداً في هذا المصر ، فكان من أصحاب علي ابن أبي طالب ، وهو شخصية معروفة في البصرة منذ زمن عمر بن الخطاب ، الأمر الذي جعله من المطلعين على آراء كثير من الناس وأهوائهم السياسية ، وبطبيعة الحال كانت معرفته بالشيعة - وهم أصحابه السابقين - أكثر من معرفته بالفرق والجماعات الأخرى ، مما جعل زعماء الشيعة يركنون إلى الهدوء والسكنية في عهده ، يقول فلهاوزن في هذا الصدد : " وفي البصرة لم يكن للشيعة في الحملة كبير شأن ، وهم لم يخلقوا المتاعب ، وكان لرئيسهم شريك بن الأعور الحارثي مكان كريم عند زياد^(٧) ، وإذا كان زياد قد ألقى القبض على عبد الله بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، وأرسله مقيداً إلى الشام حسب طلب الخليفة^(٨) ، فإن هذا لا يدل على تمرد عبد الله على السلطة

(١) ابن حبان ، المجروحين ، جـ ١ ، ص ٢٩٣-٢٩٤ (الشعبي) . ابن عساكر ، تاريخ / خط ، م ٦ ، ص ٥٠٣ (المدائني) .

الذهبي ، ميزان الاعتدال ، ج ٢ ، ص ٥٢ (الشعبي) . العسقلاني ، لسان الميزان ، ج ٢ ، ص ٤٦١ (الشعبي) .

(٢) ابن حبيب ، المحبر ، ص ٤٧٩ . وانظر البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٢١ (قالوا) .

(٣) فلهاوزن ، الخوارج والشيعة ، ص ١٥٩ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٣٦ (المدائني) . ابن الاثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٦٢ .

(٥) الدينوري ، الأخبار ، ص ٢٢١-٢٢٢ .

(٦) راجع أقوال محمد بن علي بن عبد الله بن عباس لرجال الدعوة العباسية لدى ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج ١ ، ص ٢٠٤ .

(٧) فلهاوزن ، الدولة العربية ، ص ١٢٢ .

(٨) المسعودي ، مروج ، ج ٣ ، ص ١٧ . ابن أبي الحديد ، نهج البلاغة ، ج ٨ ، ص ٣٢ (المرزباني) .

الأموية، وربما حصل ذلك نتيجة للبغضاء القديمة التي ترجع الى زمن علي بن أبي طالب، وموقف هاشم العدائي من معاوية^(١).

وإذا أردنا تحليل سياسة زياد تجاه الشيعة في العراق، لوجب علينا القول بأنه كان مضطراً لاتباع سياسة حازمة وقاسية معهم لأنهم بادؤوه بالعداء، فهم الذين حصبوه في أول يوم قدم فيه الى الكوفة، والواقع أنه لم يُسرف في قتلهم كما يصور البعض^(٢)، بل راقب حركاتهم وحاول أن يحد من نشاطهم، توازره على ذلك قبائل الكوفة التي عرف كيف يستميلها بدهائه ولباقتة، فجعل رؤساء العشائر مسؤولين عما يليهم، وعمن يقدم على الاخلال بالأمن والنظام، دونما حاجة الى استخدام الشرطة إلا في الأحوال الاضطرابية، وهكذا حتى صار الناس يكتمون تشيعهم ليلي، وركدت حركة التشيع العلوية الى حين.

موقف زياد من بيعة يزيد

لم تكن فكرة الوراثة في الملك مألوفة لدى العرب، مما جعل اعتقاد هذا المبدأ أمراً ليس من السهل تنفيذه، فقد جهد معاوية بضع سنوات حتى تمكن من التمهيد لها، ولقد أشار معاوية عقب وفاة الحسن بن علي على المغيرة بن شعبة وزياد أن يبعثا اليه في دمشق بوفدين من ذوي الميل الى وراثة الملك وأخذ البيعة ليزيد، فكان المغيرة عند حسن ظن الخليفة به، حيث أرسل وفداً من أهل الكوفة ليؤكدوا لمعاوية أن مصرهم يقبل البيعة ليزيد^(٣). أما زياد فيذكر المدائني أنه استشار في هذا الأمر عبيد بن كعب النميري فقال له: "إن أمير المؤمنين كتب اليّ يزعم أنه قد عزم على بيعة يزيد، وهو يتخوف نظرة الناس... ويزيد صاحب رسله وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد"، ثم طلب زياد من عبيد أن يلقي معاوية ويخبره بأحوال يزيد ويوصيه بالأناة في الأمر، فان ذلك أجدر أن يحقق لمعاوية ما يريد، فقال له عبيد: "لا تفسد على معاوية رأيه ولا تمقت اليه ابنه"، واقترح عبيد أن يلقي يزيد سراً وينصح به بالابتعاد عما ينقمه عليه الناس، وقد قبل زياد هذا الاقتراح وعمل به، فبعث عبيد بن كعب الى دمشق ليلقي يزيد، وكتب هو الى معاوية يدعوه الى الثأني وعدم استعجال الأمر فقبل معاوية نصيحة زياد، وحاول يزيد في الوقت نفسه أن يكف عن كثير مما كان يصنع^(٤).

(١) المسعودي، مروج، جـ ٣، ص ١٧.

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠٢، ٢٧٦ (الحسن البصري). ابن أعثم، فتوح، م ٢، ص ٣٢٠.

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٣٠٢ (المدائني). ويلذكر ابن الأثير أن المغيرة أوفد لمعاوية أكثر من عشرة أفراد من أهل الكوفة وأعطاهم بعض الاموال، وجعل عليهم ابنه موسى، وقدموا على معاوية فزينوا له بيعة يزيد ودعوه الى عقدها. (الكامل، م ٣، ص ٥٠٤).

(٤) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٣٠٢-٣٠٣. ابن الأثير، م ٣، ص ٥٠٥-٥٠٦. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٥٠-٣٥١. ابن كثير، البداية، ج ٨، ص ٨٢-٨٣. مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٥٣-١٥٤.

ويذكر اليعقوبي أن زيادا بعث الى معاوية رسالة يصف فيها حال يزيد حيث أنه صبي " يلعب بالكلاب والقرود، ويلبس المصتبغ ويدمن الشراب ويمشي على الدفوف "، ويذكره بوجود من هم أولى بهذا الأمر مثل الحسين بن علي وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر، وأشار عليه أن يحاول تقويم يزيد وإلزامه بالأخلاق الحميدة، لعله يصبح في مستوى هؤلاء ويكون جديراً بالبيعة، وحين قرأ معاوية رسالة زياد غضب وقال: " ويلي على ابن عبيد، لقد بلغني أن الحادي حدا له أن الأمير بعدي زياد والله لأردنه الى أمه سميّة الى أبيه عبيد " (١)، ويتعذر قبول هذه الرواية التي يبدو عليها الضعف والشك مثل كثير من الروايات المتعلقة بزياد، والتي أوردتها بعض المؤرخين المغرضين بهدف التشهير به والانتقاص من شأنه وقدره، فكيف بمعاوية الذي جهد كل الجهد في اثبات نسب زياد الى أبيه (أبي سفيان) متحدياً كل المعارضين واللائمين يرجع بهذه السهولة عن فكرته ويصرح بأن زيادا ابن عبيد؟ ١٩، كما أنه لا يُعقل أن يكون زياد قدره مقالة معاوية بهذه الصورة، حيث مقت اليه ابنه وأفسد عليه رأيه، ان ما ذكره المدائني أعلاه أرجح مما رواه اليعقوبي، وان كانت وجهة نظر زياد في الروايتين تؤكد على عدم صلاحية يزيد لولاية العهد، ما لم يلتزم بالسلوك السوي، ولا ريب أن جواب زياد لمعاوية يدل دلالة واضحة على عقل راجح وواقعية سياسية لا تعرف المجاملات في مثل تلك الأمور الخطيرة.

وربما كان زياد يتمنى أن تعقد له البيعة بعد معاوية، ولكن الأخير أظهر رفضه لهذه الفكرة فيروى المدائني عن مسلمة أن زياداً وفد على معاوية مرة، فحدا به الحادي:

قد علّمته الضمّر الجياد ان الأمير بعده زياد

فبلغ ذلك معاوية فغضب، فقال له زياد: " راجز رجز بشيء لم يكن عن أمري ولقد زجرته ونهرته "، فقبل ذلك معاوية (٢)، ويبدو من رواية المدائني أن زياداً أراد أن يعرض هذه الفكرة على معاوية دون أن يصرح بها أمامه، فلما تبين له رفض الخليفة أعرض عما كان يتمنى، لا سيما وأنه يعرف جيداً مكانته غير المرموقة لدى الأمويين منذ أن داخلهم النسب، وربما ارتاب بعضهم لأعتراض زياد على ترشيح يزيد لولاية العهد، ولكن الروايات لم تصرح أو تشعر بذلك.

ومهما يكن من أمر فان معاوية لم يعبأ كثيراً بملاحظات زياد، وبدأ في أخذ البيعة لابنه يزيد، وما أن تحقق من أن الظروف قد أصبحت مواتية حتى أخرج هذه الفكرة الى حيز التنفيذ، وذلك في سنة ٥٦هـ / ٦٧٥م (٣). وهناك أسباب دفعته الى ذلك اختلف في ذكرها المؤرخون، فالمدائني يرجع

(١) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٢٠. البيهقي، الاعلام بالحروب، ج ١، ص ٢٩٣-٢٩٤.

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٧-٢٨. الصابغ، الهفوات النادرة، ص ٧٥. ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٥٠١.

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٣٠١. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٥٠٣.

البيعة لوفاة زياد^(١)، وخالفه ابن قتيبة فقال : " ثم لم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن رحمه الله ألا يسيرا حتى بايع لي زيد بالشام وكتب يبعثه إلى الآفاق "^(٢)، والأرجح أن معاوية اندفع إلى تنفيذ فكرته بعد وفاة الحسن حيث أصبح في حلّ من العهد الذي قطعه على نفسه ولكنه لم يستكمل مهمته إلا بعد وفاة زياد، ويبدو أنه كان لاستنكاف الأخير عن مجارة هذا المشروع بحماسة المغيرة دورا في الحد من نشاط معاوية في هذا الصدد، فآثر معاوية الالتزام بنصيحة زياد أو التظاهر بذلك طاوياً مشروعه بعض الوقت حتى إذا توفي الحسن وزياد عاد إلى إحيائه وانتهى إلى اتخاذ قرار بتنفيذه معتمدا على حلفائه الشاميين .

(١) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٣٠٣. ابن عبد ربه، العقد، ج ٤، ص ٣٦٨. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٥٠٦.
(٢) ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج ١، ص ١٨٢. ابن أبي الدم، التاريخ الاسلامي، ج ١، ص ١٩٠-١٩١.

خلاصة البحث

تبين لي من خلال هذه الدراسة أن زياداً بن أبيه كان من الشخصيات العربية الإسلامية التي لعبت دوراً خطيراً في النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والادارية والعسكرية طيلة مدة تنوف على الثلاثين عاماً، ابتداء من خلافة عمر بن الخطاب وحتى سنة (٥٣هـ / ٦٧٣م). لقد ناقشت الروايات التي تناولت نسب زياد وفندتها، وبينت أن نسب هذا الرجل من أكثر القضايا غموضاً في حياته، ومع ذلك فقد جسد في شخصه كل أنواع الذكاء والمرونة والحزم المنسوبة للثقفين، حتى يبدو وكأنه تلقى بينهم تربية عالية المستوى، فهناك من التفاصيل ما لا يتلاءم وأصله الوضع. إن معرفته للكتابة والحساب توضح ذلك بجلاء هذه المعرفة جعلته في مصاف الموظفين الكبار، كاتب وأمين على الأموال لدى العديد من الولاة كالمغيرة بن شعبة وأبي موسى الأشعري وابن عامر. ولقد كان لظروف البصرة - وهي المدينة التي استقر بها زياد - أثر كبير في بروز شخصيته على مسرح الأحداث السياسية والادارية، حيث أسهم في إدارة البصرة، فأثبت كفاءة ادارية جعلت الأنظار تتجه اليه، بحيث اختاره الخليفة علي بن أبي طالب ليكون عاملاً له على بلاد فارس وكرمان التي كانت تعاني من الاضطرابات والفوضى، وقد تمكن زياد من فرض النظام فيها، وإعادة أهلها إلى ما كانوا عليه من الطاعة والتسليم.

كان زياد آخر من وإلى معاوية من بين ولاة علي، على الرغم من تهديدات معاوية المتكررة له، ومع ذلك فانه لم يستسلم لمعاوية ابتداء، متوهماً بمدى قدرة علي وأبنائه، ويبدو أنه انتظر من جانبهم تصرفاً حازماً، وخاصة بعد وفاة علي، إلا أن تقاعس الحسن وعدم جديته في مواجهة معاوية جعل زياداً يدرك إلى أي مدى سيضحي من أجل مطلب ضائع، باعتبار أن أصحاب الحق قد تخلوا عن حقهم، هذا في الوقت الذي كانت فيه إمكانيات زياد متواضعة أمام قوة معاوية، فما كان منه إلا أن قبل الصلح مع معاوية. والواقع أن خدمة زياد لمعاوية أثبتت أن انضمامه إلى البيت الأموي وإخلاصه في خدمته كانا صادقين عن إيمان صحيح، ولهذا لم تبدر منه بادرة واحدة تشكك في هذا الاخلاص.

كانت الخطوة التالية التي خطاها معاوية بعد الصلح، هي أن ألحق زياداً بأبيه أبي سفيان وذلك ليربطه بنفسه وبأسرته ربطاً تاماً، وقد استنكر حكم معاوية في هذه القضية عدد من رجالات عصره وبعض المتأخرين، حيث اتهموه بمخالفة أحكام الشريعة الإسلامية علانية. أما الأمويون وعلى رأسهم يزيد بن معاوية نفسه، فإنهم لم يرضوا عن ذلك، وظلوا فترة طويلة متباعدين عن هذا الابن غير الشرعي لأبي سفيان.

كان معاوية بما لديه من خبرة واسعة في عالم السياسة يعرف جيداً أحوال كل بلد والأسلوب الذي يناسبه، وكانت حنكته وراء نجاحه في اقرار الأمور في سائر الأقاليم، أما العراق فقد بقي خارج هذا الاطار وأخفقت سياسة اللين التي سار عليها في بداية حكمه في اكتساب ولاء العراقيين

وثقتهم، فأرى أن يأخذهم بالشدة والحزم دون اسراف، ولهذا كان اجتهاده في استئالة زياد المعروف بشخصيته القوية خطوة حاسمة لجلب الاستقرار الى هذه الولاية واخضاعها ومنع عناصر الثورة فيها من التحرك.

ان الناظر للطريقة التي حكم بها زياد العراق في مطلع ولايته، يجدها بمنزلة اعلان حكم عرفي غير جار على القانون الشرعي الذي يقصر المسؤولية على المجرم، وهو شيء يلجأ اليه الحكام لتخفيف الجرائم وتحذير الناس حتى يأمن الصالحون شر المجرمين، وكذلك كل القوانين التي سنّها زياد ابتداء كانت عرفية شديدة، وقد أفادت في اصلاح أهل العراق فساد الأمن وقل حدوث الجرائم في زمانه، ولم يحتج زياد لتنفيذ ما أوعده به من العقوبات الأليلاً، لعلم أهل ولايته بصدقه في الإيعاد، فأخذوا يقفون عند الحد المشروع لهم.

لقد أدرك زياد الأزمة التي تعيشها ولايته، فحاول إيجاد حل جذري لمشاكلها وكان الواجب الأول الذي لا بد من القيام به في البصرة والكوفة هو تثبيت سلطان الدولة. وفي البصرة كان لابد من كسر شوكة القبائل والعشائر التي كان المبدأ الأعلى عندها هو الوقوف الى جانب أفرادها وإن كانوا مجرمين، وحمايتهم من القبائل الأخرى بل من سلطان الدولة، فقد طغت روح العصبية القبلية في هذا المصر أكثر من طغيانها في أي مصر آخر.

ان الخطوات التي اتخذها زياد في دمج القبائل العربية في البصرة والكوفة بعيدة عن النسب أو الحلف، كان لها الأثر في نفوس القبائل العربية، حيث أخذت تهبها نفسياً لتدرك أن حياة المدينة شيء آخر غير حياة البادية التي تعود عليها العرب في حياتهم الأولى في الجزيرة العربية، فكانت بلا شك بداية موفقة جديدة اللون في الحياة المدنية، تربط بينها وشائج المدينة وعلائق الاجتماع وروابط الحياة الحضرية الجديدة.

أما الكوفة فقد كانت معارضتها للحكومة مصطبغة بصبغة دينية أكثر مما كانت عليه هذه الصبغة في الأمصار الأخرى، ولم تكن هذه المعارضة موجهة لسلطان الدولة في ذاته، بل كانت موجهة الى حق الأمويين في الحكم، ولم يكن زياد ليفرق بين فكرة الدولة وبين من يقوم على تسيير شؤون الدولة، فهو بعد أن صالح الأسرة الحاكمة لم يعرف الخضوع لسيادة غير السيادة القائمة بالفعل، لذا كان يطلب من الجميع أن يخلدوا الى الطاعة، وأن يتركوا التناحر القبلي في سبيل مصلحة الجماعة المتمثلة بالدولة، والواقع أن موقف زياد من مشكلة الحكم في عصره هو الذي باعد بينه وبين معاصريه، حيث أنكروا عليه تأييده المطلق لبني أمية واصراراه على المحافظة على الخلافة في بيتهم، وقد عرف الأمويون في زياد هذا الاخلاص فاعتمدوا عليه اعتماداً مطلقاً وأطلقوا يده في تسيير شؤون العراق دون أية معارضة.

لقد عمل زياد على اعادة تنظيم المقاتلة والشرطة والحرس في البصرة والكوفة، وكان أول وإل لجأ الى سياسة التهجير للتخفيف من تركيز السكان في مصرى العراق، والناجم عن الهجرات المستمرة لهذين المصرين، ثم لاستمرارية الفتوحات في الأقاليم الشرقية، وللمحد من التوتر السياسي والعصبية

القبيلية في البصرة والكوفة، هذا وقد أحدث زياد تجديدات وتطويرات عديدة شملت : العطاء والخراج وبعض الدواوين التي كان معمولاً بها في ولايته، وقد ساعدت هذه الأمور بمجملها في تسهيل إدارة الولاية وتوفير حياة كريمة لأهلها.

واهتم زياد بالشؤون الاقتصادية اهتمامه بالسلطة لأنها كانت دعامة الأولى، فلم يجعل همه استغلال الولايات التي عهد إليه بإدارتها استغلالاً خاصاً، فقد قام باصلاحات اقتصادية كثيرة نالت اعجاب من خلفه، ومن هذه الاصلاحات : حفر الأنهار والترع واستصلاح الأراضي وقصر امتلاك القطاعات على مستصلحةها، كما اهتم بالأسواق والتجارة وبمراقبة الأسعار، وقد أدى ذلك كله الى ازدهار الحياة الاقتصادية في ولاية العراق، وزيادة خراجها في عهد زياد.

لقد قام الخوارج بعده ثورات في ولاية زياد، وكانت معظم هذه الثورات قد قامت في البصرة ومنطقتها، بينما كان خوارج الكوفة - في الفترة نفسها - أكثر سكوناً وأقل نشاطاً، وهذا يعود الى كثرة عددهم في البصرة وقتلهم في الكوفة مركز الشيعة، وكان زياد يرى أن الخوارج سفهاء خارجون على القانون وأعداء لأهل السنة والجماعة، ومن ثم فلا بد من مقاومتهم، وقد اعتمد زياد في القضاء على حركات الخوارج في البصرة على القبائل والعشائر البصرية، وكان لهذه السياسة أثر كبير في الحد من نشاط هذه القوة المعارضة في ولاية البصرة.

واتبع زياد سياسة حازمة وقاسية مع الشيعة، لأنهم كانوا قد بادؤوه العداء، فهم الذين حصوه في أول يوم دخل فيه الكوفة، ومع ذلك فإنه لم يسرف في قتلهم كما يرى البعض، بل راقب حركاتهم وحاول بمساعدة رؤساء القبائل أن يجد من نشاطهم وتحركاتهم، فसार الناس يكتمون تشيعهم لعلّياً قليلاً منهم.

ان رجلاً كزياد وضع لنفسه مبدأ يسير عليه، لا يمكن أن يفرق بين حجر بن عدي الكندي وأي رجل آخر يخالف للدولة أو حانت بيعته للخليفة، فكل المخالفين في نظره سواء أيا كانوا، والعقاب الذي ينزله بهم واحد، وإذا أنكرنا تصرف زياد مع حجر، فلماذا لا ننكر تصرف حجر ومحاولته لاثارة الفتنة في الكوفة؟ لقد كان من رأي زياد أنه ما كان يجوز لحجر أن يشعل نار الفتنة في الكوفة المركز الأول للشيعة، فأما وقد فعل فإن مسؤولية محاولته تقع عليه وعلى من ناصره. وأنا هنا أعرض الحقيقة كما رآها زياد دون أن أوافق على رأيه أو اختلف معه، وأظن أنه ليس من حق أي باحث أن ينصب نفسه قاضياً يدين ويبريء، لأن القاضي هو القاريء، أما المؤرخ فمهمته تنتهي عند كشف الحقائق وعرضها.

وهكذا فإن دراسة سيرة زياد ودوره في التاريخ وفق المنهج الذي اتبعته، يجعلنا ننظر الى تاريخ الدولة الاسلامية وكأنه كل لا يتجزأ، ويجعلنا نربط تاريخ الأفراد بالأحداث، وبالتيارات السياسية والعقائد من جهة، وبالذواضع الذاتية والمطامح الفردية من جهة أخرى، ومع أن زياداً لم يهتد الى الطريق الأمثل في كل حالة، ووقع في أخطاء اشتد نقد أهل عصره لها، فإن الرجل لم يعبأ بشيء لا باعتراض الناس ولا بالنكسات بل سار في طريقه بخطى ثابتة وثقة عظيمة في نفسه، ومضى لوجهه

من غير خوف أو جزع، وفيه يقول المرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادي : " إذا عُدَّ رجال الدولة العربية من أهل السياسة، كان زياد بن أبي سفيان من غير شك علما من أعلامهم وقطباً من أقطابهم، بل لعل زيادا الرجل الوحيد الذي أخذ عن عمر بن الخطاب مبدأ القوة في غير عنف واللين في غير ضعف، وحاول العمل به بقدر ما وسعت تلك الظروف القاسية التي عاش فيها. وإذا عُدَّ رجال الإدارة الذين نقلوا الدولة العربية من حال السذاجة الإدارية التي كانت عليها زمن الخلفاء الأربعة، وأعطوها طابع الدولة المستقرة المنظمة، فزياد لا يكاد يلحق به رجل آخر في ذلك المضمار" (١).

(١) عبد الحميد العبادي، صور من التاريخ الاسلامي، مكتبة الآداب، الاسكندرية، ١٩٤٧، ص ١٢٧.

المصادر والمراجع

أولا : المصادر

(أ) المخطوطات

(ب) المطبوعات

ثانيا : المراجع

ثالثا : المقالات

رابعا : المراجع باللغة الانجليزية

أولا : المصادر

(أ) المخطوطات :

- السيوطي،
عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م).
* مناهل الصفا بتواريخ الأئمة الخلفاء، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية.
- ابن عساكر،
علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م).
* تاريخ مدينة دمشق، صورة عن نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق، وكمّل نقصها من النسخ الأخرى بالقاهرة ومراكش وإستانبول، ١٩ مجلد، دار البشير، عمان.

(ب) المطبوعات :

- الآبي،
منصور بن الحسين (ت ٤٢١هـ / ١٠٣٠م)
* نثر الدر، تحقيق محمد علي قرنه، مراجعة علي محمد البجاوي، ٥ ج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣م.
- الأبشيهي،
شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور (ت ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م).
* المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق مفيد محمد قميحة، ٢ ج، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م.
- ابن الأثير،
علي بن أبي الكرم بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م).
* أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٥ م، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٧هـ.
- ابن الأثير،
المبارك بن محمد (ت ٦٠٦هـ / ١٢٦١م).
* الكامل في التاريخ، ١٣ م، بيروت، دار صادر، ١٩٧٩م.
- ابن الأثير،
* النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناحي، ٥ ج، ط ١، دار احياء الكتب العربية، ١٩٦٣م.

- الإدريسي ، محمد بن عبد الله الحسني (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤م).
* نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق شيرولي وآخرون، ٧ ج، نابولي بروستات، أبودي، ١٩٧٠م.
- الأزدي ، يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٥م).
* تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٧م.
- ابن الأزرقي ، محمد بن علي بن محمد (ت ٨٩٦هـ / ١٤٩٠م).
* بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق علي سامي النشار، ٢ ج، منشورات وزارة الإعلام - الجمهورية العراقية، ١٩٧٧م.
- الأزرقي ، محمد بن عبد الله بن أحمد (ت حوالي ٢٥٠هـ / ٨٦٤م).
* أخبار مكة، تحقيق رشدي الصالح ملحق، ٢ ج، ط ٣، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٩م.
- الأصبهاني ، أحمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م).
* تاريخ أصفهان، تحقيق سفيان ديدرنج، ليدن، بريل، ١٩٣١م.
* حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ١٠ ج، ط ٣، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٠م.
- الاصطخري ، إبراهيم بن محمد الفارسي (عاش في القرن الرابع الهجري).
* المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة محمد شفيق غربال، دار القلم، القاهرة، ١٩٦١م.
- الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٦م).
* الأغاني، أشرف على مراجعته وطبعه عبد الله العلالي وآخرون، ٢٣ ج، ط ٢، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٥-١٩٦١م.
- * مقاتل الطالبين، تحقيق أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٤٦م.
- ابن أبي أصيبعة ، أحمد بن القاسم السعدي (ت ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م).
* عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.
- ابن أعثم ، أحمد بن محمد بن علي بن أعثم الكوفي (ت ٣١٤هـ / ٩٢٦م).
* الفتوح، ٤ م، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م.
- البخاري ، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ / ٨٦٩م).

- * التاريخ الصغير، تحقيق محمد ابراهيم زايد، ٢ م، ط ١، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٦ م.
- * التاريخ الكبير، ٨ م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦ م.
- * صحيح البخاري، تقديم أحمد محمد شاكر، ٩ ج، دار الجيل، بيروت (د. ت).
- علي بن بسام (ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م).
- * الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق احسان عباس، ٤ ق، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩ م.
- يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م).
- * المعرفة والتاريخ، رواية عبد الله بن جعفر بن دستورية النحوي، تحقيق أكرم ضياء العمري، ٣ م، ط ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١ م.
- محمد بن عبد الله اللواتي (ت ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥ م).
- * تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج ٢، ط ١، المطبعة الأزهرية بمصر، ١٩٢٨ م.
- عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م).
- * خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ١٣ ج، ط ٢، مكتبة الخانجي بمصر، ١٩٨١ م.
- عبد القاهر بن طاهر (ت ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م).
- * الفرق بين الفرق، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع، القاهرة، (د. ت).
- الزبير بن بكار بن عبد الله الأسدي (ت ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م).
- * الأخبار الموفقيات، تحقيق سامي مكي العاني، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٣ م.
- عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م).
- * سمط اللائي، تحقيق عبد العزيز الميمني، ٢ ج، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٦ م.
- * معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، ٢ ج، عالم الكتب، بيروت (د. ت).
- أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م).
- * أنساب الأشراف، ج ١، تحقيق محمد حميد الله، معهد المخطوطات
- ابن بسام،
- البسوي،
- ابن بطوطة،
- البغدادي،
- البغدادي،
- ابن بكار،
- البكري،
- البلاذري،

بجامعة الدول العربية، ودار المعارف، مصر، ١٩٥٩ م. ج ٢،
تحقيق محمد باقر المحمودي، ط ١، منشورات مؤسسة الأعلمي
للمطبوعات، بيروت، ١٩٧٤ م. ج ٣، تحقيق محمد باقر
المحمودي، ط ١، دار المعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٧٧ م.
ج ٥، مكتبة المثنى ببغداد، (د.ت). ق ٢، ج ٤، تحرير
ماكس سلوسينجر، القدس، مطبعة الجامعة العبرية، ١٩٣٨ م.
ق ٤، ج ١، تحقيق احسان عباس، المطبعة الكاثوليكية،
بيروت، ١٩٧٩ م.

* فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، دار
النشر للجامعيين، بيروت، ١٩٥٧ م.

يوسف بن محمد بن ابراهيم الأنصاري (ت ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م).
* الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام، تحقيق شفيق جاسر أحمد
محمود، ٢ ج، ط ١، عمان، ١٩٨٧ م.

ابراهيم بن محمد (ت ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م).
* المحاسن والمساوي، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٠ م.
أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م).

* السنن الكبرى، ١٠ ج، ط ١، مطبعة مجلس دائرة المعارف
العثمانية بحيدر آباد، ١٣٥٢ هـ.
محمد بن عيسى (ت ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م).

* سنن الترمذي، تحقيق كمال يوسف الخوت، ٥ ج، ط ١، دار
الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧ م.
جمال الدين أبي المحاسن يوسف (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م).

* النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٢ ج، ط ١، مطبعة دار
الكتب المصرية، ١٩٢٩-١٩٥٦ م.
المحسن بن علي (ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م).

* الفرج بعد الشدة، ٢ ج، يطلب من زكي مجاهد وعبد القادر
علام، القاهرة، ١٩٣٨ م.
* المستجاد من فعلات الأجواد، تحقيق محمد كرد علي، مطبعة

التراقي، دمشق، ١٩٧٠ م.
عبد الملك بن محمد بن اسماعيل (ت ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م).
* تحفة الوزراء، المنسوب للثعالبي، تحقيق حبيب علي الراوي وابتهام

- البياسي،

- البيهقي،

- البيهقي،

- الترمذي،

- ابن تغري بردي،

- التنوخي،

- الثعالبي،

- مرهون الصغار، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٧ م.
- * التمثيل والمحاضرة، تحقيق عبد الفتاح محمد الخلو، دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦١ م.
- * ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥ م.
- * لطائف المعارف، تحقيق ابراهيم الأياري وحسن كامل الصيرفي، دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦٠ م.
- عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م).
- * البخلاء، تحقيق طه الحاجري، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣ م.
- * البلدان، نشر صالح أحمد العلي، مطبعة الحكومة، بغداد "مستل من مجلة كلية الآداب" ١٩٧٠ م.
- * البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ٤ ج، ط ٥، الناشر مكتبة الخانجي، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٥ م.
- * التاج في أخلاق الملوك، المنسوب للجاحظ، تحقيق أحمد زكي باشا، ط ١، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٤ م.
- * الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ٧ ج، ط ٣، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٩ م.
- * رأي أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في معاوية والأمويين، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٤٦ م.
- * رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ٢ ج، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٤ م.
- * المحاسن والاضداد، قدّم له وراجعته عاصم عتياني، ط ١، دار احياء العلوم، بيروت، ١٩٨٦ م.
- محمد بن أحمد الكناني (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م).
- * رحلة ابن جبير، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٥٩ م.
- معافى بن زكريا النهرواني (ت ٣٩٠هـ / ٩٩٩م).
- * المجلس الصالح الكافي والأئيس الناصح الشافي، تحقيق محمد مرسل الخولي، ٢ ج، ط ١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣ م.
- سليمان بن حسان الأندلسي (ألف كتابه هذا سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م).
- * طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيّد، مطبعة المعهد العلمي

- الجاحظ،

- ابن جبير

- الجريري،

- ابن جليل،

- الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥ م.
- الجهشاري،
 محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ / ٩٤٢م).
 * الوزراء والكتّاب، تحقيق مصطفى السقا، ابراهيم الأيساري، عبد
 الحفيظ شلبي، ط ١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة،
 ١٩٣٨ م.
- ابن الجوزي،
 جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م).
 * صفة الصفوة، تحقيق محمود فاخوري، ط ٤، ط ٣، دار المعرفة،
 بيروت، ١٩٨٥ م.
- ابن حبان البستي،
 * المصباح المضيء في خلافة المستضيء، تحقيق ناجية عبد الله ابراهيم،
 ٢ ج، مطبعة الأوقاف، بغداد، ١٩٧٦ م.
 محمد بن حبان بن أحمد (ت ٣٥٤هـ / ٩٦٥م).
 * الثقات، ٩ ج، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد،
 ١٩٧٣-١٩٨٣ م.
- * المجروحين، صححه عزيز بيك القادري والنقشبندي، ج ١، ط
 ١، المطبعة العزيزية حيدر اباد، ١٩٧٠ م.
- * مشاهير علماء الأمصار، صححه م. فلا يشهمر، مطبعة لجنة
 التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩ م.
- ابن حبيب،
 محمد بن حبيب بن أمية (ت ٢٤٥هـ / ٨٥٩م).
 * أسماء المفتالين من الأشراف في الجاهلية والاسلام وأسماء من قتل من
 الشعراء، مطبوع ضمن كتاب نوادر المخطوطات، تحقيق عبد
 السلام هارون، من المجموعة (٥ الى ٨) ط ٢، مطبعة مصطفى
 البابي الحلبي، مصر، ١٩٧٣ م.
- * المحبر، صححته ايلزة ليحتن شتير، مطبعة جمعية دائرة المعارف
 العثمانية، ١٩٤٢ م.
- ابن حجر العسقلاني،
 أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م).
 * الاصابة في تمييز الصحابة، ٤ ج، نشر مطبعة السعادة بالقاهرة،
 ودار صادر ببيروت، ١٣٢٨هـ، أوفست مكتبة المثنى، بغداد.
- * تهذيب التهذيب، ١٤ م، ط ١، دار الفکر، بيروت،
 ١٩٨٤-١٩٨٥ م.
- * لسان الميزان، ٧ ج، ط ٢، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت،
 ١٩٧١ م.

- ابن الحداد ، محمد بن منصور بن حبيش .
- * الجوهر النفيس في سياسة الرئيس ، تحقيق رضوان السيد ، ط ١ ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨٣ م .
- ابن أبي الحديد ، عز الدين أبو حامد بن هبة الله بن محمد (ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) .
- * شرح نهج البلاغة ، تحقيق محمد أبو الفضل اراهيم ، ١٧ جـ ، ط ١ ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٩-١٩٦٣ م .
- ابن حزم ، علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م) .
- * جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .
- * جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى ، تحقيق احسان عباس وناصر الدين الأسد ، دار المعارف ، مصر (د.ت) .
- * الفصل في الملل والأهواء والنحل ، تحقيق محمد ابراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة ، ٥ جـ ، دار الجليل ، بيروت ، ١٩٨٥ م .
- الحصري القيرواني ، ابراهيم بن علي (ت ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م) .
- * زهر الآداب وثمر الألباب ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ٢ جـ ، ط ١ ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٣ م .
- الحلبي ، علي بن برهان الدين (ت ١٠٤٤ هـ / ١٦٣٤ م) .
- * أنساب العيون في سيرة الأمين المامون ، المعروف بالسيرة الحلبية ، ٣ جـ ، ط ٣ ، المطبعة الأزهرية ، القاهرة ، ١٩٣٢-١٩٣٥ م .
- ابن حمدون ، محمد بن الحسن بن محمد (ت ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م) .
- * التذكرة الحمدونية ، تحقيق احسان عباس ، المجلد الأول ، ط ١ ، معهد الانباء العربي ، بيروت ، ١٩٨٣ م .
- الحميري ، محمد بن عبد المنعم (ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٥ م) .
- * الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق احسان عباس ، ط ٢ ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٨٤ م .
- ابن حنبل ، أحمد بن محمد (ت ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م) .
- * المسند ، شرحه أحمد محمد شاكر ، ٢٠ جـ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٠-١٩٥٨ م .
- ابن حوقل ، محمد بن علي (ت حوالي ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م) .
- * صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت (د.ت) .
- أبو حيان التوحيدي ، علي بن محمد العباس (ت ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م) .

- * الامتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، ٣ ج، دار الحياة، بيروت (د.ت).
- * البصائر والذخائر، تحقيق إبراهيم الكيلاني، المجلدين ١ والرابع، مكتبة أطلس ومطبعة الانشاء، دمشق (د.ت).
- أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م).
- * تاريخ بغداد، ١٤م، دار الكتاب العربي، بيروت (د.ت).
- عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م).
- * العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٧م، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٥٦-١٩٦٧م.
- شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م).
- * وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق احسان عباس، ٧م صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٧٨م.
- خليفة بن خياط العصفري، (ت ٢٤٠هـ / ٨٥٤م).
- * تاريخ، تحقيق أكرم ضياء العمري، ٢ ج، ط ١، مطبعة الأكاذيف، النجف الاشرف، ١٩٦٧م.
- * الطبقات، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط ١، مطبعة العاني، ب ١٩٦٧م.
- علي بن عمر (ت ٣٨٥هـ / ٩٩٥م)،
- * سنن الدارقطني، تحقيق السيد عبد الله هاشم ييازي المدني، ٤ دار المحاسن للطباعة، القاهرة، ١٩٦٦م.
- عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م).
- * سنن الدارمي، ٢ ج، دار احياء السنة النبوية، بيروت (د.ت).
- سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ / ٨٨٨م).
- * سنن أبي داود، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ٤ ج، العصرية، بيروت، (د.ت).
- محمد بن الحسن (ت ٣٢١هـ / ٩٣٣م).
- * الاشتقاق، تحقيق عبد السلام هارون، ط ٢، منشورات المثني، بغداد، ١٩٧٩م.
- * المجتنى، ط ٤، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحدرد ١٩٨٠م.
- شهاب الدين ابراهيم بن أبي الدم الحموي (ت ٦٤٢هـ / ٢٤٤٤م).
- الخطيب البغدادي،
- ابن خلدون،
- ابن خلكان،
- الدارقطني،
- الدارمي،
- أبو داود،
- ابن دريد،
- ابن أبي الدم،

- * التاريخ الاسلامي " المعروف باسم التاريخ المظفري " ، تحقيق حامد زيان غانم زيان ، دار التوفيق النموذجية ، القاهرة ، ١٩٨٥ م .
- الدولاوي ، محمد بن أحمد بن حماد (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) .
- * الكنى والأسماء ، ٢ ج ، ط ٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٣ م .
- الديار بكري ، حسين بن محمد (ت ٩٦٦هـ / ١٥٥٨م) .
- * تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس ، ٢ ج ، مطبعة عثمان عبد الرزاق ، القاهرة ، ١٨٨٤ م .
- الدينوري ، أحمد بن داود الدينوري (ت ٢٨٢هـ / ٨٩٥م) .
- * الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، مراجعة جمال الدين الشيال ، ط ١ ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .
- الذهبي ، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) .
- * تذكرة الحفاظ ، ٥ ج ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د.ت) .
- * سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون ، ٢٣ ج ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨١ م .
- * العبر في خبر من غير ، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد سيد ، ٥ ج ، دائرة المطبوعات والنشر ، الكويت ، ١٩٦٠م - ١٩٦٦م .
- * ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ٤ م ، دار المعرفة ، بيروت ، (د.ت) .
- الراغب الأصبهاني ، حسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ / ١١٠٨م) .
- * محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ، ٤ ج ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، (د.ت) .
- ابن رسته ، أحمد بن عمر (ت ٢٩٠هـ / ٩٠٢م) .
- * الأخلاق النفيسة ، تحقيق دي غويه ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٨٩١ م ، أوفست مكتبة المثنى ، بغداد .
- الرقيق القيرواني ، أبي اسحق ابراهيم (ت ٤١٧هـ / ١٠٢٦) .
- * قطب السرور في أوصاف الخمور ، تحقيق أحمد الجندي ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٩٦٩ م .
- الزبيدي ، محمد بن الحسن (ت ٣٧٩هـ / ٩٨٩م) .
- * طبقات النحويين ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط ١ ، مكتبة الحانجي ، القاهرة ، ١٩٥٤ م .

- ابن الزبير ،
أحمد بن الرشيد (عاش في القرن الخامس الهجري) .
* الذخائر والتحف ، تحقيق محمد حميد الله ، ج ١ ، مطبعة حكومة الكويت ، الكويت ، ١٩٥٩ م .
- الزبيري ،
أبو عبد الله المصعب بن عبد الله (ت ٢٣٦هـ / ٨٥٠م) .
* نسب قريش ، تحقيق أ. ليفي بروفنسال ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٣ م .
- ابن زكريا ،
أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م) .
* معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، ج ٦ ، ط ١ ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٧١هـ .
- الزمخشري ،
عمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ / ١١٤٣م) .
* ربيع الأبرار ونصوص الأخبار ، تحقيق سليم النعيمي ، ج ٤ ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٧٦-١٩٨٠ م .
- السجستاني ،
سهل بن محمد بن عثمان (ت ٢٥٠هـ / ٨٦٤م) .
* المعمرون والوصايا ، تحقيق عبد المنعم عامر ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦١ م .
- السدوسي ،
مؤرج بن عمرو (ت ١٩٥هـ / ٨١٠م) .
* كتاب حذف من نسب قريش ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط ٢ ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٧٦ م .
- ابن سعد ،
محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٤م) .
* الطبقات الكبرى ، ج ٨ ، دار صادر ، بيروت (د.ت) .
علاء الدين علي دده (فرغ من تأليف كتابه سنة ٩٩٨هـ / ١٥٨٦م) .
* محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر ، ط ٢ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٧٨ م .
- ابن سلام ،
محمد بن سلام (ت ٢٣١هـ / ٨٤٥م) .
* طبقات فحول الشعراء ، شرحه محمود محمد شاكر ، ج ٢ ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٧٤ م .
- السيرافي ،
الحسن بن عبد الله (ت ٣٦٨هـ / ٩٧٨م) .
* أخبار النحويين البصريين ، تحقيق محمد ابراهيم البنا ، ط ١ ، دار الاعتصام ، ١٩٨٥ م .
- السيوطي ،
عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) .
* تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة

- التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٥٢ م.
- علي بن محمد (ت ٣٨٨هـ / ٩٩٨ م).
- * الديارات، تحقيق كوركيس عواد، ط ٢، مطبعة المعارف، نشر مكتبة المنشي، بغداد، ١٩٦٦ م.
- علي بن حسين (ت ٤٣٦هـ / ١٠٤٤ م).
- غزر الفوائد ودرر القلائد المعروف بـ "أمالى المرتضى"، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، ق ١، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٤ م.
- محمد بن عبد الكريم (٥٤٨هـ / ١١٥٤ م).
- * الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، ط ٢، ج، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٩٦١ م.
- محمد بن هلال (ت ٤٨٠هـ / ١٠٨٧ م).
- * الهفوات النادرة، تحقيق صالح الأشر، ط ١، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٦٧ م.
- صاعد بن أحمد (ت ٤٦٢هـ / ١٠٦٩ م).
- * طبقات الأمم، نشره وذيله الأب لويس اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٢ م.
- صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢ م).
- * الوافي بالوفيات، ط ٢، تحقيق نخبة من المستشرقين والمؤرخين العرب، فرانز شتايز فيفسبادن، ١٩٦٢-١٩٧٩ م.
- عبد الرزاق بن همام (ت ٢١١هـ / ٨٢٦ م).
- * المصنف، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ط ١، ج، ١١، المكتب الاسلامي، بيروت، ١٩٧٠-١٩٧٢ م.
- محمد بن يحيى (ت ٣٣٦هـ / ٩٤٧ م).
- * أدب الكتاب، تحقيق محمد بهجة الاثري، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤١هـ.
- سليمان بن أحمد (ت ٣٦٠هـ / ٩٧٠ م).
- * الأوائل، تحقيق محمد شكور بن محمود الحاجي أمير، ط ١، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٣ م.
- محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢ م).
- * تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار
- الشابشتي،
- الشريف المرتضى،
- الشهرستاني،
- الصباي،
- ابن صاعد،
- الصفدي،
- الصنعاني،
- الصولي،
- الطبراني،
- الطبري،

- سويدان، بيروت، ١٩٧٠ م.
- الطرطوشي ، محمد بن محمد بن الوليد (ت ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م).
- * سراج الملوك، ط ١، المكتبة العربية، القاهرة، ١٩٣٥ م.
- ابن الطقطقي ، محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م).
- * الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر ودار بيروت، بيروت ١٩٦٠ م.
- العباس بن بكار الضبي ، (ت ٢٢٢ هـ / ٨٣٦ م).
- * أخبار الوفادات من النساء على معاوية بن أبي سفيان، تحقيق سكيئة الشهابي، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣ م.
- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م).
- * الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق محمد علي البجاوي، ٤ ق، مكتبة نهضة مصر، القاهرة (د. ت).
- * بهجة المجالس وأنس المجالس، ٢ ق، تحقيق محمد مرسى الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢ م.
- ابن عبد الحق ، عبد المؤمن (ت ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م).
- * مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق محمد علي البجاوي، ٣ ج، ط ١، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٤ - ١٩٥٥ م.
- ابن عبد الحكيم ، عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م).
- * سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق أحمد عبيد، ط ١، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٩٢٧ م.
- ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد (ت ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م).
- * العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، ٦ ج، ط ٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠ - ١٩٤٩ م.
- أبو عبيد، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ / ٨٣٨ م).
- * الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨ م.
- أبو عبيدة ، معمر بن المثنى التيمي (ت ٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م).
- * النقائق (جرير والفرزدق)، تحقيق أنتوني أشلي بيفان، ٣ م، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٥ - ١٩١٢ م، أوفست مكتبة المثنى، بغداد.
- ابن العربي ، محمد بن عبد الله (ت ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م).

* العواصم من القواصم، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٧٥هـ.

علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م).

* تاريخ مدينة دمشق.

جزء تراجم النساء، تحقيق سكينه الشهابي، ط ١، دمشق، ١٩٨٢م.
وجزء تراجم العين المتلوّه بالألف، تحقيق شكري فيصل، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق (د.ت).

* تهذيب تاريخ دمشق الكبير، تهذيب وترتيب عبد القادر بدران، ٧ ج، ط ٢، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٩م.

الحسن بن عبد الله (ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م).

* الأوائل، تحقيق محمد السيد الوكيل، نشر أسعد طرابزونى، المدينة المنورة، ١٩٦٦م.

* جبهة الأمثال، مطبوع بهامش كتاب مجمع الأمثال للميداني، ٢ ج، المطبعة الخيرية، ١٣١٠هـ.

محمد بن عقيل (ت ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م).

* النصائح الكافية لمن يتولى معاوية، دار الزهراء، بيروت (د.ت).

- ابن عساکر،

- العسكري،

- العلوي،

- ابن الغملاس،

* ولاية البصرة ومتسلموها "١٤هـ - ١٣٣٣هـ"، دار منشورات البصري، بغداد، ١٩٦٢م.

اسماعيل بن محمد (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م).

* المختصر في أخبار البشر، ٤ ج، ط ١، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة (د.ت).

أحمد بن محمد الهمداني (ت ٢٩٠هـ / ٩٠٢م).

* مختصر كتاب البلدان، تحقيق دي غويه، مطبعة بريل، ليدن، ١٣٠٢هـ، أوفست مكتبة المثنى ببغداد.

محمد بن يعقوب (ت ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م).

* القاموس المحيط، ٤ ج، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٢م.

اسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٦م).

* الأمالي، ٢ ج، ط ١، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر، ١٣٢٤هـ، الكتاب مذيّل بـ "كتاب ذيل الأمالي والنوادر".

- أبو الفدا،

- ابن الفقيه،

- الفيروز آبادي،

- القالي،

- ابن قتيبة ،
عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م).
* الأمانة والسياسة، المنسوب لابن قتيبة، تحقيق سعيد صالح موسى خليل، ٢ ج، رسالة ماجستير، اشراف د. عبد العزيز الدوري، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٨ م.
* الشعر والشعراء، تحقيق مفيد قميحة، مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥ م.
* عيون الأخبار، ٤ م، ط ١، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٨-١٩٣٠ م.
* المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، مطبعة دار الكتب، ١٩٦٠ م.
(ت ٣٣٧هـ / ٩٤٨م).
* الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الحرية، بغداد، ١٩٨١ م.
زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م).
* آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٠ م.
علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م).
* إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٦هـ.
* إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ٣ ج، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠-١٩٥٥ م.
أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م).
* صبح الأعشى في صناعة الانشا، تحقيق محمد حسين شمس الدين، ١٤ ج، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧ م.
* مآثر الانفاة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ٣ ج، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٦٤ م.
محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م).
* أحكام أهل الذمة، تحقيق صبحي الصالح، ٢ ق، ط ٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١ م.
علي بن محمد (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م).
* مختصر التاريخ من أول الزمان الى منتهى دولة بني العباس، تحقيق مصطفى جواد، أشرف على طبعه سالم الألوسي، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٧٠ م.
- قدامة بن جعفر ،
- القزويني ،
- القفطي ،
- القلقشندي ،
- ابن قيم الجوزية ،
- ابن الكازروني

- الكتبي ، محمد بن شاکر (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) .
* فوات الوفيات ، تحقيق احسان عباس ، ٥ جـ ، دار صادر، بيروت ، ١٩٧٤م .
- ابن كثير ، اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) .
* البداية والنهاية ، تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرون ، ١٤ جـ ، ط ٤ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٨م .
- ابن ماجه ، محمد بن يزيد (ت ٢٧٥هـ / ٨٨٨م) .
* سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ٢ جـ ، المكتبة العلمية ، بيروت ، (د.ت) .
- الماوردي ، علي بن محمد (ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م) .
* الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، ط ١ ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر ، ١٩٦٠م .
* نصيحة الملوك ، تحقيق محمد جاسم الحديثي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٦م .
- المبرد ، * الوزارة "أدب الوزير" ، تحقيق محمد سليمان داود وفؤاد عبد المنعم أحمد ، ط ١ ، دار الجامعات المصرية ، الاسكندرية ، ١٩٧٦م .
محمد بن يزيد (ت ٢٨٦هـ / ٨٩٩م) .
- المرزباني ، * التعازي والمراثي ، تحقيق محمد الديباجي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، مطبعة زيد بن ثابت ، دمشق ، ١٩٧٦م .
* الكامل في الأدب ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم والسيد شحاته ، ٤ جـ ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٦م .
- المرزباني ، محمد بن عمران (ت ٣٨٤هـ / ٩٩٤م) .
* نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء ، اختصار أبي المحاسن يوسف بن أحمد اليعموري ، (ت ٦٧٣هـ / ١٢٧٤م) ، تحقيق رودلف زهايم ، دار النشر فرانتس شتاينر بفيسبادن ، ١٩٦٤م .
- المسعودي ، علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) .
* التنبيه والإشراف ، تحقيق عبد الله اسماعيل الصاوي ، دار الصاوي للطبع والنشر والتأليف ، القاهرة ، ١٩٣٨م .
* مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ٤ م ، ط ٥ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٣م .

- ابن مسكويه ،
أحمد بن محمد (ت ٤٢١هـ / ١٠٣٠م).
* تجارب الأمم ، الأجزاء (١، ٥، ٦)، لوزاك، لندن، ١٩٠٩م.
(ت ٢٦١هـ / ٨٧٤م).
- مسلم بن حجاج ،
* صحيح مسلم بشرح النووي، ١٨ ج، ط ٣، بيروت، دار احياء التراث العربي، ١٩٨٤م.
يحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ / ٨٤٧م).
* التاريخ، تحقيق أحمد محمد نور سيف، ٤ ج، ط ١، مطابع الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٩م.
- المقدسي ،
محمد بن أحمد (ألف كتابه سنة ٣٧٥هـ).
* أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق دي غويه، مطبعة بريل، لندن، ١٩٠٦، أوفست مكتبة الخياط، بيروت.
مُطهر بن طاهر (ت القرن الرابع).
- المقدسي ،
* البدء والتاريخ، ٦ ج، مؤسسة الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد، ١٨٩٩-١٩١٩م.
أحمد بن عبد الله (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م).
* المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية، ٢ ج، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٢٩٤هـ. أوفست مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧٠م.
- ابن منظور ،
محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ / ١٣١١م).
* لسان العرب، ١٥ م، دار صادر، ودار بيروت، بيروت، ١٩٥٦م.
* مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق روحية النحاس، ورياض عبد الحميد مراد وآخرون، ط ١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤-١٩٨٨م.
- ابن منقذ ،
أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨م).
* لباب الآداب، تحقيق أحمد محمد شاكر، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ١٩٣٥م.
- المنقري ،
نصر بن مزاحم (ت ٢١٢هـ / ٨٢٧م).
* وقعة صفين، تحقيق عبد السلام هارون، ط ٢، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٣٨٢هـ.
محمد بن أبي يعقوب اسحاق (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م).
- ابن النديم ،

- * الفهرست، تحقيق رضا - تجدد، مطبعة دانشگاه، طهران، ١٩٧١ م.
- النسائي،
أحمد بن علي (ت ٣٠٣هـ / ٩١٥ م).
- * سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي، وحاشية الامام
السندي، المكتبة العلمية، بيروت، (د.ت).
- النووي،
يحيى بن شرف (ت ٦٧٦هـ / ١٢٧٧ م).
- * تهذيب الأسماء واللغات، ٢ ج، ادارة الطباعة المنيرية، القاهرة،
(د.ت).
- النويري،
أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢ م).
- * نهاية الأرب في فنون الأدب، الأجزاء (١-١٨) نشر دار الكتب،
وزارة الثقافة والارشاد القومي، القاهرة، ج ١٩، تحقيق محمد أبو
الفضل ابراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،
١٩٧٥ م. ج ٢٠، تحقيق محمد رفعت فتح الله و ابراهيم مصطفى،
الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥ م.
- الهمداني،
الحسن بن أحمد (ت ٢٣٤هـ / ٨٤٨ م).
- * الأكليل، تحقيق محمد بن علي الأكوخ، ج ٢، مطبعة السنة
المحمدية، القاهرة، ١٩٦٦ م.
- ابن الوردي،
عمر بن مظفر (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨ م).
- * تاريخ ابن الوردي، ٢٠ ج، جمعية المعارف، القاهرة، ١٨٦٨ م.
- الوطواط،
برهان الدين الكتبي (ت ٧١٨هـ / ١٣١٨ م).
- * غرر الخصاص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة، دار صعب،
بيروت (د.ت).
- وكيع،
محمد بن خلف بن حيان (ت ٣٠٦هـ / ٩١٨ م).
- * أخبار القضاة، تحقيق عبد العزيز مصطفى المراغي، ٣ ج، مطبعة
الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٧ م.
- ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨ م).
- * معجم الأدياء، ٢٠ ج، الطبعة الأخيرة، دار احياء التراث العربي،
بيروت (د.ت).
- * معجم البلدان، ٥ ج، دار احياء التراث العربي، بيروت،
١٩٧٩ م.
- يحيى بن آدم القرشي (ت ٢٠٣هـ / ٨١٨ م).

* الخراج، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط ٢، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٤هـ.

- يعقوبي،

أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م).

* البلدان، ط ٣، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٥٧م.

* تاريخ يعقوبي، ط ٢، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٠م.

* مشاكلة الناس لزمانهم، تحقيق وليم ملورد، ط ٢، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٠م.

- أبو يوسف،

يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ / ٧٩٨م).

* الخراج، المطبعة السلفية، ط ٤، القاهرة، ١٣٩٢هـ.

- مؤلف مجهول،

(عاش في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي).

* أخبار الدولة العباسية، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار

المطلبي، دار الطليعة للطباعة والنشر، مطابع دار صادر، بيروت، ١٩٧١م.

- مؤلف مجهول،

(من القرن الحادي عشر الميلادي).

* تاريخ الخلفاء، نشر بطرس غريازينويج، دار النشر "العلم" موسكو، ١٩٦٧م.

ثانيا : المراجع

- احسان عباس .
- * ديوان شعر الخوارج ، ط ٤ ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨٢ م .
- أحمد أمين .
- * فجر الاسلام ، ط ٨ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦١ م .
- الأعظمي ، عواد مجيد .
- * الزراعة والاصلاح الزراعي في عصر صدر الاسلام ، مطبعة الجامعة ، بغداد ، ١٩٧٨ م .
- بروكلمان ، كارل .
- * تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد الحليم النجار ، ٣ جـ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٠-١٩٦٢ م .
- * تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، ط ٥ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٨ م .
- البري ، عبد الله خورشيد .
- * القبائل العربية في مصر ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .
- بلا ، شارل .
- * الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء ، ترجمة ابراهيم الكيلاني ، ط ١ ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٥ م .
- جرجي زيدان .
- * تاريخ التمدن الاسلامي ، ٥ جـ ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت (د.ت) .
- جمال محمد جودة .
- * العرب والأرض في العراق في صدر الاسلام ، طبع في الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٧٩ م .
- الجنابي ، كاظم .
- * تخطيط مدينة الكوفة ، ط ١ ، مطابع دار الجمهورية ، بغداد ، ١٩٦٧ م .
- جواد علي .
- * المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ١٠ م ، ط ٢ ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٦ م .
- جولدستهير .
- * العقيدة والشريعة في الاسلام ، ترجمة محمد يوسف موسى وآخرون ، ط ٢ ، دار الكتب

- الحديثة، مصر، (د. ت).
- حسن، إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن.
- * النظم الاسلامية، ط ٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٢ م.
- الخربوطي، علي حسني.
- * تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩ م.
- الخضري بك، محمد.
- * محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية، ٢ ج، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ١٩٦٩ م.
- الخيرو، رمزية عبد الوهاب.
- * ادارة العراق في صدر الاسلام، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٨ م.
- السدوري، عبد العزيز.
- * بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٣ م.
- * مقدمة في تاريخ صدر الاسلام، ط ٢، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٠ م.
- * النظم الاسلامية، ج ١، ط ١، مطبعة نجيب، بغداد، ١٩٥٠.
- السراوي، ثابت اسماعيل.
- * العراق في العصر الأموي، ط ٢، منشورات مكتبة الأندلس، بغداد، ١٩٧٠ م.
- الرئيس، محمد ضياء الدين.
- * الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية، ط ٤، دار الأنصار، القاهرة، ١٩٧٧ م.
- زامبور.
- * معجم الأنساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي، ٢ ج، أخرجه زكي محمد حسن بك وحسن أحمد محمود، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥١-١٩٥٢ م.
- الزركلي، خير الدين.
- * الأعلام، ٨ ج، ط ٦، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤ م.
- زكي، أحمد كمال.
- * الحياة الأدبية في البصرة الى نهاية القرن الثاني للهجرة، دمشق، ١٩٦١ م.
- سزكين، فؤاد.
- * تاريخ التراث العربي، ترجمة محمود فهمي حجازي وآخرون، ٢ م، نشر ادارة الثقافة والنشر بجامعة الامام محمد بن سعود، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٣ م.
- سلوم، داود.
- * شعر ابن الحميري، جمع وتقديم داود سلوم، نشر وتوزيع مكتبة الأندلس، بغداد، ١٩٦٨ م.
- الشيخلي، محمد رزق.

- * تاريخ البصرة القديم وضواحيها، البصرة، ١٩٧٢ م.
- طه حسين.
- * الفتنة الكبرى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٣ م.
- العبادي، عبد الحميد.
- * صور من التاريخ الاسلامي، مكتبة الآداب، الاسكندرية، ١٩٤٧ م.
- العرش، يوسف.
- * الدولة الأموية، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٥ م.
- العلي، صالح أحمد.
- * التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة (في القرن الأول الهجري)، ط ٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٩ م.
- * خطط البصرة ومنطقتها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٦ م.
- فلهاوزن، يوليوس.
- * أحزاب المعارضة السياسية والدينية في صدر الاسلام "الخوارج والشيعة"، ترجمة عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨ م.
- * تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده وحسين مؤنس، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٨ م.
- القلعاوي، سهير.
- * أدب الخوارج في العصر الأموي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٥ م.
- لسترنج، كي.
- * بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، ط ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥ م.
- ماسينيون، الميسولويس.
- * خطط الكوفة، ترجمة تقي محمد المصعبي، تحقيق كامل سلمان الجبوري، ط ١، مطبعة الفري الحديثة - النجف الأشرف، ١٩٧٩ م.
- محمد كرد علي.
- * الادارة الاسلامية في عز العرب، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٣٤ م.
- المظفر، محمد حسين.
- * تاريخ الشيعة، ط ٢، دار الزهراء، بيروت، ١٩٧٩ م.
- معروف، نايف محمود.
- * الخوارج في العصر الأموي، ط ٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨١ م.
- مولاي س. أ. ق. حسيني.

- * الادارة العربية ، ترجمة ابراهيم أحمد العدوي وعبد العزيز عبد الحق ، المطبعة النموذجية ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .
- نبيه عاقل .
- * خلافة بني أمية ، دمشق ، ١٩٧٢ م .
- النص ، احسان
- * العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ، ط ٢ ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٧٣ م .
- هاني حسين أحمد أسعد .
- * العطاء في صدر الاسلام ، رسالة ماجستير ، اشراف د . عبد العزيز الدوري ، الجامعة الأردنية ، ١٩٨٥ م .
- هنتس ، فالتس .
- * المكايل والأوزان الاسلامية ، ترجمة كامل العسلي ، منشورات الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٧٠ م .

ثالثاً : المقالات

- خريسات ، محمد عبد القادر.
- * القطائع في العصر الأموي ، مجلة دراسات (العلوم الانسانية) الجامعة الأردنية ، المجلد السادس عشر، العدد الثالث ، آذار ١٩٨٩م (من ص ٣٠-٦٢).
- درادكة ، صالح.
- * الحرس والشرطة في صدر الاسلام ، مجلة دراسات (العلوم الانسانية) ، الجامعة الأردنية ، المجلد الرابع عشر، العدد الرابع ، نيسان ١٩٨٧م ، (من ص ٦٩-٩٥).
- الغزاوي ، صالح مهدي.
- * الحارث بن كلدة الثقفي ، مجلة المورد، العدد الرابع، المجلد السادس (من ص ٢١٧-٢٢١).
- العلمي ، صالح أحمد.
- * ادارة الحجاز في العهود الاسلامية الأولى ، مجلة الأبحاث ، الجزء الأول ، السنة ٢١ ، آذار ١٩٦٨م ، (من ص ٣-٥٧).
- * إستيطان العرب في خراسان ، مجلة كلية الآداب والعلوم ، العدد ٣ ، السنة ١٩٥٨م ، (ص ٣٦-٨٣).
- مقالات في دائرة المعارف الاسلامية ، ط ٢ ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٩م.
- * دلافيدا G. Levi Dellaida مادة "خوارج" ، م ٨ ، ص ٤٦٩-٤٧٧.
- * سترك M. Strech مادة "بطيحة" ، م ٣ ، ص ٦٨٢-٦٩٢.
- * لامنس H. Lammens "زياد بن أبيه" ، م ١٠ ، ص ٤٦٧-٤٦٩.
- Lammens.

* Ziad Ibn Abihi, Vice-roi de l'Iraq lieutenant de Mo'awia . Rivista degli studi orientali Roma. Presso La Ragia University, 1912. P. 1-45, 199-250 and 653-693.

المراجع باللغة الانجليزية

- **Bakhsh , Khuda.**
 - * Contributions to the History of Islamic Civilization, 2Vols, Calcutta, 1930.
- **Hiskett. M and Awad. M.**
 - * The Story of the Arabs, First Published, Peninsula Press LTD, Hong Kong, 1957.
- **Muir, William.**
 - * The Caliphate : Its Rise Decline and Fall, Kharats, Beirut, 1963.
- **Spuler, Bertold.**
 - * The Muslim World, Part 1, Translated from German By F. R. C. Bagley, Leiden, E. J. Brill, 1960.

ملاحق البحث

الملحق رقم (١) خطبة زياد البتراء

ترد هذه الخطبة الشهيرة في كثير من المصادر الأدبية والتاريخية^(١)، مع اختلاف في بعض ألفاظ الرواية من مصدر الى آخر. ولعل أوسع نص لها النص الذي أورده الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين)، وهذه محاولة منا لتحقيق نص الخطبة، الذي حقق في جُلِّ المصادر، معتمدين نص الجاحظ باعتباره أقدم النصوص وأوسعها.

(أما بعد فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغَيّ الموفى^(٢) بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم^(٣) ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العظام يُنْبِت فيها الصغير، ولا ينحاش عنها الكبير^(٤)، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السرمَد^(٥) الذي لا يزول، أتكونون كمن طرفت عينه^(٦) الدُّنيا، وسدّت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الاسلام الحدث الذي لم تُسبقوا اليه^(٧)، من تركيكم^(٨) الضعيف يُقهَر ويؤخذ ماله، وهذه المواخير المنصوبة، والضعيفة المسلوكة في النهار المُبصر، والعدو غير قليل. ألم تكن منهم ثُمة تمنع الغواة عن دليج^(٩) الليل وغارة النهار؟ قُربتكم القاربة، وباعدتم الدين، تعتذرون بغير العذر، وتُغضُّون على

(١) أنظر نص الخطبة لدى : الجاحظ، البيان، ج ٢، ص ٦٢-٦٥. ابن بكار، الأخبار الموقيات، ص ٣٠٤-٣٠٦ (المدائني). ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٢، ص ٢٤١-٢٤٢ (الهيم بن عدي). البلاذري، انساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٠٦-٢٠٨ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢١٨-٢٢١ (المدائني). ابن أعثم، الفتوح، م ٢، ص ٣٠٥-٣٠٧. ابن عبد ربه، العقد، ج ٤، ص ١١٠-١١٢ (أبو بكر الهذلي). الجري، المجلس الصالح، ج ٢، ص ٣٦٢-٣٦٤ (عبد الملك بن عمير). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩١-٤٩٢ (عبد الملك بن عمير). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٧-٤٥٠. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٦، ص ٢٠١-٢٠٣. النويري، نهاية الارب، ج ٢٠، ص ٣١٠-٣١٣. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٣٦٠-٣٦١.

(٢) في الأخبار الموقيات، وشرح نهج البلاغة : (الغي الموفد لأهله). وفي تاريخ الطبري : الفجر الموفد لأهله).

(٣) في تاريخ الطبري : (ما يأتي سفهاؤكم).

(٤) في تاريخ الطبري، وفتوح ابن أعثم، والعقد الفريد : (ولا يتحاشى). وينحاش : ينفر ويترك.

(٥) في العقد الفريد : (السرمد).

(٦) طرفت عينه الدنيا : طمحت بأبصاره إليها وإلى زخرفها وزينتها. (ابن منظور، لسان العرب، م ٩، ص ٢١٥).

(٧) في تاريخ الطبري : (تسبقوا به).

(٨) في تاريخ الطبري والعقد الفريد : (من ترككم هذه المواخير المنصوبة).

(٩) الدليج : السير في الليل. (انظر ابن منظور، لسان العرب، م ٢، ص ٢٧٢-٢٧٣).

المختلس^(١). أليس كل امرئ منكم يذُب عن سفيهه صُنْع^(٢) من لا يخاف عاقبة^(٣) ولا يرجو معادا. ما أنتم بالحلما، ولقد اتبعتم السفهاء، فلم يَزَلْ بكم^(٤) ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حُرْمَ الاسلام، ثم أطرقوا وراءكم^(٥) كنوسا في مكانس^(٦) الرّيب. حرام^(٧) عليّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماء وإحراقا، اني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح الآ بها صلح به أوله: لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف^(٨). وأني^(٩) أقسم بالله لأخذن الوليّ بالمولى^(١٠) والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدير، والمطيع بالعاصي، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم^(١١)، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: أنج سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم لي قناتكم. ان كذبة المنبر^(١٢) بقاء^(١٣) مشهورة، فاذا تعلقتم عليّ بكذبة فقد حلّت لكم معصيتي، وإذا سمعتموها مني فاغتمزوها فيّ، وأعلموا أن عندي أمثالها. من نُقِبَ منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه^(١٤). فإياي ودلج الليل، فاني لا أوتى بمدلج الآ سفكت دمه. وقد أجلتكم في ذلك بمقدار^(١٥) ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع اليكم، وإياي^(١٦) ودعوة الجاهلية^(١٧)، فاني لا أخذ داعيا بها^(١٨) الآ قطعت لسانه. وقد أحدثتم أحداثا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة: فمن غرّق قوما غرقناه، ومن أحرق^(١٩) قوما أحرقناه، ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبرا دفناه^(٢٠) فيه حيا. فكفّوا عني أيديكم وأستكم، أكف عنكم يدي ولساني. ولا تظهر^(٢١) على أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم

-
- (١) في تاريخ الطبري: (وتغفلون على المختلس). وفي الكامل لابن الأثير: (وتعطفون على المختلس).
(٢) في الأخبار الموفقيات، وتاريخ الطبري، والكامل لابن الأثير: (صنيع).
(٣) في تاريخ الطبري: (عقابا).
(٤) في تاريخ الطبري، والكامل لابن الأثير: (بهم).
(٥) أطرقوا وراءكم: أي اقتدوا بكم. (أنظر ابن منظور، لسان العرب، م ١٠، ص ٢١٩).
(٦) المكانس: جمع مكنس من الكناس، والمعني "استترا في موضع الرّب". (ابن منظور، لسان العرب، م ٦، ص ١٩٨).
(٧) في الأخبار الموفقيات: (حرم). وفي أنساب الأشراف، وتاريخ الطبري: (حرم).
(٨) في تاريخ الطبري، والكامل لابن الأثير: (وشدة في غير جبرية وعنّف).
(٩) في شرح نهج البلاغة: (وأنا).
(١٠) في العقد الفريد: (الولي بالمولى).
(١١) في الأخبار الموفقيات: (والصحيح بالسقيم). وفي أنساب الأشراف: (والصحيح في نفسه بالسقيم النطف).
(١٢) في فتوح ابن أعثم، والعقد الفريد: (الأمير).
(١٣) في الأخبار الموفقيات: (ثُلّقى). وفي تاريخ الطبري: (تبقى). وفي شرح نهج البلاغة: (ثُلّقى).
(١٤) في تاريخ الطبري وفتوح ابن أعثم والكامل لابن الأثير: (له).
(١٥) في تاريخ الطبري والعقد الفريد والكامل لابن الأثير: (يقدر).
(١٦) في الأخبار الموفقيات: (فأياكم).
(١٧) في أنساب الأشراف وتاريخ الطبري والعقد الفريد والكامل لابن الأثير: (دعوى الجاهلية).
(١٨) في الأخبار الموفقيات: (لا أظفر بأحد دعاها). وفي أنساب الأشراف: (لا أجد أحدا دعا دعوتها واعتزى عزوتها). وفي تاريخ الطبري والعقد الفريد والكامل لابن الأثير وشرح نهج البلاغة: (لا أجد أحدا دعا بها).
(١٩) في الأخبار الموفقيات، وأنساب الأشراف وتاريخ الطبري، والكامل لابن الأثير: (ومن حرّق على قوم).
(٢٠) في أنساب الأشراف وتاريخ الطبري والكامل لابن الأثير: (دفنته).
(٢١) في الأخبار الموفقيات: (يظهر من). وفي أنساب الأشراف: (يُظهر أحد). وفي العقد الفريد: (ولا يظهر من).

الآ ضربت عنقه . وقد كان بيني وبين أقوام إحن فجعلت ذلك دبر أذني^(١) وتحت قدمي ، فمن كان منكم محسنا فليزدد احسانا ، ومن كان منكم مسيئا فليزج عن اساءته . اني والله لو علمت أن أحدكم قد قتله السِّل^(٢) من بُغضي لم أكشف له قناعا ، ولم أهتك له سترا ، حتى يبدي لي^(٣) صفحته فاذا فعل ذلك لم أناظره^(٤) . فاستأنفوا أموركم ، وأرعوا^(٥) على أنفسكم ، فرب مسوء^(٦) بقدمونا سنسره^(٧) ، ومسرور بقدمونا سنسوؤه^(٨) .

أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم سادة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل والانصاف فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا ، وأعلموا أني مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقا بليل ، ولا حابسا عطاء ولا رزقا عن إبانة ، ولا مجمرا^(٩) لكم بعثا . فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فانهم ساستكم المؤدبون ، وكهفكم الذي اليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا . ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له^(١٠) حزنكم ، ولا تُدركوا به حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرا لكم . أسأل الله أن يُعين كلاً على كل . واذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أذلاله^(١١) وأيم الله ان لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي .

(١) في أنساب الأشراف (جعلتها دبر أذني) . وفي الجليس الصالح : (جعلت ذلك خلف ظهري) . وفي شرح نهج البلاغة : (جعلت ذلك وراء أذني) .

(٢) في شرح نهج البلاغة : (السِّل) .

(٣) في الأخبار الموقيات وأنساب الأشراف وتاريخ الطبري والعقد الفريد : (لي) .

(٤) في العقد الفريد : (أنظره) .

(٥) في الأخبار الموقيات وأنساب الأشراف وتاريخ الطبري والكمال لابن الأثير : (وأعينوا) . وفي العقد الفريد : (واستعينوا) .

(٦) في تاريخ الطبري والعقد الفريد والكمال لابن الأثير وشرح نهج البلاغة : (مبتس) .

(٧) في تاريخ الطبري والعقد الفريد : (سيسر) .

(٨) في تاريخ الطبري والعقد الفريد : (سيتس) .

(٩) تجمير الجند : حبسهم في الثغور ، ومنعهم من العودة الى أهلهم . (أنظر ابن منظور ، لسان العرب ، م ٤ ، ص ١٤٦) .

(١٠) في شرح نهج البلاغة : (يطول لذلك) .

(١١) على أذلاله : أي على وجوهه وطرقه . (ابن منظور ، لسان العرب ، م ١١ ، ص ٢٥٨-٢٥٩) .

الملحق رقم (٢) عمّال زياد على المقاطعات التابعة للعراق

سمرة بن جندب الفزاري ^(١) (وكان يخلف زياد عندما يتحول الى الكوفة).	* البصرة
عمرو بن حريث المخزومي ^(٢) (وكان يخلف زياد عندما يتحول الى البصرة).	* الكوفة
	* كور دجلة
كلاب بن أمية بن الأسكر ^(٣) .	- الأبلّة
أمية بن عبد الله بن خالد ^(٤) .	
ابن أبي الحر ^(٥) .	- دستميسان
	* الأهواز
حارثة بن بدر الغداني ^(٦) .	- سُرق
عمرو بن معاوية العقيلي ^(٧) .	- الأهواز
أمية بن عبد الله بن خالد ^(٨) .	- السوس
أبو الخير ^(٩) .	- جنديسابور

-
- (١) ابن سعد، الطبقات، ج٦، ص ٣٤. ج٧، ص ٤٩-٥٠. البخاري، التاريخ الكبير، م ٤، ص ١٧٦. ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٠٥. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٠ (عباس بن هشام الكلبي). ابن دريد، الاشتقاق، ص ٢٨٢.
- (٢) ابن سعد، الطبقات، ج٦، ص ٢٣. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢١٠ (عباس بن هشام الكلبي). الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٣، ص ٤١٨-٤١٩. ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج٢، ص ٥٣١.
- (٣) الأصفهاني، الأغاني، ج١٨، ص ١٥٦. البغدادي، خزائن الأدب، ج٦، ص ٢١ (المداثني).
- (٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٩ (مسلمة) أيضا ص ٤٥٩.
- (٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٥ (قالوا).
- (٦) الجاحظ، الحيوان، ج٥، ص ٢٥٥. البلاذري، فتوح، ص ٥٣٤ (قالوا). الأصفهاني، الأغاني، م ٢٣، ص ٤٦٢ (الحرمازي). ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج٦، ص ١٦٦. وذكر ابن عبد ربه، ان حارثة ولي سُرق في أيام عبيد الله بن زياد. (أنظر العقد الفريد، ج٣، ص ٦٠. الشريف المرتضي، أمالي المرتضي، ق ١، ص ٣٨٤).
- (٧) ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج٣، ص ١١٧ (ابن الكلبي).
- (٨) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٩ (ابن عياش)، أيضا ص ٤٥٩، ٤٦١.
- (٩) المبرد، الكامل، م ٣، ص ٢٦١-٢٦٢.

*فارس
عبد الله بن خالد بن أسيد^(١).
عبد الله بن أبي بكر^(٢).
عبد الله بن خالد بن أسيد^(٣).
عبيد الله بن عثمان بن أبي العاص^(٤).
- ساهور
أمير بن أحمر^(٥).

*كرمان
شريك بن الأعور^(٦).
عبد الرحمن بن سمرة^(٧).
*سجستان
الربيع بن زياد الحارثي^(٨).
عبيد الله بن أبي بكر^(٩).
*ثغر الهند
راشد بن عمرو الجديدي^(١٠).
سنان بن سلمة الهذلي^(١١).
المنذر بن الجارود العبدي^(١٢).

-
- (١) الزبيري، نسب قريش، ص ١٨٨. ابن الأثير، أسد الغابة، م ٣، ص ١٤٩. ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج ٢، ص ٢٠٣.
(٢) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٩٤ (أبو هلال). ابن عبد ربه، العقد، ج ٥، ص ٩ (الحسن بن أبي الحسن). ابن عساکر، تاريخ / خط، م ١٧، ص ٦٣٩ (أبو عثمان النهدي). ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، م ١٠، ص ٤١٩ (الحسن).
(٣) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ٢٨٠ (المدايني)، ٤٥٨.
(٤) ابن عساکر، تاريخ / خط، م ٥، ص ١٧٤ (المدايني).
(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٩ (المدايني).
(٦) المصدر نفسه، ص ١٥٩ (المدايني).
(٧) عبد الرحمن بن سمرة عتية معاوية علي سجستان، فلم يزل بها حتى قدم زياد، فأقره أشهراً ثم عزله. (أنظر البلاذري، فتوح، ص ٥٥٨ (قالوا). اليعقوبي، البلدان، ص ٤٥، ٥٨. قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٣٩٥. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٤٨٨).
(٨) البلاذري، فتوح، ص ٥٥٨ (قالوا). اليعقوبي، البلدان، ص ٤٥. قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٣٩٥. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٤٨٨. ابن الأثير، أسد الغابة، م ٢، ص ١٦٤. الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج ١، ص ٥٣.
(٩) ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ١٩٠ (قالوا). خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٩٥. البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، ج ١، ص ٤٩٨ (المدايني). اليعقوبي، البلدان، ص ٤٥.
(١٠) البلاذري، فتوح، ص ٦٠٩ (ابن الكلبي). اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٤. قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٤١٤-٤١٥).
(١١) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٩٣ (أبو اليقطين)، ١٩٨. ابن قتيبة. عيون الأخبار، م ١، ص ٢٢٧ (العتبي). البلاذري، فتوح، ص ٦٠٩ (علي بن محمد بن عبد الله). اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٤. قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٤١٥. ابن حزم، جوامع السيرة، ص ٣٤٩.
(١٢) البلاذري، فتوح، ص ٦١٠ (ابن الكلبي). قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٤١٥.

* خراسان

أمير بن أهرم الشكري (على مرو)، خليل بن عبد الله الحنفي (على أبرشهر)،
قيس بن الهيثم (على مرو الروذ والطاقان وفارياب)، نافع بن خالد الطاحي
(على هراة وبادغيس وبوشنج)^(١).
الحكم بين عمرو الغفاري^(٢).
غالب بن فضالة الليثي^(٣).
الربيع بن زياد الحارثي^(٤).
عبد الله بن الربيع^(٥).
خليل بن عبد الله الحنفي^(٦) (للمرة الثانية).

* الجبل

- الـرى
- همدان
كثير بن شهاب الحارثي^(٧).
حريث بن جابر^(٨).

* أصبهان

جبير بن حية الثقفي^(٩).
زياد بن النضر^(١٠).

* ميسان

حصن بن مالك بن الخشخاش بن خلف^(١١).
قطن بن عبد الله^(١٢).

* أذربيجان

-
- (١) البلاذري، فتوح، ص ٥٧٦ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٤ (المدائني). قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٤٠٤. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥١. ابن خلدون، العبر م ٣، ص ١٨.
(٢) ابن حبيب البغدادي، المحبر، ص ٢٩٥. البلاذري، فتوح، ص ٥٧٦ (قالوا). اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٢٢. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٥ (مسلمة). العسكري، الأوائل، ص ٢٦٨ (الحسن). ابن الأثير، أسد الغابة، م ٢، ص ٣٦.
(٣) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٣١. ابن أعثم، الفتوح، م ٢، ص ٣١٩. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥٧. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣١٩. ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ١٣٧.
(٤) خليفة بن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٩٧. البلاذري، فتوح، ص ٥٧٧ (قالوا). الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٩١ (المدائني). ابن الأثير، أسد الغابة، م ٢، ص ١٦٤.
(٥) اليعقوبي، البلدان، ص ٥٨. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٩١ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٩٥.
(٦) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٩١ (المدائني). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٤، ص ١٦٠٥. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٩. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٢٩. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٩.
(٧) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٥٩ (المدائني)، فتوح، ص ٤٣٢ (عوانه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٤. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٨.
(٨) ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ٥، ص ٢٤١.
(٩) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٩٣ (المدائني). الأصبهاني، تاريخ أصبهان، ص ٢٥٢. ابن حجر العسقلاني، الإصابة، م ١، ص ٢٢٥.
(١٠) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٥٩ (المدائني).
(١١) ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٣٧.
(١٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ج ١، ص ١٥٩ (المدائني).

A B S T R A C T

"Ziad bin Abieh", Viceroy of the Iraq. All the referances call him sometimes son of Sumaiya, or son of Obaid or sometimes son of Abu Sufyan, most frequently, however Ibn Abihi : a interpretation which can only be desribed as one of despair but it is the most non committal of all was regarded as historical truth. The young Ziad intelligence and personal. Alertness and the strength of mind attributed to h is kihnsmen.

The Thakaf is Settling in Basra with his very near relatives, the Abu Bakra, Ziad early found himself attached as secretary to the service of the first governors of the Iraq. Ali, becoming caliph, decided to make use of his talents and employed it on very delicate missions. After the death of Ali he attracted the attentiion of Mu'awiya. The great Omaiyaad was anxious to gain an use of this ability. His first advances were rejected and Mu' awiya then resorted to a plan, which showed what his ruler was capable of dynastic interests were at stake. This was the (Istilhak), the official recognition of ziad as a son of Abu Sufyan.

The Khalif, oppointed his brother (Ziad) as governor of Basra. He delivered at Basra Mosque his famous speech (Al-Batra Speech), the incomplete Speech, because the speaker started his speech incompletly. He showed and explained his method of governing and announced the rigorous measures to which he would have recourse if necessary. Events that followed prover that he meant what he said. He was able to spread low and order in the Basra Province which was a big area. The Khalif rewarded him by anmexing (Kufa), he succeeded there as well. Thus the Omaiyaad' s regained their authority over this revolting city.

Ziad , as a governor of Iraq and related Provinces, also area and states in Arabia and Asia, could prove that he was worth the absolute trust : that Mu'awiy gare him. He was considered to be one of the four shrewd that existed in his time, the other three were : Mu'awiya, Amr bin Al Ass, Al Mugeerah bin Shu'abah, whilst in kufa, Ziad had to watch carfully the meetings of (Ala'weyeen) he had disagreements in this town with Hudjr bin Adi he captured him and sent him to the Khalif were he was sentance to death.

Ziad also transfer people from their homes and relocated them in other areas to reduse tribal and Political tensions. He thus moved 50,000 people of Basra and Kufa to khurasan. Ziad died of plague in Kufa in "53" H.

The University of Jordan
Faculty of Graduate Studies
Dep. of Social Sciences and Humanities

**The Role of Ziyad Ibn Abeeh in the Public
life
of the early Islamic period**

BY
Saleh Mohammad Al-Rawadieh

*"Submitted in Partial fulfillment of the
requirements for the Master of Arts Degree
in History at the Faculty of Graduate Studies. 1990"*

كانون الثاني ١٩٩٤

الطبعة الأولى

